سعود السنعوسي

أسفار مدينة الطِّين

سِفرُ العَباءة

I

مكتبة

مولاف MOULAPH | رواية

طباق للنشر والتوزيع
TIBAQ PUBLISHING

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

بقية الأجزاء قادمة على مكتبة

أسفار مدينة الطّين

سِفرُ العَباءة

I

سعود السنعوسي

مكتبة
t.me/soramnqraa

أسفار مدينة الطِّين

سِفرُ العَباءة

I

رواية

ممهورة بكائنات مشاعل الفيصل

مولاف
MOULAPH

طباق للنشر والتوزيع
TIBAQ PUBLISHING

طباق للنشر والتوزيع
TIBAQ PUBLISHING

دار طِباق للنشر والتوزيع

حي المقاطعة، مقابل وزارة الثقافة، رام الله – فلسطين

تلفاكس: 00970 2 2414808

بريد الكتروني: info@tibaq.ps

الطبعة الفلسطينية الأولى، ٢٠٢٣

حقوق الطبع محفوظة

الكاتب: **سعود السنعوسي**

الكتاب: **أسفار مدينة الطّين، سِفرُ العَباءة، ١**

*

لوحة الغلاف والرسومات الداخلية: الفنانة مشاعل الفيصل

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

*

ر.د.م.ك: 978-9922-8675-0-2

الطبعة الأولى - تموز / يوليو - 2023

*

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

مــولاف
MOULAPH

Moulaph.com Moulaph MoulaphKw

كويت

مكتبة
t.me/soramnqraa

ربَّة الذَّاكرة الزَّرقاء، يا صفراء..

سـكبتِ مـن بحر الخليج على يباسِ الرَّمـلِ بُرْمَة، وعجنتِ من طين النَّقيضَين قوامَ مدينتك الحُلم، ونفختِ فيها من ريحِكِ السَّموم، فانبجسَ فـي بيـوتِ الطِّين أبناءُ الطِّيـن.. منه جاؤوا وصاروا إليـه ومعه ارتحلوا، وما خلَّفوا من طين الأمس إلا رطوبة الذِّكرى..

يا ربَّة الذِّكرى..

سـقى اللّٰه زمانكِ بأهازيج نسـائكِ على الأسـياف، وزَفْنِ رجالك في ليالي السَّمَر، وضحكاتِ أطفالك في سِكَكِ مدينةِ الطِّين القديمة.

سعود السنعوسي

(ذخيرةُ أيام الخَرَف)..

فصلٌ هاربٌ من مُذكِّرات كاتب الأسفار؛ صادق بوحَدَب

الاثنين، 21 مايو 1990

«هذه الحكايات.. سوف تدخلك في مشكلة»

الشَّايب

صودرت الرواية وأُتلفت.. هكذا ببساطة.

وببساطة أيضا؛ كان «الشايب» محقا وقتما حذرني من مشكلة، حينما زارني في مكتبي هنا قبل أربع سنوات، دونما موعد أو سابق معرفة، أو بالأحرى بمعرفة غير مباشرة، بصفتي كاتبًا وبصفته ممثلًا معتزلًا، أدى دورا في مسرحية كتبتُها في السبعينيات. ومنذ اعتزاله ما عاد يذكره أحد إلا في سياق نكات الديناصورات والسلاحف المعمرة.

كنت قد أصدرت ديواني الشعري الثالث «عناقيد اللؤلؤ» صيف 1986، وتوقفت عن الكتابة. ولا شغف لدي للإمساك بالقلم أو التفكير في كتابة رواية جديدة، خصوصا بعد إلغاء العمل بالدستور، وحل البرلمان، ما ترتب عليه فرض الرقابة المسبقة على الصحف والمطبوعات. وكأنما زارني الشايب في أجواء ذاك الصَّيف المُحبِط لينتشلني مما كنت فيه. أقبل بكرسيه المتحرك يُسند إلى ساقيه عصا ذهبية، يدفعه ممرض هندي مسن في لباس أبيض. بدا الممثل بخلاف ما اعتدت مشاهدته في مسلسلاته ومسرحياته المعادة في التلفزيون. كان طاعنا في السن، أنا الذي بلغت السادسة والستين قلت هذا، فكم بلغ من العمر؟!

كان نحيلًا، أشيب السالفين أسود الحاجبين، حليق الذقن والشارب، صغير الوجه تحت غترة مهترئة وعقال دقيق. نهض من كرسيه المتحرك واتكأ على عصاه الذَّهبية وهو ينتقل للجلوس على الأريكة. وبعدما ضيفتهما بالقهوة، هو وممرضه الذي أسماه جورج، قال إن لديه حكايات كثيرة، غير أنه بالكاد يفك الخط ولا يتمتع بخيال واسع مثل الكُتَّاب، وعليه؛ فإنه يعرض علي كتابتها. بدا واثقا بقبولي، وكأنه يتفضل علي بتلك الحكايات التي في جعبته. لم أُلق للأمر بالًا، لكني على سبيل مجاملة فنان معتزل لم يعد يذكره أحد؛ سألته أن يحكي ما لديه. وفي الحقيقة.. كأنما ألقى علي تعويذة أعادت شغف كتابة الرواية في نفسي، شدني ببعض الشخصيات وصفاتها وغريب حكاياتها. وقال إن بعضها حقيقي ذكره المؤرخ عبدالعزيز الرشيد في الطبعة الأولى من كتابه «تاريخ الكويت»، في فصل «أهوال البحر»[1]، لكن الأسماء أُزيلت من الطبعات اللاحقة المنقحة الموجودة في المكتبات اليوم. تشجَّعت أكثر ورجوته أن يكمل، وقد وجدت حكاياته تتقاطع مع كتاب «كائنات مدينة الطين»، الدراسة التي نشرتُها قبل عقودٍ عن الخرافة الشعبية.

كان ينظر مليا إلى عيني عاقدا حاجبيه العريضين. قال إن علي أن أتحلى بالشجاعة، لأن هذه الحكايات سوف تدخلني في مشكلة لا

(1) طالع صفحة (455) لقراءة فصل «أهوال البحر» كما ورد في كتاب «تاريخ الكويت» في طبعته الأولى.

تخطر لي على بال. وابتسم كاشفًا عن صفٍّ أسنانٍ سليمٍ لولا سقوط أحد أنيابه. سألته كيف تدخلني الحكايات في مشكلة؟ ومع من؟

«مع نفسك».

أجاب. وتجاوزت ما حسبته مبالغة لإثارة حماسة كاتب عاجز عن الكتابة. وقال إني حر في التصرف، ولي أن أشطح بخيالي كيفما شئت من تغيير أو زيادة وفق ما أرتئيه فيما أكتب، شريطة ألَّا أحاول فهم كل شيء في لحظة الكتابة، وألَّا أسأل لماذا، لأني سوف أفهم تاليًا. والأهم من ذلك هو ألا أَمَسَّ شخصية «أُم اللَّوْهْ»، وهي العرافة العجوز التي تربي طيور اللَّوْهة في بيتها المثلث في المرقاب، تلك التي منحتُها اسم «أُم حَدَب» في المشروع الذي اخترت له عنوان؛ أسفار مدينة الطين. اعترض الشايب على تغيير اسم العرافة العجوز حينما أخبرته في لقاء لاحق، وقد رتبنا لقاءات مجدوَلة في مكتبي. يحضرها بكرسيه المتحرك يدفعه ممرضه الهندي الذي هو سائقه الخاص وخادمه في الوقت نفسه. أنصَتُّ إليه واستللت ما يدفعني إلى الكتابة. وحينما أخبرته في آخر اللقاء الرابع بأمر تغيير اسم الشخصية رفع ذراعه بالعَصا وقال:

«لا تلعب مع أُم اللَّوْهْ».

ابتسم، وأصر على عدم المساس باسم الشخصية، وأصررت بدوري بعدما قطعت شوطًا مبدئيًّا في كتابتها على اسمها الجديد. فرفع عصاه ثانية:

«قلت لك لا تلعب مع أُم اللَّوْهْ».

استغربت الجدية التي اكتست ملامحه فجأة، لكنه ممثل سابق على أي حال، فلم أثق بانفعاله. قلت له إني لا أستطيع كتابة شخصية وأنا غير مقتنع باسمها، ثم إن للتسمية الجديدة سببًا، لقد أحببت الشخصية إلى درجة أني منحتها اسمًا يشبه لقبي؛ بوحَدَب.

«روائي مخضرم مثل حضرتك.. لا أظنه يلهو بكتابته على هذا النحو!».

أفحمني الشايب. تلكأت فأجبت:

«أنت محق.. لكن..».

رفع حاجبيه ينصت إلي باهتمام وأنا أردف:

«..وبصراحة.. اضطرني العمل إلى إجراء بعض التغيير..».

اتسعت عيناه وهو يقاطعني:

«بشخصية أُم اللَّوْهْ؟!».

«أُم حَدَب..».

قلت له مُصرًّا واستطردت إزاء نظرته المتسائلة:

«..جعلتها برصاء.. حدباء».

اعتدل في جلسته على كرسيه المتحرك:

«لكن هذا يخل باتفاقنا يا أستاذ صادق!».

«لا يخل بأحداث العمل الذي أكتب معظم أحداثه وفق ما تحكيه أنت.. صدقني».

تلقف قولي وسارع يقول:

«أرجو ألا تصرح باسمي بصفتي مصدر الحكايات، وكي لا تضطر إلى الكذب.. قُل سمعتها مِن واحد شايب.. لا تنسب إليَّ الحكايات أرجوك إلا إذا وقعت المشكلة».

لم أجب، فأطرق يفكر مسندًا كفيه إلى رأس عصاه. وسألني لماذا برصاء حدباء واسمها أُم حَدَب؟ فأجبت:

«لكي تُكتب هذه الرواية.. عليّ أن ألعب مع هذه الشخصية تحديدًا».

«أُم اللَّوْه؟!».

قال رافعًا حاجبيه ثانية، فابتسمت:

«أُم حَدَب».

رفع كتفيه قبل أن يقول بشبه تسليم:

«فلتكن من تكون.. لا تلعب معها».

***

هاتفني ظهر اليوم رئيس قسم رقابة المطبوعات في وزارة الإعلام، وأنبأني بقرار وكيل الوزارة؛ مصادرة خمسة آلاف نسخة من

مكتبات الكويت، والتحفظ على عشرين ألف نسخة في مستودعات الوزارة وإلغاء توزيعها في مكتبات الدول العربية تحضيرًا لإتلافها. وطلب مني الكف عن كتابة الجزء الثالث لأن المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب لا ينوي طباعته ضمن سلسلة «إبداعات كويتية» بعد المشاكل التي ترتبت على صدور الجزءين؛ «سِفر العباءة» و«سِفر التبَّة».

منذ صدور الجزءين معا، قبل أسابيع، وأنا أتلقى الهجوم في الصحف. في مقالات ليس من بينها مقالة لناقد أدبي، وإنما تصدى المهتمون بالتراث وجامعو التحف وبعض الأساتذة في قسم التاريخ في جامعة الكويت لمهمة تفنيد ما جاء في الرواية، رغم أن محرر وزارة الإعلام سبقهم إلى ذلك بحشر نفسه في هوامش النَّص. ووردتني اتصالات كثيرة من أناس غاضبين، حصلوا على رقم البيجر الخاص بي من سكرتارية رابطة الأدباء قبل أن أطالب الرابطة بعدم تمرير الرقم لأيٍّ كان. ولوَّح بعض الأفراد باللجوء إلى القضاء ما لم تسحب الوزارة النسخ. وتصدى بعض خطباء المساجد للهجوم علي بالاسم، وعلى الفنانة التشكيلية فياصل المشيعل، وعلى وزارة الإعلام لنشرها الرواية المصورة، رغم ما ارتكبته الوزارة من طمس ثماني فقرات بالحبر الأسود.

هاتفت الشايب أسأله عن حقيقة تلك الحكايات التي كتبتُ أساسها على ضوء ما حكاه لي. تلك الأسماء والأحداث تعود إلى

أسلاف العائلات التي نشرت اعتراضاتها في الصحف. لكنه أكد لي أن شيئًا من هذا الكلام غير مهم. سألته:

«أهذا ما قصدته حينما قلت لي إن هذه الحكايات سوف تدخلني في مشكلة لا تخطر لي على بال؟».

«مشكلة؟!».

سألني مستغربًا كأنما نسي تحذيره في لقائنا الأول قبل أربع سنوات، فأجبته منفعلًا:

«ماذا تسمي المصادرة والإتلاف والتلويح باللجوء إلى المحاكم إذن؟! ألستُ في مشكلة؟».

سكت ولم يرد، فتضخم صوت عقرب ساعة الحائط في أذني:

«ألو..».

نبهته، فأنهى المكالمة خاتمًا:

«المشكلة لم تبدأ بعد».

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

سلسلة إبداعات كويتية

(24)

أسفار مدينة الطين

«١»

سِفر العباءة

إلغاء قرار الطمس وتحويل النسخ إلى مستودعات الإتلاف في مخازن وزارة الإعلام استنادا إلى قرار رقم 1990/140

تأليف

صادق بوحَدَب

رسوم

فياصل المشيعل

تصدر السلسلة عن المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب كل شهرين وتوزع إصداراتها مع سلسلة «من المسرح العالمي».

سعر النسخة

الكويت ودول مجلس التعاون الخليجي؛ نصف دينار.

الدول العربية الأخرى؛ ما يعادل دولارا أمريكيا.

الدول الأجنبية؛ ما يعادل دولارين أمريكيين.

المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب – إدارة المطبوعات والنشر – أبريل ١٩٩٠

حُرَّاس الغُبار؛

دهاقِنةَ المعرفةِ أساطين التُّراث، الغيارى حُرَّاس التَّقاليد، عَسس الماضي، وحمَلَة أختام التَّاريخ.. هذا النَّص بأحداثه وأسمائه -وبطبيعة حاله- لا يعدو كونه رواية؛

نتخيَّل بها التاريخ ولا نكتبه.

صادق

الكويت 1990

كلمة

نَاغْ طوُعَسْ بَهَمُوتْ
باسمِ هاروت وماروتْ
وَحِرزٍ مَكتوبْ
بِمَاءٍ مَصْبوب
في قاعِ الظُّلُمات
يَحْرُسُهُ الحُوتْ

الصاجّة أُم حَدَب

مِن تراتيل يوم السَّدِيس الأُثمونيَّة

فصلٌ هاربٌ من سِفرٍ دابر..

لعنةُ البِيصِ وبركاتُه

«إذا غابت شمسُ الخميس؛ أشرقت ما بعد السِّديس»

كما لو أن القمر قد غادرَ إلى غير رجعة.

مَحَقتهُ السَّماء في تلك الليلةِ الشِّتوية وما خلَّت منه هِلالًا. فأورثَ غيابُهُ الدِّيرةَ[1] ليلاً مُعتِماً، لا يكادُ المرءُ في ظلمتِهِ أن يُبصِرَ راحةَ يدِه.

في ليلِ الخميس هذا، على تخوم يوم السِّدِيس[2]، كتبتُ الصاجَّةَ[3] أُم حَدَب ورفيقتها العاقر عند ساحةِ بناءِ السُّفن الخشبية محاذاة

---

(1) **الدِّيرة**: من الديار، المقصود بها محل إقامة: مدينة أو قرية، وفي سياق حديث الأهالي الدِّيرة هي مدينة الكويت القديمة. (محرر وزارة الإعلام).

(2) **السِّديس**: يومٌ من خيالٍ خرافي في بعدٍ زمني غير معروف، وُصِفَ في «رزنامة مدينة الطين» أنه: [يومٌ غير أيام العوام. بكسر السِّين والدَّال؛ السِّدِيس، قبلَ جُمعة بعد خميس، يومٌ من أيام الأُثمون لا تشرق فيه شمسٌ ولا يطلُّ فيه قمرٌ ولا نجمٌ إلا نجم رأس الغول. يومٌ لا يعرفه خلق، فأيام الخلق يتناوبها اللَّيلُ والنَّهار تُقاس بالأسبوع، إلا أيام الصَّاجات في مدينة الطين حِسابُها الأُثمون، تنتهي بالسِّدِيس فيبدأ من الجمعة أُثمونٌ جديد]. (المؤلف).

(3) **الصاجَّة**؛ في اللهجة الدَّارجة تعني الصادقة: تحذف الدَّال وتستبدل الجيم بالقاف: الصاجَّة. وفي سِفر «كائنات مدينة الطين» جاء في باب الصاجَّات: [ولهنَّ الهيئة الآدمية وما هنَّ من نسل آدم، ومن خصائص الجن لهُنَّ كثيرٌ وما هُنَّ من الجن ولا يُشبههن إلا في انعدام الظِّلال. ومن الحيوان ليس لهنَّ إلا حوافر الحمار محل الأقدام. قال كاتب الأسفار إنما خُلقنَ أوَّل مَن خُلِق في السِّفر مِن خيال، فنصَّبهنَّ على الخيال ربَّاتٍ يُشيِّدن أسفار مدينة الطين على ما يشتهي].. [وتموتُ كبيرة الصاجَّات شرَّ ميتةٍ إذا ما بلغت المئة، ما لم تستبق الرَّحيل بسبيلٍ تختاره وتُنفِّذه بإرادتها]. وعن الصاجَّة أُم حَدَب في الباب نفسِه: [هي كبيرة صاجَّات سِفر العباءة، ومنزلتها العشرون في سلسلة كبيرات صاجَّات مدينة الطين].. وعن نهاية عصر صاجَّات المدينة يقول السِّفر: [ينتهي زمان الصاجَّات في غدٍ بعيدٍ بعدما يهجوهنَّ نهَّامٌ أعمى في إحدى أغنياته، يجعلهنَّ أضحوكة، فتبطل أسطورتهنَّ ويطوي سيرتهنَّ الزَّمان]. (المؤلف).

المرسى الصَّغير، في اللَّيلةِ السَّابعة عشرة لمبايعة حاكم الكويت التَّاسع، الشَّيخ سالم بِن مبارك بِن صُباح مقاليد حُكم الإمارة خَلَفًا لشقيقه الشَّيخ جابر.

بدت العجوزُ الهَرِمةُ في تمام صِحَّتها، كأنها لم تُدرك عامها السَّابع والتسعين. تُمسك سعفتها اليابسة بيمينها، وتقفُ إلى جوار أُم غايب في هدأة المكان الذي أكتبهما فيه. ترتعدان خشيةَ افتضاح أمرهما. وحيدتان قُرب المرسى المظلم. تلتفَّان بعباءتيهما السَّوداوين مثلَ قطعتين قُدَّتا من ليلٍ بهيم. والسَّماءُ فوقهما خِلْوٌ من الأجرامِ المضيئة إلا نجم رأس الغول يبزغُ في الشَّمال، يومضُ وحيدًا عقِبَ أُفولِ نجومِ كوكبته.

أمواجُ البحر ساجية كسولة، بالكاد تُدرك رمالَ السَّاحلِ رتيبةً بلا عزم.

«*أمواجُ البحرِ أنفاسُه*».

تُذكِّر الصاجَّةُ نفسها صامتة. وما دامت أنفاس البحر هادئة على هذا النحو:

«إنه راقد».

ما كادت أُم حَدَب تُنهي القولَ حتى انشقَّ الصَّمتُ عن صرخةٍ تسأل من بعيد:

«صاحي؟».

شهقت العجوزُ الحدباءُ البرصاءُ فطعنت خاصرة أُم غايب بعقب سعفتِها تدفعها لمواصلة المسير. ولا تدري العاقرُ أنها منذ لحظاتٍ قد ولجت اليومَ الأبدي الذي لا تُشرق فيه الشَّمس. وسايرت العجوزُ رفيقتها وأردفت بما أُلقِّنها حِبرًا في هذه السطور:

«يقول كاتبُ الأسفار: إذا ما نامَ البحرُ نامَ الخلق».

فتناهت إلى المرأتين صرخةٌ بعيدةٌ تُجيب الأولى توكيدًا:

«صاحي.. صاحي».

وتسارعت أنفاسُ أُم غايب وغاصت قدماها في الرَّمل الرَّطِب، ولم تقوَ على المضي في الحُلكة خطوة إلى الأمام. ولحَظَت الصاجَّةُ مقدارَ خوفِ رفيقتها ولهاثها، فجثت على رُكبتيها في الرَّمل. تُقابل بوجهها بطنَ أُم غايب، وكوَّرت شفتيها وقرَّبتهما إلى موضع سُرَّة المرأةِ المذعورة وراء العباءة، ونفخت فيها.. فإذا ما خافَ المرءُ فانفخ في سُرَّتِه يزولُ خوفه، هذا ما توصي به الصاجَّاتُ ولا جدال في تعاليمهنَّ لمن بالكرامات يؤمن.

نهضت أُم حَدَب بعد نفخها في سُرَّةِ صاحبتها، ثُمَّ انحنَت تنفضُ الرَّملَ عن رُكبتيها، فتدلَّت من رقبتها قلادةٌ من الأصداف والأظلاف تطوِّق جيدها منذ ثلاثةِ عقود إلا ثلاثة أحوال. ولمَّا استقامت العجوز ثانية هَسَّت مُطبِقةً أسنانها عند أُذن أُم غايب:

«عليكِ الله وأمان الله يا أمينة.. النَّاسُ رُقودٌ في بيوتهم، ولا خوف من أبناء إبليس ونواطير اللَّيل».

دوّت صرخةُ رجلٍ بعيد:

«من هناك؟!».

في هذا الليلِ الأحَم، لا سهارى إلا السُّكارى، بعيدون يعيثون في لجَّة اللهو والغناء على أطراف الدِّيرة. أولئك السَّاهرون في الحُوَط[1] وراء أسوار المقابر التي لا يطأها أبناء الطِّين ليلاً، فينفرد أبناء إبليس يُقلقون راحة الأموات بصخب المعازف وضحكات المجون ومشادَّات المخمورين.

في هذا اللَّيل الغريب، لا سهارى إلا السُّكارى، **وشُيوخ البحر السِّتة**[2]، شيوخ لا يعرفون كرى اللَّيل ولا قيلولة النَّهار، يتربَّعون

---

(1) **الحُوَط**: جمع حَوْطَة: أرضٌ براح محُاطة بسور من الطين، بعيدًا عن بيوت الأهالي، يوحي المؤلف إلى أن أهل اللَّهو يجتمعون فيها خفية لممارسة المرفوض خارجها، لكن المحقق أنها حالات شاذة لا تُبنى عليها صورة الماضي بطبيعة المجتمع المحافظ الذي جُبل على حسن الخلق وتجنب المفاسد، وإن وجدت ففي نطاق مختلف ولأغراض الأنس والسمر وقرض الشِّعر وتبادل الأخبار، وهي أغراض غير التي يوحي بها المؤلف. (محرر وزارة الإعلام).

(2) **شيوخ البحر**: سِتَّة من الشُّيوخ يزيدون ولا ينقصون. لا يعرفُ لهم أحدٌ وقتَ مجيءٍ أو ساعة غياب. يذهب بعض الباحثين والنقاد إلى أن توصيف حالهم يتجلى في قصيدة «المبحرون مع الرياح» للشاعر خليفة الوقيَّان. وتقولُ الصاجَّاتُ إنهم أرباب الصَّبر كُتِبوا في باب مسوخ السِّيف من سِفر «كائنات مدينة الطين»: [شيوخٌ عُمْيٌ سُمرٌ قُرع، هزيلو البِنية، ناتئو الأضلع، مُطأطِئو الرؤوس، صَيَرتهُم الشَّمسُ ورطوبة الهواء أجسادًا كما العِظام المتروكة على السَّاحل]. وجاء ذكرهم في أكثر من موضع في النسخة اليتيمة من كتاب «سِفر الخلود» الذي أشار إليه الشاعر أحمد مشاري العدواني، في الشطر الثاني من البيت الثاني لقصيدة نشيد الكويت الوطني الحالي. في تلك النسخة النادرة من «سِفر الخلود» المحفوظة في المكتبة المركزية التابعة للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، جاء في الصفحة 112: [وقد خُلِقوا قبل دهورٍ من ماءٍ مالح، تمثَّلوا في سِتٍّ =

على السِّيف[1] أبدا، بين النَّوارس وسراطين البحر. يحيكون الشَّبكَ غائري المحاجر بلا عيون. يُرتِّلون رجاءً يُشبه الصَّلاة لموجةٍ تأبى الدُّنُوَّ إلى حيث يجلسون: «هولو هيِهْ.. هولو هيِهْ». يُشاهدهم المارُّون قرب التقاء الرَّمل بالماء في كُلِّ ساحلٍ رغم جلوسهم متجاورين في موضعٍ واحدٍ لا يبرحونه أبدا. وتُسمع ابتهالاتهم في فضاء الدِّيرة كُلِّهِ لمَن يصيخ السَّمع ويتدبَّر في ساعة سكون. وتراتيل حائكي الشِّباك السِّتة لا تخبو ولا تنقطع إلا حِدادًا لأمرٍ جلل، أو احتفاءً ببشرى عظيمة.

في تلك الليلة الظلماء المارقة عن رزنامة[2] الدِّيرة، لا سهارى إلا السُّكارى وشُيوخ البحر السِّتة، ونواطير اللَّيل المشغولون في النَّاحية الأُخرى، يطوفون بين البيوت والدَّكاكين المغلقة مثل أشباح، بِدَشادِيشِهِم البِيض يتمنطقون الأحزمة الجلدية ويشيلون العِصِي الغليظة. يتربَّصون بأيِّ مارٍّ في السُّوق المغلقة ليلًا. يحتجزونه في مدابس التَّمر إذا ما ظهر، فيمضي الليلة واقفًا بين دبق الدِّبس

= موجاتٍ مارقةٍ انفصلت عن الخليج وقفزت إلى البَرّ، فمسخها البحرُ بصورةِ حائكي الشِّباك السِّتَّة، ومُنذها وهُم يتربَّعون على السَّاحل مُطأطئين، يُغنُّون للإله الأزرق ابتهالًا: «هولو هيِهْ». يستدرجون الموج عساه يُدركهم ويُذيبهم في الخليج ثانية، بيدَ أن الموج لا ينِي يرتدُّ مُتقهقرًا قبل مُلامسةِ أطرافهم اليابسة. ويظلُّ شيوخ البحر العاكفون هناك أبدا، يحيكون الشِّباكَ على مهل، يقرضون الزَّمنَ ويقرضُهُم، مثلَ عناكب الشَّبَثِ اللَّابدةِ في زوايا الدُّور المهجورة]. (المؤلف).

(1) السِّيف: كلمة فصحى بمعنى السَّاحل، والجمع أسياف. (محرر وزارة الإعلام).

(2) الرُّزْنَامَةُ: كُتيب يتضمن معرفةَ الأيام والشهور وتفاصيل المواسم وأحوال الكواكب والنجوم على مدار السنة. (محرر وزارة الإعلام).

والجرذان الخاطفة إلى حين إطلاق سراحه صباح اليوم التّالي، أو إرساله إلى الحبس إذا ما ثبتت عليه تهمة. ولا يستقرُّ نواطير اللَّيل في محل، من الدَّكاكين المغلقة، إلى مساطب وبُسُط الباعة المغطَّاة بالقماش في سِكَكِ السُّوق الضيِّقة المظلمة. يُقارعون تثاؤبهم ونعاسهم، وترتفعُ أصواتهم فتُدرك مسامع امرأتَيّ المَرسَى المُريبتين، حينما يصيحُ ناطورُ اللَّيل بصاحبِه البعيد:

«صاحي؟».

يُجيبه الآخر من دون أن يراه:

«صاحي.. صاحي».

أو ينتفضُ أحدهُم إثرَ مرور قطٍّ أو كلبٍ ضالٍّ أو لسماع خَفْقِ أجنحة طيور اللَّيل في سِكَك الدِّيرة:

«ها؟! من هناك؟».

يرتطمُ السُّؤال بجدران الدَّكاكين الطينية، وتتشظَّى أصداؤه في الفضاء، يتردَّد للحظاتٍ ثُمَّ تهبطُ هدنةُ الأصواتِ على المكان في الحال.

أَلِفَت أعين المرأتين ظلامَ السَّاحل، وصارت تُميِّز الأشياء أكثر. ولو أن القمر لم يغادر ليلتهما هذه لأبصَرَت المرأتان السُّفنَ والمراكب قيدَ البناءِ بصورةٍ أكثر انجلاءً. نقَّلَت أُم حَدَب بصرها في الظلام بين هيكل سفينةٍ وآخر، تلمحُ فتائلَ سُرُج الزَّيتِ مُشتعلةً متناثرة، لا

تنثرُ ضوءًا ولا تمنحُ دفئًا. فتبحثُ العجوز عن هيكل سفينةٍ بالكاد وضع البناؤون بِيصَهُ[1] يشرعون في بنائه.

بناؤو السُّفن الخشبيةِ لا يتركون سفينةً قيدَ البناءِ دونها حراسة، خشيةَ عبور امرأةٍ عاقر فوق البِيص. وأهلُ الدِّيرة يدرونَ ويخشون ما يُسمَّى **عبورَ البِيص**[2].

ولأن الصاجَّة أُم حَدَب لم ترغب في جرِّ المتاعب والويلات إلى رجالِ الدِّيرة، أولئك المحتمل ركوبهم البحر على ظهر مركب عبرَت بيصَهُ امرأةٌ عاقر، فقد بذلت الحيزبون الأسباب، كُلَّ الأسباب، قبل أن تُقدِمَ على دفع أُم غايب لعبور البِيص.

***

قبل حَولٍ من هذه الليلة، كانت طبيبة مَشفى الإرسالية الأمريكية في الحَيِّ القِبلِي، السَّيدة إلينور كالڤِرلي، قد وكَّدَت لأُم غايب أنها عاقر، وأن لا أمل في علاجها إلا بمعجزةٍ ليست مستحيلةً في الكتاب المُقدَّس لو أنها تؤمن. لكن العاقر خشيَت أن تخسرَ دينها على كِبَر، وارتأت أن تسأل الصاجَّة التي قَدَّرتُ لها أن تموت إذا

(1) البِّيص: قاعدة السَّفينة، عمودها الفقري، وأول لبنة في أساس بنائها. (محرر وزارة الإعلام).

(2) عبور البِيص: ومما جاء في سِفر «حوليات مدينة الطين»: [أن عبورَ العاقر فوق بيصِ السَّفينةِ يمنحها حمَلًا تتوقُ إليه، بيد أنه يُلحِق بالسَّفينة لعنةً أبديةً تُلازم قبطانها وبحَّارتها، في البحر أو البرِّ أبدًا]. (المؤلف).

ما أدركَت المئة. ولأن لكبيرة الصاجّات أُم حَذَب ثلاث سنواتٍ لديَّ في هذه الصَّحائف؛ فقد سارعَتْ إليها أُم غايب قبل أن تحين ساعتها: اِلحقيني يا صاجَّة!

حذَّرتها الصاجَّةُ أُم حَذَب من تصديق طبيبة الإرسالية، فقد فشلت الطبيبة وخذلت الصاجَّة من قبل، حينما أخبرتها بقصَّة إبراء المسيح عشرة رجالٍ بُرْصٍ وتطهيرهم من مرضهم الجلدي. غير أن الطبيبة الأمريكية، على كثرة حديثها عن المعجزات، ما جاءت بعلاجٍ تستعيد به العجوزُ لونها الهارب، لأن جوهر الطِّب وبركات المسيح لا يتوافقان مع خيال وإرادة كاتب الأسفار. ومن يومها ذاك ما انفكَّت أُم حَذَب تؤلِّب النساء على الطبيبة الأمريكية: لو كان فيها خيرٌ لأعادت لنفسها اللون.. يكفينا الله شرها الصَّفرا.. أُم الصُّلبان الماسخة.. قطيعة تقطعها ممصوصة اللون كما المريضة.

كتبتْ الصاجَّةُ في قرطاس حِرزَها المعروف ذا التَّمائم الثَّلاث؛ اتقاء الشَّر، وطرد الكوابيس، ومباركة إنجاب ولد. ووضعت القرطاس في حافظةٍ في حجم علبة الثقاب مدبوغةٍ من جلد معزةٍ بربريَّة. ولفَّ عزُّوز الهذَّار، زوج العاقر، سَير الحِرْز حول عَضُدِه اليُمنى وعقدهُ عُقدتين ولم ينزعه أبدًا. وأرسلتْ العجوزُ الحدباءُ زوجتَه إلى خادمة مقامِ الخِضر في جزيرة فَيْلَكا؛ الصاجَّة أُم صَنْقُور. فباركتها صاجَّةُ الجزيرة، وطافت العاقرُ حولَ المقام سبعة أشواطٍ تَبتهِل، تلطِّخُ جُدرانه الكلسية بعجينةِ الحِنَّاء، حتى إذا ما جفَّت

تكشِطُها وتلتَهِمُها علَّ الخِضرَ يُبارك جَوفَها، فيمنحها حمْلًا تتوقُ إليه ويُخلِّصها من لقبِ أُم غايب. بيدَ أن بطن أمينة البيعاريَّة[1] ظلَّ لصيق ظهرِها على مألوف وضعه. وعليه فقد قدَّرَت كبيرةُ صاجَّات الدِّيرة وقرَّرَت؛ لا مناص من عبور البِيص يا أم غايب، وأما البحَّارة فلهُم الله.

* * *

حطَّت لَوْهَةٌ[2] في ناحية ليست بعيدة في ساحةِ بناءِ السُّفن، فحانت من العجوزُ التفاتةٌ إلى وجهةِ هبوط الطائر الأسود. وأبصرت في الغبشة خيالَ أحد رجال النُّوخِذا[3] بِن حامد في نوبةِ خفارتِه.

---

(1) بيعارِية: لقب يُطلق على المرأة عالية الصوت طويلة اللِّسان، وهي صفة مذمومة قلما تتصف بها النساء بحسب عادات وتقاليد المجتمع المحافظ. (محرر وزارة الإعلام).

(2) **اللَّوْهَة**: الاسم الدارج باللَّهجة لطائر الغاق الكبير، أو غراب الماء؛ طائر بحري مهاجر، يستقر في الكويت بين شهري نوفمبر وإبريل، يُسميه الأهالي «**أُم القمل**» بسبب كثرة القمل في ريشه. ذُكر الطَّائر في سِفر «أمثال مدينة الطين»: [ويقول المَثَل الدَّارج: «لا تُنَبِّه اللَّوْهْ»، واللَّوْهْ جمع اللَّوْهَة، وهو طائر هادئ ساكن بطبيعته، والمقصود من المثل التحذير، أي لا تُحرك السَّاكن ولا تُنبهه إلى أمر كان عنه غافلًا]. وفي باب الطَّير في سِفر «كائنات مدينة الطين» جاء عن اللَّوهةِ: [.. وهي من طيور الغاق السقطري، سوداء مُقملة الريش دهينة الجسد. وفيها طائفةٌ مثيلة طيور الغاق في كل خصائصها إلا روحها فما كانت من روح الطَّير. إنما كانت فرقة مارقة من الجان عملت تحت إمرة المارد طوعَس قبل دهور، وطارت من أجله في السماء تسترق السَّمع لما يدور وراء الحُجب، لتعود له بما سمعت من أخبار الغيب إن سلِمَت من الشُّهُب رجوم الشَّياطين..]. (المزيد في باب ملوك الجان، صفحة 417). (المؤلف).

(3) نوخِذا: والجمع نَواخِذة؛ رُبَّان السَّفينة، وهي كلمة فارسية من شِقَّين: «نَوّ» وتعني السَّفينة، و«خدا» تعني رَبّ: ربُّ السَّفينة. (محرر وزارة الإعلام).

يغطُّ النَّاطورُ في النَّوم على الرَّمل بالقُرب من بِيصٍ ما سوفَ يصيرُ سفينةً مُكتملة البناء بعد عام. تبدَّى البِيصُ للمرأتين عظيمًا مديد الطول. يشي حجمه أن بِن حامد، كبير نواخِذة الغَوص في الدِّيرة، تاجر اللؤلؤ وأثرى أثريائها، يزمع على بناءِ سفينةِ غوصٍ كبيرة لا سابق لحجمها عرضًا ولا طولًا ولا اتساعًا. تسحَّبَت المرأتان بعباءتيهما تسحُّب لصوص اللَّيل.

وكان النَّاطورُ مُلتحِفًا فروَةً من الوَبَر، يتوسَّدُ ذراعه ويشخرُ بإيقاعٍ رتيبٍ يُحاكي أنفاسَ البحر النَّاعس. بالكاد يُنير السِّراجُ إلى جوار رأسه مسافةَ بضعةِ أبواعٍ حوله. وتبدُر من أُم غايب رعشةٌ ليس البرد مصدرها. فتغرسُ الصاجَّةُ مِرفقها بشدَّةٍ في خاصرة رفيقتِها العاقر تستعجلها، لتلجَ منذُ ليلةِ السِّديس هذه قِصَّةً طويلةً تعيشها كبيرة الصاجَّات في سِفرَين من أسفار مدينة الطِّين الكثيرة. قصة تصفها أُم حَدَب بأنها مثل أُم أربعة وأربعين، دودة طويلة لا يُعرف

لها رأسٌ من ذيل. والعجوز البرصاء، كبيرةُ صاجَّات الدِّيرة، تتوقُ إلى إيفاء **ميثاق التَّدوين**[1] أملاً في شفائها من البَرَص في نهاية سِفرٍ مُقبِل، ولأجل ذاك الشِّفاء عليها أن تُنهي كُلَّ شيءٍ قبلما تظهر **أمارات الختام الخمس**[2].

أشارت العجوزُ بذقنِها ناحية قاعدة السَّفينة الخشبية إلى جوار النَّاطور الهاجع. ولم تدرِ أُم غايب إلى من يعود هيكل السَّفينة ولم تُفكِّر في الأمر. ودفعتها أُم حَدَب بكتفها وكزَّت على أسنانها تُبحلق إلى البيِص بين أخشاب السَّفينة هامسة:

«بسرعة!».

* * *

(1) **ميثاق التدوين**: جاء في «حوليات مدينة الطين»: [وغضبت كبيرة الصاجَّات أُم حَدَب على كاتبها، واحتجَّت على دورها الممنوح في الأسفار، وأبت أن ترتكب الإثم العظيم، فابتلاها كاتبُ الأسفار بحَدَبةٍ أثقلت كاهلها، فتمرَّدت وهي بالحمل تنوء وقالت: «لا تلعب مع أُم حَدَب»، فأوغل كاتبها باللعب وابتلاها بعد الحدبة بالبَرَص. فرضخت وعُقِد ميثاق التَّدوين بين كاتب الأسفار وبين الصاجَّة البرصاء، وأوجب الميثاق أن تبرأ أُم حَدَب من الحدبة والبَرَص إذا ما أتمَّت دورها في سِفر التَبَّةِ بعد سِفر العباءة. تؤدي الأمانة، فيكتب لها نهاية تستردُّ فيها لونها المسروق، وما تعلمُ العجوز أنها أمضت أكثر العُمر تحمل سرَّها في حَدَبةٍ أثقلت كاهلها في مدينة الطين]. (المؤلف).

(2) **أمارات الختام الخمس**: ومما ورد ذكره في «رزنامة مدينة الطين» عن أمارات ختام أحد الأسفار الفارقة: [.. فإنها أمارات خمس، بعدما توفي أُم حَدَب ميثاق التدوين. تجيء كُلُّ أمارةٍ كما يخطُّ كاتب الأسفار تباعًا: أوَّلها دويُّ طبول الحرب تحت السُّور، وثانيها ظهور وحش البحر بُودَرْياه في سِيف الحَيِّ القِبلي، وثالثها خروجُ موكب الجوع من سوق الحريم، ورابعها هطول أمطار الوَسْم قُبيل أوانها، وخامس أخماس أمارات الختام نفوقُ بُلبُل اليهودي، فإذا ما تحقَّقت الأخيرةُ يجفُّ الحبرُ وتُطوى صحائف سِفرٍ طويل]. (المؤلف).

بعد ثلاثةِ أحوالٍ وستةِ أهِلَّةٍ وثماني وعشرين ليلة..

الكُوَيت 1920

١٣٣٩هـ

(1)

My Arabian Days and Nights

«كنتُ أول طبيبة في الكويت»

إلينور كالفرلي

ـــبرها تجربة جديدة. فقد حضرت اليوم تقليد دق «الهريس» الذى أسمع عنه ولم أحضره قط، رغم أغنياته التى تثير فضولى كل سنة منذ وصولى إلى الكويت قبل ثمانى سنوات، أو منذ غرق مركب القبطان بن موسى كما يؤرخون سنة ١٩١٢. عندما ترتفع أصوات النساء فى البيوت، وتدق حبوب الحنطة تحضيرا لشهر رمضان المقدس عند المسلمين.

دعيت ومبروكة وحلواتى الثلاث غريس وإليزابيث وإلينور الصغيرة من قبل أم سليمان، المرأة النحيلة الطويلة التى أجريت لكنتها عملية الولادة فى بيتها قبل أسبوع. ورغم انقضاء أربعة شهور على رمضان أرادت المرأة أن تدق الهريس اليوم فى غير موعده، احتفالا بقرب عودة ولدها من رحلة الغوص على اللؤلؤ. فقد أخبرتها العرافة المسنة أن البحارة يعودون يوم غد أو اليوم الذى يلى بعد غد! شيء مثل هذا ولست متأكدة من الموعد الصحيح، لكنى متأكدة أن العرافة المسنة -وهى تلك التى لا تحبنى بسبب فشلى بإيجاد علاج لجلدها المصاب بالبرص- قد أشارت إلى يومين تعود فى أحدهما المراكب والسفن.

تركت العيادة قبل وقتي المعتاد وعدت إلى البيت، وارتديت وبناتي «النَّفنوف»[1] استعدادا للمناسبة مثل النساء والصغيرات في البلدة. لففت نفسي بالعباءة الحريرية السوداء التي أهدتنيها الشيخة مريم بنت جراح بن صُباح، زوجة الأمير الحاكم، تلك التي كافأتني بها بعد شفائها من الحمى، وكتبت عنها قبل سنتين بعد زيارتي الثالثة لجناح النساء في القصر، رغم عدم ارتياح الحاكم لنشاط الإرسالية.

ارتدت أميراتي الصغيرات اليوم البخنق الأسود المطرز بالخيوط الذهبية فوق النَّفانيف القطنية الحمراء المنقطة بالأبيض. وذهبنا من «قبلة» إلى حي «المطبة» في «شرق» على ظهور ثلاثة حمير، ولم نستخدم -الفورد- سيارة المستشفى رغم عدم ممانعة الدكتور ميلريا مشرف الإرسالية. لكني شعرت بالحرج باستخدام سيارة العمل لحضور مناسبة خاصة، كما أني أفضل امتطاء الحمار حينما أزور بيوت الأهالي، خصوصا في «شرق» الأكثر انفتاحا من «قبلة» حيث كتبت سابقا عن معاناتنا في الإرسالية مع البيوت المحيطة بنا والأهالي المتشددين.

كانت الساحة الداخلية للبيت تفوح برائحة المسك والبخور العربي، لكنها لم تخف كثيرا رائحة قن الدجاج وروث الماعز في زاوية الساحة التي امتلأت بأصوات الدفوف والطبل الكبير، مكتظة بالنساء مزهوات بثيابهن الملونة بغير عباءات سوداء، ثياب زاهية بكل الألوان، إلا الأسود الذي يظهرن به خارج البيوت، لم أره في أثواب النساء في الداخل، كأنه ممنوع من الدخول إلى البيت السعيد.

---

(1) النَّفْنوف: فستان تقليدي. (محرر وزارة الإعلام).

ينسدل على ظهورهن الشعر الأسود فائق الطول، وطول الشعر هنا دلالة من أهم دلالات الجمال كما كتبت سابقا. تقف امرأتان منهن في منتصف الساحة، أم سليمان صاحبة البيت والعرافة المسنة. وتحمل كلاهما عصا خشبية غليظة تفوقهما طولاً، تدقان بها الحنطة لنزع القشرة عن الحبوب في وعاء خشبي كبير وعميق. وطابور من النساء يدور حول المرأتين، يغنين على إيقاع دق الهريس في الوعاء الخشبي الكبير، ويجبن إيقاع الدق نقرا على الدفوف. رأيت أم سليمان مثلما أراها في كل زيارة، سيدة بيت رزينة لا تبدو عليها علامات الغباء مثلما تشيع النساء. امرأة ناضجة لا يكاد يسمع لها صوت، وانخفاض صوت المرأة هنا يعد ميزة لدى أهالي البلدة، خصوصا في حي «قبلة» المتزمت حيث نقيم في الإرسالية.

ركضت حلواتي الثلاث وأوجدت كل واحدة منهن محلا في فراغات طابور النساء الراقص حول المرأتين، يرددن مع الجميع: «يا الله يا كريم». وكالعادة يتجلى الله في كل الأغنيات هنا.

لم أشاهد الجميلة السمراء ذات الشعر الأسود الطويل بعد ولادتها المتعسرة بطبيعة الحال، فقد كتبت من قبل عن إيمان البعض بأن النفساء تزيل البركة من المكان الذي تقيم أو تمر فيه، لأن الدم كله -ودم الإنسان على حد سواء- نجس. وأم سليمان التي تدق الهريس -في حوش بيتها- لا تريد أن تُذهب بركة طعام تعده للجيران والفقراء لمناسبة عودة ولدها من الغوص بعد أيام قليلة، فأبقت زوجة ولدها في حجرتها النجسة الخالية من البركة، وانضمت إلى النساء تغني وتزغرد.

كنت قد كتبت باستفاضة قبل سنوات عن غناء الناس هنا، وبالأخص غناء المسنين الستة صانعي الشبك الذي يذكرني بالتراتيل الكنسية.

بدا لي في ظهيرة دق الهريس أن الناس لا يبتكرون الأغنيات من أجل مناسباتهم، وأظنهم يبتكرون المناسبات لأجل الغناء فحسب. يغني الأهالي بقدر ما يصلون، أو ربما أكثر. يستعينون على متاعبهم بالصلاة والغناء والرقص، في العمل والحزن والفرح.

تألقت ممرضتنا الجميلة مبروكة بين الحاضرات بِنَفنُوف أصفر يناسبها دائما. ارتدت فوقه ثوبا شفافا أسود يغطي رأسها. وأمسكت طرفه بإصبعيها تغطي نصف وجهها الأيمن، تتمايل بجسدها الرشيق مغمضة العينين على إيقاع دق الهريس. حدقت في وجهها الذي أحببته منذ اللقاء الأول، قبل انضمامها لقسم التمريض في مستشفى الإرسالية قبل أربع سنوات، وتذكرت ما قلته في نفسي يومذاك: **ها هنا امرأة ناضجة الخلق والشخصية، إنها الإنسانة التي أتمنى أن أتخذها صديقة**[1] في هذه البلدة. نعم، مبروكة الجميلة على نحو مختلف ببشرتها السوداء الداكنة وعينيها الواسعتين وضفائر شعرها الطليقة مثل أفاعي ميدوسا. الفتاة التي وقعت في الحب منذ شهور، وأغرمت بشاب نحيل طويل القامة تسميه الخيزرانة -أي عود الخيزران، فهي ما زالت متحفظة بشأن اسم حبيبها المجهول إلى أبعد الحدود وأعتقد أنه يخدم في القصر- فصارت بعد وقوعها في الحب أجمل من أي وقت مضى على نحو واضح. وهنا **في الكويت تعلمت اصطلاحا يقول «عيثان كعيني الغزال»، وفي الحق**

---

(1) تحريا للأمانة والدقة، وهو ما سقط من المؤلف، إن النَّص بالخط العريض في رسائل الطبيبة مقتبس حرفيا من كتاب «كنت أول طبيبة في الكويت»، ترجمة: عبدالله الحاتم 1968، أما النَّص بالخط الدَّقيق فإنه مستوحى من تفاصيل الأصل الإنجليزي My Arabian Days and Nights للطبيبة إليانور كالفرلي، الصادر عام 1958 عن دار النشر الأمريكية Thomas Y. Crowell. (محرر وزارة الإعلام).

أني لم أجد أصدق من هذا الوصف ينطبق على عيني مبروكة التي تألقت برقصها ظهيرة اليوم في بيت أم سليمان. لست أقول إن الجمال الجسدي، المادي، هو الذي جذبني إليها، ليس هذا بالضبط.. شيء آخر لا أستطيع شرحه، ربما كانت ملامح الذكاء والبساطة والصراحة في عينيها تحت الحاجبين الكثيفين، على استقامة واحدة، هي التي أثرت في.

أعود لحدث اليوم حتى لا أشط عن الموضوع كثيرا. كنت في بالغ السرور هذه الظهيرة. إلينور كالفرلي تدخل بيوت الأهالي مدعوة مع مساعدتها وبناتها على حفل تقليدي، لا طبيبة تحمل حقيبة أدواتها الطبية، تزور بيوت المريضات المتمنعات عن زيارة مستشفى الإرسالية كما تفرض الأعراف. وشعرت اليوم بتعامل النساء وحديثهن عن المستشفى أن الكويتيين ما عادوا ينظرون إلينا كإنجليز كفار رغم أننا أميركيين. بدأ بعضهم أخيرا ينظر إلينا كبشر، كناس، كأصدقاء طيبين وأوفياء لمن يتحدث إليهم.

طلبت من صاحبة البيت أم سليمان أن أدخل على كنتها النفساء والرضيع لأتفقد حالهما. وجدت الفتاة السمراء بصحة أفضل حمدا للرب، تبدو طفلة في فراشها الذي أنجبت عليه ولدها الأسبوع

الماضى. أخبرتنى أن المولود ما زال بلا اسم، وأنها تنتظر عودة زوجها من الغوص ليسميه بنفسه فى الغالب على اسم أبيه، على عادة الأهالى بتسمية أوائل الذكور على أسماء آبائهم. ذكرت زوجها بشوق لم يخفه كثير حيائها. وكان ولدها طبيعى الوزن فى صحة جيدة. وكانت تغطى وجهه بقماش أسود خفيف يشبه البوشية[1] خوفا من العين الشريرة كما تقول. وكادت زيارتى تنتهى على بهجة من دون ريبة، لولا قنينة زجاجية صغيرة منبسطة وجدتها فى فراش الرضيع. يشف زجاجها عن سائل أقل كثافة واصفرارا من زيت الزيتون. استأذنت الفتاة وأدرت غطاء القنينة الفضى وقربته إلى أنفى. عرفت الرائحة سريعا، وقلبت القنينة أقرأ الكلمات الزرقاء على الملصق الأبيض. «هذا غريب!»، انفلتت منى العبارة وأنا أقرأ بالإنجليزية اسم شركة الأدوية Woodward وأسفل الاسم رسم لرضيع يمسك بيديه غصنين مورقين. وتحت الرسم اسم الدواء بخط كبير Gripe Water. وكان الملصق منزوع فى آخره ولم أتبين تفاصيل بلد المنشأ رغم يقينى أنه إنجليزى.

ناولتنى الفتاة كيسا ورقيا صغيرا داكن الزرقة، قالت إنه الحافظ الذى أخرجت منه القنينة. تفحصت الكيس ووجدت الشعار والاسم نفسهما بالإضافة إلى مكونات الدواء: زيت الشبت وبيكربونات الصوديوم والسكر والماء. أنا أعرف هذا الدواء الإنجليزى لكن ليس فى هذه القنينة. والأكيد أن هذا الدواء ليس من مستشفى الإرسالية. سألت الفتاة عن مصدرها وخمنت أن يكون المصدر الصيدلية الإسلامية التى

---

(1) بُوشِيَّة: غلالة سوداء شفافة تسدلها المرأة على وجهها عند الخروج أو في وجود رجل غريب، وهي من مظاهر العفة والحياء في الماضي. (محرر وزارة الإعلام).

افتتحت حديثا في ساحة دكاكين الصرافة: «الدواخانة؟»، نفت وقالت إنه دواء من عرافة جزيرة فيلكا، يشفي الرضيع من انتفاخ البطن ويمنحه السعادة. هي في الحقيقة لم تقل عرافة الجزيرة، لكنها الكلمة الأقرب في الترجمة الإنجليزية -كما يقول زوجي- لكلمة «صاجة» التي نشرت عنها مقالة قبل خمس سنوات في مجلة الإرسالية الدورية «جزيرة العرب المهملة»، العدد ٩٥ سنة ١٩١٥.

استغربت كيفية وصول الدواء إلى بلدة نظامها الصحي بالكاد ينهض، ومن جزيرة مقطوعة! وأكدت لي الفتاة أن من عادة عرافة الجزيرة أن تأتي بالعجب، وأن من معجزاتها المعروفة أن لها ولدا يخرج الضوء من كفه. جاملتها وأنصت إلى حديثها الخرافي طمعا بالحصول على قنينة الدواء. ومن حسن الحظ أنها وافقت أن تمنحني القنينة حينما أبديت لها رغبتي. فخرجت من غرفتها أنادي مبروكة والبنات. وعند باب البيت ودعتني صاحبته أم سليمان بعدما عانقت بنياتي الثلاث ووضعت في كف كل واحدة منهن قطعة من الحلوى -يسمونها البرميت وهي سكاكر حلوة لها ملمس الطبشور-، ثم وعدتني بطبق من الهريس، وآخر من الخثرة -هريسة السمك- توصلهما بنفسها إلى بيتي بعد عودة ولدها سالما من الغوص.

وبعد خروجنا انتبهت صغيراتي إلى واحد من طيور الغاق الكبيرة -تلك التي يسمونها في الكويت لوهة- يقف على سور بيت المرأة. كان كبيرا طويل الرقبة أسود اللون. نشاهد هذا النوع من الطيور بكثرة على الشواطئ، في نوفمبر حيث يقضي الشتاء في الكويت قبل استئناف هجرته. لكنني حتى هذه الساعة أستغرب تلك الحكاية التي أظنني أشرت

إليها سابقا قبل أن أسمع اليوم تفاصيلها. كنا كلما شاهدنا واحدا من هذه الطيور في غير موسمه أو بين البيوت بعيدا عن الشاطئ، يقول الأهالي إنه خادم كبيرة العرافات جاء يستطلع الأخبار. بعضهم يقولها ساخرا، لكن يبدو أن البعض الآخر يصدقها.

واليوم، عند باب بيت أم سليمان، كررت مبروكة ما يقوله الأهالي وهي تحدث صغيراتي الثلاث، قالت إن الطائر من خدام العرافة، وأضافت أنه واحد من مجموعة من طيور الغاق البحرية تمردت على سربها قبل سنوات، وأضربت عن الهجرة، وأقامت في بيت العرافة في حي المرقاب .

* ملاحظة:

سوف أرسل رسالة لأبي في الغد، وأخبره عن هذه الزيارة واستقبال النساء لي في بيت أم سليمان وترحيبهن. أعتقد أنه لن يجادلني بعد اليوم على إصراري أن أكون مبشرة في ديار العرب وهو الذي حذرني -في أمريكا- قبل سفري بأنهم يأكلون لحوم البشر في هذه البقعة المجهولة لنا.

Eleanor J. T. Calverley
Saturday, September 18, 1920
08:45 PM

(2)

قلقُ الحُبارى

«اليومُ أو بعدَ غدْ، لا ثالِثَ بَيْنَهُما وَلا بَعدْ»

لو أن غريبًا أطلَّ من سطوح البيوت الطينية بعد شروق شمس اليوم؛ لخُيِّلَ إليه أن سربًا من غربان الدُّوري قد حَطَّ على رمال السَّاحل الرَّطبة. أعناقٌ مشرئبةٌ نحو الأفق الأزرق، وعيونٌ تتحرَّى مُقبلًا يجيء من بعيد. غير أن الدِّيرة لا تعرفُ من الغِربان إلا فُرادى بغير أسراب، تتسلَّلُ إلى سفن التِّجارة الرَّاسيةِ في موانئ الهند، وتندسُّ بين زكائب التَّوابل والحبوب والشَّاي، وتسافر مع السُّفُن في أوبتها إلى الدِّيرة، فتَلفي نفسها مُتسلِّلَةً غريبةً في بلادٍ غريبة. وتمكثُ على السَّاحل الشَّرقي شهورًا تتحرَّى إبحارَ السُّفُن الشِّراعية ثانية إلى الهند.

لا غِربان في الدِّيرة. لا غِربان إلا قليل.

أما تلك المُتسربلات بالعباءات السُّود فهُنَّ نسوة الدِّيرة التي خلَت من نصفِ رجالها في موسم الغَوص على اللُّؤلؤ، على حينِ بقيَ النِّصفُ الآخر يُشيِّد سورًا أمرَ الأمير الحاكم ببنائه بعد هزيمة موقعة حَمَض. وشُيِّدَ السُّور الهلالي يفصل المدينة السَّاحلية عن صحرائها، سورٌ من البحر يبدأ وإليه ينتهي.

وقفت النسوةُ مُوليات الظهور لمدينتهِنَّ الطينية الصَّفراء، مدينة تشبه بيوتَ رَملٍ شيَّدها الأطفال على السِّيف وأغفلوا ترصيعها بالقواقع والأصداف. وقفنَ يواجهنَ الزُّرقة في موسم القُفَّال[1]، ختام موسم رحلة الغَوص الطويلة. وقد تركنَ بيوتهنَّ لفيفًا إلى سِيف الحَيِّ الشَّرقي بعدما كشفت لهنَّ الصاجَّة أُم حَدَب فألَ الخَشَب[2].

عيَّنَت كبيرة الصاجَّات، المتخلفة عن الحضور، يومين تُقفِلُ فيهما السُّفن والمراكب الخشبية نحو الدِّيرة؛ الأحد أو الثُّلاثاء:

«اليوم أو بعد غدْ، لا ثالث بينهما ولا بَعْدْ».

من عادات أُم حَدَب أن تمنح احتمالَين، يُصيب الأوَّل في بعض الأحوال. وإذا ما خابت أيٌّ من نبوءاتها عاجلت توجِد للخيبة تسويغًا: «كاتب الأسفار يُشاكسني»، فتمنحُ كشفها صِبغة حقيقية في حدود معرفتها المنقوصة لأنه لا يعلم الغيبَ إلا الله. فيضحكُ

(1) **القُفَّال**: موسم القُفَّال هو الموسم الذي تُقفل فيه سُفُن الغوص على اللؤلؤ، يبدأ بعد إطلاق مدفع الحاكم إيذانًا بانتهاء موسم الغوص. (محرر وزارة الإعلام).

(2) **الخشب**: تُطلق على السُّفن والمراكب، والخشبة بمعنى مركب أو سفينة. (محرر وزارة الإعلام).

كاتب الأسفار في خلوته يدري أن حدباءه البرصاء مُحِقَّة في القول. أما النِّسوة فليس لهنَّ إلا غناء «أهزوجة الصاجَّة»، إن خابت النُّبوءة ترنَّمن على إيقاع تصفيقهنَّ: «يا صاجَّة يا صاجَّة ما صدقتِ».. وإن أصابت النُّبوءة فـ«يا صاجَّة يا صاجَّة ما كذبتِ».

ورغم أن القُفَّال يبدأ بعد سماع دويّ مدفع الأمير، الشَّيخ سالم بِن صُباح، إيذانًا بانتهاء موسم الغَوص الكبير، فإن كثيرًا من نساء الدِّيرة يمِلنَ إلى تصديق كشْفِ الصاجَّة، فقد قيل إن لكبيرة الصاجَّات طيورًا تجيء لها بالأخبار والأسرار، ولأن كلام الصاجَّات نافذٌ مثل مسمارٍ في لوح، يميلُ رُبَّما أو ينثني لكنه لا ينكسر، وهو في نهاية الأمر حتمًا نافذ. يكفي كبيرتهنَّ وقوفُها على رمال السِّيف، تملأُ صدرها بريحِ السَّاحل، وتُرسل طيورَ اللَّوْهَةِ في خيالها إلى المغاصات، فيصوِّر لها كاتبُ الأسفار ما تُبصره الطُّيور السَّوداء بعيونها الصَّفراء وراء العباب الأزرق.

يقولُ فريقٌ عن الصاجَّات إنهُنَّ لا يتعاملنَ مع الجِنِّ قط، ويؤكد فريقٌ آخر: لأنَّهن الجِن بلحمِه وشحمِه لو كان في الجِنِّ لحمٌ وشحم. وقيل إن كبيرتهنَّ تُعمَّر حتى تبلغ المئة. ويدَّعي البعضُ أنهنَّ بلا ظلال تتبدَّى تحت ضياء الشَّمس. وإذا ما صادف ولمحَ الأطفال للصاجَّات ظِلًّا؛ أسرعت العجائز في مشيها وهي تُجيب: هذا ظِلُّ العباءة.

حتى مَن لا يؤمن بكراماتهنَّ كان يعرفهنَّ واحدة واحدة؛ بدءًا من كبيرتهنَّ أُم حَدَب، مرورًا بصويحباتها الثَّماني التي تُسميهُنَّ

«البنيَّات»، رغم أن المراهِقة فيهنَّ تكاد تبلغ الخمسين؛ أُم حزام وأُم صلاح وأُم غريب وأُم صَلْبوخ وأُم عبدالرَّحيم وأُم جابر وأُم عَوَض وآخرهنَّ وأصغرهنَّ الصاجَّة الضَّحوك، صاجَّة الجزيرة أُم صَنْقُور. هُنَّ العليمات، كاشفات الغَيب، ربَّات الخيال، ضَليعات السِّحرِ والكِهانة، المطَّلِعات على الأسرار في اليومِ الخفيّ؛ يومِ السِّدِيس، آخر أيام الأُثمون.

وفي يوم السِّدِيس، المارق عن رزنامةِ زمن العوام، تتَّصلُ الصاجَّات خلسةً بكاتب الأسفار ومالك غيبهن، ليُوحي لهنَّ قليلًا من كثيرٍ يكتبه. ولا يحضر الكاتب إلا في بيت كبيرة الصاجَّات صوتًا، وحِسًّا يُرفرف في الحوش في آخر أيام الأُثمون، في البيت المثلَّث في «المرقاب»، بيت بين بيوت الخلقِ مثل بيوت الخلق. مستطيل الواجهة، غير أن بابه يُفتح على حَوْشٍ مُثلَّث الأضلاع. تقوم سقوف لَواوينِه الثَّلاثة على تِسعة أعمدةٍ من الطِّين اللَّبِن وصخور البحر. وتحطُّ على جدرانه الثَّلاثة طيور اللَّوْهَة، يبرقُ ريشها الأسود الدَّهين مثل عباءاتٍ حريرية معلَّقة على الجدران. طيورٌ بحرية رغم بُعد حَيّ المرقاب عن السِّيف. في ذلك البيت المثلَّث ما انفكَّت حفلات الزَّار تُقام أيامَ السِّديس.

هذا ما تُشيعه الصاجَّات عن أنفسهنَّ بين مُريداتهنَّ سِرًّا، وهو ما يُكذِّبه المَلالْوَة[1] علانية، وعلى رأسِهِم إمامُ مسجد السُّوق الكبير؛

(1) مَلالوة: جمع مُلاَّ، رجل الدِّين. (محرر وزارة الإعلام).

المُلَّا عبدالمحسن خصيمُ الصاجَّات الأوَّل. أما شيخُ البحَّارة سَنَد بِن هولين فله رأيٌ آخر، شأنه شأن سوادِ النَّاس، يطيبُ له الإيمانُ بكرامات الصاجَّات وقدراتهنَّ، ما لم يُغالِ النَّاسُ في نسج الخُرافات حولهنَّ كأمرِ القدرة على الطَّيران. قيل إنهُنَّ يجئن بسعفاتِهِنَّ من نخلةٍ ضربت جذورها في مكانٍ ملعون. وقيل إن البعض رآهُنَّ خاطفاتٍ في السَّماء ممتطياتٍ جريد سَعف النَّخيل. فلمَّا بلغَ أمرُ الطيران هذا مسمعَ بِن هولين قبل سنوات؛ أطلقَ ما يُشبه ضحكة من أنفِه الأقنى، وهو يتخيَّل واحدتهُنَّ تُرفرِفُ عباءتها في السَّماء: *حتى النَّبي لَم يفعَلها يا أخوات إبليس!*

نساءُ الدِّيرة على السِّيف، قلقات من غير كبيرة الصاجَّات التي جرت العادة أن تتقدَّم موكب النِّساء إلى السِّيف، غير أنها تعذَّرت هذه المرَّة بالتَّعب وتخلَّفت عن المجيء. تواثبت حول النِّساء طيور الرهيز الرَّقطاء وبضعةٌ من غربان الدُّوري، وحلَّقت أمامهنَّ النَّوارس قريبة من سطح البحر، قبل أن تنقضَّ على أسرابِ أسماكِ الزُّوري وصغار السَّراطين في المياه الضَّحلة. تحملُ النسوةُ الطُّبولَ والدُّفوفَ تحضيرًا لطقسِ استتابة البحر، ويركضُ الصِّغارُ بينهُنَّ عُراةً حُفاة يلهون برمل السِّيف، أو يُتابعون سِتَّة شُيوخٍ يُطأطئون على امتداد السَّاحل، يفترشون ظلالَ سقائف العريش، يُباعِدون بين سيقانِهِم، يحيكونَ شِباكَ الصَّيد، ويُهمهمون بصوتٍ يشبه مَور الموج وتكسُّره على السِّيف ساعات المدّ: «هولو هيِهْ.. هولو هيِهْ».

ارتفعت أصوات النِّساء تتضرَّعُ إلى البحر المتصامم، علَّه يُعجِّل بعودةِ الخَشَب، يشيل غُيَّبَ الدِّيرة إلى منازلهم الآمنة. عسى أن يُلبِّي، ويردَّ لهنَّ رجالًا فارقوا قبل ما يربو على ثلاثةِ أهِلَّةٍ[1] في مغاصاتِه، صاموا الشَّهر الفضيل بين أهليهم، ثُمَّ إلى البحر بكَّروا الدُّخولَ بُعيد صلاة عيد الفطر.

كلُّ امرأةٍ ترجو البحر غناءً، تُضَمِّن اسمَ والدٍ أو ولدٍ أو زوجٍ في أُهزوجتها، أو تُسَمِّي كلَّ نوخِذا سفينةٍ باسمِه مُنادية، عساهُ أن يتبعَ النِّداء ويسلَم بسفينتِه فيسلَمَ البحَّارة على مَتنِها:

«يا المالح.. هات صالح».

«يا الدَّردور جيب عاشور»[2].

«يا المرجان هات عثمان».

«يا المحَار وين نَصَّار؟».

غير أن المالح، نهارهم ذاك، لم يُلبِّ لهنَّ نداءً، ولا دَردور البحرِ ولا مرجانه ولا محَاره الغافي في غِبَّةِ[3] الخليج.

برزَ رأسُ شايعة، أُم سليمان الغَيص، بين رؤوس النِّساء الواقفات عند التقاء الرَّمل بالماء. امرأةٌ فارعة الطول نحيلةٌ مُجلَّلة كغيرها بالسَّواد،

(1) أهِلَّة: جمع هلال، وتُستخدم في اللهجة الدَّارجة بمعنى شهر/ شهور. (محرر وزارة الإعلام).
(2) دَرْدور: دوَّامة البحر. (محرر وزارة الإعلام).
(3) الغِبَّة: المكان البعيد العميق في البحر. (محرر وزارة الإعلام).

كأنها ظلُّ نخلةٍ استطالَ تحت شمس الضُّحى. شايعة «الحبارى» كما تنعتها النِّسوة، لأنها مثل الحُبارى البلهاء، غشيمة تضيع إن باعدت عن محلِّها، وترقد على بيوض غيرها من الطَّير وهي لا تدري. شايعة الحُبارى طيِّبة القلب، اللقب المعلن بخلاف ما تُبطنه الجارات عن المرأة التي لا تعرف كوعها من بوعها؛ شايعة خفيفة العقل. تبدو في تمام العقل مُعظم الأوقات، لكنه يفرُّ منها في ساعات غير معلومة. قيلَ إنها مكوية الرَّأس، ولا يُكوى رأسه في عرف أهل الدِّيرة إلا من مسَّه الجِنُّ فدفعه إلى الجنون. قيلَ إن الصاجَّة الرَّاحلة أُم جوهر كَوَتها حينما كانت صغيرة، لتطرد جِنيًّا عشقها وتلبَّسها قبل عقدين. وأنبأتها بعد الكَيِّ بأن ذِكرها يعيش على ألسِنة أهل الدِّيرة أبد الدَّهر. وطُرِدَ الجِنِّيُّ العاشق بعد الكَيّ، لكن المطرود لمَّا عجز عن سرقة قلب الصبيَّة فرَّ بنصفِ عقلها.

تقدَّمت أُم سليمان بعباءتها تنأى عن نسوة السَّاحل بضع خطوات. يتناهبُها شكٌّ في عودة الخشب في يوم خلا فيه السَّاحل من طيور اللَّوْهَة. ***لو قدَّر الله لهم العودة اليوم لَمَا تخلَّفت كبيرة الصاجَّات أُم حَدَب عن المجيء معنا إلى السِّيفِ من بين كل صاجَّات الدِّيرة. عذرك بالتعب بعد ظهيرة دقّ الهريس أمس ليس مقبولًا. لستِ خالية يا أُم حَدَب.. لستِ خالية***. رفعتْ شايعة عباءتها وكوَّدَتها على كتفيها، فظهرت تحت العباءةِ درَّاعتها[1] تُرابية

---

(1) درَّاعة: ثوب نسائي. (محرر وزارة الإعلام).

اللَّون مرقَّطة بالأسود، فتبدَّت بين نساء السِّيف، شكلًا يوافق اللقب، مثل حُبارى بين غربان الدُّوري. وتهادت في مشيتها تعبرُ فوق أعشابٍ بحريةٍ لفظها الموجُ على الرَّمل، تخوضُ في مياهِ السِّيفِ البارِدَة بقدَميها الحافيتين المخضوبتَين بالحنَّاء. فرفعت البوشِيَّة عن وجهها المتعب، وجه حِنطي يكبرُها عشرين عامًا كأنها في الخمسين، وَشَت الخطوط في جبينها وحول عينيها بحُسنٍ دابرٍ أقام في هذا الوجه حتى أمس غير بعيد. تنشَّقت المرأةُ ريحًا باردة رطيبة حامضة برائحة الأعشاب البحرية. وأغلق الأطفالُ أنوفهم بأصابعهم مع كُلِّ نسمة، يتضاحكون إزاء ما يُسمونه فُساءَ البحر.

أطبقت شايعة جفنيها وشفتيها والرِّيح الباردة تُصافح وجهها. *هَبَّت رياح السَّابعة*. تُذكِّر نفسَها وهي تُحرِّك أصابع قدَمَيها في الماء: *إذا بردَ الماءُ عادَ الغاصَة*. رفعت رأسها إلى السَّماء: ***وإذا ما تساوى الليل والنَّهار***. تأمَّلت عودةَ ولدِها وقد غمر بيتها الفرحُ مرَّتين في غيابه، أوَّلهُما يومَ أنجبت زوجته ولدًا قبل سِتَّة أيام، وثانيهما يومَ أمس، ساعةَ اجتمعت النِّسوة وصاجَّات الدِّيرة في بيتها لدقِّ الهريس، وقد نذرت أن توزعه على الجيران والفقراء إذا ما عاد سليمان يغمرُ بيتها بفرحٍ ثالث، واثقة لا تدري ما تُخفيه لها الأيام. ***أُبشِّر وليدي وأقول له إن فضَّة أنجبت ولدًا كـ بدر التَّمام***. ابتسمت لهواجسها. ***وأجهِّز له ما يشتهي من هريسٍ وخِثرة***. فتحت عينيها وقرَّبتْ كفَّيها إلى وجهها مثل مؤذِّنٍ ينادي للصلاة. ورفعت الصَّوتَ في لجَّة نساء السِّيفِ، تتخيَّلُ وجه ولدِها وأُذُنَيه الخطلاوين بعيدًا في عُباب الخليج:

«يا الدَّانة.. جُرِّي سليمان مِن أذانَهْ»[1].

ولكن الدَّانة، شأن كلِّ ما في البحر نهارهم ذاك، لم تُبدِ استجابة، ولم تجُرَّ سليمان بِن سهيل من أُذُنِه ولا حتى من إزارِه. ولا تبدَّى للأُم في الأُفق شراعُ السَّنْبُوك[2] «الحامِدي»، أكبر سَنابيك الدِّيرة وأحدثها، يُبحر مُقفِلًا بولدِها الوحيد.

استعرت الشَّمسُ حتى كسرَ رملُ السَّاحل عيون النِّساء وَهجًا. وأعياهُنَّ الضربُ على الدُّفوف لساعات. يتحرَّين رؤية طلائع الخَشَب، أو رأس شراعٍ يتهادى في الأفق. لا شيء. ولا شيء يؤخر إياب الأسطول هذا الموسم بالذات، فقد أمر الأميرُ بعدم الإبحار إلى المغاصات البعيدة، تحسُّبًا لهجمة مباغتة مِن إخوان مَن طاع الله تستدعي عودة البحَّارة على وجه السُّرعة. *ما بالهم يتأخرون؟*

قعدَ بعضهُنَّ على الرَّملِ يكتمُ غيظًا وحسرة. ***حسبي الله عليك، ما تخاف من الله يا بحر؟*** بعضٌ آخر يقف على أطراف أصابع تغوص في الرِّمال، من بينهنَّ أُم البنات، تمسحُ العَرَقَ عن جبينها، وتُحلِّق بنظرها بعيدًا وراء طائرِي نورس، تتحرى عودة سفينةٍ تحملُ رجلَ الدَّار الوحيد. وأرسلت المتَّشحات بالسَّواد أبصارهنَّ بعيدًا عند تماهي الزُّرقتين وشنَّفن الآذان. لا شراع يُقبل، ولا تصفيق البحَّارةِ

(1) دانة: اللؤلؤة الكبيرة صحيحة الاستدارة. (محرر وزارة الإعلام).

(2) سَنْبوك: نوع من المراكب الخشبية، ويُعرف بالفُصحى بـ «سَنْبوق». (محرر وزارة الإعلام).

ولا أهازيجهم تشيلُها الرِّيح إلى السَّاحل، تُسابق بها الموجَ نحو برِّ النِّساء. نظرت واحدتهنَّ إلى الأُخرى تُبطِن أمرًا مألوفًا. ما دامت نبوءة الصاجَّة لم تتحقَّق في يومِها الأوَّل، فمن عقاب البحر لابد؛ *من تجرؤ على الفعلِ أوَّلًا؟* وتجرأت أُم غايب.

لا أبناء لأمينة البيعاريَّة، وهذا ما منحها كُنية أُم غايب، وليس لها في الدُّنيا أحدًا إلا زوجها عَزُّوز الهذَّار، يتركها وحيدةً ويركب البحر مع صائدي اللُّؤلؤ كُلَّ موسم. انحنت والتقطت قوقعة ثُمَّ تقدَّمت صوبَ الماء بعينين حمراوين، تكزُّ على أسنانها، تتحلَّى بجُرأةٍ دفعتها إلى رمي البحر بالقوقعة. وصاحت عليه بأعلى صوتها تشتمُه تلعنُه تدفعُه يستجيب. فصمتت تترقَّب وقد ابتلع البحرُ قوقعتها، وما استُفِزَّ وما صدرت عنه نأمة، ولم يدفع موجة غاضبة نحو السِّيف. رفعت أمينة كفَّها عاليًا تتحسَّس الرِّيح. لا رِّيح.

لم تلبث الابتهالات والتضرُّع إلى البحر طويلًا، حتى استحالت وقتَ الأصيلِ وعيدًا. تهدِّده نسوةٌ بعِقاب الله على جَورِه. ترميه أُخريات بالحَصَى والعِصيّ والرَّملِ والأصداف وقواقع الحلازين البحرية. يستثِرنه، لعلَّه يحنق، فيُنادي الرِّيح لتدفع أمواجه الغاضبة صوبَ نساء السَّاحِل المتجاسرات، فتحمل الأمواجُ دونما قصدٍ سُفُنَ البحَّارةِ للعودة سريعًا. غير أن البحرَ اكتفى يدفعُ موجاتٍ كسولةً رتيبة، يتفلُ عليهنَّ زَبدَهُ، ويُفلِت ريحَ بطنِه غير مكترثٍ لتَوقِهِنَّ إلى الرِّجال.

ارتفعت دعواتهنَّ تصيحُ على الأزرقِ المالح زاجِرة، تدفعه إلى أن يتوبَ عن إغواء أحبتهنَّ بالمكوث طويلًا طمعًا في مزيدٍ من اللؤلؤ، أو أن يتوب عن نيةِ غدرٍ يُدبِّرها لهم في غفلةٍ من نوخِذاهُم. رُحن يستتِبْنَهُ. يُذكِّرنه ويتوعدنه. يحصينَ على الأصابع أَهِلَّة غيابِ الرِّجال، ثلاثة أَهِلَّة مضت، وقد حلَّ رابعها منذ أيام.

فأنشدنَ على إيقاع الدُّفوفِ والطبولِ والتصفيق:

توب توب يا بَحَر
ثلاثة، والرّابع دَخَل
جيبهم، طالبينك جيبهم
جيبهم، خاطفين بجيبهم
ما تخاف من الله يا بحر؟!

اشتدَّ القرعُ والتَّصفيق عند ذكر مقام الخوف من الله. وتمايلت النسوةُ تجاوبًا مع الإيقاع فيما يشبه صلاةً لعلَّ البحر يتوب يستجيب. ومكثنَ طويلًا على السِّيف يحدوهُنَّ أملٌ بصدق نبوءة الصاجَّة في يوم احتمالها الأول. وأنشدنَ الأهازيج حتى دنَت الشَّمسُ نحو مغربها دونما أثرٍ لرأسِ شراعٍ يلوحُ في الأُفق. فخفتَ قرعُ الطُّبول. وتبادلت النِّسوة النظرات في يأس. ونقَّلَت شايعة وأُم غايب وأُم البنات الأبصار فيما بينهن، تستمدُّ واحدتهُنَّ من وجه الأُخرى أملًا بدا بعيد المنال نهاية هذا اليوم. *لن يعودوا اليوم*. ولمَّا شيَّع الشَّفقُ الشَّمسَ إلى مغربها على ابتهالات شيوخ البحر، وقفت نسوة الدِّيرة صوامِت

فيما يشبه طقسًا جنائزيًّا بعد ارتفاع أذان المغرب من مآذن الدِّيرة. وخيَّمَ الليلُ يلفُّهنَ سوادًا فوق سواد. فحملنَ أطفالهنَّ والطُّبول والدُّفوف والخيبة على الأكتاف، ساخطات على الصاجَّة وافترائها وكذب نبوءتها في اليوم الأوَّل. وأولَين صدورهنَّ شطرَ المدينة، وانسحبنَ يحملنَ رجاءَ عودَةٍ مؤجَّلةٍ إلى بعدِ غد. وخلَّفنَ السَّاحل للَّيل والصَّمت، خاليًا إلا من السِّتة ملتحفي الظلام، يفتلونَ خيوطَ الزَّمن ويُكَوِّدون الشِّباك بين سيقانهم، ولا ينفكُّون يُنادون الأمواج المتقهقرة قبل أن تُلامسهم: «هولو هيِهْ.. هولو هيِهْ».

أقبلت النِّسوة على المدينة، حاضِرة البحر وحاضنته. وعبرت مع الأطفال السِّكَكِ الضيِّقة إلى بيوتهنَّ الطِّينية غير البعيدة عن السِّيف، يُردِّدن أهزوجة الصاجَّة مُتفرِّقات بين السِّكَك. وأخريات يتبعنَ إحدى الصاجَّات في أَوبَتِها صوبَ حَيِّ «العاقول»، وفريقٌ يتبعُ أُم البنات جِهة حَيِّ «البْلوش»[1]، وفريقٌ تقوده أُم غايب يقطعُ حَيَّ «هلال» إلى حَيِّ «المطبَّة»، تتبعه شايعة آخر المنسحبات من السِّيف تُغني بغير انتباه، وتُكرِّر الالتفات إلى البحر المظلم تتعلَّق برجاء مستحيل. والشَّوق يعتصرُها إلى عناق ولدها سليمان، ورائحةِ الخشب الرطبِ عندما تَلُزُّ السُّفُنُ الخشبيةُ قواعِدَها قربَ السَّاحل. فارتفعَ ترديدُ الغناء وراء أُم غايب شجيًّا في أحد السِّكَكِ بين البيوت:

(1) البلوش: قوم من بلوشستان. (محرر وزارة الإعلام).

يا صاجَّة يا صاجَّة.. ما صدقتي!

ياخوي مَحْلا الخَشَب لو لَزَّت السِّيف

كلها صبيانٌ تجرّ المجاديف

ووراء أُم البنات، في سِكَّةٍ أخرى قريبة، أمسكت النِّسوة بأطرافِ الأصابع الملافِعَ السُّود التي تُغطِّي رؤوسهن، وصدحنَ غائبات في التَّرانيم الشَّجية:

يالمحرمة يلّي على الرَّاس روحي

فوق البَحَر طيري وفوق السُّفوحِ

وقولي لِخِلَّاني ولهانة روحي

يا صاجَّة يا صاجَّة.. ما صدقتي!

اختنقت شايعة بعبراتها وهي تسير متأخرة عن الرَّكب، لا تلبثُ تعاودُ الالتفات إلى البحر. ***عساهُم يعودون بعد غد***. وتطوفُ في خيالها صورٌ لولدِها سليمان عديم الخبرةِ بصحبة العَم سَنَد شيخ البحَّارة، في دخوله الأول إلى الغَوصِ ضمن رجالِ سفينة التَّاجر بِن حامد. تتخيَّله مقطوع النَّفس في قاع مَغاص اللُّؤلؤ، وقد حمَّصت الشَّمسُ جلدَ الفتى وكَساهُ ملحُ البحرِ قروحًا تكلَّسَت بين أصابعه وتحت إبطيه وعلى ظهرِه الغض، وتشقَّقت كفَّاهُ الغريرتان من حِبال الغَوص الخشِنَة. ويخفقُ قلبها وقد تفجَّرَت في رأسها صرخةٌ ما نسيَتها

منذ عام، صيحاتٍ تُشبِه العواء في بيت أُمِّ الغَيص الذي أكلتهُ الذِّيبة[1] في مَغاص أُمّ الطِّين في الخليج. مشهدٌ علِقَ في ذاكرةِ أهلِ الدِّيرة؛ وقتَ عاد سَنْبوكُ كبير النّواخذة بِن حامد وحيدًا لا يتبع سفينة أمير الغَوص بِن رومي. أقفلَ «الحامِدي» مُسبَقًا في غير أوانِه مُنكَّس الرَّاية قبل إعلان القُفَّال. وكان نهارًا قاتمًا يلفُّه الغموض، وقتَ تداول النَّاسُ أمرَ اختفاء منصور الغيص في البحر، وظهور عباءة نسائية في موضع اختفائه. فأقبلَ البحَّارةُ يشيلون مطويةَ أغراضِ الغيص الفقيد إلى أُمِّه الأرملة.

بثَّت صرخات أُم منصور الغَيص الهلعَ طول الليلِ في نفوسِ أهل الحيّ الشَّرقي، مُنذ تسلُّمِها مطوية الحصير الملفوفة على ثيابِ وعدَّة غوص فقيدِها، وحتى ارتفاع أذان الفجر.

وتذكَّرت أُمُّ سليمان رجاءها لوحيدها، وخشيتها من مصيرٍ يُشبه مصير منصور:

«ما لك في البحر وأهواله ورِزقُ الله على السِّيف؟».

رزقُ السِّيفِ آمِنٌ مضمونٌ وإن أقبل شحيحًا. رزقٌ مبارك في العمل في دكاكين السُّوق، أو امتهان أية حرفةٍ كالحِدادة والنِّجارة وحياكة الشِّباك وصناعة السُّفُن وسَفِّ الخُوص ونَدْف القُطن، أو في إيجاد موضع قدم بين العمال المياومين في البناء، بيدَ أن الفتى ما أراد أن تتردَّى به الحالُ إلى منزلةِ الصُّنَّاع، وفقَ أعرافِ أهلِهِ المثقلةِ

(1) ذيبة: أُنثى القِرش، أو أسماك القرش بشكل عام. (محرر وزارة الإعلام).

باشتراطات العيبِ والمحرَّمات. فأرسل بصره طمّاحًا صوبَ العُبابِ ولآلِئِه في جَوف المحَار، كأنما ليس الغوص صنعةً تنحدرُ به إلى ما دون الصُنَّاع، على ما يقول صاحبه سعدون، وترتدُّ به إلى منزلةِ «العبيد» والسُّخرة.

تذكَّرت شايعة حديث شيخ البحَّارة سَنَد بِن هولين في حَوش داره، وقتَ طرقت بابه وألفَت لديه سليمان. رجتهُ ألا يُدخِل وحيدها إلى الغَوص. وقف الشَّيخ أمامها مُطرقًا مُحمرَّ الوجه لا يُناظر وجهها:

«الغوصُ خيرٌ له مِن التردُّد على الحَوْطةِ ومجالسة سعدون شارب المنكر يا بنت الحلال!».

تذكَّرت حيرتها بين سعدون والبحر، بين المرِّ والمرّ. كرَّرت رجاءها للعم سَنَد:

«يبقى الولدُ هُنا يبني السُّور مع المتخلِّفين عن دخول البحر».

رقَّ صوتُ شيخِ البحَّارة يُطمئنها. وذكَّرها بأمر أمير الكويت لربابنة السُّفن والمراكب بعدم الإبحار إلى المغاصات البعيدة هذا الموسم، غير أنها عادت ترجوه، فرفع العم سَنَد عينيه يختلس نظرة إلى الشَّابة التي أسكنها قلبه:

«يا شايعة.. سليمان يجب أن يسُدَّ دَينِ أبيه.. وداركم مرهونة لدى النُّوخِذا الذي صبر سنين طويلة على الدَّين.. وأنا لا أرضى لكم الحاجة».

أذعنت شايعة مكسورة، تخشى مصيرًا يماثل مصير أُم منصور الغَيص التي سدَّدَت دَين ولدها الغريق ببيتها المرهون للنُّوخِذا بِن حامد. فأطرقت أُم سليمان خانعة مُسلِّمة لدخول ولدها البحر:

«الله يسهّل إلى بعد رمضان».

قاطعها شيخ البحَّارة:

«بِن حامد لن يدخل البحر بعد رمضان مع مراكب الدِّيرة.. سوف يُسبِّق الدُّخول مع بعض المراكب أول الصيف.. نصوم الشهر على ظهر السَّنْبوك، والله كريم».

شهقت شايعة وهي تصفق صدرها. فذكَّرت شيخ البحَّارة بفتاوى تحريم الغَوص في الشَّهر الفضيل، ابتسم الشَّيخ وهو يدعوها إلى أن تسأل بِن حامد إن شاءت، فهو ليس بمُفتٍ ولا بنوخِذا. وأُم سليمان تدري أن لا رجاء يُجدي مع بِن حامد الذي لن يتأخر عن دخول البحر يومًا واحدًا كيلا يفوته رزقٌ مُحتمل. التَّاجر الحريص وفق نعت أهل الدِّيرة، لا يبدو ثراؤه على لِباسِه، ولا على طعامِه الذي لا تذوقه الفئران ولا يشمُّه الجيران. تاجرُ اللؤلؤ الوحيد الذي يركب البحر مع بحَّارتِه كي يصير قُرب حلالِه عوضًا عن استئجار نوخِذا غريب.

امتعضَ سليمان من إيغالِ أُمِّه في إظهارِ خوفِها عليه قُدَّامَ العَم سَنَد. قال وهو نفسه لا يدري سرَّ شغفه بالأزرق:

«مرادي البحر يُمَّه».

شايعة لا تكره البحرَ لكنها تعرفُه، ولأنها تعرفُه فلا سبيل لها إلا أن تخافه. هي تدري أن من يدخله موسِمًا يُدمنه كارِهًا، وتدري أن لا شأن لما يُسميه عامَّة الناس بِـ فتنة البحر في إدمان البحارة ركوبه. وتدري أن لا لؤلؤة مهما كثرت اللآلئ تستدلُّ مجازًا إلى جيوبِ البحَّارة. هي تدري، لأنها خبُرَت حبلَ الدَّين وعايشته وقد طوَّق زوجَها الراحل، أبا سليمان، مُذ دخولِه الأوَّل في سُلفةٍ تسلَّمها من بِن حامد على سبيلِ دَين، يتجدَّدُ موسمًا بعد موسمٍ ويُسَدِّدُه طول حياتِه عَملًا على ظهر الخَشَب، ما لم تُقفِل السَّفينةُ بحصيلةٍ كبيرة من اللآلئ تسدُّ ديون بحَّارتها المتراكمة. وشايعة لا تُريد لولدِها أن يرثَ أصفاد أبيه؛ يمضي العُمرَ يجمعُ لآلئ يودعها في جيوب الآخرين، ولا يملكُ منها يومًا واحدة. لكن زوجها لم يورثها إلا دَينًا وبيتًا مرهونًا للنُّوخِذا، وهي مهما يكُن الأمر من العُسر لا تقوى على إيفاء هذا بذاك.

أوغلت شايعة في تصفُّحِ ذاكرة الشُّهور القليلة الماضية. وسلَّمت لمشيئة ولدِها والعَم سَنَد لزوم سداد دين الزَّوج الرَّاحل. فطرقت بابَ التَّاجر بِن حامد قُبيل بدء موسم الغَوص الكبير، بعد انسحاب الرَّبيع أوَّل مرور الشَّمس في برج الجوزاء وفق حسابات الصاجَّة أُم حَذَب.

«أوصيكَ خيرًا بِـ سليمان يا نوخِذا، الولد غرير، لا تُحمِّله عملًا فوق طاقته».

انفلتت دموعُها سخيةً وهي تجترُّ الذكريات، ذكرى تردفُ ذكرى. وجذَّت في سَيرها إلى دارها مُتجاوزة مقبرة «بِن حَقَّان» بين البيوت عن شمالها، تتبع أصوات النِّسوة الخائبة تشدو غناءً يخبو في ظلام السِّكَك:

يا نوخِذاهُم لا تصلِّب عليهم

تَرى حِبال الغوص قصَّت ايديهم

يا ليتني اِدهينة وأدَهِّن إيديهم

يا ليتني غيمة وأظلِّل عليهم

أدركَت شايعة عتبة دارها في «المطبَّة» في الحَيِّ الشَّرقي. وأسندت كفَّها إلى بابِها الخشبي، تخشى الدُّخول دونها بشارة إلى كنَّتِها النَّفساء فضَّة. كنَّتها التي ما كادت تقضي خمسة أهِلَّةٍ مع زوجها قبل دخوله البحر. التفتت أُم سليمان وراءها آخر امتداد السِّكَّة، صوبَ الأزرق الذي صار والسَّماء بلون عباءتها. فاختنقت بعبراتها ترتجلُ كلماتٍ تُحاكي الأُهزوجة اللَّهيفة:

«*يا بحر لو بايع.. آنا أشتريهم*».

دفعت الباب وولجت دارها التي كُتِبَ عليها شقاءٌ قريب، وتلاشت أصوات النِّساء بعد ترديدها..

يا صاجَّة يا صاجَّة ما صدقتي!

* * *

(3)

تهويدةُ فضَّة

«ربيبة العبدة أم سرور»

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكثت في حجرتها الضَّيقة شاحبة الإنارة، بالكاد يُنيرها السِّراج المعلَّق بالجدار. حُجرة واطئة السَّقف، خالية من النَّوافذ إلا واحدة تطلُّ على حوش الدَّار المحاط بالحُجَر. تجلس الفتاة على فراشِها المنجور من خشب السِّيسَم مُلتحفة السَّاقين بلحافٍ صيفيٍّ خفيف. تُحرِّر واحدًا من ثدييها الصَّغيرين تُرضع وليدها، وتشدو بتهويدةٍ تكبرها بسنين طويلة. تبدو الفتاة طفلة بشعرها المفروق في منتصفِه وجديلتيها الطويلتين. تُهدهد ولدها كما لو أنه أخوها الصَّغير.

ما أغمضت للوليد عينٌ وهو يئنُّ مرَّة، وينفجر في البكاء مرَّة كأنما يدري بما خُطَّ في صحيفة بيت شايعة من أحداث جِسام. أنَّ وبكى وما أسكته دواءٌ بعدما صادرت طبيبة الإرسالية الأمريكية من فضَّة دواءً سحريًّا ناجعًا أوصت به صاجَّة الجزيرة للرَّضيع. كانت إلينور كالڤِرلي تزور بيت شايعة مدعوة على مناسبة دق الهريس يوم أمس، وعندما انحنت تطمئنُّ على الرَّضيع في فراشه المصنوع من جريد النَّخل أبصرت ذاك الدَّواء الغريب، فصادرته وحذرت الفتاة من إعطاء دواء للرضِّيع من دون مشورة طبيب.

حملت فضَّة رضيعها على ساعدها وراحت تُربِّت على ظهره الغض، تدفعه إلى التَّجشُّؤ بعد رضعةٍ مُشبعة. عساه يغطُّ في النَّومِ دونما مغصٍ يُفسد ليلتها، إذ أمَّلت نفسها اليوم بعودةٍ مُحتملةٍ لـ سليمان من رحلة الغَوص الطويلة. هبَّت من النَّافذةِ نسماتٌ لطيفةٌ بعد شهورٍ أهرأتها ريح السَّموم، وقد انكسرت حرارة الصَّيف القائظ، منذ أسبوعين، مع بزوغ نجم سهيل بشير الخير والأمطار. ملأت فضة صدرها بنسائم الخريف الوافدة من الحَوْش. وصوتُ البحر القريب يتسلَّل إلى أُذنيها يهمسُ لها بالبشارة: يعود سليمان اليوم أو بعد غد. فترفعُ رأسها تُناظر السَّقف على ضوء السِّراج المرتبك، يتمثَّل لها خيالُ فتاها وهو يَنْسَدِحُ إلى جوارها، يشبك ساعديه وراء رأسِه ويُسند ساقًا إلى ساق. يُطيل النَّظر إلى الأعلى ساهيًا باسِمًا على مألوف طبعه، تُسائله: لو أنك تُفضي لي بما تُبصر، وهي لا تُبصر في الأعلى إلا

ما يحملُ سقفَ الدَّار من دعائم أخشاب المانغروف الإفريقية وسعف النَّخيل المجدول.

راحت تُمشِّط تفاصيل الحُجرة ببصرها وهي تُربِّت على ظهر الصَّغير. تسترجعُ سليمان في تفاصيل المكان؛ تشاهد خياله غافيًا على وسادة الصُّوف إلى جوارها. تلتفتُ نحو صندوق من خشب السَّاج المُطعَّم بزخارف النُّحاس الذَّهبي المطروق، تستعيدُ رائحة زوجها فجر كل جمعة، بعدما ينحني على الصندوق، يعبث بأغراضه بحثًا عن زجاجة المسك يُعطِّر كفَّيه ويمسح على دِشْداشَتِهِ قبل زيارة أبيه في مقبرة «هلال» بعد الصَّلاة. تتخيَّله مارًّا على مشجب الجدار حيث غُترته المعلَّقة هناك، يقفُ أمام المرآة المغبَّشة مثلومة الزَّاوية، يُبصر نفسه في ضوء السِّراج المعلَّق، ويُحكم لفَّ غُترِتِه حول رأسه عامدًا إخفاء أُذُنيه العجيبتين. تتذكَّر وقعَ قَدَمَيه على بُسُطِ الحصير إذا ما تسحَّب لصلاة الفجر في المسجد القريب. تستعيدُ هدوءَ أنفاسِه وهو مُتربِّعٌ على الأرض يتلو من القرآن الكريم. لا يقطع تلاوته إلا مرورُ مَلَكٍ يُبصره ديكُ الفجر فيصيح. يستبشر الفتى بالصِّياح ويدعو الله ويطلبه من فضله، عسى أن تبلُغ دعوته السَّماء محمولة بين يدي المَلَكِ الذي أبصره الدِّيك. أو يقطع تلاوته ضائق الصَّدر فيستعيذ من شيطانٍ أبصره حِمارٌ في الجوار، فرفع خطمه بالنهيق.

تُملي النظر عبر الباب المفتوح على اللِّيوان، تتخيَّله جالسًا على الأرض، يثني ساقه اليُسرى تحته ويرتفق اليُمنى وهو يأكل في صمت.

تقف هي إلى جواره تشيل آنية الماء الفخَّارية بعدما يشرب اللَّبن الرَّائب ويلعق حبَّات الرُّز من أصابعه، يميلُ إلى نعلَيه النَّجدِيَّتَين إلى جواره إذا ما كان الغداء شحيمًا، يُرطِّب جلدهما ويُلمِّعهما بالدَّسم العالق بكفِّه. تلتقي عيونهما وهي تصبُّ الماء على يديه ويهمس باسمًا: «مشكورة». فتتلقى منه الكلمة مثل قُبلةٍ خاطفةٍ تحمرُّ لها وجنتاها.

تتذكَّره في كُلِّ موضعٍ مرَّ به تاركًا ذكراه. تضحك وهي تُناظر ذاك الرُّكن الذي تكوَّرت فيه مُتخفيَّة بعباءتها ليلتها الأولى. انحنى عليها سليمان ونزع العباءة عنها بلطف؛ لأنه يُريد أن يُصلِّي ولا حصيرة يفرشها للصَّلاة في الحُجرة. كلاهما يدري أنها حُجَّة الرجال في اللَّيلةِ الأولى لنزع عباءة العروس الحَيِيَّة، لكن ليس لهما حيلة عدا افتعال الأمر كما لو أنه يحدث دونما دراية سابقة، مثل طفلين يلعبان «بَرُّوُي»[1]. بسطَ عباءتها على الأرض، واتَّخذها سجادة صلاةٍ قبل أن يُكملا اللَّعب فوق الفراش ليلة العُرس.

وتحملق فضَّة الوهانةُ في خيمة الفِراش، هذه الغِلالة الشَّفيفة التي شهدت، في تالي اللَّيالي، اتفاقهما الصَّامت على بلوغ ضفَّةِ الحُب في لحظةٍ مُنتقاة، لا يسبق أحدهُما الآخر في غمار معركة الوَلَه. يُحدِّق واحدهما إلى عين زوجه مستسلمًا في لحظةٍ ينفجر فيها شيءٌ وتنطفئ فيها أشياء. وكم أنصتت خيمةُ الفِراش هذه إلى صلوات الشَّاب

---

(1) بَرُّوُي: لعبة أطفال شعبية تشبه التمثيلية الارتجالية يتقمَّص فيها الأطفال أدوارهم المفضلة. (محرر وزارة الإعلام).

وأذكاره حتى في ساعات التلاقي. فتتذكَّر فضَّة قولَ مُرضعتها السَّوداء: يخاف الله فيكِ مَن لا ينسى ربَّه.

تجشَّأ رضيعُها أخيرًا، وتقيأ فائض الحليب على كتفها، ثُمَّ تناهى إلى مسمعها ارتطامُ باب الدَّار الخشبي بعد هبوط اللَّيل. فوضعت رضيعها على السَّرير مرتبكة، وسارعت تُطفئ السِّراج كيلا تُغضب حماتها التي نهتها عن إيقاد نارٍ في الدَّار، تلافيًا لتحقُّق نبوءة كبيرة الصاجَّات. صاحت فضَّة:

«خالتي شايعة؟».

جاءها صوتُ أُم سليمان من الحَوش مرتفعًا مُختنقًا بعبراته:

«نعم، خالتك شايعة.. لا قُفَّال اليوم».

جلست فضَّة على السَّرير وحملت رضيعها بين ذراعيها. فأسندت جبينها إلى جبينه اللَّدْنِ هامسة:

«هذه جدَّتك عادت لوحدها.. يعود أبوك بعد غد يا رويحة أُمّك».

تناهى إلى مسمعها ارتطامٌ ثانٍ. كانت شايعة قد أطبقت باب حُجرتها وراء الحوش في الدَّار الطِّينية. فضَّة تدري أن القلقَ يعتصر حماتها، غير أن شيئًا من هذا القلق لم يتسلَّل إليها وقد حصَّنت زوجها الشَّاب، فجرَ وداعِه، على أكملِ وجه. دعت له بالسَّلامةِ، ورَقتْه بما تحفظ من آيات القرآن كما يوصي خصيمُ الصاجَّات المُلَّا

عبدالمحسن إمام مسجد السُّوق الكبير، وشبكَت دبُّوسًا في حاشيةِ إزارِه كما توصي كبيرة الصاجَّات أُم حَدَب، وكما تعلَّمت من أُم سرور: الحديد يحدُّ الشر[1]. مكتبة سُر مَن قرأ

حملت فضَّة خرقةَ قماشٍ غطَّستها في طاسَةٍ نحاسية إلى جوارها، طاسة منقوشة بآية الكرسي توفرها أُم حَدَب للنَّاس، كي يتبارك الماءُ فيها قبل شُربه أو الاغتسال به. وراحت فضَّة تزيل بالخرقةِ القيءَ عن كتفها، ثُمَّ عادت تترنَّم بصوتِها الذي لم يمسَّه البلوغُ بطابِعِه. التَّهويدة إياها التي كانت قد ورثتها عن مُرضعتها أُم سرور، الأَمَة السَّوداء التي تكفلت بإرضاعها وتربيتها ورعاية شؤونها في طفولتها المبكرة. لا تعرف فضَّة عن نفسها إلا ما ورثته سَمعًا من أم سرور. وُلِدَت فور وصول والديها عبدالرحمن وقماشة إلى الكويت، بعدما هاجرا نجدًا عقِبَ معركة الصِّريف بثلاثة أعوام. أقبلا على الدِّيرة هربًا من الجدوبة والقَحْطِ، وفرارًا من أعمام عبدالرحمن الرَّافضين زيجته بـ قماشة ابنة صانع الأنعل في سوق المسوكف وبائعة الأقِط في سوق أُم العصافير. ولأن نجدًا، على ما قيل في الأمثال، تلدُ ولا تُغذِّي؛ فقد أقام الزَّوجان في «المطبَّة» شرق الدِّيرة على مبعدة بضعة بيوت من

(1) لم تُعرف عادة شك الدبوس في الملابس في الماضي لأن المجتمع بطبيعته متدين ولا يميل إلى تصديق الخرافة. والاعتقاد بأن الحديد يحد الشر -إن وجد- هو اعتقاد دخيل على الثقافة المحلية الأصيلة، وفي أغلب الظن أن هذه العادة دخلت بيوت البعض، شأن حفلات الزار، من سواحل شرق إفريقيا حيث كانت المجتمعات بدائية تمارس الطقوس الوثنية. (محرر وزارة الإعلام).

بيت شايعة، في دارٍ صغيرةٍ اكتراها أبوها الشَّاب من شيخٍ هَرِمٍ يُدعى أبو جرَّاح، دار صغيرة تصلح لإقامةٍ مؤقتة إلى أن يعثر أبوها على رزقٍ في الزُّبير التي سافر إليها ولم يعُد. مرضت أُمُّها انتظارًا لعودة زوجها المسافر، واصفرَّت وأصابها الهُزال وشحَّ صدرها قنوطًا من عودته، ولم تفكِّر بالرُّجوع إلى نجدٍ التي تركتها هربًا من أهل زوجها، العائلة الرافضة لزواج ابنها من ابنة بائعة الأَقِط وصانع الأنعل.

وقد كان لأبي جرَّاح، صاحبِ الدَّار المُكتراة، زوجة عذَّبها صياحُ الصَّغيرة الجوعانة في حضن قماشة، فأرسلت أُم جرَّاح «عبدتها»[1] أُم سرور إلى الدَّار اللصيقة بدارها، وكانت أُم سرور أُمًّا لرضيعٍ في عامِه الأول. فتكفَّلت الأَمَةُ بإرضاع فضَّة، تحملها كُلَّ يومٍ إلى بيت مالِكها أبي جرَّاح، على أمل شفاء الجارة المريضة قماشة لتتكفَّل برضيعتها. غير أن موت المريضة كان من الشِّفاء أسرع، وعبدالرحمن الذي سافر إلى الزُّبير.. لم يعُد.

عاشت الطِّفلة في دار أبي جرَّاح، ملتصقةً بأُمِّ سرور التي تسكن وزوجها وولداها في حُجرتيّ «العبيد» وراء حوش الدَّواب. كانت صغيرة بالكاد تنطقُ حينما أشارَت بإصبعها الصَّغيرة إلى ساعدها الحنطي، تستنكر اختلاف لونِها عن لون من حسِبَتهم ذويها، داكِني البشرة ساكني الحُجرتين وراء حوش البهائم. ومنذ يوم السُّؤال ما

---

(1) لدى المؤلف في هذا الكتاب إصرار غير مبرر على تكرار مفردة «عبيد» رغم أن الدارج في اللهجة تسميتهم «خدم». (محرر وزارة الإعلام).

انفكَّت أُمُّ سرور تُذكِّرها بأنها وُلِدَت لأبوين حُرَّين غيَّبهما الموت. ولو كان أبوها حيًّا لما رضي لها العمل مثل خادمةٍ في بيت رجل غريب، ولا تجرَّأ آل أبي جرَّاح على جعلها تخمُّ وتطبخ وتنظف حَوْش البقر. وسَقَتها مُرضعتها الحقيقة محبَّةً كيلا تكبر الطِّفلة وتُفجع بحقيقةِ أنها غُصنٌ مقطوعٌ من شجرةٍ بعيدة، شجرة ضاربة الجذور في مكانٍ ما في إحدى الحواضر النَّجدية.

شبَّت فضَّة متأخرة في بيت أبي جرَّاح كأنما نسيها البُلوغ، وما كادت تظهر عليها أمارات النضوج حتى أطبقَ أبو جرَّاح كفَّه على معصمها، يُخرجها من حوش البهائم كثَّة الشَّعر مُتَّسخة الثَّوب بالرَّوث والتِّبن، يجرُّها إلى زوجتِه يأمرها بتنظيف الفتاة ونقل فراشها إلى حُجرة بناته ومنعها من اللَّعب في السِّكَّة. فطنت أُم جرَّاح إلى أن زوجها الشَّيخ يشتهي الفتاة اليافع. وسارع أبو جرَّاح يسبق أيَّ قولٍ تنطق به زوجته:

«بقاؤها في حوش البهائم لا يجوز».

فألمح أبو جرَّاح؛ غدًا تحيض الفتاة، من الخطورة بقاؤها بين ولَدَي أُم سرور. كزَّت أُم جرَّاح على أسنانها تُنقِّل بصرها بين زوجها والصَّبية، ثُمَّ هبَّت تُلبِّي الأمر وهي تلوكُ المثَلَ: يا مَن شَرَى له من حلاله عِلَّة!

صاح عليها أبو جرَّاح:

«ما اشتريناها ولا ورثناها يا امرأة! خلقها الله حُرَّة!».

«لكنها رضعت من عبدة -وكلنا عبيد الله- ولها منها أَخوان من الرّضاع».

واحَرَّ قلبي لو نويت يا أبا جَرَّاح! سارت تُهاوش هواجسها صامتةً وهي تجرُّ فضَّة إلى المغسل المظلم الرَّطب. *لا بارك الله في يومٍ أدخلتك فيه بيتي.* نفذَ ضوء الشَّمس من هُوَّةٍ مربَّعةٍ في الجدار واستقرَّ على دكَّة المغسل المحاطة بالظلمة. *دخلتِ علينا من الباب وطارت البركة من السَّطح.* شمَّرت أُم جرَّاح عن ساعديها قبل أن تنزع عن الصَّبية ثيابها البالية القذرة، وأجلستها على دَكَّة المغسل في الضَّوء. صبَّت الماءَ على رأسها، ونضحَ المكان برائحة الطِّين ما إن هبط الماء من جسد الصبيَّة إلى الأرض. فضمَّخت شعرها بطينِ خاوَة اللَّزج، ودعكت جسدها بصابون السِّدر، وفركته بليف النَّخيل حتى رغَّى وتجمَّع على كتفيها وبين فخذيها كثيفًا مثل قُطن النَّدَّاف. فتوقفت أُم جرَّاح ونفضت يديها، وأسندت ظهرها إلى الجدار الطِّيني في الجانب المظلم، على حين راحت الصَّبية العارية تنظِّف نفسها بسرعةٍ وحياء. [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 138/ 1990]. بحلقت صاحبةُ الدَّار إلى فضَّة فاغرة الفم، تطوفُ ببصرها على تقاسيم الجسد الحِنطي الرَّطيب المشعِّ بضوء الشَّمس، يتلامعُ مثل بَلَحَةٍ نديةٍ تدلَّت من عِذقها في يومٍ مطير. لهثت أُم جرَّاح غيرةً وتضَوَّرت حسدًا إزاء مرأى فضَّة اليانعة بين يديها؛ تتحرَّك بخفَّةٍ مثل مُهرة في ربيع الفيافي. شعرٌ غزيرٌ أسود ينحدر على ظهرها صِنْوَ حرير الهند، وجسدٌ ليِّنٌ مطواع مَثيل غُصين شجرة اللُّبان، وجِيدٌ حِنطيٌّ

منحوتٌ دقيقٌ كجيدِ الغزال، وبُرعما نهدين يتطلَّعان إلى الأعلى في أوَّل بزوغِهِما، وبطنٌ صقيلٌ أملس لا أثر فيه إلا ثقب السُّرة يُذكِّر الرَّائي أن هذا الملاك النَّدي من نسلِ آدم. وفخذان مشدودتان مثل جِلدة الدَّف، و[طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 138/ 1990]. .. وساقانِ يسُرَّان النَّاظرين ويُثيران حسدَ النَّاظرات. كل هذا والفتاة ما بلغت حيضتها الأولى بعدُ. ***لام الله من لامك يا أبا جَرَّاح.. افعل بها ما تشاء خليلة لا حليلة، كحال «العبدة».. ولكن زواجك والله لا يكون إلا على موتي!***

وكما لو أن أُم جرَّاح أطلقت من عينيها سِهامًا حاسدة، أصابت فضَّة بشرِّ العَين الشِّريرة، فأمسكَ جسدها عن النُّمو والنُّضج مُذ أبصرتها تغتسل على الدَّكة، وتأخرت حيضتها ثلاثة أحوال. والعين حقٌّ، تُدخل الرجلَ القبر وتُدخل الجَمَل القِدر، فما يكون فِعلها بصبيَّةٍ ضعيفةٍ مثل فضَّة؟ واستحال انتقالُ فراش الصبيَّةِ إلى حُجرة بناتِ أبي جرَّاح البالغات جحيمًا، مُنعت من الخروج من البيت، وما سلمت الصَّبية يومًا من قرصةٍ ولا رفسةٍ ولا شتيمةٍ في أفضل الأحوال. وما كانت أُم جرَّاح إلا أن تتفنَّن في تقبيحها في عين زوجها الشَّيخ الذي أمر بالاعتناء بها كواحدةٍ من بناتِه. حاولت أُم جرَّاح أن تفتعل ما أمرها به الزَّوج غير أنها ما استطاعت طول الوقت، فأبقت على الصَّبية البُخنُق الأسود مثل بناتها لكن من غير التطريز الذَّهبي. لا تناديها باسمها إلا في حضرة أبي جرَّاح؛ يا فضَّة، وفي خروجه ينسِبنها إلى أُم سرور، فيصيرُ اسمها على لسان زوجته وبناته «بنت العبدة».

وأطعمتها صاحبة البيت من الثُّوم والبصل ما جعل رائحتها تسبقها أينما حلَّت، تدفع القريب منها إلى النُّفور. وتُلبسها زاهي الثياب مثل بناتها إذا ما حضر أبو جرَّاح، وهو نادرًا ما يحضر إلا في آخر اليوم. وما كانت تخفي بغضها للصَّبية كُلَّما لاحت لها في الحَوْش أو اللِّيوان[1] بثوبٍ من أثواب بناتها. تعبسُ في وجهها. تكزُّ على أسنانِها وتُخاشنها في الحديث: ما أقبحَ السِّرجَ على البقر! منذ دخلتِ بيتي طارت البركة.

كانت ربَّة الدَّار تُفلي رؤوس بناتها تنتزع القملَ والصِّئبان من دون أن تقصعها. فتجمع في طاسةٍ صغيرةٍ من القمل ما يفوق الذي تحمله اللَّوْهَة في ريشها الأسود. وتدَّخره لرأس فضَّة إذا ما راحت تتظاهر أمام زوجها بأنها تُفلي رأس الصَّبية وتُمشِّط شعرها قبل دهنِه بزيوت الهند. وما كان كيد أُم جرَّاح ينطلي على أَمَتِها السَّوداء، بيد أن أُم سرور شأن العبيد تُجيد الإنصات والعمل في صمت. وما كانت تقول مواسية الصبيَّة التي أرضعت إلا: الله يرزقك على قد نيَّتك يا فضَّة يا بنت عبدالرحمن وقماشة.. رجل لا ينسى اللهَ.. ويخاف اللهَ فيك.

وما كان لابنة عبدالرحمن وقماشة من أمنياتٍ إلا اثنتين، ترضى بإحداهما أَتَمَّ الرِّضا إذا ما تحقَّق قبل الآخر؛ أن يعود أبوها

(1) ليوان: الموضع المسقوف المقابل للغرف المطلة على الحوش في بيت الطين التقليدي. (محرر وزارة الإعلام).

ليأخذها إلى الزُّبير حيث راح ولم يعُد، قُرب النَّخل الكثير وعذب الماء الوفير، أو أن تكبر وتتزوَّج بـ سليمان ولد شايعة الذي يسكن في آخر السِّكَّة. ذاك الصَّبي الذي تستلطفه بنات الحيِّ كُلُّهن، بما فيهنَّ بنات أبي جرَّاح، وقبلهُنَّ الجارة شريفة التي تُطارد الصَّبيَّ وتستدرجه إلى الحديث كما لو أنها لا تكبره بخمس سنوات. الصَّبية الحسود الحقود التي تخشاها بُنيَّات الحيّ، يتغامزن إذا ما جاء ذِكرُها ويُرقِّصن حواجبهُنَّ مثل النِّساء الكبيرات: *الرازقُ في السَّماء والحاسدُ في الأرض*. ولا رازق إلا الله، ولا حاسد إلا شريفة.

ما شعرت فضَّة بأمانٍ قبل انتقالها إلى حُجرة بنات أبي جرَّاح، بعيدًا عن حضن مُرضعتها أُم سرور، إلا قُرب سليمان إذا ما لعب الصِّبية والبُنيَّات لُعبة «الخروف المسلسل»، حينما يفلت مؤدي دور الخروف المسعور من سلاسله، يركض وراء البُنيَّات يحاول نطحَ أضعفهن، ويلحق بـ فضَّة ويحكرها في سِكَّةٍ سَدٍّ لا مفر لها منها، فتصرخ الصَّبية: اِلحقْ عليّ يا سليمان! فيلحق بها سليمان ويطرح الخروف المسعور أرضًا. هو الأمان الذي تنعم به قرب الصَّبي، طِفلةً تلعبُ لُعبة بَرُّوُي في السَّاحة الصَّغيرة المقابلة لمقبرة «بِن حَقَّان»، ترتدي الدرَّاعة والبُخْنُق الخالي من التطريز الذَّهبي، وقتَ يُحاكي أطفالُ الحيِّ الكبارَ، يتقمَّصون شخصياتٍ غير شخصياتهم ويرتجلون حوارات تمثيلية؛ هذه أُمٌّ تحملُ دُمية رضيع تتظاهر بإرضاعه، وتلك جدَّة تحكي القصص للأحفاد المتحلقين حولها، والأُخرى صاجَّة تنثرُ

القواقع والأصداف تختلقُ نبوءات لا تصيب. وتلك نسوةٌ مجللات بالعباءات ينتظرن عودة البحَّارة في مشهدٍ يُحاكي يومَ القُفَّال على السِّيف.. هذا نجّارٌ وذاك خبّاز، وهذا غَيصٌ وذاك نُوخِذا والآخر فارسٌ يمتطي سعفةً مثل حصان، ويُشهر غُصنًا مثل سيف.

وما أحبَّت اليتيمةُ دورًا تؤديه بين الأطفال إلا زوجة لـ سليمان بن سهيل في ضُحى زفافٍ يضجُّ بزغاريد بُنيَّات الحَيّ، حتى تمنَّت في قابل الأيام حياةً آمنة تشبه تلك التي اختلقتها وارتجلت حواراتها في لعبة المحاكاة؛ بَرُّوي، قبل حرمانها من الخروج إلى السِّكَّة. وما احتفظت الصَّبيَّة بتعويذة أمانٍ إلا: اِلحقْ عليّ يا سليمان.

لطالما تمنَّت الأُمَّهات في «المطبَّة» سليمانَ زوجًا لبناتهنَّ منذ صغره؛ ولدٌ طيِّب النَّسَب حَسن الذِّكر متديِّنٌ رزينٌ حَييٌّ عاقلٌ غير مكويٍّ على رأسه. يحرصُ على حُسن الصِّيت وما خشي شيئًا مثل خشيتِه اللهَ أوَّلًا، وكلام النَّاس.. أوَّلًا، فلا يُفرِّق بين هذا وذاك. يُراعي الله والخلق خشية أن يؤثم، أو أن تبدر منه نقيصة تجيءُ بسيرته على ألسِنة النَّاس. كأنما ما خلَّى له الفقُر ما يستثمره فاستثمر في صيته، يكبر بمدائح النَّاس وثنائهم. أورثه أبوه بيتًا مرهونًا للنُّوخِذا، ليس له من يقاسمه الإرث إلا أُمه التي سوف تورِّثه البيت بعد حين. ولدٌ وقورٌ اعتمر الغُترة في سِنٍّ صغيرةٍ جدًّا، ووحدها فضَّة تدري أنه بكَّر اعتمارها ليُخفي أُذنيه الكبيرتين. ولدٌ لديه فوق كُلِّ خصاله هذه مزيَّة فريدة؛ فهو رَبيبُ شيخِ البحَّارة

سَنَد بِن هولين، الشَّيخ الأرمل الهَرِم الذي حرمه الله من الذُريَّة فصارَ صانعًا للرِّجال. وأُم جرَّاح كانت واحدة من تلك اللواتي يرغبنَ في سليمان نسيبًا لو أنها لم تُرضعه بضع رضعاتٍ مُشبعات، هي تعرفه مُذ مولِدِه وقتَ وضعِها ابنتِها الأخيرة، وتشهد دار أبي جرَّاح عدد المرَّات التي ضمَّته في حَوشها يرضعُ حينما كانت شايعة خالية من الحليب. لكن لا جدال في الأمر، سليمان ابنها من الرّضاع وأخو بناتها.

ولمَّا شكَت لها بناتها ذات يومٍ من ميلِ فضَّة إلى سليمان وسؤالها المتكرر عنه بعد حبسها في البيت؛ لمعت عيناها وافترست الفرصة، *فلتحِض فضَّة أوّلا، فيأخذها سليمان قبل أن يتزوجها أبو جرَّاح فأتحسّر عدد شعر رأسي*. لكن النُّوخِذا بن حامد سأل أبا جرَّاح عن اليتيمة التي يُربِّيها في بيته، وأبدى اهتمامًا بالصَّبية التي تنعتها النِّساء بأنها تنضج على مهل، جميلة يتيمة بلا أهلٍ ولا عزوة. لم يُبد النُّوخِذا رغبة صريحة في الزَّواج سابعةً بـ فضَّة التي تأخرت حيضتها وتوقَّفت مفاتنها عن النُّضوج، لكنه أشار إلى ذلك باهتمامه كأنما ينتظر بلوغ الصَّبية السِّن المناسبة. فرِحت ابنة الجيران شريفة لمَّا سمعت الخبر، عسى أن يكون سليمان من نصيبها إذا ما راحت فضَّة لـ بِن حامد. شريفة الهائمة بابن الجيران وقد كبُرت وكبُر قدر الفتى الوسيم في نفسِها. أحبَّت الفقير وهي تعيشُ حياة الشَّيخات مع أُمِّها العجوز وإخوتها وزوجاتهم بلا زوجٍ ولا ولد. ورثت عن أبيها ثروةً ملَّكتها كُلَّ شيء إلا ما تشتهيه، وصبرت. حاول رجالُ البيت إجبارها على

الزَّواج لو لا أن أُمّهم العجوز وقفت في وجوههم جميعًا: «لا جابر على شريفة»، تحوُف ابنتها الوحيدة بالخادمات والذَّهب والعطور، وتخُصُّها بمحبةٍ مضاعفةٍ ولا تسميها إلا: «دلُّوعة بيت العِزِّ وشمعة الجُلَّاس».

أمَّلَت دلُّوعة بيت العِزِّ نفسها بالخلاص من فضَّة بين حامد، وهي التي ما رغبت في شيء إلا وصار، غير أن أُم جرَّاح استكثرت على فضَّة زيجةً بتاجرٍ تتمنَّاه لواحدةٍ من بناتها. فاستعجلت تُجمِّل فضَّة في عين أم سليمان: ولدك في منزلة ولدي، وفضَّة ربيبتنا.. سهيل أبو سليمان وعبدالرحمن أبو فضَّة مَثيلان، ونِعْم الأهل والجماعة، والنَّسَبُ واحد، ويا لبخت من وفَّقَ رأسين بالحلال. لكن أُم جرَّاح لاذت بصمتها، وتأجلت رغبتها بالخلاص من فضَّة حينما سألتها الحُبارى عن الصبيَّة: هل حاضت؟

ولمَّا أوصت كبيرة صاجَّات الدِّيرة أن تتنشَّق الصبيَّة دُخان شعر أُم جرَّاح محروقًا، لَم تُشف فضَّة من شَرِّ العَين ولَم تَحِض، فعقدت الصاجَّة شعرةَ أُم جرَّاح بشعرةِ الجارة شريفة، وتنشَّقَت الصبيَّةُ دخان الشَّعرتَين، فزالت شرور العين. ونضَحَت بُشرى البلوغِ متأخرةً دمًا خاثرًا بين فخِذَيها، فزارت شايعة دارَ أُم جرَّاح. أقبلت تُعاين الفتاة التي بالكاد بلَغَت وفحصتها، قبل أن يُوفَّق الرأسان بالحلال، وقبل أن تضُمّها إلى دارِها زوجةً لوحيدها. عانقت الصبيَّة مُرحِّبةً تعتصرُ جسدها، وشمَّتها أثناء تقبيلها. وأجلستها إلى جوارها، تُربِّت على

كتفيها وصدرها وفخذيها. ومسحَت على رأسها ومرَّرت أصابعها خلل شعرها. قرصَت خدَّها تحبُّبًا ودلالًا وتأكُّدًا من خلو وجهها من مسحوق زينة. اطمأنت شايعة للصبيَّة. *حقيقية*. فطارت إلى دارها تُبشِّر سليمان بما رأت وعاينت. وتزوَّجت فضَّة بمن أرادته نفسُها، وفي اللَّيلة التالية لخروجها من بيت أبي جرَّاح ماتت زوجته في نومها عابسة الوجه. فلملم الشَّيخ أغراضه وأبناءه وعبيده وسافر إلى الهند. وما انفكَّت النِّسوة في نمائم غسل الثيَّاب على السِّيف أن تذكر بيت أبي جرَّاح في المطبة، غادرته فضَّة بنت عبدالرَّحمن فغادرته البركة.

صمتت فضَّة عن ترديد تهويدتها بعدما غطَّ الرَّضيع في سُباتِه. وراحت تتفحَّص وجهه وثغره الباسم، وداعبت أُذنيه الكبيرتين مثلَ أُذُنَيّ أبيه. تتذَّكر ليلة الوضع في هذه الحُجرة قبل ثمانية أيام، بعد مخاضِها بين طبيبة مَشفى الإرسالية وحماتِها شايعة أُم سليمان وكبيرة الصاجَّاتِ أُم حَدَب.

* * *

اقتربت أُم حَدَب وشايعة إلى الوليد بعدما انصرفت الطَّبيبة الأمريكية. وتحقَّقت الصاجَّة من سلامةِ أطرافِه وأحصت أصابع كفَّيه وقدمَيه، فبسملت الصاجَّة وحمدلت وحوقلت:

«عشرون».

أردفت:

«سبحانه، مَن كمَّل الخارج يكمل الدَّاخل.. ما عليه شَرّ إن شاء الله».

غابت شايعة بين حمدٍ وتسبيح بعدما أبصرت أُذُنَيّ حفيدها:

«سُبحان الله.. له أُذُنا أبيه وجَدِّه.. أُذُنا الحُصْني»[1].

أبعدت الصاجَّةُ القابلةَ، وراحت تُعالج حبلَ السُّرة بعدما كسرت تحت قدمَي الرَّضيع ثلاث بيضات. ثُمَّ عقدت حاجبيها مكفهرَّة الوجه، مُنصرِفة عن أُذُنَي الوليد الكبيرتين ما دامتا مثل أُذُنَي أسلافِه فلا غرابة. اقتربت منها شايعة تهمس:

«خير يا صاجَّة؟ علامَ وجهك مخطوف».

برطمت أُم حَدَب قبل أن تُجيب وهي تُبحلِق إلى وجه الوليد مُطبقةً إصبعيها على حبلِه السِّري:

«الولد حلو اسم الله عليه.. غطوا وجهه فإن عين الحسود حق.. وإن مِن بين صويحباتك يا أُم سليمان مَن هي عاقر.. ولو رأته وفزَّ قلبها قد يصيبه الشَّر، كافانا الله».

استعاذت شايعة من الشَّر، فأمسكت الصاجَّة بكفِّ الرَّضيع الطريَّةِ تترجمُ خطوطها:

---

(1) حُصني: ثعلب الصَّحراء. (محرر وزارة الإعلام).

«الولدُ في عافيتِه، لكن فأله سيئ، والنَّار في أوَّل الدَّرب».

* * *

تنفضُ فضَّة رأسها وتستعيذ من الشَّيطان، وتطردُ من ذاكرتها نبوءة النَّار التي لفظتها الصاجَّة بعد ساعة الوضع. وينقبضُ صدرها وهي تتذكَّر قرار حماتها الصَّارم إذ حَسَمت:

«لن تُشعَل نارٌ في بيتي إلا وأكون موقدتها ومُطفئتها».

رفعت فضَّة رأسها عن وجه الرَّضيع الغافي، ونظرت ناحية السِّراج المنطفئ عبر غِلالة خيمة السَّرير:

«***فأل الله ولا فألك يا أُم حَدَب***».

* * *

(4)

My Arabian Days and Nights

«بركات الرب وعطايا اللّه»

ـــتطع النوم طيلة الليلة الماضية بسببه. فمررت على الأطباء والممرضين اليوم بعد خدمة الأحد أعرض عليهم دواء شركة Woodward وأكد لى كل من سألت أن شيئا من هذا لم يمر عليه من قبل. انشغلت عن أمر دواء عرافة الجزيرة بمبروكة التى خرجت من الحجرة الكنسية ترتدى عباءة. فهى لا تستخدمها إلا لأجل تأدية واجب عزاء أو حينما تقابل حبيبها الغيور الذى ترفض الإفصاح عن هويته. ولأن الفترة بعد الصلاة الثالثة -صلاة العصر- ليست ملائمة للمواعيد الغرامية أمام أبصار الأهالى المحافظين فقد رجحت السبب الأول. قلت لها عند عودتها قبل بدء وردية المساء. «فليرقد بسلام.. لكن من هو؟».

بعد ثلاثة شهور من اليوم نحتفل بالسنة الرابعة لانضمام مبروكة إلى الإرسالية. بعد أن وهبها الرب بركته وشفاها من مرضها وحرر روحها. لم أرها فى تلك السنوات على هذه الحال قط، كأنى لا أعرفها. فأنا ما رأيت دموعها إلا مرتين؛ فى زيارتها الأولى للمستشفى عندما تعافت من الحمى، وفى زيارتها الثانية بعد سنتين بالضبط، عندما جاءت تطلب النجدة لسيدها ملا مسجد السوق فى ديسمبر ١٩١٦. دموعها اليوم كانت

مختلفة. احتضنت مبروكة التي أثارت قلقي. سألتها ثانية عن المتوفي فأجابتني: «قلبي».

جاءت مبروكة من عند صخرة ساحل الوطية[1]، الساحل المقابل لأرض الإرسالية. والوطية في لهجة الكويتيين -ليست كما كتبت سابقا بأنها تعني القدم- إنما تعني الخطوة أو الموضع الذي تحط فيه القدم. جاءت الفتاة من عند تلك الصخرة التي يثير الناس حولها الأقاويل. صخرة مثل كل صخور البحر. سوداء ليست كبيرة ولا صغيرة، تعلق عليها محارات البرنقيل، وتنمو فيها الطحالب فوق تجويف يشبه باطن القدم وإلى جواره ثقب غير عميق. يقال إن النبي وصانع المعجزات «القديس جورج» -يسمونه الخضر- ترك العلامتين قبل قرون على سطح الصخرة، عندما مر من هناك قبل عبوره البحر إلى جزيرة فيلكا.

---

(1) صخرة الوطية: ذكرت في باب مسوخ السِّيف في «كائنات مدينة الطين»: [هي الصَّخرة السَّوداء الماكثة في سِيف الحَيِّ القِبلي، تتبدَّى بأكملها للسابلةِ ساعات انحسار الماء. وتذهب الصاجَّات في قولهنَّ عن كاتب الأسفار إن صخرة الوَطْية العجوز تشهد وتسمع كُلَّ ما يدور حولها إذا ما تبدَّت في أوقات الجزر، وتنسى الصَّخرةُ كُلَّ ما سمعت وأبصرت إذا ما عادت مياه المد تغسل ذاكرتها وتغمرها بالماء. ويعزو بعضُ الأهالي الثَّقبَ والتجويفَ المستطيل على سطح الصَّخرةِ إلى الخِضر عليه السَّلام، قيلَ إنهما أثَرا عَصاهُ وقدمه اليُمنى، حينما وطأ السَّاحل الذي أسماه النَّاس ساحلَ «الوَطْية» نسبة إلى وطأة قدمِه اليُمنى المزعومة قبل دهر، يومَ خطا خطوته العظيمة من مدينة الطين إلى جزيرة الماء، حيث شُيِّدَ المقام هُناك في الموضع الذي حطَّت فيه قدمه اليُسرى..]. بيد أن المحقَّق في قديم الأسفار، ومما جاء عنها في النسخة الوحيدة من «سِفر الخلود»: [.. قال إن الصَّخرة في أصلها كانت ربَّة الذَّاكرة السَّوداء بذاتها، ولمَّا زاحمت ربَّةَ الذَّاكرة الزَّرقاء لمدينة الطين أثناء كتابة السِّفر، وبثَّت ذكرياتها السُّود في ثنايا الصحائف، ونهلَ منها كاتبُ الأسفار قليلًا.. ما استطاع أن يُكمل في سواد الذَّاكرة سبيلا، فأخرسها بمسخها في صورة صخرةٍ تستقرُّ بين البرِّ والبحر، ترى وتسمعُ كلَّ شيءٍ لكنها بلا ذاكرة]. (المؤلف).

التقت مبروكة حبيبها -الذى أسمته اليوم عطا اللّه- فى مكانهما الأثير بعيدا عن أعين الناس، ولكنى لم أعرف لماذا خيرها المدعو عطا اللّه بين العمل فى المستشفى وبين استمرار حلمهما بالزواج. ولست أدرى بماذا تجيبه مبروكة فى لقائهما المقبل.

هذا اختبار لإيمانك مبروكة، وأنا لا أخشى عليك لأنك «مبروكة الأولى» أيتها «الأنثى المباركة».

* ملاحظة ١:

خرجت النساء صباح اليوم لاستقبال البحارة، رغم أننا لم نسمع مدافع القصر تعلن انتهاء موسم الغوص كما جرت العادة. شعرت بالأسف تجاههن فقد عدن إلى بيوتهن فى آخر اليوم وحيدات حزينات.

* ملاحظة ٢:

أرسلت جماعة الإخوان رسولا للشيخ الحاكم ظهر اليوم، ولم تردنا فى الإرسالية أخبار الزيارة رغم أهميتها بعد هزيمة الكويت قبل أربعة شهور أمام الإخوان فى منطقة حمض.

Eleanor J. T. Calverley
Sunday, September 19, 1920
09:45 PM

(5)

سُرَّة سُليمان

«ميثاقُ الشَّيخ والبَحْر»

القمرُ في تربيعه الأوَّل، يطلُّ فضِّيًّا شاحِبًا على السَّنْبوك «الحامِدي» الطَّافي على مياه الخليج. وسماء اللَّيل صحوٌ في أواخر ليالي موسِم الغَوص الكبير.

التقمَ سليمان تمرةً مَدَّها إليه شيخُ البحَّارةِ سَنَد بِن هولَيَن. وكان الشَّيخُ الذي سلخ من السنين سبعين قد ادَّخر تمرتين من حِصَّة غدائِه في نهار الأمس المُنهك. نهار أهدر فيه الغاصةُ كلَّ قواهم لجمع أكبر قدرٍ من المحَار في أواخر أيام الموسم.

يتربَّع الشَّاب فوق حبالٍ مُهمَلة، قُرب مؤخرة السَّنْبوك الخشبي الثابتِ على صفحة الماء، يلوكُ التَّمرة يُذيبها في فمه على مهل، ويمتصُّ عُصارتها السُّكريَّة فتُنعش روحه بعد يومٍ مالح.

مياهُ الخليج ساكنة، والبحَّارةُ وراءه يتناثرون نيامًا على ظهر السَّفينة مثل قتلى معركةٍ ضروس، لولا شخير البعض وغمغمة أحدهم لا يكفُّ الكلامَ أثناء نومِه. وأسفل السَّقيفة في المؤخرة غير

بعيدٍ عنهما يغطُّ النُّوخِذا بِن حامد في النَّوم مُلتحفًا إزاره، ونارجيلته الأثيرة تستريح إلى جوار رأسه.

العَم سَنَد بِن هولين يقاسمُ سليمانَ السَّهر في نوبةِ الحراسةِ الليلية، بعدما نام البحَّارة بُعيد صلاة العِشاء. يجلسُ الشَّاب والشَّيخ الهَرم إلى جوار تَلٍّ من المحَار حاصل غوص الأمس، مئات من الأصداف المطبقة تمضي الليل بطوله، يرتخي عضلها على مهلٍ فيسهُل فلقها فجرًا وقتَ استيقاظ البحَّارة.

سليمان يُبحلِقُ ساهمًا إلى صفحة الماء، وليلُ سمائه منثورٌ بالأجرام المضيئة كأنه عباءة أهرأتها الثقوب. يُبصر في الماء السَّاكن سطوع النُّجوم. ويتذكَّر، فيتفكَّر. ***لطالما حذَّرت الصاجَّات من نزول النُّجوم. قالت إنها إذا ما نَزَلَت كانت نذيرا***. يُطبق جفنيه يفتش في ذاكرته عمَّا يُطمئن قلبه من القرآن الكريم. ***والنَّجمِ إذا هوى، ما ضلَّ صاحِبُكم وما غَوى***. فتسري في جسده رعشة عابرة.. تتلاشى فيطمئن.

يبدو نصفُ القمرِ منطفئًا لا هالة له. يمصمصُ الفتى المطمئنُّ أطراف أصابعِه، يزيلُ دبقَ التَّمرة ويُبقي نواتها داخلَ فمِه. يُقلِّبُها بلسانِه يستدرُّ ريقَه، ويجفِّفُ أصابعه بإزاره المِدراسي المهترئ ويُدندن بلحنٍ شَجي. فيُمعِن شيخُ البحَّارةِ النَّظرَ فيه ساهِمًا باسِمًا. فيُبادره رادمًا جدار الملل بصوتٍ خفيض:

«تُشبه أباكَ رحمهُ الله».

يُمسك سليمان بشَحمتَي أُذُنيه يمطُّهما إلى الأسفل وهو يبتسم. فيهزُّ العَم سَنَد رأسه:

«ما قصدتُ أُذُنَيّ الحُصْني يا ابن سهيل..».

فيُعلِّق شيخُ البحَّارة جملته، ويُطيل ابتسامته في وجه الفتى فيستطرد:

«..أنت مثله تُحبُّ السَّكينة».

يُدير سليمان وجهه يكتمُ ضحكة. ينظرُ من وراء كتفه إلى بحَّارٍ كثّ الشَّارب، تتراءى صلعته في نور القمر المنطفئ، ويتكلَّمُ في منامِه:

«سويعات ويصحو الهذَّار يلُجُّنا بهذرتِه!».

يُفلت شيخُ البحَّارة ضحكة من أنفِه، وهو ينظرُ جانبًا إلى عَزُّوز الهذَّار ينسدح على ظهره، مُطبقًا عينيه الكحيلتين، يشخرُ بهدوء، فاغرًا فمه أسفل شاربِه الكثّ. وتندلق من فمِه المفتوح كلمات غير مفهومةٍ وسط الشَّخير المتقطع. ويُطبق كفَّه اليُسرى على الحافظة الجلدية التي عقدتها الصاجَّةُ أُم حَدَب حول عَضُدِه اليُمنى قبل سنوات. تحوي الحِرْزَ الحريز ذا التَّمائم الثَّلاث، حماية من الشُّرور وطردًا للكوابيس وتعجيلًا بمجيء مولودٍ غائب طال انتظاره.

وحده شَيخ البحَّارة يُشفق على الهذَّار رغم اتفاق الجميع على بغضه، وما كان للنُّوخِذا بِن حامد أن يقبل به بين رجال سَنْبوكِه لولا وساطة العَم سَنَد.

* * *

حارَ أهل الدِّيرة في أمر عَزُّوز وقتَ مجيئه قبل سنين، تاركًا وراءه في الجزيرة قبرين وعمَّة عزباء. أقبل الزَّاروع[1] حافي القدمين رثَّ الثِّياب، يبحث عن عمل في ديرةٍ لا زرع فيها. شابٌّ يتيمٌ فقيرٌ من جزيرة فَيْلَكا. هذا ما يعرفه النَّاس عن الشَّاب الذي وُلِد في تلك الأرض الطَّافية على رأس الخليج، لعائلةٍ هاجرت جزيرة «خارْج» بعد احتلال الهولنديين وتأسيس وكالةٍ لشركة الهند الشَّرقية الهولندية فيها. واستقرَّت العائلة في جزيرة فَيْلَكا وتناسلت جيلًا بعد جيل. وجاء عَزُّوز وترعرع في بيتٍ فسيحٍ مع أبويه وعمَّته زمزم. بيت عُرف بشجرةِ طَلحٍ مُباركةٍ عظيمةٍ شمخت في حَوشِه الفسيح.

استغرب الجيران في الدِّيرة أمر الشَّاب اللَّجوج الذي وفدَ إليهم لا يكفُّ الكلام، يكبرُ وتكبرُ معه عِلَّةٌ في لِسانه. صادقٌ طيِّب القلب لا يقصد أذية الآخرين، غير أن عِلَّته مؤذية لا تُحتمل. فرَّ منه النَّاس في السُّوق والسِّكَك، ينجون بأوقاتهم من خساراتٍ جسيمةٍ إذا ما راق للهذَّار أن يحكي حكاية مُعادة للمرَّة الألف. حتى المصلِّين في المساجد يخشون هجماتِه الكلامية. يتحصنون بصلواتٍ وتسابيح مضاعفةٍ إذا ما أبصروه مُقبلًا عليهم في المسجد. ويتثاءب الزَّمنُ ويمرُّ بطيئًا وهُم يشغلون أنفسهم بين سجود وركوع، حتى إذا ما فرغ الهذَّارُ من صلاة الفرض والسُّنَّة وانصرف فرغوا هُم من صلاتهم. وكأنما يتوقف بهم الزَّمن في حضوره، فيميلُ واحدهم

(1) الزَّاروع: المزارع. (محرر وزارة الإعلام).

على الآخر يسألُ همسًا دونما التفات: راح؟ وإذا ما جاء الرَّدُّ «راح»؛ تسارع القومُ يخرجون من المسجد إلى أعمالهم كأنما الحياة قد عادت ثانية إلى الزَّمن المجمَّد.

يؤتمنُ الفأر على شحمةٍ ولا يؤتمن الهذَّار على سِر، هذا ما يردِّده أهلُ الدِّيرة عن رجُلٍ، على ما وُصِفَ، لِسانُه يلوطُ آذانه. أشاعوا مُنذ مجيئه أقاويل تُفرِّخ الأقاويل، ويحلو لبعض العوام تصديقها وإن جاءت في ثوب خرافة. قيلَ إنه ابتلع لسانَ دجاجةٍ من دجاج خيبر في الجزيرة عندما كان صغيرًا، وبُلي بمرض الكلام الأبدي. قيلَ إن بعض البحَّارة أبصروا زائدة لحميَّة تُشبه اللِّسان تحت لِسانِه وهو يشخر مفتوح الفمِ، فأسماه البعضُ «أبو لسانين». قيلَ كلامٌ كثيرٌ عن كثير كلامه. ولا يدري أكثرُ أهلُ الدِّيرة عنه إلا ما أشاعوه، فهو يتكلم في كل شيء إلا ماضيه الأخضر في الجزيرة. ولا يدري إلا القليل، ومنهم شيخ البحَّارة، أن الهذَّار فقد أباه وهو في الثالثة من عُمره. مات الأبُ مُلتهب الأُذُن عقب موسِمِ غَوص بعدما أغرته زرقة البحر عن خضرة الفِلاحة. يقول الرِّجال إنه مات بسبب ملح البحر، وتردُّ نساء الجزيرة سبب موته إلى امرأتِه المهذار؛ خَرقت أُذُنَيّ رجُلِها بثرثرتها حتى انفَهَقَ يافوخه.

ماتت أُمُّ عَزُّوز وراء زوجها بثلاثةِ أحوال، مُورِّثة وحيدها ذا السَّادسة لسانها العجيب. ماتت مُتربِّعة على الأرض وهي تُفَلِّي رأسَ ولدها الصَّغير. تُباعد أصابعها في مفارق شَعره وهو يُسند

رأسه إلى فخذها. كانت تنحني عليه وتتحدَّث كأنما تُزغرد. ثُمَّ توقَّف دبيب أناملها في مفارق شعره فجأة، فتنبَّه الولد إلى صمتِ أُمِّه، وما كاد يتعرَّفها في نوبة سكوت طارئة. رفع رأسه ينظرُ إليها مُطرقة لا تُجيب نداءه ولا تستجيب لضربه كتفيها؛ «يُمَّه!».

نادى عمَّته زَمزَم مذعورًا مُتمسمِرًا أمام أُمِّه الصامتة. وأقبلت العمَّة وسألها إجابة عن صمت أُمِّه. فمسحت المرأة على رأسه بعد سويعات وقد تأكدت لها الحال: «الله يرحمها.. ماتت».

أجابته زَمزَم، فعرفَ عَزُّوز الموتَ صمتًا.. خافهُ، وصارَ يطرده بالكلام.

شبَّ الهذَّار في القرينية شمالي شرق الجزيرة. وعاش في كنف عمَّتِه زَمزَم، أُم الخير كما يُسميها النَّاس هُناك، بسبب تصدُّقِها بصمغ شجرة الطَّلح المعمَّرة دواءً للمبطونين. كبر في بيتِ الطَّلحَةِ العظيمة قرب أطلال قلعةٍ قديمة، بين بساتين النَّخيل والسِّدر في القرينية. بيت مليء بدجاج خيبر لا يسكت فيه الضَّجيج. عاشَ بين بضع مئاتٍ يعيشون في سلامٍ ببركة حارس الجزيرة، صاحب المقام المشيَّد على ساحلها الغربي. وحينما وفدَ إلى الدِّيرة دلَّه أصحاب الدَّكاكين على العَم سَنَد، لعلَّه يقذف به في لجَّة البحر فيُخلِّصهم من هذرِه. ولَّما ضمنَ له شيخُ البحَّارة وظيفةً في سَنبُوك بِن حامد القديم تزوَّج عزُّوز بالمطلَّقةِ أمينة البيعاريَّة في الحال، بعد استلامِه أوَّل سُلفةٍ من النُّوخِذا. وفَّقَت خاطبةٌ بين الهذَّار والبيعاريَّة عسى أن يُخرس واحدهما الآخر، وأمضى عزُّوز

السِّنين يُسدِّد دَينًا بدَين في كُل موسم من مواسم الغَوص، وانتقل مع بِن حامد من سنبوكٍ إلى سنبوكٍ حتى استقرَّ في أكبرها الذي صار حديث النَّاس لفرادة طرازه؛ «الحامِدي». قيلَ إن الصاجَّة أُم حَدَب كشفت عن سوءٍ فألِ الهذَّار لزوجتِه البيعاريَّة: «اسمعي يا أُم غايب؛ يقول كاتبُ الأسفار عن الهذَّار في سطر من صحائف حياتِه: يشربُ الحلوَ والمالح، فينجو بحصانِه ويموتُ بلسانِه». لم تأخذ أمينة النبوءة على محمل الجد. *يا صاجَّة يا صاجَّة ما صدقتي*. لعلَّها واحدة من نبوءات الصاجَّة التي لا تُصيب، فلا حصان لزوجها الفقير ولا حمار، ولا مصدر عيشٍ إلا ما يجودُ به البحر.

***

وبينما يُقلِّب سليمان نَواة التَّمرة في فمه على حافَّة السَّنْبوك، وهو يبتسم لرؤية الهذَّار يُهمهم في رقاده، سأله بِن هولين هامسًا:

«ولهان للدِّيرة؟».

يُطرق سليمان ويُطلِق زفرة اشتياق:

«إي بالله وَلهان يا عَم.. للبيت ولطبخ أُمِّي.. الخِثرة يا عَم سَنَد الخِثرة».

تنطَّعَ الشَّاب بلسانِه يستدعي طعم هريسة السَّمك الخاثرة. وضيَّقَ العَم سَنَد عينيه يدفعه ليُفضي ويُفَضفِض عن اشتياقه لـ فضَّة دونما تسمية:

«بس؟».

سليمان يدري أن العم سَنَد يُشاكسه ويجرُّه إلى الحديث عن الحب. فينحاش الشَّاب بعيدًا في إجابتِه:

«وفي خاطري أشوف السور.. أكيد تمَّ بناؤه».

يُطيل العَم سَنَد نظره إلى سليمان بنصفِ إغماضة:

«بس؟».

تبسَّم سليمان:

«إن جئت للحقيقة يا عمِّي، ما غفل بالي عن التفكير بالمولود.. هل جاء أم لا.. ولد أم بنت».

«وغير المولود؟».

يشاكسه بِن هولين ويجيب الفتى على ما لا يشتهي شَيخه:

«أفتقد مجالسة سعدون على الدَّكَّةِ في رأس السِّكَّة.. يحكي لي قصص أسفاره إلى الهند واليمن وزنجبار..».

بقدر ما أحبَّ الفتى أقاصيص رحلات سعدون إلى الموانئ البعيدة، وأحاديثه عن أطايب طبخ الهند وفواكه إفريقيا ومغامراته مع النِّساء، بقي سليمان على عزمٍ لا يفتر، يُنصت إلى حكايات العوالم الغريبة في رحلات صاحبه ولا تُغريه فكرة القيام بها، كيلا يُباعد عن أسياف الدِّيرة التي يتعلَّق بها تعلُّق المرء بمكان دفن حبله السِّري.

اندفعَ شيخُ البحَّارة بِن هولين مُستفَزًّا لذكر صاحب الحَوْطة. كزَّ على أسنانه:

«سعدون؟! رفيقك هذا مثل التَّيس البوَّال، ضرره أكثر من نفعه!».

«الله يسامحه».

قال سليمان بصوتٍ خفيض، فأجابه الهَرِم:

«يسامح سعدونًا؟! الله المستعان. لطالما قالها أبوه المسكين: لن يسامحه الله إلا لو أثمر الصُّوف!».

«لكن الصُّوف لا يُثمر يا عم!».

«فاعلم أن ذنب صاحبك كبير..».

لم يفُه سليمان بكلمةٍ إزاء غضبة شيخ البحَّارةِ على صاحِبه سعدون. ورغم أن سليمان قد أقسم للعَم سَنَد بأنه لن يطأ عتبة الحَوْطةِ أبدًا، خوفًا على صِيتِه ودينه، وبأنه سوف يُضحي بمتعة أحاديث صاحبه راوي القصص مرضاة لله ولنفسه وبرًّا بقسَمِه، فإن العَم سَنَد أردف مُنفعلًا:

«..ومنذ متى يقعد فرخُ إبليس على دكَّات البيوتِ مثل الرَّجال؟! عليه العار والشَّنار، أهلُ الدِّيرة يَخبَرونه ويَخبرون خصاله، له من كل غائط لطعة. لا يجلس إلا في الحَوْطة، يُفسِد الشباب، ولا يُجالس إلا أبناء وبنات إبليس!..».

يوشك سليمان أن يقول شيئًا لولا مواصلة الشَّيخ:

«..ألا ترى كيف تفرُخ حوطته الوسخة أبناء الأباليس؟!..».

عدَّدَ شيخ البحَّارة على أصابعه الطَّويلة:

«..خَليفُوُهْ البَرَنْثَى[1]، وساطور الخوَّان، ومنصور الغَيص الله يسامحه ويرحمه، وسركيس النَّصراني، وبِن شاؤول اليهودي بيَّاع الخمر، وبنات حمدية القوَّادة -الله يُكرم السَّامع-، وكُل ساقط ليس له مِن لاقِط إلا مَن هو على شاكلتِه من أبناء الحرام!».

يتجاوزُ سليمان حديث الشَّيخ الهَرِم، فهو يدري أن العَم سَنَد لا يشيل ضغينةً شخصيةً لِـ سعدون الملعون بكلام النَّاس ونمائمهم، لولا ما يصبُّه النَّواخذة والمُلَّا إبراهيم إمامُ مسجد سوق الحريم في أُذُنِه. ربابنة السُّفُن والتجَّار يسخطون على سعدون ويُعادونه بسبب تأليبه البحَّارة ضد العمل في البحر، يهجوهُم في قصائده ويُسميهم عبيدَ التجَّار، كأنما هو لم يعمل لسنواتٍ في سُفُنهم الشراعية حينما شبَّ عن طوق الدِّيرة، وحملته السُّفُن إلى موانئ بوشهر وصُور والمُكلَّا وحضرموت، وأخرجته من خليج اللؤلؤ وقطعت به خليج عُمان، وشقَّ معها بحر العرب شرقًا إلى موانئ كراتشي وبومبي

(1) بَرَنْثَى: تُطلق على الذَّكر المتأنث: «بَرَنْثَى، لا ذكر ولا أُنثى». وهي صفة مبالغة مذمومة في تشنيع الرجل المتراخي، وليس كما تفترض الرواية إيهامًا للقارئ بوجود عينة من الرجال غير سويي الفطرة في الماضي، مع التأكيد أن ما جاء في باقي الحوار بشأن بيوت البغاء هو مبالغة بتكريس الاستثناء الشاذ عن القاعدة. (محرر وزارة الإعلام).

وكاليكوت، وإلى الغرب راسيًا في موانئ زنجبار ولامو ومومباسا، قبل أن تُقفل به السُّفُن إلى الكويت بوفاضٍ خالٍ إلا من دهشة السَّفَر وأعاجيب القصص، وحكايات اللهو والمجون في موانئ الدُّنيا.

***

اجتمع كبارُ الدِّيرةِ في سوق التجَّار في تَلّ «بْهيتة» قبل سنوات، مُقابل قصر السِّيف، يفكرون في وسيلة لإيقاف سعدون عند حدِّه. ولأن الشَّاعر الشِرِّيب الذي لا يُساوي قُلامة ظُفْرٍ أصغرُ مِن أن يُرفَعَ أمرُه بشكايةٍ إلى الأمير، فقد أوشك التُّجار أن يرسلوا منهم من يُحذِّره، لكنهم بعد مداولة الأمر فيما بينهم ساروا على ما قال المثل: «لا تُكبِّر الحمارَ بقولةِ: هِشّ». وما قالوا له هِشَّ ولا بِش، بل شكوهُ إلى المُلَّا إبراهيم، يُغَذُّون ناره حطبًا عن الشَّاب الذي ما انفكَّ يُقارف الآثام، ويهجو في شِعره المَلالوة والتُّجار والحُكَّام، ويؤكدون أخبار مجونه وكثير لهوه الذي شهد عليه البعض في الموانئ. وحذَّروا أن تركه هكذا دونما رقيبٍ ولا حسيب سوف يُشيع أفعاله الفاحشة بين الشباب، لا سيَّما وأن بعضهم يتلقَّف قصائده البذيئة ويدونها ويتداولها بين النَّاس، والدِّيرة يكفيها من البلاء ما يتداوله البعض من منشورات الإرسالية الأمريكية التَّبشيرية، والمُلَّا إبراهيم خصيم الإرسالية لا تنقصه كراهية لِـ سعدون وشِعره. شاعر الشَّيطان الذي طرده أبوه يافعًا لكتابته قصيدة أوَّلها كُفر. فرخ إبليس مدعاةَ

إفساد شباب الدِّيرة وعلى رأسهم تلميذ المُلَّا؛ منصور الغيص، حمامة المسجد حافظ القرآن، وأمهر الغاصَةِ وأشدهُم بأسًا، ذاك الذي قاده سعدون إلى بيوت البغاء في حيِّ الرُّمَيلة فأفسد خُلقه. سعدون صديق السُّوء اللعوب الذي مسَّهُ الشَّر وقلب حاله فتبرأ منه أهلُه وصدَّ عنه النَّاس. سعدون شارب المنكر الذي ينامُ النَّهار ويُقيم الليلَ نافِخًا في مزامير الشَّيطان. يجذبُ الشَّباب إلى حَوطَتِه، يقرأ لهم من كفريات شِعره، ويُطلعهم على الرسوم في «كتاب المفاسيخ» الذي ابتاعه الملعون من الهِند. ويُشبع فضولهم بقراءة حكاياتٍ سطَّرها في كُرَّاسِه عن اشتهاء حسناوات الموانئ وحرارة استقبالهنَّ للبحَّارةِ الغرباء. سعدون ابنُ الشَّيطان الذي وَسوَسَ أيضًا للـ «عبد» الآبِق ساطور العَرد، ودفعه إلى خيانة الشَّيخ الكبير قبل حَول. سعدون الملعون من أهل الدِّيرة جليسُ الموسات والخَمَّارين والقوَّادين. يتعجَّبُ أكثر النَّاسِ من أمر هجره المسجد، ولا يقبلون تبريرَ أقلِّهم بأنه غير مرحَّب به لدخول المساجد من قِبَل المصلِّين، مُتأثرين بأوامر المُلَّا إبراهيم خطيب مسجد سوق الحريم الذي وردته أخبار الشَّاب

في البلاد البعيدة فشنَّع فعله، شيخ الدِّين الذي تُطارده القِطَط متحفِّزة المخالب والأنياب إذا ما لمحته مارًّا متسربلًا بالبِشْتِ الرَّمادي المرقَّع. الشَّيخ غريب الهيئة الذي اِعتمر العُصابة البيضاء عوضًا عن العِقال. المُلَّا الأعور الذي يُسميه الناسُ تلطُّفًا؛ كريمَ العَين، ولا يتورَّع الأطفال، وحدهم، عن تسميته المُلَّا الأعور، فيزيدُ سعدونٌ في ساعات سُكره: الدَّجال.

ما عرفَ سليمان سعدونًا إلا صديقًا مارقًا، لم يؤذِ أحدًا غير نفسه. صادقه قبل سنوات في حِصَص الكُتَّاب في بيت المُلَّا عبدالمحسن، أو في ساحة مسجد السُّوق الكبير قبل افتتاح المدرسة المُباركية. وكان سعدون أكبر تلاميذ المُلَّا، الفتى المعتوه الذي طرَّ شاربه وتعلَّم القراءة والكتابة ولم يفلح في ختم القرآن حفظًا ولا تلاوة. لا أستطيعُ حفظَ ما لا أفهَم يا مُلَّا! ماذا تعني كلمة «كهيعص» في سورة مريم؟ ويُصحِّح المُلَّا الجالس على سحَّارة خشبية لـ سعدون نُطقَ أوَّل آيةٍ في السُّورة: تُلفظ الحروف منفصلة بأسمائها يا ولد؛ «كاف ها يا عين صاد»، ليست كهيعص يا صبي. وماذا يعني كاف ها يا عين صاد يا مُلَّا؟! فيجيبه المُلَّا ممتعضًا: سوف تفهم إذا ما كبرت. ويعاودُ الغُلام السُّؤال: ولماذا أنتظر حتى أكبر؟ أفهِمني الآن. فيصرُخ المُلَّا: تكبر وتفهم! وكبُرَ سعدونٌ وأدرك الخامسة عشرة، رجُلًا في سِنٍ تؤهلُه لدخول البحر غَيصًا ولم يفهم. يبدو مثل مخبولٍ بين تلاميذ المُلَّا الصِّغار، يمتدُّ رأسُه عاليًا بين رؤوسِهِم وأَثَرُ كيٍّ يعلو أُذنه اليُسرى، يظهر كُلَّما أعاد ربط غترته حول رأسه.

لا ينفكُّ سعدونٌ يُولِّد غريب الأسئلة: هل يُثمر الصُّوف يا مُلَّا عبدالمحسن؟ ولا يكترث المُلَّا لتلميذه الممسوس. وكان الحاج عبدالله بن صالح، والد سعدون، حريصًا على تعليم ولدِه شؤون دنياه، كي يُدير دفاتر حسابات تُجَّار اللؤلؤ إذا ما شَب، ولكن حرصه تبخَّر واستحال حرصًا على شؤون آخرة الفتى المخبول الذي فلِسَ من الدُّنيا. وما انفكَّ أبوه ينقدُ المُلَّا عبدالمحسن بين حين وحين أجورًا مُضاعفةً فوق الخميسية التي يدفعها كل خميس. يُسلِّم المُلَّا بيزتَين[1] ويوصيه: «عليك بـ سعدون، لا تتركه يا مُلاَّ قبل أن يختمَ القرآن كاملًا، حِفظًا لا تلاوة، ولو أدركه المشيب». تحمَّل المُلَّا الصَّبيَّ السَّؤول رغم ضيقه بأسئلته المستغلقة، لكن لـمَّا بلغه فعلُ سعدون في سطح بيته كلَّ فجر؛ طردَه من حوش الدَّرس، مُتنازلًا عن أموال أبيه. وقيل إن سعدونًا ختم القرآن قراءة، وحفظ القصص القرآني كاملًا بعد الطَّرد بأسبوع.

وبعدما طرده المُلَّا، طرَدَ أبو سعدون ولده من داره، بعد سنة أو يزيد، عندما قبض عليه متلبِّسًا بكتابة قصيدته. طار الأبُ بالقُصاصةِ إلى المُلَّا كريم العين يستفتيه، فأجابه كريمُ العين من القرآن الكريم ما يُفيد أن الشُّعراء يتبعهم الغاوون. وأمسك المُلَّا أو ربما نسي تتمَّة الآية. فأطبق الوالد باب البيت في وجه ولده. وحال

(1) بيزتان: للمُثنى، والجمع بيزات والمفرد بيزة، من العملات الهندية البريطانية المستخدمة في ذاك الزمن: بيزة وآنة ورُوبيَّة. (محرر وزارة الإعلام).

دونه ودون رؤيةِ أُمِّه وإخوته الثَّمانية. فشبَّ الفتى عن طوق الدِّيرة، وتلقفتهُ موانئ البلاد البعيدة.

* * *

يهتزُّ السَّنْبوك إثر موجةٍ عابرة، فيتنبَّه سليمان من شروده الذي طال، فيطردُ سعدونًا من انسياب ذاكرته. ويتجاوز تحامل الشَّيخ الهَرِم لصاحِبِه الأثير:

«..ولهان لسقف، وفراشٍ نظيف..».

ابتسمَ شَيخُ البحَّارة صامتًا يُغالب غضبته، على حين سأله سليمان:

«ماذا عنك يا عَم؟».

زفرَ العَم سَنَد يهزُّ رأسه:

«أنا أكثرُ البحَّارة شوقًا يا ولدي، كلهم صاموا الفضيل بين أهلهم إلا نحن وبضعة مراكب.. غوصنا أطول.. وشوقنا أكبر..».

استعذب سليمان حِسَّ العَم سَنَد وحنينه إلى العودة، وواصل الشَّيخ يُفضي بصوتِه المتعب:

«..في القلب شوقٌ للصَّحراء لا يهجع، كاشتياقي لهذا البحر لَمَّا أُقيم فيها. أنا يا ولدي أحبُّ الشمسَّ وأتبعها مثل الظِّل لو كان للشمس ظل.. إن قَسَت رميتُ نفسي في البحر، وإن لانت ركضتُ

في الصَّحراء. أنا شيخٌ هَرِمٌ لا يكفُّ عن مطاردة البعيد.. تسكنني الدِّيرة إذا ما صرت في البر، ويسكنني البر إذا ما أقمتُ في الدِّيرة.. أشتاق الصَّيفَ في الشِّتاء، وأتحرَّى الشِّتاء في الصَّيف. أحِنُّ للنَّهارِ ليلًا، وأُحصي ساعات اللَّيل قبل موعد مع الشَّمس.. أنا شيخٌ مخلوق من طينةِ شوق لا يدري ماذا يُريد.. أشتاق لشيءٍ لا أدري ما هو.. وأشتاق للفَرَس التُّرابية تشيلني إلى البر البعيد..».

يَطربُ سليمان لأحاديث الشوق على لسان بِن هولين. سأل الشَّيخَ عن فرسِه:

«لماذا لا تشتري الرَّملا ما دام قلبك متعلقًا بها إلى هذا الحد؟».

«لا حاجة لي بها في الدِّيرة، ثُم من أين لي أن أدفع مئتي روبية لشراء فرسًا أصيلة مثل الرَّملا؟! أبيع بيتي؟».

راح شيخ البحَّارة يُحدِّث سليمان عن فرَسِه المحبوبة، أخت «كويت»، الحصان الذي ابتاعه الأمير من مربط خيل ابن الطاروف، فأرسله إلى لندن هديةً للملك جورج الخامس، لانتصاره على الأتراك والجرمن وإمارة حائل حليفة العثمانيين في الحرب العظمى قبل عامين.

«فرسٌ أصيلة، نسل كحيلان، ما رأت عيني مثلها قط.. أخت حِصان ملك العَنْگريز»[1].

---

(1) العَنْگريز: لفظة محلية درجت قديماً، وهي تحوير لكلمة الإنكليز، وتُطلق على أي أوروبي أو أمريكي أشقر. (محرر وزارة الإعلام).

«خُذني معك للبرِّ الرَّبيع المقبل».

«لا تقدر. سُرَّتك مدفونة في البحر».

ابتسمَ سليمان لقول الشَّيخ الذي ما انفكَّ يربط مصيره بالبحر. سَمِع ذاك القول في رحلته الرَّبيعية الأولى إلى صحراء القبيلة قبل سنوات. ثلاثة شهور أمضاها الصَّبيُّ غصبًا، يتعلَّم ركوب الخيل ويحفظ أسماء الرِّيح والزَّرع والنُّجوم ويتعرَّف الجهات. نفَرَ الصَّغيرُ من جفاف الصَّحراء وصمتِها الوحشي وجلافة العيش في بيوت الشَّعر، وحنَّ إلى نداوةِ بيوت الطِّين في الدِّيرة وحِسِّ بحرها وسلامة العيش فيها. قال له بِن هولين قبل أن يحمله إلى الدِّيرة: سُرَّتك مدفونة في البحر.

تنبَّه سليمان من شروده، فقال لشيخ البحَّارة:

«أمي تقول إنك دفنت حبلَ سُرَّتي في ساحة مسجد. أي مسجد؟».

«لا أتذكَّر..».

أجابه العَم سَنَد وهو يرنو إلى انعكاس النُّجوم على الماء، فأدارَ دفَّة الحديث نائيًا عن مرمى سليمان:

«..ظهر نجمُ سهيل وهبَّت رياح السَّابعة.. برُدَ الماء وتساوى اللَّيلُ والنَّهار.. هانَت، يومٌ أو يومين ويمرُّ أميرُ الغوص بسفينته يُطلق المدافع.. يبدأ القُفَّال، وتعودُ إلى فضَّة يا ولدي».

يتجاوز سليمان حلاوة الاسم، يبتسمُ بشفتَين سَحَجَهُما مِلحُ البحر. يُطبق جفنيه على خيال زوجته في عينيه. يتذكَّر نعْتَ أُمِّه لها قبل عُرسهما العام الماضي، وقتَ عادت شايعة بعد فحصِ الصبيَّة في بيت أُم جرَّاح، تُبالغ بكيل المدائح لليتيمة التي ربَّتها «العبدةُ» أُم سرور: «خدوم، تطبخ وتغسل وتُخُم وتُصلِّي. حلوة، تتمايل في مشيتها مثلَ غُصَين البان، واسعة العين مثلَ ساعةِ الرُبَّان، والحاجب هِلال ثاني الشَّهر، والأنفُ حدُّ السَّيف. طويلةُ الشَّعر حتى أنها إذا جاءت تقعدُ بركَت عليه..». يبتسمُ لأُمِّه وهي تُرقِّص حاجبَيها مُستطردة: «..أصغر منكَ بحَول، بنت خَمِستَعَش، ليست صغيرة أدري لكنها دقيقة العُود وتبدو أصغر من سِنِّها.. ليست لحيمة لكنها بعد الزواج تستصح وتدب فيها العافية.. ستعجبك». يصمت الفتى أمام أُمِّه التي ختمت وصفها غامزة بعينها اليُمنى، كأنه لا يعرف الصبيَّة التي تزوَّجها مرَّاتٍ ومرَّات في لعبة بَرُّوُي عند عتبة دار أبي جرَّاح قبل بضعة أحوال، حينما يزفُّهما أطفال الحَيّ بالزَّغاريد في زفافاتٍ وهمية. فضَّة اليتيمة التي ميَّزها بين كل أقرانها، أصغرهُنَّ جِرمًا، ترتدي البُخنُق خاليًا من التَّطريز الذَّهبي بخلاف بُنيَّات الدِّيرة. ما أحبَّها سليمان وحسب، بل ما تخيَّل أن يكون له ولدٌ، وهو في ذاك الزَّمان ولد، إلا وتكون أُمُّه فضَّة، فتُفرِّخ له بعد الولدِ صبيانًا وبنات، يفرخون صبيانًا وبنات يشيلون اسم جدِّهم سهيل الذي أوشك اسمه أن يندثر لولا أنجب سليمان في الوقت الضَّائع بين البحر والموت. ولما شبَّ الصَّبيُّ ما خايلته في مناماته إلا تلك التي

تزوَّجها في لُعبة الأطفال مرَّاتٍ ومرَّات، وأحالت بُنيَّات الحَيِّ في عينيه قِرداتٍ ترتدي البُخنُق.

كان يُنصت إلى وصف أُمِّه للصبيَّة التي انقطع عن رؤيتها مُذ حاضت، وصارت امرأة ممنوعة من الخروج إلى السِّكَّة ومخالطة الأولاد. يتذكَّر يوم رَفع السَّاتر عن وجهها، في فراشهما ليلة الزِّفاف بعدما فرشَ عباءتها على الأرض وصلَّى لله ركعتي شكر. يستعيدُ نعوتَ أُمِّه وهو يُشاهد وجه فضَّة الحِنطيِّ أوَّل مرَّة بعد انقطاع دام ثلاثة أحوال. وجهٌ بديع الجمال ما رأى له حتى في الخيال نظيرًا. وجهٌ عجَّبهُ وأعجبه جماله، غضٌّ في كامل زينتِهِ القليلة، مخزوم الأنف بحلقةٍ ذهبية. فصدَّق قول أُمِّه: فضَّة.. غضَّة، بضَّة، لو طاح البقّ على خدّها؛ قضَّه!

يفتحُ سليمان عينيه مُبتسِمًا وهو يُرطِّب شفتيه المالِحَتين بلِسانِه. يُفضي إلى الشَّيخ:

«كأني أُنصِتُ إلى صوتها يا عَم سَنَد ينادي من بعيد».

يرتبك شيخُ البحَّارةِ وتدهمُهُ الوَساوس:

«أعوذ بالله!».

يُبقي عينيه مفتوحتين على اتساعِهما يُحدِّق إلى وجه سليمان، فيستطرد:

«هذا وهم.. إياك أن تُفقدك الوساوس إيمانك يا ولدي.. ولا تُسلِّم أُذُنيك لأي صوت في ليالي البحر!».

تثاءب سليمان يسأل عن جدوى حِراسَتِهما ليلًا، وسط الماء، كما لو أن اللصوص أو الكلاب السَّائبة في مستطاعِها إدراكهم. لا يجهل الفتى السَّبب، غير أنه أراد استدراج الشَّيخ إلى غريب الأحاديث تُنبِّهه عن النعاس. يُقرِّبُ سَنَد شفتيه إلى أُذُن سليمان، خشية أن يوقظ رجال السَّفينةِ النُّوَّام على سطحِها، أو ربما تطيُّرًا من ذِكر اسم مصدر مخاوف نوخِذا السَّفينة ورجاله. يجيبُه العَم سَنَد هامسًا:

«بُودَرْياهْ!»[1].

ما كادَ شيخُ البحَّارة يلفِظ الاسمَ حتَّى قرَّبَ سبَّابته وإبهامه إلى فمِهِ، أظهرَ طرفَ لِسانِه وأطبقَ عليه إصبعيه كأنما ينتزع منه الاسم.

---

(1) **بُودَرْياهْ**: كلمة من شِقَّين: «بو» بمعنى أبو بالعربية، و«دَرْياهْ» بمعنى البحر بالفارسية: أبو البحر. مخلوق أسطوري مسخ. وقد ورد ذكره في باب مسوخ البحر في سِفر «كائنات مدينة الطين» أسفل صور توضيحية لهيئته، بوجهه الشَّائه وأذنيه الحيوانيتين وجسده الآدمي. وتقول الأسطورة في السِّفر: [وما كان فريدًا لا مثيل له، إنما هو فرد من طائفةٍ تولد لسمكة اللُّخمة من ذَكرٍ آدميٍّ عقب ما يقارفُ الرجلُ خطيئة البحر الكبرى في ظرف ساعة. تضعه اللخمة فتنفق، وينبجسُ مِن جسدها بُودَرْياهْ كائنٌ بحجم رجل، شائه الوجه زجاجيّ العينين يُشبه رأس شيخ الذُّباب، يولد من رحم أمه فيتسربل عباءة سوداء منسوجة من شعر حوريات الخليج. يظهر على سِيف البحر بعد حَول من مولده، ويهجم على المدن يبحث عن أبيه، يقتله فيختفي في البحر من حيث جاء. ويمضي العُمر ينتقم من بني البشر بإغواء البحَّارة يستغيث بصوته الأنثوي. حتى إذا ما هبُّوا لنجدة المستغيثة أغرقهم وأغرق السَّفينة]. وقيل في الباب ذاته عن إبطال اللعنة: [ولا مندوحة عن سوء العاقبة بعد سقوط الرجل في الإثم ما لم يكسر شوكة ذيل اللُّخمة، ويقطعَ جسدها المفلطح إلى أربع قطع، ويرمي في البحر من كل جهة من جهات السَّفينة قطعةً من القطع الأربع]. وذكرت عباءة بودرياه في الباب ذاته: [وأما من استولى على عباءته فهو قادرٌ على حجب مدينة وإخفائها عن عين الشَّمس]. وعن أمارات ظهور المسخ يقول السِّفر: [ما من علامة تسبق ظهوره إلا نزول النُّجوم من عليائها]. (المؤلف).

ثُمَّ مدَّ كفَّه خارج السَّنبوك يُفلِتُ الكلمة من بين إصبعيه في البحر. والتفتَ سليمان إلى موضع إفلات الكلمة حيث اضطرب انعكاس النجومُ على صفحة الماء. فأردف العَم سَنَد:

«ساكِنُ الغِبَّة، هناك في البُعدَين؛ بُعد المسافةِ حيثُ لا يُرى البرّ، وبُعد القاع عن سطح البحر».

يستعيذُ سليمان بالله من شرور صاحب الاسم. يُمشِّط الظلامَ بعينيه يُفكِّرُ في ساكن الغِبَّة. ثُمَّ يُفلتُ ضحكة طمأنينة:

«لي في هذا السَّنبوك شهور، لم أسمع له صوتًا يجيءُ من بعيد كما يزعُم الرِّجال..
ثُمَّ إني ما خبرتك تُصدِّق هذه الخرابيط!».

يُطرِق العَم سَنَد:

«هو دخولك الأول! إن جئت للحقِّ أنا ما سمعته قط، ولكني سمِعتُ مَن سَمِع. يقولون إنه ينادي ليلًا بصوت امرأةٍ يسلب القلب، يطلبُ العون، وإذا ما هبَّ أحدٌ لإغاثته صرعه. كثيرة هي الحوادث يا ولدي، وآخرها حادثة منصور الغَيص الحَول الماضي..».

تلكأ شيخُ البحَّارة في عبارته الأخيرة، فلاذ بصمتٍ قصير قبل أن يقول:

«..لا تُسلِّم أُذنيك لوهمٍ تحسبُه صوتَ فضَّة».

«لكن منصور الغيص أكلتهُ الذِّيبة!».

ارتبك العَم سَنَد لملاحظة سليمان، وتقاسمت وجهه ملامح الحزن والغضب بين ذِكر منصور وزلَّةِ لسانه:

«اِنسَ ما قلته».

❋ ❋ ❋

إن كان لغيابِ منصور الغَيص فضلًا على سليمان بن سهيل؛ فهو وجوده على متن هذا السَّنْبوكِ بديلًا. فإن لشيخِ البحَّارةِ سَنَد دالَّةٌ على جميع ربابنة السُّفُن، وبِدَالَّتِه تلك ضمَّ سليمان معه إلى سَنْبوكِ النُّوخِذا بِن حامد عوضًا عن الغَيص الفقيد. غابَ سليمان في عوالق ذاكرة يومه الأوَّل على ظهر «الحامِدي»، بين البحر والشَّمس قبل شهور أربعة؛ رائحة الأخشاب البليلة تخالِطُ صنَّة البحَّارة وغُبار الأشرعة وبخر الحلوق اليابسة. يتجمع البحَّارة عُراة الصُّدور أسفل الصَّاري، يشدُّون حبال الشِّراع الخشنةِ كما لو أنهم يُنيخون بعيرًا أسطوريًّا نافخ الصَّدر أمام الهواء الشَّامي. صَيحات النَّوارس تُشَيِّع السُّفُن والمراكب في إبحارها إلى المغاصاتِ القريبة. وهو في لجَّةِ الأصواتِ يُردِّد من القرآن الكريم ما حفظه لدى المُلَّا عبدالمحسن: ﴿اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾. يردِّدُ الآية خاشعًا ويستشعر تنميل صدغيه. ينتشرُ الخَدرُ في وجهه على دأبه

كُلَّما ردَّد كلام الله أو كُلَّما ذُكر أمامه. رذاذُ الماء يُطفئ حرارةَ الجلودِ اليابسة، ويُنعش الأرواح بفعل ارتطام مقدِّمة السَّنْبوك بكبير الموج. كان يُنَقِّلُ بصرهُ حوله. مجموعة صغيرة من سُفُن الغَوص الخشبية سبَّقت في دخول البحر قبل هلال رمضان، أبحرت بأشرعتها البيضاء مثل نوارس تخترقُ فضاءَ الزُّرقتَين. ترتفع منها راياتٌ حُمر يتوسَّطها اسم «كويت» بخطٍّ أبيض. حماسة الرِّجال في يومهم الأول في ذروتِها. يفهمُ الجميع بعضهم بالنَّظرات. يتكفَّل كلُّ بحَّارٍ بعملٍ يُكمِل عمل الآخر فوق السَّنْبوكِ، مثل مملكةِ نملٍ على لوحِ خشبٍ عائم. يتراكضون. ينتشرون خليطًا من البشر؛ سود، سُمر، بِيض، بدوٌ وعَجَم وأحرارٌ وعبيد. كلٌّ في مكانه يؤدي مهمَّة. ثُمَّ يتكوَّدون في ناحيةٍ مثلَ دودٍ على عود. يئِنُّ الخشبُ تحت وَطءِ أقدامهم، ويرتفعُ صريره يُحاكي صيحات طيور البحر. يُهلِكون تعبهم غناءً جماعيًّا يُذيب لهجاتهم في لهجة واحدة زرقاء. ولا يكفُّون عن أداء أعمالهم إلا إذا لاحت لهم سُفُن السَّفر التجاري مقفلة إلى مراسي الدِّيرة. تبدو السَّفينة منها بين مراكب الغوص مثل طائر اللَّوْهَةِ الكبير يعومُ بين صغار طيور البحر. سفنٌ خشبيةٌ كبيرةٌ عظيمة الأشرعة، تعودُ من موانئ الهند وعُمان واليمن وإفريقيا مَوسوقةٌ بصنوف الأخشاب والأقمشة والتَّوابل والغربان المتسلِّلة والقصص. تتضاءل أمام هيبتها سُفُنهم الباحثة عن اللؤلؤ وتصغُر حتى لا تكادُ تُرى. وينظرُ رجالُ الغَوص إلى تلك السُّفن الشَّامخة بما يشبه الحَسَد إزاء البحَّارة المنعَّمين، المترفين إذا ما قورن عملهم بأعمال الغَوص القاسية. تتعالى

أصوات رجال السُّفُن الكبيرة بالغناء، وتُقرع الطُّبول على سطوحها مع تصفيق الرِّجال ورقصهم فرحًا بالعودة. ويصيحُ النُّوخِذا بِن حامد برجاله ليتركوا سُفُن الملاحة وشأنها ويعاودوا أعمالهم. فلان! لبَّيه. تحرَّك! أمرك نوخِذا. قوَّاك الله. فُلان! حاضر. هِمَّة هِمَّة. أنت تأمر يا نوخِذا. شَهِّل شَهِّل.

لا يُكلِّفُ أحدٌ سليمانَ والغاصة بشيء غير عملهم، فالغَيصُ للغَوص، ولبقية رجال السَّنبوك أعمالٌ لا حَصر لها، إلا إذا رغب العَم سَنَد في مجالسة نديمٍ أثيرٍ يقاسِمه السَّهر في نوبة الحراسة. كان سليمان على ظهر الخشبة بداية الموسم، مأخوذًا بالتجربة في يومه الأوَّل. يكسرُ صيامه ويلوكُ قطعة زنجبيل يابسة تقيهِ دوارَ بحرٍ دهمه على حين غرَّة. هو بديلُ منصور الغَيص هذا الموسم، على متن هذه السَّفينة الجديدة في دخولها الثَّاني إلى البحر. سفينةٌ تضُمُّ رجالًا يألَفُ واحدُهُم الآخر مثل أُسرة كبيرة. غير أن جِدَّة المكان لم تعنِ له شيئًا عدا مُعايشة أولى لما يحفظُ عن ظهر قلب. فكاد سليمان أن يُلِمَّ بكلِّ شيءٍ عن عملِه، قبل دخولِه البحر، لشِدَّة التصاقه برفيق جدِّه ومُعلِّم أبيه، سَنَد بِن هولين، شيخ البحَّارة الأرمل، الغَيص العتيق، إن جئته بحرًا صارَ لشراعك صاريًا، وإن جئته برًّا صارَ لخيمتك عمودًا، هذا ما يقوله رجالُ الدِّيرة عن ابن البدويِّ والحضريَّة، الذي جاء والدُه بعد سنة الطاعون الكبير ببضعة أعوام، يلوذُ بالدِّيرةِ من هَول الصَّحراء إلى هَول البحر، حتى منحته الحاضرةُ لقبَ أبي الهولين، مورثًا لقبه لابنه سَنَد الذي توسَّد الصَّحراء في أبيه، والتحفَ

البحرَ في أُمِّه. ولم تمنحه الدِّيرةُ ولدًا يُبقيه فيها، فصار يمضي الصَّيف في البحر يتنسَّم رطوبة الخليج، ويكتري في الرَّبيع فَرَسًا تُرابية يوليها محبَّةً عظيمة، تأخذه إلى صحراء القبيلة وأبناء عمومتِه حول جبل وارة. يشمُّ رائحة أبيه في ريح الخزامى وزهور النُّوَّير وضوع القهوةِ والهال ورائحة التُّربة البليلة، بين مراعي الكلأِ وأطيط الإبل وحداء رُعاتِها. ولا يدري أحدٌ لماذا يُقيم الشَّيخُ الهَرِم في ديرةٍ ليس له فيها قريب، وكل أقربائه في الصَّحراء، غير أن نمائم غسل الثِّياب على السِّيف أشاعت أنه يعشقُ في الدِّيرة امرأة في سِنِّ ابنتِه لو كان لديه ابنة.

ولأن زوجات سنَد الرَّاحلات لم يهبنهُ ذُرِّيةً، فقد اتخذ من سليمان بن سهيل ولدًا في سِنِّ حفيد. هيأهُ للغَوصِ مُنذ صِغَرِه. أحسنَ تدريبه مُذ كان طفلًا، ووهبه كُلَّ معارفه ذخرًا يواجه به الحياة. سقاهُ نقيعَ سرطاناتِ البحر يملأُ أحشاءه زَفَرًا ليألفَ مذاقًا يخبره في قابل الأيام. كحَّلَ عينيه بذيل ثعبانٍ مغموسٍ بالكُحل، ليحتدَّ بصرُه وفقَ اعتقادٍ بدويٍّ قديم. وعَمِدَ إلى إغراقه مِرارًا، يخيِّره بين الموت كطفل أو النَّجاةِ كرجل مُعتمِدًا على نفسِه وحسب. كان كُلَّما تعبَ الفتى من تحريك ساعديه وساقيه، عائمًا نحو المياه الضَّحلة خائر القوى، يُقهقِه الشَّيخ، ويُشيرُ إلى أُذُنيّ سليمان الخطلاوين: «حرِّك هذين النَّعلين، شَهِّل!».

انعقدت رابطة سليمان والبحر منذ مولدِه، ربيع 1903، يتيمَ أبٍ مات بالجُدريّ. طرقَ العَم سَنَد بابَ أُم سليمان التي اِنتفَت

عِدَّتُها بوضعِها ولدها الوحيد، فصار مُباحًا أن تُحدِّث الرِّجال من غير محارِمها. أطلَّت من وراء البابِ الخشبيّ بعباءتها، مُسدِلةً البوشِيَّة على وجهها، وقد كانت تتهيَّأ للخروج لاستعادة ولدها سليمان من بيت مُرضعته أُم جرَّاح. وقفت على عتبة دارها أمام الشَّيخ ذي القامة المديدة. أخفضَ رأسه يُلقي السَّلام، وقال إنه رجلٌ بلا ولد، وسوف يكون ابن سهيل، مثلما كان أبوه، بمنزله ولده. وتعهَّد أن يصنع منه رجلًا مثلما صنع أباه. وشكرته شايعة ودعت له بطول العمر، فرفع العَم سَنَد بصره صوبَ وجهها المستور بالبُّوشِيَّة. قال:

«وهل تقبل بي أُمُّه؟».

وكأنها لم تسمع ما قاله. صمتت الحُبارى أمام شيخ البحَّارة قبل أن تسارع بالقول:

«خير يا عمي.. تأمر علي شيء؟».

فكانت إجابةً قدَّرها الشَّيخ من امرأة ما أرادت أن تقول في وجهه: لا. فأقسم بعدها بينه وبين نفسِه ألا يطلب المرأة ثانية للزَّواج، وهو الذي ما ردَّ له أحدٌ طلب. مدَّ كفَّهُ بسيطةً وهو مُطأطئ:

«سُرَّةُ الصَّبي».

غابت أُم سليمان داخل دارها. وعادت تمدُّ يدَها من وراء الباب، بمنديلٍ رخيصٍ مُشجَّر مِن قِماش المَلمَل الهندي، لفَّتهُ على الحبلِ السِّرِّي للوليد. أطبقَ العَم سَنَد كفَّهُ على منديلِ سُرَّة سليمان، ومضى في السِّكَّةِ التُّرابية من دون أن يفوه بكلمة. فأطبقت شايعة

بابها مُطمئنةً أن شيخ البحَّارة في طريقهِ إلى حَوْشِ أحد المساجد القريبة، يدفِن سُرَّة وليدها كما دأبَ بعضُ النَّاس، إيمانًا بأن المرءَ يتردَّد على موضع دَفنِ سُرَّته في قابل السنين.

ولكن شيخ البحَّارة حمل منديل الحبل السري، ومرَّ على المساجدِ في السِّكَك التُّرابية بغير وقوفٍ أو إبطاءٍ عند أحدِها. حثَّ الخطوَ ماضِيًا صوبَ البحر. ورَكِبَ قاربًا في ساحل الحي القِبلي كان قد أرساه غير بعيدٍ عن صخرة الوَطْيَة.

جدَّف العَم سَنَد، وتحرَّك القارب الصَّغير المصنوع من جريد النَّخل في مياه الخليج السَّاكنة. وألقى مرساته غير بعيدٍ عن السِّيف. فتح المنديلَ وألقمهُ قِطعة رصاصٍ إلى جوار سُرَّة سليمان. وأحكمَ عُقدة المنديل قبل أن يرميه بحرًا. ومنذ ذاك اليوم قُدِّر لـ سليمان أن يمكث في الديرة بين السِّيف والبحر، لا يفارقهما ما مكثَ المنديل المعقود في قاع الخليج.

وبعد مُضيّ حَولٍ على ميلاد سليمان، في موسم تسافُد القِطَط، شاله العَم سَنَد بين ذراعيه فجرًا إلى البحر، مع ارتفاع الأذان يُخالِط صياح ديوك الدِّيرة وزقزقة الزَّرازير ومُواء قِطَط فبراير الشَّبِقة. يخوضُ في الماء البارد حتى منتصفِه، يتشرَّبُ الماءَ إزارُهُ، ويُغطِّسُ الصَّغيرَ عاريًا بالكامل إلا مِنخَريه، ويرفعُه على مهل. كان فجرًا هادئًا بعد الأذان، ارتفعت فيه ابتهالات شيوخ البحر السِّتة تتردَّدُ بعيدًا مثل الهدير. غسلَ العم سَنَد جسدَ الطِّفل، وطهَّرَ بملحِ البحرِ

جُرحًا خلَّفه الختان المبكِّر. فبخلافِ الصِّبية في عامهم الثالث والرَّابع أو حتى الخامس، بكَّرَت الصاجَّةُ بحمل سليمان إلى المحسِّن ليختِنه، كي يبلُغ ويشِبَّ قبل أقرانِه.

وقفتْ أُم سليمان بعيدًا على السَّاحل، مثل ظِلِّ شبحٍ أسود، تضمُّ كفَّيها أسفل ذقنها برجاء. وتنظرُ إلى ولدها بين ذراعيِ الشَّيخ الطَّويل، لا تملك حقَّ اعتراضٍ رغم عدم ارتياحها. ولا بيدها أن تفُضَّ ما يشبه ميثاقًا بين شيخِ البحَّارةِ والبحر؛ أن يكون أزرق الخليج حاضرًا منذ هذا الفجر المبارك، يألَفُ سليمان منذ قُطِع حبله السُّري، ثُمَّ يشهد خِتانه. يُبشِّره بغدٍ أزرق، يعمِّدهُ ويباركُهُ بملحه.

ما عشق سليمان مثلَ البحر قط. *إلا فضَّة*. وطعم ملحِهِ في شفتيه، ورائحته ساعات الثَّبْر إذا ما انحسرت مياهه مخلفة ريحَ كائناتٍ ترقبُ عودة الموج. وما مِن عقابٍ يؤذيه في صغره مثل حرمانه الاقتراب من ذاك الأزرق العظيم. ***فحفظتُ القرآن كامِلًا لدى المُلَّا عبدالمحسن خوفَ عقابٍ أكرهه مُنذ كنت صغيرًا***. كنتَ في الثَّامِنة. ***رُبَّما، وما زلت أذكر حزن ذاك اليوم***. يومَ دَمَغ المُلَّا عبدالمحسن باطنَ قدميكَ بالحبر:

«لا نزول إلى البحرِ قبل إتمامِ حفظ جزء من القرآن الكريم يا ابن سهيل».

وسِرتَ يا سليمان الصَّغير على رمال السِّيف. ***ورأسي فارغ من آيات القرآن***. مثل شيوخ البحر عالقٌ في اليابسة. ***وعيناي على البحر***.

تتهادى بِـ دِشْداشَتِكَ سماويَّة الزُّرقة على الرَّمل. *على أطراف البحر على حدِّ الموج، ولا أجرؤ على الاقتراب من الماء*. تخافُ أن يحُلَّ ملحُ البحرِ حِبرًا صبغَ باطنَ قدميك؟ *فيكشفني المُلَّا ويزيد عِقابي بالفَلَقةِ والخيزرانة*. أو بشدِّ أُذنك الكبيرة. *صحيح*.

هو البحر الذي أحببتَه في آيات القرآن الكريم. **نعم، بعدما حفظتُه كامِلًا لئلا يَحول المُلَّا دونه ودون مُرادي**. كنتَ شغوفًا بما تتضمَّنه الآيات القرآنية لكلِّ لفظةِ بحرٍ أو فُلكٍ أو سفينة. *إن كانت الجنَّة في السَّماء، فالبحر جنَّة الأرض*. تتذكَّر نفسكَ سنة غرق جالبُوت[1] بن موسى. كنت في التَّاسِعة يومَ ختمتَ القرآن لدى المُلاَّ عبدالمحسن. *كان يوم عمري والله*. لا تنسَ كيف فرحَ لك صاحبك الأثير في ضُحى «الختمة». *يا حبي لك يا سعدون*. استلَّ سعدون غُترتك فورَ فراغك من تسميع آخر كلمةٍ مباركة. *وقفزَ الملعون مثل الجرادة يحمل غترتي ويسبقُ تلاميذ المُلَّا بالبشارة إلى أُمّي*. وأزعجك يا سليمان انكشاف أُذُنيك الكبيرتين أمام الصِّبية بعد انكشاف رأسك. *ونسيتُ أمر انكشاف أُذُنَيّ الحُصْني حينما قام المُلَّا يُباركني ويعانقني. أنا ما نسيت ذاك اليوم قط*. ولا نسيتَ الدَّمع ينبجسُ من عينيّ خطيب مسجد السُّوق:

«بارك الله فيك يا ابن سهيل».

---

(1) جالبوت: نوع من السُّفُن الخشبية. (محرر وزارة الإعلام).

وركض سعدون إلى بيتِ شايعة، أُم خاتِم القرآن الكريم، يزفُّ لها الخبر وهو يحملُ غترةَ ولدها:

«سليمان خَتَم.. وهذي غُترته».

أخبرها وهو يمدُّ إليها يده بغترةِ ولدها بُرهانًا، يشهدُ أنه كان إلى جواره يحضرُ ختمَه للقرآن. فأطلقت شايعة زغرودة تجمَّعت لسماعها نسوة الحيّ. وزار سليمانُ المُحسِّنَ ليقصَّ شعره ويُحسِّن مظهره، وألبستهُ أُمُّه دِشْداشةً وغُترة وبِشْتًا جديدًا. وتقلَّد سيفَ أبيه. وزفَّته مع الجارات والصاجَّات بالزَّغاريد والتَّهاليل والتَّكبير. وطاف الجمعُ السِّكَكَ من بيت شايعة إلى بيتِ المُلَّا، إلا الصاجَّات اللاتي وقفنَ ودفنَّ ظلالهن في ظلِّ أحد الجدران عند رأس السِّكَّة، ينظرن إلى بيت خصيمهنَّ من بعيد. شكرته أُم سليمان عند عتبة داره، ونقدته خمس رُوبيَّات لقاء «الختمة»، فأمطرته النِّسوة بقطع الحلوى والمكسَّرات والدعاء. فأقفل الحفلُ من بيت المُلَّا عبدالمحسن إلى بيت شايعة ثانية، وصحبُ سليمان والأطفال يوزعون الحلوى والمكسرات على المارَّة وهُم يحملون المصاحف ويهزجون بالتَّحميدة: «الحمدُ لله الذي هدانا، لدينِه القويم اجتبانا». ويلتفُّون حول سليمان: «هذا الغُلامُ قد قَرا وقد كتَبْ، وقد تعلَّم الرسائلْ والخُطَب»، ويردِّد الغُلام معهم والدَّمعُ عالق في محجريه. «علَّمني مُعلِّمٌ ما قَصَّرا، ردَّدني في دَرسِه وكرَّرا، حتى قرأتُ مثله كما قَرا».

كان بختمِه القرآن حِفظًا كأنما حرَّم دمغات الحبر على باطن قدميه أبدا، فلا حيلولة بينه وبين الفاتن الأزرق بعد اليوم. لم يكن يرى في الجيران والصَّحب المحتفين إلا مهنئين يزُّفونه إلى البحر. وكانت فرحةً ما عاشها ثانيةً إلا بعد سِتٍّ سنواتٍ وثمانية شهورٍ وبضعة أيام، ليلة زفافِه على فضَّة، ولسوف ينسى ابن سهيل الأفراحَ بعدها لزمنٍ طويل.

يتذكَّر سليمان جلوسَهُ على السَّاحل، يُردِّد من كلمات الله ما تنتشي لها روحه. *كل الآيات التي ذكر فيها اللهُ البحر.. أحفظها*. نعم، كلها. *لأني حافظ القرآن*. نعم لأنك تحفظ القرآن كله يا سليمان. وقد كُنتَ.. *بسم الله الرحمن الرحيم*. تفضَّل تفضَّل. *﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا..﴾* . *صدق لله العظيم*. تُخلِّف كلمات الله ما يُشبه الخَدَرَ في جسدِك. *صَح*. ينتشرُ في وجهك دبيبُ أرتال من النَّمل، يُغرقك في خشوعٍ أبدي. *هذا والله ما أحسُّ به*. تنظرُ إلى صُنَّاع السُّفُن يُغنُّون على إيقاع مطارقهم وهي تهوي على الخشب، وتقتربُ من هيكل السَّنبوك «الحامِدي» على السِّيف قبل ثلاث سنوات. *وما كنت حتى لأحلم أن أركبه في يوم*. تُبصره كُلَّ يومٍ يكبرُ أمامك، مثل حوتٍ من خشب، صامتًا مهيبًا تخترقه المساميرُ ويسحَجُه الحديد. *فيرتفعُ رفيعَ شأنٍ بصدره الخشبيِّ يواجه البحر*. عملاقًا مثلَ سُفن السَّفر. فتتفكَّر ويلهج لسانك بالقرآن الذي تحفظ: *﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾* .

تُدير ظهرك إلى البحر تواجه الدِّيرة بمساكنِها الطينية وسِككِها الضَّيقة المُتربة. ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾.

هو مكانك الأثير منذ باكر سنينك. ***نعم، بينما كان الصِّبية يلهون من حولي كنتُ أمضي كُلّ وقتي على ساحِله.*** منصرفًا عن لهو الأطفال وامتطائهم سعف النَّخيل مثل أحصنة، أو إقامتهم مباريات الخرَز الزُّجاجي. ***أو نصب الفِخاخ للطيور المهاجرة، أو اقتفاء أثر الصاجّات، يقودهم صاحبي سعدون برأسِه المكوي.*** يتبعونه في السِّكَك. يُمنِّي واحدُهم نفسَهُ بحُجَّةٍ بيِّنة، تؤكِّد ما يُشاع بأن للصاجَّات حوافر حمار. ***أنا لا أُصدِّق.*** ولا يدركون للخرافةِ توكيدًا، فيردُّون سبب خيبتهم إلى السَّعفات التي تسحبها الصاجَّات وراءهن. ***تقول كبيرتهن للصّبيان إن السَّعفة تكنس أثر الحافر على التُّراب قبل انكشاف أمره.***

لطالما أحببتَ يا سليمان سعدونًا مع يقينك بتوقف دماغ صاحبك عن النُّمو بسبب غريب تصرُّفاتِه. ***فتى في الخامسة عشرة مَكويُّ الرأس.*** يداوم على حضور الدَّرس سنوات. ***ولم يختم القرآن حِفظًا ولا تلاوة.*** بل وأرهق المُلَّا بالسُّؤال عن صعب الكلمات طول سنين الدَّرس. ***هداه الله.*** وأزعجه بتأليف قصصٍ عن الأنبياء ما جاء لها ذكرٌ في القرآن الحكيم. يرويها لصُحبة الدَّرس. فيمنحُ الغلامُ الأنبياءَ فوق المعجزات معجزات من عنده. ***عليهم السَّلام.*** فيُدهش أقرانه بفأس موسى التي فلقت الجبل. ***سامحه الله كنا نصدِّقه.*** ويصلُ أمرُ تقوُّلِه إلى

المُلَّا فيُلهب باطن قدميه. *بالخيزرانة والفلقة*. والغُلام يصيح: أيفلِق البحرَ بعصاه ولا يفلِق الجبل بفأس؟! استغفر ربك مُلَّا! *أتذكَّر أن المُلَّا بالكاد أخفى ضحكه*. فأيقن المُلَّا أن سعدونًا مخبولٌ لا محالة. وصبر عليه إكرامًا لأبيه، لكن خبال التلميذ مكويِّ الرأس ما انفكَّ يزيد فتزيد أسئلته جنونًا وغرابة. ولمَّا استغلقت أسئلته على إجابات المُلَّا سلكَ أقصر السُّبُل إلى السَّماء، وصار يسأل الله. فطرده المُلَّا حينما بلغه ما يُشيعه المخبول بين صِبية الدَّرس، ذلك أنه يرتقي سطح البيت كل فجر، يحدث الله جلَّ جلاله في سماواته العُلى، ويسأله عما يعجز المُلَّا عن تفسيره من قصص الأنبياء وسيرة الرَّسول وبطولات الصَّحابة، فينزل الصَّبيُّ من سطح البيت مُحمَّلًا بالأجوبة.

وبدَّدَ سعدون نهارات صِباه باقتفاء أثَر الصاجَّات، أو في التَّسلُّل بين قطعان الغنمِ ينتزعُ بكفَّيه خُصَلًا مِن أصوافها، يواريها في التُّراب ويسقيها الماء. ويستغرب سليمان اهتمامات صاحِبه الغريبة وهو يحاول زرع الصُّوف، يدفنه ولا ينفك يسقيه كُلَّ يوم. ويشغلُ سليمان ما يشغلُ الغلمان والفتيان حول أعاجيب الصاجَّات وغرائب سعدون وقصصه، غير أنه ينصرف عن كل ذلك إلى البحر الذي وَشَمَ جسده بجروحِ كائناته؛ جرح قوقعةٍ كشطت جِلدَةَ رُكبتِهِ وكشفت عظمها تاركةً أثرًا لا يزول، لسعة قنديل بحر خلَّفت خيطًا مُلتهِبًا ناتِئًا في ظهرِ كتِفِه اليُمنى، أوصَت الصاجَّة أُمَّه أن تدعك موضعَ الألمِ ببولِه، قبل أن تغسِلَ كتِفَهُ وتُطهِّرها بالماء والخلِّ. زالَ ألمُهُ وبقي أثرُ الخيط الملتهب ناتِئًا في كتِفِه لأيام.

هو البحرُ الذي يحرسُ قبر أبيه ويُهدهده بترانيم موجِه، في مقبرة «هلال» التي تمنَّى فيها مدفنًا مثل مدفن أبيه سهيل، يُشرف على زُرقة الخليج المتماهية مع السَّماء. *عساني إن متُّ أن لا أُدفن بين بيوت المطَّبَة في مقبرة «بن حَقَّان»*. هو البحر الذي تنَشَّق روائح أطواره في كَرِّه وفرِّه. يُميِّز ريحًا من ريح؛ ريحَ الطينِ المالحِ ساعات الثَّبْر، وقتَ يتقهقر الموجُ تاركًا كائناته النَّافقة تتلقَّفها السَّراطين، تنتشرُ روائحها في الدِّيرة إذا ما هبَّ الهواء فتنتشي روحه بفعل ما يُسميه الأهالي فُساء البحر، مع فَوحٍ حامضٍ مُختمر تُطلقه أعشابُ الماء في الليالي الرَّطبة، أو نفح رملِ السَّاحل في الأيام المطيرة، أو ريحًا كلسيةً تنثُّها عظامُ الحبَّار النافق على الرَّمل، إذا ما توهَّجت بيضاء تحت الشَّمس على سِيف البحر، أو رائحة احتراق الرَّمل في ظهيرةٍ رمضاء في أُوارِ الصَّيف، أو رائحته شتاءً، باردةً مالحةً جافَّة تهبُّ مع صيحات النَّوارس. هو البحر الذي حفظ أطوار صوته؛ مَور أمواجِه صوتَ أنفاسِه كما تقول الصاجَّات.. أصوات النِّسوة المقعيات على صخور اليَسْرة، يغسلنَ الثِّياب في الحَيِّ القِبلي إلى جوار صخرة الوَطْية ويتبادلن النَّمائم.. حِسَّ نورسِ الشِّتاء، جوعان يُمشِّط سطح الماءِ، يصيحُ بصاحبه مثلما يصيحُ نواطير اللَّيل في السُّوق يُنبِّهون بعضهم بعضًا: «صاحي؟».. أصوات الدُّفوف والطبل البحري وغناء الرجال بإيقاعِ «سَنِگني»[1] كُلَّما أنزلوا سفينة جديدة إلى البحر، وأهازيج النِّساء في وداع السُّفُن

(1) سَنِگني: أو سَنِقِني، وتُنطق القاف جيماً قاهرية، وهو ضرب من الإيقاعات التقليدية تُصاحب أحد فنون الغناء الرجالية. (محرر وزارة الإعلام).

واستقبالها، وصلوات العائلات الموسويَّة الزَّاحفةِ إلى السِّيف عصرَ رأس سنتهم العبرية، حينما يتسربلون بِيضَ الأوشحة ويُلقون في البحر كسرات الخُبز ذنوبَ عامٍ مضى، تلتقمها أسماك الزُّوري وتمضي بها بعيدًا. وهو البحرُ الذي يتراكض إلى ساحِلِه مسيحِيُّو مَشفى الإرساليةِ، مُحمَّلين بمصارين مرضاهُم، يغسلونها بمائه المالح قبل أن يُعيدوها إلى بطون المرضى طاهرة من المرض فيبرؤون.

هو بحرُ أعاجيب الحكايات، تحملها سفائن الدِّيرة المقفلة من موانئ جنوب الشَّرق والغرب، وهو البحر الذي تعرَّفه في شيخ البحَّارة، منذ أولاهُ سَنَد بن هولين اهتمامه كله، يصبو إلى أن يُدخِله البحرَ غَيصًا، غَيصًا وحسب. فليس كمثل العَم سَنَد من يُسبغ على الغاصةِ مهابةً تشبه القداسة؛ خير الدِّيرة من أيديهم.. رجالٌ على ظهرِ السَّفينة وفي أرضِ المدينة، يقفُ لهم رجال المجالس احترامًا وتتحجَّبُ عنهم النِّساءُ حياءً. هو البحرُ ذو الصَّوت الأبدي الذي يجذبه إليه مثلَ السِّحر، كلَّما تسحَّبَ صوبَ شيوخ البحر حائِكي الشِّباك، يُنغِّمون همهماتهم السحرية: «هولو هيِهْ».

هو البحرُ الذي وُوريَ فيه حبلُه السُّري وهو لا يدري.

في الشِّتاء الماضي، حين وافق النُّوخِذا بِن حامد على طلب بِن هولين بأن يُلحِق سليمان ضمن رجال «الحامِدي» هذا الموسم؛ اشترط أن يجلِسَ الشَّابُّ الجديد مكان السَّيب[1] في البدء، على

(1) سَيب: من المهن القديمة في مراكب الغوص: مساعد الغَوَّاص. (محرر وزارة الإعلام).

حافَّةِ السَّنْبوك، يُمسِكُ حِبالَ الغاصَةِ يُعاونهم على النزولِ إلى البحر والصعود إلى ظهر السَّفينة، والتجديف ورفعِ وإنزالِ الأشرعة. ارتفع الدَّمُ إلى وجه شيخ البحَّارة ونفرَت عروقه في ديوان بن حامد بين الرِّجال. أفلتَ زفرةً وهو يتربَّع على فرشِ الحصير إلى جوار صاحب الدِّيوان. فأفضى:

«الخَشَب في حاجة إلى غاصة يا بن حامد. .وسليمان يسدُّ مكان منصور رحمه الله..».

قاطعه النُّوخِذا الخمسينيّ بشكلٍ أربك رجال ديوانِه وقد امتقع وجهه لِذكر منصور:

«سَيب في الأوَّل حتى يتعلَّم ويشتدُّ عوده.. الفتى جديدٌ على الغوص».

برطَمَ شيخُ البحَّارة من دون أن ينطق. *ما أنفقتُ كلَّ هذه السِّنين في شَدِّ عودِ الفتى، يا بنِ حامد، لكي يعمل سَيبًا يجُرُّ الحِبال وينشر الأشرعة ويُجدِّف ويرمي المرساة ويرفعها، يعودُ في آخر الموسم إلى الدِّيرة، يدخُل مثل الأطفال وسقَّائي الماء وجامِعي الغائط والعبيد على ضيفات أُمِّه في البيتِ لا ينتفضنَ حياءً من دخوله ولا يحتجبن في الحُجر.* بادله النُّوخِذا بِن حامد الصَّمت بالصَّمتِ، ساهِمًا زامًّا شفتيه يهجسُ بأمر الفتى الذي حظي قبل أسابيع بالزَّواج بالصَّبية التي تمتدحها النِّساء واشتهاها زوجة. كابَرَ في نفسه يوجِد مُسوِّغًا لرفض سليمان غير فوزه بفضَّة. ***لا أريد***

على ظهر سَنْبوكي فتى لا أضمنُه يا بِن هولين، يكرِّر فعل منصور الغَيص الموسم الماضي!

يدري العَم سَنَد، مثلما يدري النُّوخِذا بن حامد وبحَّارتِه، أن لا شأن لأُنثى القِرش بموت منصور. ولمَّا طالَ صمتُ الاثنين في المجلسِ تحرَّجَ النُّوخِذا من نظرةِ العتب في عينيّ العَم سَنَد. فنظرَ رجال ديوان النُّوخِذا بعضهم إلى بعض صامتين. وأذعنَ بِن حامد إزاء صمتِ مُحدِّثِه واحمرار وجهه. ضربَ الهواء أمام أنفِه كأنما يُبعِد ذُبابة وهو مُطرِق:

مكتبة
t.me/soramnqraa

«على خير».

رفعَ النُّوخِذا رأسه ينظر إلى شَيخ البحَّارةِ باسِمًا:

«غَيص غَيص، على بركة الله».

ثُمَّ أسند كفَّهُ إلى كتف العَم سَنَد مُردِفًا:

«غالي، يا بِن هولين، والطلب رخيص».

استحسن رجالُ ديوانِ النُّوخِذا ردَّ بِن حامد على العَم سَنَد. من يردُّ لشيخِ البحَّارةِ طلبًا؟! سَنَد، سَمِيُّ طبعِه، وجوده على ظهر الخشبة سَنَدٌ وبَرَكةٌ وفأل الخير فيها. مَن غيره يُلحِق سليمان، برجال سَنبوك بِن حامد، غَيصًا في دخوله الأوَّل للغوص؟

زارَ سليمان النُّوخِذا في اليوم الموالي يستلفُ منه مالًا يعينه على توفير حاجات بيتِه ومعيشتِه. ونَقَدَهُ بِن حامد، بعدَ الوساطة، سلفةً

تعينه على معيشة الشِّتاء. سُلفةٌ سلَّمها سليمان كاملة لأُمِّه. مبلغٌ يُسدِّده عملًا على ظهر السَّنْبوك صيفًا في الموسم المُقبل إذا ما جنى البحَّارة حصيلة كافيةً من اللؤلؤ. كان على سليمان سداد دَينه ودَين أبيه عملًا على ظهر السفينة، يُعتَق متى ما أقفلت بخيرٍ وفير، وإن لم يتحقَّق كثيرُ الخير في الموسم المقبل، فسدادُ الدَّين يؤجل إلى مواسم لاحقة لا تنتهي.

* * *

سكَّنَ سليمان نواة التمرة يصكُّ عليها بين قواطع أسنانه. وأشاح ببصره عن العَم سَنَد، وعاود يحملقُ إلى النُّجوم الطافية على الماء، وصوت فضَّة يتردَّدُ من داخلِه البعيد. ويتحسَّسُ الحبالَ الخشنة تحته يحلمُ بملمس جديلتَي زوجته الصَّغيرة. *لماذا ردَّ العم سَنَد حادثة منصور الغَيص إلى صوت بُودَرْياهْ بعدما اتُّهِمَت الذِّيبة بموته الموسم الماضي؟*

التفتَ إلى شيخِ البحَّارة يرجوه البوح بما يكتمه:

«أما جاء الوقت يا عَم سَنَد لأن تخبرني بأمر العباءة وقَسَمكُم أمام الشَّيخ سالم في قصر السِّيف؟».

* * *

(6)

قصرُ السِّيف

«ارتقابُ ريح الشَّمال»

«أما الإسلام فنحن مسلمون، وما كفرنا».

قال أميرُ الكويت، الشَّيخ سالم بِن صُباح، لضيوفِه. ثُمَّ هجس من القُرآن ثابت الوجه مُطبق الشَّفتين شاخص العينين: ***ولكنَّ الشَّياطين كفروا***.

جمعَ الحاكمُ الضُّيوفَ في قصر السِّيف لإخبارهم برأيه في مطالب إخوان مَن طاعَ الله، بعدما وفدَ إليه رسولُهم يوم أمس يحملُ رسالة شفهية حول دعوة الجماعة ومطالبهم من الكويت، شرطًا لإيقاف النزاعات والغارات. فاجتمع الأمير في هذه السَّاعة بأعيان بلده، يُفضي إليهم بما دار بينه وبين رسول الإخوان وما سوف يكون عليه رده. التفتَ الشَّيخ سالم إلى الشُّرفة الكبيرة المطلة على الخليج، حيث وقف خادمان واصطفَّت أمامهما مجموعة من الحَرَس الشَّخصي، ثمانية من «الفداويَّة»[1] المسلحين، يُعلِّقون بنادقهم بأكتافهم، وتتقاطع

(1) فداويَّة: والمفرد «فداوي»، تُطلق على حرس القصر ومرافقي الأمير الحاكم: فدائي. (محرر وزارة الإعلام).

الأحزمة الجلدية على صدورهم حاملة خراطيش البارود. يُطبقون قبضاتهم على مقابض السُّيوف في أحزمتهم الجلدية، ويولون ظهورهم إلى شُرفةِ المجلسِ المحاطةِ بالأقواس والزَّخارف الإسلامية. شُرفة مُزيَّنة بمشربياتٍ خشبية لا مثيل لها في الدِّيرة.

أومأ الأمير الحاكم برأسِه إلى أحد الخدم، وكان شابًّا شاهق الطول، شديد النُّحول، داكن البشرةِ أحمر العينين غليظ الشَّفتين. يقف إلى جوار الباب يشيل مصبَّ القهوة النُّحاسي بشِمالِه، وتُطبق على الفناجين كفَّه اليُمنى فنجانًا في قلب فنجان:

«يا عطا الله».

دار الشَّاب على الرِّجال يصُبُّ القهوة العربية، ينحني احترامًا للجميع إلا للمعتمد البريطاني السَّمين. ناوله فنجانه مستقيم الظهر عاقد الحاجبين. ورانَ صمتٌ ثقيلٌ في مجلس الأمير الصَّموت المألوف بشُحِّ كلامه، حتى يظنَّ من لا يعرفه أنه مُصابٌ بعِيٍّ في لِسانه. ونظرَ رجالُ المجلسِ إلى بعض وُهم يحتسون قهوتهم، يتحرُّون ردًّا من الشَّيخ على بقية المطالب التي بدأت بإلزام الكويت العودة إلى الإسلام الصَّحيح واعتناق مذهب الإخوان.

عاود الشَّيخ سالم النَّظر إلى الشُّرفة، وكان الشَّفقُ وراءها يُلطِّخ السَّماء بصبغته الغاربة. ضيَّقَ عَينيه ووضعَ كفَّه على صدره يتحسَّس قلبه. فارتبك الرِّجال مما حسِبوه سوءًا ألَمَّ بالأمير، ولكنهم اطمأنوا حينما أخرجَ ساعةَ جيبٍ فضِّيةً مربوطةً بسلسلة دقيقة في مخبَى

صِداره. وقامَ بِن صُباح بضبطِ السَّاعةِ وفق التوقيت العربي، حيث بأُفولِ الشَّمس ينتهي يومٌ ويبدأ يومٌ جديد.

يجتمعُ رجالات الدِّيرة في قصر السِّيف عند الغروب، على غير عادة، في جلسة تطول إلى صلاة العشاء فتجاوزها شطرًا من الليل؛ شيوخ وتُجَّار ومستشارون ورجال دين. جلس عن يمين الأمير نائبه وابن أخيه الشَّيخ أحمد بن جابر بن صُباح، وقائد العسكر الشَّيخ علي بِن خليفة بِن صُباح، وابن الأمير البِكر؛ الشَّيخ عبدالله، وعن يساره جلس الفقيه عبدالعزيز الرشيد، والفقيه محمد القزويني، وسكرتير الحكومة المُلَّا صالح، والمعتمد السياسي البريطاني الجديد؛ الميجور جي. سي. مور، الذي أتمَّ شهره الرَّابع في الكويت خلفًا للكابتن مِلكُم. يجلسُ ببذلةٍ رمادية أنيقة وحذاءين مُشمَّعين وساقين مضمومتين يُسند إليهما قُبَّعته. ظلَّ الجمعُ ساكتًا ينتظرُ كلمة من الأمير، يحملون الفناجين يترقَّبون إذنه لتقديم نُصحٍ أو مشورة.

صرفَ الشَّيخ سالم الفداويَّة والخدم من القاعة بإشارة من رأسه. وانصرف آخرهم الخادمُ عطا الله بعدما لمَّ فناجين القهوة الفارغة من ضيوف القصر. لم يبقَ في المجلس إلا الأعيان، فلا تزال صورة الفداوي ساطور -الأخ الأكبر غير الشَّقيق لـ عطا الله- تمثُلُ مُنذ عامٍ في مخيِّلة الأمير. يتذكَّره كلَّما اجتمعَ بأعيان الدِّيرة الثِّقات بشأن أمرٍ حرج. قيلَ إن الفداوي الأسود المارق، والذي كان خادمًا مملوكًا أكرمه الشَّيخ سالم لشجاعته، وجعله واحدًا من الفداوية الفرسان المقرَّبين، قيل إنه سرَّبَ

أخبار قصر الحكم لإخوان مَن طاع الله، فنفاهُ الأمير. ونفى البعضُ حكاية النَّفي وقال إنه فرَّ هاربًا من الدِّيرة من تلقاء نفسه.

طالَ صمتُ المجلسِ يُحاكي صمتَ بِن صُباح الذي بدا مكروب النَّفسِ ساهِمًا بعد ضبطِ ساعتِه، يتسربل جُبَّة رمادية مشقوقة المقدَّم، مطرَّزة الحواشي واسعة الرُّدنين. يعتمرُ العِقال المُقصَّب، ويُحكم لفَّ غُترتِه الحمراء حول وجهٍ حنطيٍّ ساكن الملامح تشوبه حُمرة طفيفة. أطلقَ زفرة وهو يُمسِّد لحيةً قصيرة وخَطَها المشيب، ثُمَّ رفع كفَّه مباعدًا بين أصابعه:

«إن الإسلام مبني على خمسة أركان، ونحن نحافظ عليها جميعًا. وإن كنا مُخطئين فإننا نعِدهم، بل نعِد الله أولًا، بالعودة إلى الإسلام الصحيح..».

رجالُ المجلس يُطيلون النَّظر إلى الأمير. يتطلَّعون لقول الشَّيخ في باقي المطالب. وجهُه جامدٌ. عيناه السَّوداوان ما زالتا تسبران ما وراء الشُّرفة. يقول بصوتٍ بالغ الهدوء:

«..أما إزالة المنكرات فنحن ماضون في إزالة ما يسعنا إزالته. وأما تكفير الأتراك فلم يثبت لدينا ما يوجب تكفيرهم وإن كانوا لنا أعداء، فإذا ثبت لنا كفرهم كفَّرناهم».

تعلَّقَت أعين الرِّجال بوجه الأمير تستنطقه ليُتِم. وفَطِن الشَّيخُ إلى أنهم ما زالوا يتطلعون إلى رأيه في باقي المطالب التي حملها رسول الإخوان ظهيرة أمس. وكان الأميرُ قد أخبرهم بالمطالب

مع إمساكِهِ عن البوح بشأن ما قاله الرَّسول حولَ مُطالبة الإخوان بعَباءةٍ انسربَت إليهم أخبارها من الفداوي ساطور. عباءة مُعلَّقة بإطار خشبيٍّ مُذهَّبٍ على أحد جدران المجلس في قصر السِّيف. بدا بِن صُباح مُشوَّش التفكير مهمومًا، يُقلِّب مطالب الإخوان في رأسِه، ينتقي لكلِّ مطلبٍ ردًّا يقي شعبهُ شرَّ حربٍ وشيكة. ***لا قدَّرَ الله***. وهَجَس الأميرُ الصَّموت. ***أن ترثَ حُكمَ بلدة ساحلية مثل الكويت، بمرساها المطل على رأس الخليج، يعني أن تمضي العمر بين دفاعٍ ومهادنة***. لا يخشى الأميرُ في تلك السَّاعةِ إلا خسارةً تُشبه خسارةَ معركة حَمَض قبلَ أربعة أهِلَّة. ***لا أعادها الله***. أبرقَ للإنكليز ثلاث برقيَّاتٍ خلال عشرة أيام، لعلَّهم يوقفون الإخوان عن الإقامة حول أراضيه أو يضطر إلى إرسال رجاله لتسوية المسألة. وما تحرَّك الإنكليز لبرقيَّات الأمير، فأرسل رجاله ووقعت الطَّامَّة. وتطلَّبَت الخسارة إحاطة المدينة بسور يُطمئن الأهالي ويُبدِّد قلق لياليهم، بعد معركةٍ انتهت على ما لا يشتهي، وقد مُنِيَت قواته بخسارةٍ عظيمةٍ في الجُندِ والعِتاد والإبل والمواشي وقعت في أيدي الإخوان غنيمةً باردة. ***أيكتفون بالغنائم؟ أم أنهم عازمون على الزَّحفِ إلى الجهراء ثُمَّ إلى الديرة؟*** وكان الأمير يهجس بما يَحيق بأراضيه وشعبه من مخاطر. ***وهل في وسع سورِ المدينة الصمود طويلًا إذا ما أقبلوا على الموت يطلبون الشهادة؟***

يُسنِد الأميرُ ساقًا إلى ساق، ويرفعُ كفَّيه يُعدِّل عِقالهُ. ولا يلتفت كما لو أنه وحيدٌ في المجلس. يُنقِّل بصره بين مُعلَّقات جدران القاعة

التي تُشبه متحفًا لأسلافِه؛ إطارات ذهبية حول قطيفةٍ قرمزية، تحملُ سيوفًا نجديةً منقوشة النِّصال بحروفٍ عربية، وأُخرى قاجارية مُذهَّبة المقابض والغُمُد، وخناجر يمانية وصُوريَّة معقوفة فضيَّة المقابض مُرصَّعة بالأحجار الكريمة. بنادق مارتيني إنكليزية طويلة وقصيرة السَّبَطانات، وبندقية ماوزر جرمنية خارقة للدروع. وفي أحد الأركان الوسامُ البريطانيُّ «نجمة الهند» يبرقُ في الجدار منذ حَولٍ ونيِّف. وأسفل الوسام منضدةٌ خشبية تستند إلى سطحها مقتنيات الخاقان الكبير، السُّلطان العثماني الرَّاحل عبدالحميد الثاني مما بيع في أحد مزادات باريس واشتراه أحد التُّجار هدية للأمير؛ عَصا وعلبة سجائر ذهبية مرصَّعة بالألماس. وفي الجدار المقابل؛ العباءة السَّوداء وقد أتمَّت عامها الأول في مجلس القصر، تُمثِّل لُغزًا مفرودًا على الجدار مؤطرًا بخشب السَّاج المذهَّب. نظرَ إليها الأميرُ مَليًّا وهو يتذكَّر الرَّسول طويل اللِّحية قصير الدِّشْداشَة، يجلس إلى جواره ظهيرة أمس بشِماغٍ أحمر تعلوه عُصابة بيضاء. قال الرَّسولُ يختمُ مطالب جماعته:

«وزَودٌ على كل ما سبَق، يطلب منكم أميرُنا تسليم العباءة التي وصلت أخبارها للعامَّة خشية فتنة تصيب المؤمنين في دينهم».

يستدعي الشَّيخُ صوتَ الرَّسول في مُخيِّلتِه، يُسمِّي المطالب التي سبقت مطلب تسليم العباءة؛ «يطلبون منكم العودة إلى الإسلام الصحيح واعتناق مذهب الإخوان، وترك المنكرات والخمرة

والدُّخان، وتكفير الأتراك، وهَدم مَشفى الإرسالية الأمريكية وطرد أطبائها، وإزالة بيوت البغاء، وهدم الأضرحة ومقام الجزيرة»[1].

تَنحنَح السيِّد القزويني. سَعَلَ وهو يُعدِّل عمامته السَّوداء بكفين يحملُ بإحداهما مسبحةً فيروزية. نبَّه الأميرَ من شرودِه، فالتفتَ الشَّيخ سالم إلى الرِّجال يُطمئنهُم:

«أما المطالب الباقية فلا سبيل إلى تحقيقها».

بدا الرِّضا على وجوه رجال المجلس وقد تنفَّسوا الصُّعَداء. واعتدل الأميرُ في جلستِه يُمرِّر نظره على الجُلوس. يأذن بالحديث. تحدَّث الجميع إلا الشَّيخ عبدالله، الذي جلس دونها بِشْتٍ على الدَّكة المفروشة بنسيج السَّدو، مربوع القامة وارث صمت أبيه، تُلاقط عيناه الوجوه ويُنصت في صمت. التفت أبوه إلى الفقيه الشَّاب عبدالعزيز الرشيد المنزوي بجِرمه الصَّغير في جُبَّتِه البُنِّية، مُعتمرًا عِمَّته البيضاء. وأومأ إليه فأجاب الفقيه:

«أمير الإخوان ورجاله ليسوا بعيدين يا بوعبدالله، البدو القادمون إلى الدِّيرة يقولون إنهم يُعسكرون في جَرية حسبما تعرفون».

صحَّح الميجور مور، بعربيةٍ مفهومة، وهو يُسند كفَّيه إلى قُبعتِه في حِجره:

---

(1) تحريًا للأمانة التاريخية وكما هو معلوم في كتب التاريخ؛ إن مطالب الإخوان كانت في القصر الأحمر لاحقا ولم تكن في قصر السيف. (محرر وزارة الإعلام).

«كانوا في قرية العُليا صحيح.. ثم عسكروا في أُم الجماجم.. ووجهتم المقبلة هي آبار الصبيحية، ومن الممكن أن يتجهوا شمالًا إلى الجهراء».

تبادل الرِّجال النَّظر بينهم قبل أن تعود أبصارهم إلى وجه الشَّيخ سالم. بادر قائد العسكر:

«قُدِّرَت أعدادهم بثلاثة آلاف».

التفتَ الميجور إلى الشَّيخ علي بِن خليفة:

«صاروا أربعة آلاف..».

حالٌ من عدم الارتياح سيطرت على رجال المجلس. زاد الميجور:

«..مُسلَّحون ومعهم من العتاد ما يضمن بقاءهم طويلًا».

أردف المعتمد البريطاني كأنما يُحاول إحداث فجوةٍ في جدار صمت الأمير قليل الكلام:

«فرسان وهجَّانة ورَجَّالة و..».

تدخَّلَ السيِّد القزويني يُقاطعه ويحدث الأميرَ مُهوِّنًا:

«الدِّيرة مُحصَّنة بالسُّور يا طويل العُمر».

أجابه الشَّيخ سالم عاقِدًا حاجبَيه:

«والقُرى وراء السُّور؟ والبدو؟».

فالتفتَ الأميرُ إلى ابن أخيه ونائبه، الشَّيخ أحمد الجابر، يدفعه إلى الحديث. ثبَّتَ الشَّيخُ الثلاثيني عينيه إلى عينيّ عمِّه، يقول:

«الشَّيخ خزعل أرسل خمسمئة بندقية خزعلية مع ذخيرة كبيرة يا طويل العُمر».

نقَّلَ الميجور بصرهُ بين الأمير ونائبِه. مسحَ بكفِّه على قُبعتِه قبل أن يقول:

«بحسب علمنا أن أمير عربستان قد أرسل من يُحذركم من مواجهة الإخوان!».

هزَّ الشَّيخ سالم رأسه:

«عندي علم».

فنظرَ إلى قائد العسكر وأومأ برأسه:

«والشيخ عليّ ماذا يقول؟».

أجابه الشَّيخ علي بن خليفة مادًّا ذراعه صوب الغرب:

«طال عمرك يا بوعبدالله، معنا من البَدو ما يضمن عدم زحف الإخوان إلى الجهراء إن سارعنا بالخروج».

أبقى الشَّيخ عليّ عينيه ثابتتين إلى الأمير مُشدِّدًا:

«إذا وقعت الجهراء يزحفون إلى الدِّيرة، وساعتها لن يصمد السُّور طويلًا أمام أربعة آلاف مُسلَّح».

وقرَ قولُ قائد العسكر في نفس الشَّيخ سالم يثيرُ هواجسه. فتدخَّلَ السيِّد القزويني موافقًا الشَّيخ أحمد. قال وهو يُمرِّر بين أصابعِه خرَزَ مِسبحته الفيروزية:

«إن جماعتي ممتلئون حميَّة وحماسة لصدِّ الإخوان..».

صمتَ قليلًا قبل أن يستطرد وهو ينظرُ إلى الشَّيخ سالم:

«..إذا ما زَوَّدتمونا بالسِّلاح، يا طويل العُمر، وأمرتمونا بالمسير و..».

تدخَّل الشَّيخ أحمد مُستأذنًا عَمَّهُ الأمير:

«إذا سمحَ لي طويل العُمر..».

هزَّ الأميرُ رأسه موافقًا. فالتفتَ الشَّيخ أحمد إلى السيِّد القزويني يُتمُّ حديثه:

«..لا سلاح ولا مسير يا سيد».

بُهِت السيِّد القزويني من اندفاع ابن أخ الأمير بإصدار أمر، فصفته نائبًا لا تمنحه هذا الحق في حضرة الشَّيخ الكبير. ضيَّق القزويني ما بين حاجبيه يستفهم. فوضَّحَ الشَّيخ سالم بلهجةٍ هجينٍ بين لينٍ وصرامة وهو يُنقِّل بصره بين ابن أخيه والقزويني:

«فلنسمع الشَّيخ أحمد».

مال نائب الأمير على السيِّد القزويني:

«يا سيِّد، إنك تعلم بأن الإخوان يكفروننا ونحن على مذهب أهل السُّنَّة، وإذا ما علموا بخروجكم إلى قتالِهم، وأنتم على مذهب الشِّيعة، فسيزيد هذا من حماستهم، وتتعقَّد علينا وعليكم الأمور، وتشتد الأزمة».

نظرَ الشَّيخ أحمد إلى عمِّه الشَّيخ سالم بعينين لامعتين:

«نخرج إلى الجهراء قبل زحفهِم.. نتغدَّى بهم قبل أن يتعشوا بنا!».

تغضَّن جبين الأمير، وانبرى عبدالعزيز الرشيد يقترح:

«لعلَّ نقل بيوت الرُّمَيلة إلى خارج السُّور يكفينا شَرَّهُم».

بدا الانزعاجُ على وجوه الجلوس لذكر تلك البيوت في مجلس الأمير. لكن على عادته لا يُفوِّت الرشيد فرصة للحديث عن المفاسد في البلاد مهما صغرت، لا سيما في حضور ممثل دار الاعتماد البريطاني، لأن الدِّيرة ما عرفت تلك البيوت المنبوذة إلا بعد مجيئهم. تقبَّض وجه الشَّيخ أحمد فأجاب:

«نقلُ بيوت الحرام الآن من الرُّمَيلة إلى ما وراء السُّور اعترافٌ بوجودها..».

وما جادله عبدالعزيز الرشيد والحال تشي بحربٍ محتملة، فتدخَّل المُلَّا صالح يُدير دفَّة الحديث نأيًا عن تحفُّظات الرشيد في غير أوان مناقشتها، فتمنَّى سكرتير الحكومة السَّلامة وآثر تقديم حُسن النيَّة، ووافقه الحاكم وأيَّده الرِّجال:

«لعلَّها سحابة صيفٍ تجلوها ريحُ الشَّمال».

ابتسم المعتمد البريطاني لكثرة ما سمع ذاك القول الدَّارج من الأهالي منذ مجيئه. ولا يُفصح الميجور عن تساؤله كيف ينتظر المرء

من الرِّيح أن تحلَّ مشاكله المصيرية. وطال الحديث حتى تخلَّلته الصَّلاة مرَّتين. وبينما هُم في أحاديثهم تلك تسلَّلت نسمةٌ من الشُّرفة الكبيرة المطلة على البحر، دفعت الأميرَ إلى الالتفات إليها ثانية، كما لو أن أحدًا يُناديه. نهضَ إلى الشُّرفة عابرًا بين الحضور فوق سجادةٍ حريريةٍ هنديةٍ كبيرة. فتسرَّبَ قلقُ الأمير إلى رجال المجلس الذين تخالسوا النَّظر بعضهم إلى بعض في صمت.

وعلى دكَّة الشُّرفة أبصر الأميرُ لَوْهَةً تمدُّ عنقها الطَّويل وتُميل رأسها مُبحلقة بعينيها الصَّفراوين. نطَّت بريشِها الأسود البرَّاق بضعة أشبار مُبتعدة، واستقرَّت على حافَّة الشُّرفة حينما دخلها الأمير الذي نظرَ إليها مليًّا وقد رآها في الشُّرفة قبل أيام، حينما عيَّن يومَ الثُّلاثاء المقبل ختام الموسم وإعلان القُفَّال.

فَكَّ الشَّيخ سالم لفَّة الغُترة أسفل ذقنه المشذَّب، يُعرِّض عنقه المتعرِّق لريح السَّاحل. وأطالَ إنصاته إلى خجخجة الموج في الظلام

تحت الشُّرفة، كأنما يتلقى وشوشاتٍ سرِّيةً مع وصولِ كُلِّ موجةٍ تتكسَّر على رمالِ السِّيف. تهبُّ عليه من بعيدٍ همهماتُ شيوخ البحر الأبدية، مثل موجٍ يهمسُ لموج. ويفكِّر الأمير في الزَّمن. بزغ نجمُ سهيل في سماء الدِّيرة، والصَّيف على مشارف النهاية، والصَّحراء التي تُعادي الخصمَ في الصَّيف تُحالِفه باقي فصول السَّنة. والخيلُ التي يمنعها القيظُ من عبور الصَّحراء باتت متوفِّزة وقد تحسَّن الطَّقس.

أدارَ الأميرُ ظهره للشُّرفة، يواجه رجال المجلس وهو يُنقل بصره بين نائبه وقائد العسكر:

«أطلِقوا المدافع صباح الغد..».

طارت اللَّوْهَةُ من الشُّرفة تصفقُ جناحيها الكبيرين. وأومأ الشَّيخ أحمد والشَّيخ علي يُجيبان الأمير:

«تم يا طويل العمر..».

بهتَ رجال المجلس وانطفأت وجوههم. وأربكهم الأمير بإطلاق المدافع قبل أن يتبيَّن نيَّة الإخوان.

صاح الشَّيخ سالم بالفداويَّةِ الثَّمانية والخدم الذين صرفهم قبلَ سويعات. فسارعوا بالدُّخول إلى المجلس عاقدي الحواجب مثقلين بالبنادق والسُّيوف. ووجَّه الأميرُ حديثه إلى أحد خدم الشَّيخ أحمد، شاب صلب نحيل لامع العينين أسود، وأمره بالإبحار إلى سفينة أمير الغَوص:

«يا مرزوق.. خُذ مركبًا إلى السِّردال[1] بِن رومي، وقل له الشَّيخ سالم يأمرك بإطلاق المدفع».

انصرف الخادمُ مُسرعًا للقاء أمير الغوص بين مغاصات الخليج، وتنهَّدَ رجال المجلس ارتياحًا، فأشرقت وجوههم بعدما التبسَ عليهم أمر المدافع التي كانوا يخشونها إعلانًا لمعركةٍ ضد الإخوان. والتفتَ الأمير إلى قائد العسكر بعدما أعلن انتهاء موسم الغوص الكبير وبدء القُفَّال:

«كم لدينا من الرِّجال في الجهراء؟».

نقل الميجور مور بصره إلى الشَّيخ علي بِن خليفة يخزره في صمت. وأجاب قائد العسكر:

«لدينا ألف طال عمرك.. أربعمئة تحت راية دعيج الفاضل، وستمئة تحت راية بِن طوالة. مسلحين وينتظرون أوامركم يا طويل العمر».

رنا الأميرُ إلى الفداويَّةِ الثَّمانية. وثبَّتَ بصره إلى فارسٍ ضخم الجُثَّة، أبيض الوجه ضيِّق العينين داكن الشَّارب والعثنون:

«يا مِرشِد.. طِر إلى الجهراء وقل للرجال هناك إنها قريبة».

---

(1) سردال: ما يُعادل رُتبة الأدميرال، أمير الغَوص أو أمير البحر، المسؤول باسم الأمير الحاكم عن مراكب وسفن الغوص، تحريف للتسمية الهندية: سردار. (محرر وزارة الإعلام).

طارَ مِرشِد، وانطفأت وجوه رجال المجلس ثانية لا يُدركون مجازًا إلى ما يفكر فيه الأميرُ الذي التفت إلى ابن أخيه:

«لا يستعجل البحَّارة في غوص الردَّة هذه السنة.. ربما نحتاج للرجال».

تململَ الحضورُ في مجالسهم مستنكرين قلق الشَّيخ سالم، فلم يحدث شيءٌ يستدعي القلق إلى هذا الحدِّ، إلا لو كان الأميرُ يدري بما لا يدرون. وأزعجهم تلميحه بإلغاء حملات غَوص الردَّة بعد القُفَّال، فعلى البحَّارة أن يردُّوا إلى البحر ثانية بعد موسم الغَوص الكبير لسداد المتراكم من ديونهم للتُّجار. أشار بِن صُباح بيدِه صوبَ البابِ يُرخِّص لهم الانصراف. ومضى يودِّعهم هازًّا رأسه ردًّا على تحياتهم. وطلب من عبدالعزيز الرشيد البقاء. ومكث الشَّيخ عبدالله في مجلس أبيه مع الميجور مور. وقبل أن يَقفل الأميرُ إلى مجلسه قال:

«يا بِن أحمد..».

فأجاب الفقيهُ الأميرَ الذي جلس على مقعده:

«أمرك يا طويل العمر؟».

وأشار إليه الأميرُ بأن يقترب للجلوس إلى يمينه مع الشَّيخ عبدالله، على حين جلس المعتمد البريطاني إلى يساره. وفاجأ الأميرُ الفقيه بسؤاله:

«هل رأيتم مني تقصيرًا في شرع الله وأمن العباد؟».

بدا التوتُّر على الفقيه الشَّاب الذي تنحنح قبل أن يقول:

«طال عمرك.. أهل الدِّيرة يثنون عليكم لما أبديتموه من الغيرة على الآداب العمومية والأخلاق الفاضلة.. ويشكرون لكم ترتيب المختارين في الأحياء لإزالة الدَّنس.. وجازاكم الله خيرًا خففتم على الأهالي بتخفيض الجُمرك ما أعانهم على صعوبة العيش.. وأخيرًا أرى أنكم أقمتم تحفة زمانكم لحفظ أمن البلد ببناء السُّور. والعدل، طال عمرك، يتمثَّل في قولكم الذي نقشتموه على باب قصركم: لو دامت لغيرك ما اتصلت إليك».

أسند الشَّيخ سالم ظهره إلى مقعده بعد إنصاته لكلمات الرّشيد المنتقاة بحذر. كلمات كثيرة تقول القليل. حدسَ الفقيه تحرِّيَ الحاكم لسماع المزيد، فتنحنح قبل أن يستطرد:

«و.. الإرسالية.. بأمانة.. لعلكم تدرون عن صلاة النصارى التي يُقيمونها يوم الأحد في مبناهم. في الحقيقة صار الأطفال والحريم يترددون على الإرسالية كل أسبوع، يحشرون أنوفهم فضولًا ويستمعون إلى..».

«امسكوا أنتم حريمكم وعيالكم.. أنا لا أربي الناس في البيوت».

سكتَ الفقيه عند مقاطعة الشَّيخ سالم. ونقَّل الميجور مور بصره بين الاثنين في صمت. وأرسل الشَّيخ عبدالله نظره إلى عينيّ أبيه الذي سأل الفقيه:

«غيره؟».

وفكَّر الرّشيد قبل أن يقول عن السُّور:

«ما صنعته، طال عمرك، من الطين والحجر سوف يشهدان على صيتك من بعدك، واحرص أن يكون هذا الصيت صيت عدل وفق شرع الله..».

اعتكر وجه الأمير بعدم وضوح الفقيه:

«ومطالب الإخوان؟».

زمَّ الفقيه شفتيه واعتدل في جلسته، وقال بعدما استلَّ نفسًا طويلًا:

«أنتم تعرفوني يا طويل العُمر، حنبلي المذهب سلفي العقيدة. ولا أكتمكم أنَّا سُررنا أولًا من إقبال الإخوان على الدين، ورجونا أن يكون على أيديهم تقويمه ونشر الأخلاق الفاضلة، وإزالة المفاسد والمنكرات حتى لقد كان بعض علمائنا ينادي بمدحهم على رؤوس الأشهاد وأنتم تعلمون. وقال بعض العلماء إنما الإخوان هُم «النُّزَّاع مِن القبائل» الذين بشَّرَ بهم الرسول صلى الله عليه وسلَّم..».

تمتمَ الحاكم وابنه يُصليَّان على النَّبي. وكان الميجور يُنصِت باهتمامٍ وينقرُ على قُبَّعتِه بأصابعِه. وواصل الرشيد:

«..ولكن خابت فيهم الآمال أخيرًا لما أحدثوه من قتل النفوس وسلب الأموال. فإن هذا قد صوَّرهم بصورة الذين لا يعقلون من الدين شيئًا، وبذلك نفر الناس منهم، ونأى عنهم حتى محبوهم بمقدار ما تقربوا منهم، وما ذاك إلا لأنهم خالفوا تعاليم الدين

باستعمالهم الشدة والقسوة، والإسلام دين رفق ولين.. أما بشأن مطالبهم فأنتم يا طويل العُمر ماضون في محاربة المعاصي. وبعض المطالب حق، وبعضها غلوٌ ولا غلو في الدِّين».

هزَّ بِن صُباح رأسه صامتًا وأشار إليه بالانصراف. وبعد انصرافه مضى الأمير يتبعه عن يمينه ولده، والميجور مور عن يساره حاملًا قبَّعته. توقفَ أمام الجدار يُجيل النَّظرَ إلى العباءة السَّوداء في إطارِها المذهَّب، منطفئ الوجه شارد الذهن تتناهبه الوساوس. مزاجه لا يشي بتغييرٍ يناسبُ أعياد موسم القُفَّال وعودة البحَّارةِ في الغد. لم يفُه الميجور مور بكلمة، وهو يدري أن الشَّيخ غاضب من الإنكليز لعدم تدخلهم في صدِّ الإخوان قبل هزيمة حَمَض. ويدري في الأصل أن الشَّيخ المتدين لا يودُّ في قرارةِ نفسِه أن يتورَّط في طلب مساعدة من الإنكليز النَّصارى المشركين أمام شعبِه المؤمن وأعدائه المتزمتين، لكنه مضطر. ومع ذلك وقفَ المعتمد يتمنَّى من الشَّيخ سالم ما يوحي بهذا الطلب. والشَّيخ الصَّامتُ يدري ما يدور في خاطر المعتمد من عدم ارتياح، وبانزعاج الإنكليز من طلبه عون إمارة حائل حليفة العثمانيين وعدُوَّةِ أبيه، لترسل إليه الإمارة المتصدِّعة بِن طوالة ورجاله من سفوان بعد هزيمة حَمَض، فينفق عليهم من المال والعتاد ما أثقل كاهله لحماية الجهراء. ولا يفهم المعتمد عناد الشَّيخ سالم، ولم يفاتحه حتى الآن في أمر مكاتبته إلى حائل وقد أعدَّها تجاسرًا على معاهدة أبيه مع حكومة صاحبة الجلالة، وتقرُّبًا من العثمانيين لا طائل من ورائه بعد خساراتهم الجسيمة في الحرب العظمى.

ولَمَّا طالَ صمتُ بِن صُباح والمعتمد البريطاني إلى جواره لم يتزحزح قيد أُنملة، صاح الأمير بالخادم النَّحيل:

«يا عطا الله!».

أقبل الخادمُ الطويلُ مثل عود الخيزران لا قَسَمات في جسده، يحملُ مصبَّ القهوة والفناجين رافع الرأس. فالتفت الأميرُ يميلُ إلى المعتمد البريطاني:

«هذا ولدٌ نبيهٌ.. ينفعكم في المعتمدية ويتعلم منكم الإنكليزية، ويتعلم من كانديد الطبخ».

بهت عطا الله عند سماع طلب الأمير إرساله للعمل في بيت النَّصراني، تحت إمرة الخادم الهندي العجوز، النَّصراني أيضًا. ولم يقُل المعتمد البريطاني إن مدرسة القِس الأمريكي إدوين كالڤِرلي هي المكان الأمثل لتعلم الإنكليزية، وهو ما كان يُفكِّر فيه لحظتها ولم يُفصح عنه، لأنه يدري أن لا شأن لعطية الشَّيخ بتعلُّم اللغة. ورغم أنه يدري بالعُرف الذي يقول إن عطايا الشُّيوخ لا تُرد؛ فإنه حاول التَّملُّص من قبول العطية بحجَّةِ كفاية عامِلي دار الاعتماد، فأجابه بِن صُباح حازمًا:

«ما هو بعطية.. يساعدكم في العمل نهارًا ويعود إلى القصر متى ما انتهيتم».

انصرفَ الميجور مور إلى محلِّ إقامته في المعتمدية شرق الدِّيرة، وانسحب الخادم يتبعه ضوع القهوة، وبقي الأميرُ غائبًا في عباءة

الجدار يتشاغل عن هاجسٍ بهاجس. فتنحنح الشَّيخ عبدالله، فتنبَّه أبوه إلى مرور الوقت وتراتيل شيوخ البحر تهُبُّ عليه همسًا من الشُّرفة الكبيرة. دنا الابن من أبيه وقبَّل جبينه:

«ما الذي يشغلك طال عمرك؟».

نظرَ الأبُ إلى ولده من دون أن يُبصره لفرط ما غامت عيناه بالخيالات السَّوداء:

«العباءة».

* * *

(7)

عَباءَةُ بُوُدَرْياهْ

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾

القرآن الكريم/ المُدَّثِّر

توهَّجَ شهابٌ خاطفٌ مثل سهمٍ ناريٍّ في فضاء الليل، حدَّق إليه سليمان وهو يُردِّد في سِرِّه من المُصحف الشَّريف آية: ﴿*وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ*﴾ . فانطفأ الشِّهابُ بين النُّجوم، وهسَّ الفتى بعدما استعاذ من الشَّيطان المرجوم بالشِّهاب. ***على رأسك يا صاجَّة.***

يدري بِن سهيل أن الشُّهُبَ ملائكةٌ تُطارد شياطين تسترقُ أخبار السَّماء. ﴿*فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا*﴾ . تهوي الشُّهُب على رؤوس الشَّياطين كيلا تنقل أخبار الغيب إلى أهل الكهانة من الصاجَّات والسَّحَرة والمُنجِّمين.

اعتدلَ سليمان في جلستِه على حافَّة السَّنبوك الطَّافي على المياه السَّوداء، يرمق العَم سَنَد ويتحرَّى إجابة حول حكاية العباءة والقَسَم التي فشَت في الدِّيرة، وتجاوزتها إلى حواضر الكويت وجُزرها وباديتها، خرافة رُويَت على قدرٍ كبير من الصدق. غير أن الشَّيخ الهَرِم أطال الصَّمت وما فاهَ بكلمة. وعاد الفتى يُناظر

انعكاس النُّجوم العائمة على سطح الماء، يتناهى إليه صوت فضَّة يُناديه، ويقول في نفسِه على ما قال العم سَنَد إنه وهم، ويقلِّبُ نواة التَّمرة في فمِه. يستدعي طعمَ الزَّنجبيل اللاذع قبل أَهِلَّةٍ أربعة، وقتَ دَهَمه دوَّار البحر وخَبَرَهُ أوَّل مرَّة على ظهر الخشبة.

* * *

يتذكَّر سليمان التَبَّةَ[1] الأولى؛ مُمْسِكًا بحبل الغَيص، وهو يُحيط كاحِلَهُ بحبلٍ آخر مربوطٍ بثقَّالةٍ صخرية. كان خفيفًا متحرِّرًا من عوالِق أحشائِه، بعدما سقاهُ العَم سَنَد نقيعَ العِشرِج[2] المُسهِل ليلًا، حتى يُفرغ جوفه في الصباح ليَتَّسِع لأكبر قدرٍ من الهواء. سدَّ الشَّاب منخريه بالفطام[3] كيلا ينفُذ الماءُ عبرهما إلى رئتيه ويمتلئ فيغرق. وعلَّقَ سلَّة المحَار الشَّبكية حول عنقِه. نصفُه الأسفل في الماء شادًّا إزارَهُ حول خاصِرتِه ونصفه الأعلى يُشوى تحت الشَّمسِ على مهلٍ وهو يتشبَّث بالمجدافِ الخشبي الكبير. يرفعُ رأسه، بالكادِ يفتح نصفَ جفنيه بفعل أشعة الشَّمس، ويُحدِّقُ إلى عينيّ سَنَد الممسِك ببقية حبلِ الغَوص فوق السَّنْبوك يستمدُّ منه أمانًا

(1) تَبَّة: الغطسة الواحدة في البحث عن اللؤلؤ. وواجب الغيص سِتُّ تبَّاتٍ في اليوم الواحد أول الموسم، ثُمَّ عشر تبَّات في اليوم حينما يدفأ الماء. (محرر وزارة الإعلام).

(2) عِشرِج: العِشرِق؛ نبتة يُستخدم نقيعُها مُسهِلاً للبطن، وفي اللهجة الدَّارجة تُستبدل الجيم بالقاف: عِشرِج. (محرر وزارة الإعلام).

(3) **فطام**: أداة تُصنع من الخشب أو قرن الكبش، يستخدمها الغوَّاص لِسَدِّ منخريه. (محرر وزارة الإعلام).

وثقة. شيخُ البحَّارةِ من أجلِ سليمان الغَيص يجلسُ مكانَ السَّيب بإيثار المعلِّم، يُمسك بحبلِ إنزال الغَيص وحبل الثقَّالة على غير دأبِه. رفع الشَّيخ الهَرِم الثقَّالة الحجرية المربوطة بحبلٍ حول كاحل سليمان وأسندها إلى حافة السَّنْبوك، وأوصاه ضاحكًا قبل أن يُلقي الثقَّالة بحرًا:

«أكمِل التبَّة كاملة، ولا تُعجِّل بالخروج وإلا..».

أشار العَم سَنَد غامزًا صوبَ النُّوخِذا المتربِّع في سقيفةِ سُدَّتِه في مؤخرة السَّنْبوك يُدخِّن النَّارجيلة. وفهِمَ سليمان التهديد المبطَّن، فقد عُرف عن النُّوخِذا بِن حامد صرامته مع الغاصة، خبره البحَّارةُ جاسيَ القلب لا يتردَّدُ بِفَلعِ الغَيصِ بالمجداف الخشبي على رأسِه إذا ما ظهر من الماءِ قبل إتمام تبَّتِهِ كاملةً. ويهوي بقصبة نارجيلته على ظهور البحَّارة المتهاونين في عملهم، العبيد منهم تحديدًا. وسليمان يدري بأن النُّوخِذا يفعلها في فورات غضب، ولكنه في مأمنٍ طالما أيقن أنه قادر على الغطسِ طويلًا لمدة تربو على الدَّقيقتين، متجاوزًا مُدَّة التبَّةِ المتعارف عليها، وفي الوقت نفسه يخشى الفتى غضبة النُّوخِذا لأي سبب آخر. فقد سمع عن عَزُّوز الهَذَّار حكاية استقرَّت في ذاكرته منذُ بداية الموسم. قيلَ إن بِن حامد ارتابَ لصمتِ عَزُّوز على غير طبيعته، وقتَ فَلقِ المحَار فجرًا. كان صمته مُريبًا في ظهيرة أحد المواسم، لم يُصدِّق النُّوخِذا حكاية التهاب الحنجرة التي تذرَّع بها الهذَّار. وظنَّ أنه ابتلعَ لؤلؤةً

يُخفيها في جوفه. فأمر البحَّارة بربطِه إلى دَقَلِ السَّنبوك. ثُمَّ سقاهُ الحَلول، نقيع العِشرج المسْهِل، ووضع بين قدميه طَسْتًا فارغًا أملًا في نزولِ اللؤلؤة المتخيَّلة مع فضلاتِه السَّائلة، غير أن النتيجة كانت براءة الهَذَّار من شكوك النُّوخِذا. والعَم سَنَد يؤمن أن بن حامد لا يشكُّ في أمانة عَزُّوز، إنما هي رسالةٌ إلى بقية البحَّارة تطبيقًا للمثل: اِضرِب المربوط؛ يخافُ المفتَلِت.

هزَّ سليمان رأسه لِـ شيخ البحَّارة وهو يضحك إزاء تهديده المضمر. وانحنى الرَّجُل المسنُّ وهو يطبقُ قبضتيه اليابستين على حبلِ إنزال الغَيص يوصي الشَّاب:

«متى ما قارب نَفَسُك ينقطع.. شدّ الحبل».

ناكفه سليمان وهو يُحيط ساعديه بالمجداف:

«أنا ثقيل!».

طوى سَنَد ساعِدَه يُبرز عضلته أسفلَ جِلده المجعَّد:

«هذا الزّند يمشي عليه التَّيس يا تيس! دع الهذرةَ للهذَّار.. خُذ نفَسًا!».

أطرقَ سليمان ينظر إلى الماء في مستوى خاصرته. ضيَّق عينيه يحدُّ بصره قبل نزولِه إلى قاع المغاص. وردَّدَ في سِرّه آية من القرآن الكريم: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

ما كاد يملأ رئتيه بالهواء حتى قال شيخُ البحَّارة:

«تحكَّم بنبضك فإنه يطردُ الهواء من الصدر!».

رفسَ العَم سَنَد الثقَّالة في الماء، وهبطَ سليمان سريعًا بفعل الصَّخرة المربوطة بكاحِلَه. وفتح عينيه على اتِّساعهما رغم الحُرقة المالحة، يشهد لحظةَ تحقيق حُلمٍ قديم. وناوَشَت المكانَ ظُلمَةٌ طفيفةٌ في البدء، ثُمَّ تخلَّلها ما يُشبه أعمدةً من ضياء الشَّمس تخترق الزُّرقة الدَّاكنة. وتزدادُ الظلمة كلما أوغَلَ عُمقًا في الهبوط. قطعَ مسافة أحدَ عشر باعًا نزولًا إلى القاع وهو يتلفَّتُ تحت الماء. أخيِلَةُ الغاصَةِ من حوله تنسلُّ بنعومة، بين هبوطٍ وصعود إلى السُّفن والمراكب في الأعلى، مثل أشباحٍ بحرية تسكن المغاص منذ الأزل. يتعرَّف بعضها في غبشة الماء. غاصَةٌ أكثرهم حليقو الرؤوس، يُميِّز بينهم البدوَ بضفائرهم الطويلة تتحرَّك في الماءِ مثل سِياط قناديل البحر. ويردُّ من لا يتعرَّفهم إلى المراكب القريبة أو إلى أصولهم من جِنِّ اليَمِّ المسالم. وترسو قدماه أخيرًا وتُثير رملَ القاع. فيُنصت إلى نبضات قلبه في أُذنيه. ويسمعُ غير بعيدٍ عنه ما يشبه الغناء المكتوم. يلتفت صوب الصُّخور المرجانية، ويُبصر عَزُّوز الهذَّار فاغرًا فمه يصرخُ بلحن أغنية وهو يجمع المحَار. يُحرِّر سليمان كاحِلَهُ من حبل الثقَّالة الصَّخرية، وخيالات الغاصةِ الشَّبحية من حوله مُنكبَّة على اقتلاع المحَار. ترتفع الثقَّالة إلى الأعلى يسحبها العَم سَنَد بعدما أدَّت غرضها، فيُرخي الحبلَ الآخر الذي يمسِكه الفتى في غطستِه، يمنحه مسافة أطول يبحث فيها عن المحَار، وينتظر إشارة الشَّدِّ قبل انقطاع نَفَس الفتى.

يعومُ سليمان في العمق، يكاد يُلامس القاعَ بصدره. ويتسارع نبضه عند رؤيتهِ الضَّبابية لخيالِ المحَار، في الغبشة، متناثرًا في القاع أو ملتصقًا بالشِّعاب المرجانية بين قنافذ البحر وشوكها الأسود فائق الطول. وتتبدَّى له خيالات المحَار داكنة في رؤيته الزَّرقاء القاصرة. ألوفٌ من بينها واحدة، رُبَّما، تُطبق فلقَتَيها على لؤلؤةٍ ثمينة. يخفق قلبه بشدَّة. ويتذكَّر وصيَّة شيخ البحَّارة فيُحاول السَّيطرة على نبضه. يُحكم تثبيت الفطام يسدُّ مِنخرَيه، ثُمَّ يشرعُ في اقتلاع المحَار من الصُّخور المرجانية، يملأ به السَّلَّة الشَّبكية المربوطة حول عُنُقِه. بدا له منظرُ المحَار في القاع مهيبًا وهو يتشبَّث بصُخور البحر، لا يُسلِّم نفسه بيُسر للغاصةِ الغُزاة. يقشعر جسد سليمان أمام ذلك الشيء الذي أنصتَ لسحرِ حكاياتهِ في حديثِ كبيرة الصاجَّات أُم

حَدَب، وقتَ تروي بصوتها المبحوح مشهد جماع السَّماء والبحر[1]. وتُباري الأطفال بالأحجيات الغريبة فتصفُ شيئًا لا تُسميه؛ طاسة فوق طاسة في البحر غطَّاسة. ويُجيب الغُلام؛ المحَار. فتستغرب الصاجَّة: والله إنك نبيهٌ يا ولد الحُبارى! ارتحل سليمان مع خيالاته فنبَّهته سمكةُ عَنْفُوز[2] مرَّت من أمامه على بُعد ذراع، ساحرٌ لونهُا وتسبح على مألوف طبعها مُنفردة، فقطعت انسيابَ ذاكرته. هو يعرف السَّمكة المفلطحة صَيدًا على ظهر قارب، يعرفُها رمادية كابية كئيبة. تتوسَّط جانبيها لطختان صفراوان منطفئتان. غير أن

---

(1) **جماع السماء والبحر**: ورد في سِفر «حوليات مدينة الطين» عن خلق اللؤلؤ مشهدٌ أسطوريٌّ: [وفي جماع السَّماء والبحر تنفصمُ ألوف المحَارات عن الصُّخور والمرجان تتركُ القاع، وتتهادى صعودًا إلى سطح مياه الخليج في موسم الثَّرَّايات كل عام. فتطفو على صفحةِ الماء ليلًا مثل زنابق الماء الهندية، وتدورُ على ذاتها مثلَ نساءٍ غائبات في حفلِ زار. فتنفلِقُ فاتِحةً أفواهها على وِسعها في الليالي المطيرة، تتطلَّع لالتقامِ قطرة مطر. وإذا ما التقمَت اللقاح السَّماوي المبارك أطبقت فَلَقَتيها، وأوقفت دورانها تعاودُ الهبوطَ أُلوفًا مؤَلفة في مشهدٍ عظيمٍ إلى قرارِ الظُلُمات، وتلتصقُ بصخور البحر ساكنةً، حيث تفعلُ قطرةُ المطرِ المستقرةِ في جوف المحَارةِ فِعلَها، وتمضي اللؤلؤة في تكوُّنها تكوُّن الجنين في الرَّحم]. (المؤلف).

(2) **العَنْفُوز**: العنفوز ذو البقعة، ضربٌ من الأسماك المفلطحة وردَ ذكره في سِفر «أمثال مدينة الطين»: [«العنفوز؛ ما هو من المالح». والمالح ما يُقدَّد من لحوم كائنات البحر والعنفوزُ لا يُقدَّد. ويُضرب المثل فيمن ينتسب إلى ما لا يشبهه]. وجاء ذكر السمكة في سِفر «كائنات مدينة الطين» في باب مسوخ البحر: [وإن بدت لكم من الحوت فإن فيها من مماسيخ أشباه الإنس، ربات خيالٍ مغضوبٌ عليها ليست في أصلها من البحر. ومنها أوَّل صاجَّةٍ متوَّجةٍ في مدينة الطين، كبيرة الجيل الأوَّل، استأثرت بالسلطان في غياب كاتب الأسفار، ولمَّا عاد من غيبته نزع سلطانها وأسقط رأسها بالقلم، ورمى في الخليج جسدها الذي استحال سمكة عَنْفوْزٍ تهيم على وجهها في الخليج ألفَ عام]. (المزيد في باب ملوك الجان، صفحة 417). (المؤلف).

لونها كان مُغايرًا في القاع، تشعُّ زُرقة داكنة، والبُقعتان الصَّفراوان تتوهجَّان على جانبيها مثل شمسَين ساطعتين. ***من أين للمكان أن يورِّث جماله لأهلِه، فلا يصيرون هُم في غيره! سبحان الله.***

انقطعت خيالاته بانقطاع أنفاسِه في القاع وقد اكتظت سلَّته بالمحَار. وشدَّ الحبلَ ثلاث مرَّاتٍ إشارةَ انتهاء تَبَّتِهِ الأولى فتنبَّه العَم سَنَد. وأسلمَ سليمان جسده لشيخ البحَّارة يسحبه إلى الأعلى، يرتفعُ مثل سمكةٍ سَلَّمَت لصنَّارة صيَّاد. يزدادُ النُّور كلما اقترب الغيصُ من السَّطح. فظهر رأسه الحليق من الماء وسحبَ الهواءَ شاهِقًا وِسعَ رئتيه، وطعمُ الملح في لسانِه وشفتيه، وصُوَر القاع في مُخيِّلته. كان وجه العَم سَنَد بذقنِه الحليق وصَلعتِه المشعَةِ مثلَ الشَّمس في استقباله باسمًا لا يزال، كأنما التبَّة كلها تمَّت في طَرفة عين.

«لستَ في عَوَزٍ إلى حبلٍ لو أنك تستخدم زعنفتيك!».

قال الشَّيخُ وهو يُشير إلى أُذُني سليمان.

فمدَّ إليه كفَّهُ يعاونه على الصعود. ولكن سليمان ناوله السلَّة: «أفرِغها يا عَم، سأعاود الغطسَ تَبَّةً ثانية».

أعادها العَم سَنَد لـ سليمان، بعدما أفرغها على سطح السَّنبوك. لا يُخفي شَيخ البحَّارة سعادته بالفتى:

«كأني أشوف فيك منصور الغَيص يا سبع البحر».

انقبضَ صدر سليمان لكلمة العَم سَنَد. واستسلمَ للثقَّالة ثانيةً تنزل به إلى قعر الماء بقلبٍ مُضطرب. يتخيَّلُ منصورًا يرافِسُ بين

فَكَّي الذِّيبة. تنهشهُ أُنثى القرش، ولا تُخلِّفُ منه إلا دَمًا يحيطُها مثل سحابةٍ حمراء، ونُتَفَ لحمٍ تتلقَّفها أسماكُ اللزَّاق الجائعة، ثُمَّ لا أثر لشيء في القاع إلا عباءة سوداء عالقة بصخور البحر.

عاودت سمكةُ العَنْفُوُز المرورَ من أمامه مُشِعة متوهِّجة بلونيها الأزرق الدَّاكن والأصفر البرَّاق. فنسيَ خيالات منصور الغَيص والذِّيبة. وأهدرَ نصفَ التبَّةِ يتابعُ السَّمكة مسحورًا برشاقة حركتِها وشعاع لونيها، تُقبل صوبَه كُلَّما مكث في الماء ساكنًا، وتفرُّ هاربةً إذا ما مدَّ إليها يديه.

* * *

سليمان في أواخر ليالي الغَوص، في نوبةِ الحِراسة الليلية لا يزال. يجترُّ ذكريات اليوم الأوَّل فوق كومة الحِبال المُهملة. يعتدل في جلسته. يُسكِّنُ نواة التمرِ أسفل لسانه ويستدرج شيخ البحَّارة الصَّامت عن سِرِّ العباءة:

«أيُعقل أن يروح منصور ضحية ذلك الشيء؟».

يهتزُّ السَّنْبوكُ هزَّة خفيفة إثرَ موجةٍ عابرةٍ. يخرج العَم سَنَد عن صمته:

«الذِّيبة؟».

يومئ سليمان برأسه نافيًا أن يكون مقصده أُنثى سمكة القِرش. فيخفضُ صوتَهُ:

«أخبرتم النَّاس في الدِّيرة أنه راح ضحية الذِّيبة، ولكن زلَّة لسانك، قبل قليل، قالت إنه بُوُدَرْياهْ».

يغوص الشَّيخُ في صمتِه ثانية. ويُبرِّر الفتى:

«كلانا يعرف ولعَ منصور بالنِّساء، أتُراه من فرطِ حرمانه خُيِّلَ إليه صوت امرأة تناديه؟».

سأله الفتى وصوت فضَّة في رأسِه يُناديه. والعَم سَنَد، رغم قَسَمِه العام الماضي أمام الأمير بكتمان السِّر، يُقدِّم إجابته بسؤال يُضمر إجابة:

«والعباءة؟».

تنتابُ سليمان قشعريرةٌ إزاء ذِكر العباءة، تُطفئ صوتَ فضَّة في خياله، وتسري في جسدِه توقظُ رهبة يومه الأول في البحر قبل أربعة أهلة.

* * *

ظهرت العباءةُ على سطح السَّنْبوكِ صُبح دخول الغَوص هذا الموسم، يحملها العَم سَنَد تحت شَمسِ الظهيرة، وقتَ راحَ بعضُ الرجالِ يأتمرون بأمر النُّوخِذا، يتسلَّقون الصَّاريتين العظيمتين يُرخون الأشرعة عند أحد مَغاصاتِ أُم الطِّين، تلك البقعة في الخليج صافية الماء وافرة المحَار. كان سليمان مفتونًا بما يجري حوله على سطح السَّنبوك الكبير. سَنبوكٌ جاوزَ طوله الثَّلاثين ذراعًا بخلاف

أحجام السَّنابيك. يفيضُ اعتزازًا بكونه أحد بحَّارة سَنْبوكْ بِن حامد الجديد ذي الصَّاريتين العظيمتين والمجاديف الكثيرة، سَنْبوكْ فَتيّ في ثاني رحلاته إلى الغَوص، السَّنبوكْ السَّاحر الذي صارَ حديث النَّاس في المجالس والمقاهي لاتساع سطحه لما ما يربو على التسعين بحَّارًا، ولعمقِ خُنِّه ورحابته، ولرشاقة بدنه وسرعته، ولمتانة جذعه المشيَّد من أخشاب أشجار الرقعة العظيمة الوافدة من مومباسا البعيدة. شيَّدَ بها بِن حامد سَنْبوكه العملاق «الحامِدي» وأشاد به الأهالي. يُبصره البعض من بعيدٍ خاطفًا بين المغاصات في نهارات الصَّحو قُرب سواحل الخليج.

غاب سليمان مع النهَّام[1] الشَّاب عبدالله، المغني الأعمى الذي تأوَّه بأغنية حزينة، يُسند كَفَّه إلى خدِّه كمن يعاني آلام ضرسٍ أو التهاب أُذُن، يُهيِّئ البحَّارة لرحلة الشهور الطويلة:

الغوص خمسة أهِلَّة
فيها الشّقا والمذلَّة
محَّار في القاع نابت
يبغي سواعِد تشِلَّه

راح يُصفِّق مُنتشيًا مع المصَفِّقين تحت الزُّرقة المترامية، يتحرَّى لحظة يشيلُ فيها المحَار من القاع. ومازحَ النُّوخِذا النهَّام على غير عادتِه، يرفع صوته في ضجيج التَّصفيق:

(1) نهَّام: من المهن القديمة في السُّفُن والمراكب: مُغنِّي السَّفينة. (محرر وزارة الإعلام).

«نِهِمَتُكَ تؤلِّب البحَّارة يا عبدالله!».

ارتفعت ضحكات رجال السَّنْبوك تدهشهم مزحة النُّوخِذا الغضوب، مُنتشين بغناء النهَّامِ لأغنيته الشَّجية. وتربَّع الغاصة على سطح السَّفينة، يُصفِّقون في حين يقرعُ عزُّوز الهذَّار الطَّبلَ البحري الكبير بإيقاعٍ منتظم، وهو يترنَّح في جلستِه مع تمايل السَّنبوك بفعل موج الخليج. يقرعُ الطَّبلَ ويفلتُ صيحاتٍ تشدُّ أزرَ البَّحارة على إنزال الشِّراع المُثلَّث الكبير. وألقى أحدُ الرجالِ بالمرساةِ تلبيةً لأمر النُّوخِذا. ولاحظ سليمان سكوت النهَّام عن غنائِه فجأةً مع احتدام القرع على الطَّبل وتصفيق الرِّجال. أمال النهَّام رأسه وأصاخ كأنما يُبصر بأذنيه، يتحرَّى وقع قدميّ شيخ البحَّارة في صخب الرِّجال. وبينما الشَّمسُ تُنزل سياطها على ظهور البحَّارة المصفِّقين، تقدَّم العَم سَنَد بإزارِه عاريَ الصَّدر، بخطواتٍ ثابتةٍ وعافيةٍ تصغِره ثلاثين عامًا. يتهادى مديد القامةِ في مشيته مُحاكيًا رقصة السَّنبوك على صفحة الماء المضطربة، يابس الجِلد ناتئ الأضلُع، يتأبَّطُ عباءةً نسائيةً سوداء طأطأ لظهورِها البحَّارةُ خاشعين، على حين يتلفَّتُ سليمان بغير فهم. اخترق شيخُ البحَّارة حلقة الرجالِ المُتربِّعين يرتجُل رقصةً[1] رصينة. اشتدَّ قرعُ الطَّبل والتَّصفيق وارتفعت همهمات الرِّجال. وبَدا شيخُ البحَّارةِ في رقصتِه فتيًّا رغمَ تجاعيد صدره العاري مثل

---

(1) الرجل -فيما درج عليه الأولون- يزفن ولا يرقص، فالرقص ليس للرجال في المتعارف عليه من العادات والتقاليد. والزَّفن أو الزفان ضربٌ من الأداء الحركي التعبيري على إيقاع الطبل أو الطَّار لا يصنف في منزلة الرقص. (محرر وزارة الإعلام).

أخاديد شجرةٍ مُعمَّرة، وشعيرات شيباء تناثرت في صلعته. هيبة هذا الشَّيخ تُحيل الرَّقصة إلى ما يشبه طقس عبادة، كأنها الغياب في صلاةٍ أبدية. يعقدُ حاجبيه ويتمايل بخطوات بطيئة تحاكي قرع الطَّبل. يترنَّحُ بصلعةٍ سفعتها الشَّمس، وغضون ذقنٍ حليقٍ وجسدٍ نحيلٍ أسمر، بعروقٍ نافرةٍ زرقاء وقسمات وجهٍ صارمة. ينحني ببطءٍ ويُجاوز وضعَ الركوع، والعباءة تحت إبِطِه. يُقارب رأسه سطح السَّنْبوك، ويُصفِّق بشدَّةٍ بكفَّين مبسوطتين وأصابع متباعدة حتى ينزَّ العرَقُ من حاجبيه الكَثَّين. فيعاودُ الوقوفَ مشدودًا مثل رمحٍ يطعنُ الشَّمسَ بِسِنانِه. ويرفع رأسه عاليًا إلى السَّماء حاملًا العباءة بيديه، ويُبحلق إلى عين الشَّمس ووجهه يتلامعُ بالعرق. فيمدُّ العباءة مُطبقًا قبضتَيه على طرفها، ويُطلِقُ بقية الأطرافِ تُرفرف في الرِّيح. يقفُ بثباتٍ بين الصَّاريتين العظيمتين، كما لو أنه بقامته المديدة ثالثهما، صلبًا مثل صاري سفينةٍ عتيقٍ يشيلُ شراعًا أسود. يمضي في غيابِه مُرخيًا جفنيهِ هازًّا كتِفَيه على وقع صفقاتٍ صاخبةٍ مثل الهزيم، فيخترقُ حلقة الرِّجال الجُلوسِ خروجًا، ويسيرُ إلى مؤخرة السَّنْبوكِ شبه المربَّعةِ المزيَّنةِ بالنُّقوشِ البديعة مثل سُفُن السَّفر؛ مُثلَّثاتٍ ونجومٍ وأهِلَّةٍ محفورةٍ على سطحِه الخارجي، تُحيط اسمَ السَّنْبوك «الحامِدي» أسفل النَّص القرآني: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾. يقفُ شيخُ البحَّارة أسفل رايةٍ خفَّاقةٍ حمراء تتوسَّطها بالخطِّ الأبيض كلمة «كويت». تسفعُ ريحُ البحر وجهه ويتنسَّمها مادًّا ذراعيه أمامَهُ. يحملُ العباءة مُكوَّمةً كمن يُسَلِّمُ مطوية أغراضِ غَيصٍ فقيدٍ إلى أهلِه.

تبعه النهَّام مُقوِّسًا ظهره مُسنِدًا كفَّيه إلى خدَّيه، يستأنفُ غِناءً يُشبِه النَّدب، يستهلُّ أغنية بآهاتٍ حرَّى. ولا يدري سليمان كيف للنهَّام الأعمى أن يتبع العَم سَنَد كما لو أنه يُبصر مواضع خطوِه. أدرك النهَّام مؤخرة السَّنْبوك، فأفلتَ شيخُ البحَّارةِ العباءة على مرأى من البحَّارة ونوخِذاهُم. وطوَّحت بها الريحُ قبل أن تُسقِطها في الماء حيثُ تلبَّستها الصَّخرة في مغاص أُم الطِّين قبل عام، في المكان الذي اختفى فيه منصور الغيص. وراح الجمعُ يُردِّد وهو يواصل التَّصفيق: «يا الله سَهِّل علينا.. يا الله يا كريم».

لم يسأل سليمان آنذاك عن العباءةِ التي ابتلعها مغاصُ أُمّ الطين، وهو كشأن أهل الدِّيرة، قد سمِعَ بأمر القَسَم الذي قطعه النُّوخِذا بِن حامد مع رجاله السَّنة الماضية، في حضرة الأمير، يومَ شاعت بين أهل الدِّيرةِ حادثة موت منصور الغَيص بين فَكَّي ذيبة، بعدما عثر الغيص عَزُّوز الهذَّار على العباءة عوضًا عن جثَّة الغيص الفقيد في أحد مَغاصاتِ أُمّ الطِّين، غير أن أحدًا لم يدرِ علامَ أقسم النُّوخِذا بِن حامد أمام الأمير، وما العهد الذي قطعه رجال السَّنْبوك وأبقوه طيّ الكتمان بينهم.

***

يتململ سليمان في جلستِه يُثبِّت نواة التَّمر تحت لِسانه. لا يطيق صبرًا على صمتِ شَيخ البحَّارة عن سِر القَسَم والعباءة. تُريبه زلَّة

لِسان العَم سَنَد بشأن المسخ بُوُدَرْياه، رغم أنه لا يؤمن بوجوده. ولم يقنع بأن يروح منصور الغَيص ضحية ذاك الشيء، في حكايةٍ تشبه حكايات الأُمَّهات لأطفالهن كيلا يسبحوا في البحر خشية الغرق. هو لا يُصدِّق رغم توكيد الصاجّات اللاتي ما انفككنَ يصنعن التَّمائم والتَّعويذات للغاصة ورجال السَّفينة، تَقِيَّة من الخبيث وشروره. سمع عنه الكثير من الحكايات. قصصٌ يحملها البسطاء من الغاصة ورجال البحر بعد موسم القُفَّال وعودة السُّفنِ إلى الدِّيرة. يَعْزون أيَّ حادثةٍ غرقٍ إلى مكائده وإن لم يُبصروه. هو وراء غرق جالبُوت النُّوخِذا بِن موسى قبل ثماني سنوات، بين مراكب وسُفنِ الغَوص، رغم سكون البحر وهدأة الرِّيح. ولو قُدِّرَ لواحدٍ من رجال الجالبُوت الخشبيِّ النَّجاةُ فربما أكدَّ للنَّاس ما يُشاع عن هيأتِه. قيلَ إنه كائنٌ مسخ؛ لا جِنّي لا إنسي، جسدٌ آدمي ووجهٌ شائهٌ بعينين كبيرتين يُشبه وجه شيخ الذُّباب.مكتبة سُر مَن قرأ

* * *

في موسم غَوص العام الفائت 1919، قبل التحاق سليمان برجال السَّنْبوك، قطع «الحامِديُّ» أولى رحلاته وعاد قبل أوانه. أقفلَ سَنبوك بِن حامد إلى الدِّيرةِ مُبكِّرًا مُنكِّسًا رايته، ورجع من دون منصور الغَيص، تلميذ العَم سَنَد، أمهر الغاصةِ وأشدهم بأسًا وصاحبُ التَبَّةِ الأطول تحت الماء. كان موضع منافسةِ النُّواخِذة قبل

كلِّ موسم، أيُّهم يضمُّه إلى رجالِه. يعرض بعضهم أن يتكفَّل بسداد ديونه لـ بِن حامد لقاء تنازله عنه.

نزلَ النُّوخِذا إلى اليابسة من السَّنْبوك، يتبعه رجالُه حُفاةً أنصاف عراةٍ جاحظةً أعينهم، يمشون كالمسرنمين تحت شمس العصر، يُشَيِّعهم غناءُ شيوخ البحر بين عُلوٍّ وخفوتٍ كالموج. شيخ البحَّارة سَنَد بن هولين، يتبعُ النُّوخِذا بوجهٍ أصفر يابس الشَّفتين. حَمَل بن حامد بيمينه مطويةَ حَصيرِ الغَيص الفقيد، ملفوفة على هُدومِه وعُدَّة غوصِه، وفي شِماله عباءة نسائية سوداء تبدو دخيلة على المشهد الرِّجاليِّ الأخرس للبحَّارةِ المقفِلين في غير أوانِهِم. استغرب أهلُ الدِّيرة تخلُّف السَّنْبوك عن أسطولِ الغَوصِ وعودته مُنفرِدًا، ما يعني أن النُّوخِذا لم ينتظر أمرَ الأمير الحاكم وإعلان موسم القُفَّال بإطلاق المدافع إيذانًا بانتهاء الموسم. ولَمَّا بانت راية السَّنبوك مُنكَّسة تأكد أهل الدِّيرة أنهم فقدوا أحد البحَّارة.

منظرُ النُّوخِذا يهرع نحو أحد البيوت حاملًا مطوية الحصير مألوفٌ لأهل الدِّيرة. لا جِدَّة في هلاك أحدِ الغاصة في البحر. غير أن الموت ليس حجَّة لاستباق العودة، وهذا ما انقبضت له صدور الأهالي يومذاك. لا يخلو موسم غَوصٍ من فقد، والكل يدري وهذه سُنَّة الحياة في الدِّيرة، والموتُ مُقدَّرٌ والمقدَّرُ كائن والنَّاس مؤمنون، ولا يموتُ أحدٌ في غير يومه؛ رجالُ البحر يموتون بالحُمَّى، أو ذات الرئة، أو التهاب الأُذن، أو قروح الجلد، أو من يبتلعه دردورُ الماء أو

من يموت غيابًا في أحشاء وحوش البحر أو من يموت بغير سبب. يُكفَّن الميتُ ويُصلَّى عليه فيُرمى في الخليج إن كان «عبدًا» أو بلا أهلٍ في الدِّيرة. أو يعود جسد المديون، إن سَلِم، على ظهر مركب صغير إلى أقرب سِيفٍ لمنازل الغَوص. يودِّع السَّفينة ورفاق اللؤلؤ، وتزُفُّه طيورُ البحر والغيوم إلى مقامه الأخير، مثل جثمان فارسٍ امتطى الموج جيادًا زرقاء، فشيَّعته إلى قبرٍ أصفر لا شاهد له. هذا كله مألوف، غير أن عودة سَنْبوكِ بِن حامد المبكِّرة أثارت الأقاويل بين النَّاس الذين ما صدَّقوا أن عودة «الحامِدي» مردَّها موت الغيص.

خرَّت أُم منصور على ركبتيها عند عتبة بابها متكوِّرة بعباءتها، عندما أبصرت أغراض ولدها بيد النُّوخِذا الذي ما فاه بحرف. خلعت بنشيجها قلوب البحَّارة المُعزِّين. وتوافدت جاراتها وانصرف الرِّجال. وانقبضت صدور النَّاس عندما أمرَ النُّوخِذا المتجهِّم رجاله أن يتبعوه إلى قصر السِّيف. وانشغلوا عن فقدان منصور الغيص وأمِّه الثَّكلى بين النَّائحات، فتعلَّقت أبصارهم بالعباءة التي يحملها بِن حامد وهو في طريقه إلى قصر الأمير.

تبع أهلُ الدِّيرة موكبَ البحَّارة الصَّامت. يسأل بعضهم عن أمر العباءةِ ولا أحد من رجال السَّنْبوك يُجيب. ودهمَ القلقُ الجميعَ مستغربين صمت الهذَّار محتقن الوجه بين الرجال لا يفوه بكلمة. وتجمهر النَّاس عند واجهة القصر بعد اختفاء البحَّارة وراء بابه. فأبعد فداويَّة الأميرِ المتجمهرينَ قُدَّامَ البوَّابة الرئيسة، وقد اعتلتها

مجموعة من البنائين، يعملون على تثبيت حجرٍ صقيل، نُقِشت عليه عبارةٌ قليلٌ من الجمهور قادرٌ على فكِّ حروفها: «لو دامت لغيرك ما اِتصلت إليك.. ١٣٣٧ هـ».

مكثَ رجال السَّنْبوك في القصر حتى ساعة المغيب. والنَّاس ما زالت عند البوابة تتحرَّى خبرًا يُبدِّد غموضَ استباق العودة. فخفَت ضجيج العامَّة واشرأبت الأعناق، تتطلَّع إلى البوابة التي لفظت النُّوخِذا بِن حامد ورجاله من دون العباءة. واقترب أحدُ العامَّة من بِن هولين يسأله:

«ما الخبر يا عَم؟».

لم يجرؤ الرَّجل على مُخاطبة العَم سَنَد بلقبِ شيخ البحَّارة قُرب قصر الأمير الحاكم، فالشِّيخةُ -عند أهل الدِّيرة- للشُّيوخ من أُسرة الحُكم وحدهم. أجاب النُّوخِذا بِن حامد -نيابة عن بِن هولين- يُسمِع العامَّة:

«الأمرُ بين يديّ الشَّيخ سالم».

***

«أنا لا أصدِّقُ إلا ما تراه عيناي..».

قال سليمان مُعتدِلًا في جلسته على كومة الحِبال عند مؤخرة السَّنْبوك. تسبرُ عيناه الظلام وهو يُقلِّبُ نواة التَّمرِ داخل فمه. استدركَ:

«..أو ما ذكره الله في المصحف الشريف..».

راحَ يُعدِّدُ على أصابعه:

«..الجن والملائكة والشياطين..».

قاطعه العَم:

«بعدك صغير يا ولدي..».

وحملقَ إلى عينيّ سليمان فأردف بآية قرآنية:

«وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ».

دبَّ نملُ الإجلال في صدغيّ سليمان، ذاك الخَدَر الذي يُصيبه كلما جاءته إجابة مقرونة بآية من القرآن أو بذكر الله. سأله بعد صمت:

«ولكن ماذا يكون؟».

شيخُ البحَّارة يستقي من القرآن إجاباته:

«وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ».

ينتشرُ التَّنميل في صدغَي سليمان نزولًا إلى فكِّه، كأنما دسَّ رأسه في مسكن نمل. فيلتفتُ الفتى إلى ظلمة الماء ويُصيخ السَّمع إلى نداء فضَّة:

«أتسمع ما أسمع يا عم؟!».

فيُطبق بِن هولين قبضته على فكِّ سليمان:

«إياكَ يا ولد!».

***

مضى عامٌ على حادِثة غرق منصور الغَيص، التي لم تتسرَّب تفاصيل حقيقتها إلى العامَّة. لم يسمع أحدٌ بأمر القَسَم في قصر الأمير، حتى عزُّوز الهذَّار كابد في إمساك لسانِه، غير أن إشاعة الخبر جاءت من داخل القصر. قيلَ إن ساطور العَرد، الشَّاب الجسيم الذي كان خادمًا في القصر فقرَّبه الشَّيخ سالم ورفع منزلته إلى فداوي، هو مَن أفشى أمرَ العباءة التي ظهرت في موضع اختفاء منصور، وِفق ما قاله النُّوخِذا بن حامد للأمير. وقال إن سَنَد بن هولين اقترب من الشَّيخ سالم وهامسه، وبعد المهامسة صرفَ الأميرُ جميع الحرس. ولَمَّا انقضى المجلس وعاد الحرس لمح ساطور مُصحفًا على منضدة المجلس الخشبية، ففطن إلى أن قَسَمًا قد قُطع فورًا بين رجال السَّنْبوك والأمير في غياب الفداوية والخدم.

اجتماع النُّوخِذا وبحارتِه مع الأمير أعقبته زيارة أحد تُجار الأقمِشة السِّيلانيين إلى القصر. جاء إلى الكويت لبيع بضاعته على دكاكين الأقمشة في سوق اليهود. قيلَ إن التَّاجرَ أفصح للشَّيخَ سالم عند معاينته العباءة بأنه لم يَخبر قماشًا مثلها قط، كأن نسيجها ليس من صنع البشر. فأمر الأميرُ أن تُحرق العباءة درءًا لإشاعة الخرافات وتأجيج الفتن، لكن بائع القماش بالغ بكيل المدائح للعباءة ذات

القماش النادر، فاستحسنها الأميرُ وصرف النظر عن حرقها، ورفضَ عرضَ التَّاجر لابتياع العباءة، وفكر في الاحتفاظ بها مثل تحفة بين مقتنيات القصر. فأغرى بائعُ القِماش، آخر النَّهار، الفداويَّ بثلاثةِ أمتارٍ من الحرير الهندي لمعرفة سر العباءة. وباعَ ساطور نصف الخبر لتاجر القماش السِّيلاني الذي أشاعه في سوق التُّجار بالمجَّان: اختفى منصور في المغاص وظهرت العباءة. والذِّيبة؟ ما رآها بحَّار. وباقي الخبر؟ لدى الأمير ورجال سَنْبوك بن حامد.

ما سمع مخلوقٌ ما سمعته جدران مجلس قصر الأمير، إلا لَوْهَة حطَّت على إحدى شُرُفات القصر. قيل إن منصور الغَيص كان في نوبة الحراسة الأخيرة ، يُساهر العَم سَنَد على حراسة السَّنْبوك. مياهُ الخليج هادئة تطفو على سطحها النُّجوم. وما مِن علامةٍ تسبقُ اقترابَ الخبيث، على حدِّ علم الصاجَّات، سوى نزول نجوم السَّماء تطفو على سطح الماء. تُمهِّد لاستدراج أقل البحَّارة إيمانًا وتقوى. فتناهت إلى مسمعِ منصور تأوُّهات فتاةٍ تجيء من بعيد. تحرَّرَ من إزاره في فورةِ جنون. وقفز إلى الماء مُنتصِبًا يعومُ صوبَ الصَّوت الأُنثوي. لم يعُد. فقفزَ سَنَد وراءه مناديًا النُّوخِذا يوقظُ رجال السَّفينة يُخبرهم بأمرِ منصور. دبَّ الهلع في سطح «الحامِدي». وتردَّد اسم بُودَرْياهْ بين الرِّجال، فراحَ بعضهم يُصلِّي ويتضرَّع لله يرجوه حمايةً من صاحب الصَّوت. انتشلوا العَم سَنَد خائر القوى لاهثًا ينادي منصورًا. وأمرهم النُّوخِذا بإشعال السُّرج والكفِّ عن النزول إلى الماء قبل بزوغ النور، خشية خسارة المزيد من الغاصة.

هلَّ الفجر. وانتشر خبرُ اختفاء منصور في السُّفن والمراكب القريبة. فنزلَ الغاصةُ تطوُّعًا يبحثون. ولم يجدوا لمنصور الغَيص أثرًا في القاع، ولا جثَّة طافية على السَّطح، فصاح عَزُّوز الهذَّار بعد غطسةٍ قصيرة:

«جنيَّة.. جنيَّة».

ووصفَ للبحَّارة الجنيَّة المتسربلة بعباءة سوداء في القاع. وراح النُّوخِذا يذرع السَّفينة جيئة وذهوبًا، ونزل الغاصة تباعًا إلى موضع

غطس عَزُّوز فأبصروا ما أبصر. عاود العَم سَنَد الغَوص في الموضع نفسه مع الشروق، وخرج داميَ الكفَّين يمسك العباءة النسئية السَّوداء، يحملها إلى النُّوخِذا بِن حامد، ويُخبره أنها صخرة تلبَّست بعباءة في القاع. زمَّ النُّوخِذا شفتيه يطوف ببصره على بحَّارته الذين أصابهم الذُّعر. *الخبيث، يريدُ بالعباءة فتنةً تثيرُ رجال السَّنْبوك!* كان النُّوخِذا يُفتِّشُ في رأسِه عن أمرٍ يوجِّهه لبحَّارتِه بعدما ترك الشِّرير عباءته وانحاشَ بمنصور في العباب، ولكنه تمسمر في مكانِه مشلول اللسان أمام شيخ البحَّارة، في حين تعالى ضجيجُ رجال السَّفينة. وتقدَّم عَزُّوز الهَذَّار إلى النُّوخِذا لاهِثًا:

«بُودَرْياهْ بُودَرْياهْ يا نوخِذا يا الله إنك تنجينا يقولون منصور الغيص سمع صوته وراح وراء الصَّوت ولا أثر لشيء في البحر إلا عباءة الخبيث شي عجيب غريب والله راح منصور راح الغيص يا نوخِذانا فلنُقفل إلى الدِّيرة قبل أن يأتي الشَّر علينا يفتن البحَّرة ويُغرق الخشب ونموت كُلُّنا في البحر و..».

صاحَ عليه بِن حامد:

«بس! يَبَس يُبَبِّس عظامك يا رخو!».

صمت الهذَّار مبتلعًا الإهانة وهو يُمسِّد شاربه العريض، كأنما يردُّ على النُّوخِذا بغزارة شاربه التي لا تتوافق مع النَّعت.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

التفتَ سليمان إلى العَم سَنَد الذي التقطَ محَارة من الكومةِ الرَّطبة إلى جواره، وراحَ يُقلِّبها في الظَّلمة بين يديه. ولا يدري الفتى لِمِ نهره الشَّيخ وأطبق قبضته على فكِّه قبل قليل، يُحذره من فتنة الصَّوت الذي يجيء من الغِبَّة. يستغربُ تصديق الشَّيخ المؤمن بتلك الخرافات. وطرد الفتى خيالات ما سمعه حول حادثة منصور الغيص:

«لماذا تركته يتبع الصَّوت يا عَم؟».

لم يرفع شيخُ البحَّارة بصرَهُ عن المحَارةِ في يدِه. أفضى بصوتٍ خفيض مُثقل بالمرارة:

«خيرٌ له أن يُفقَدَ غريقًا..».

بحلقَ سليمان وهو يُصغي. واصلَ شيخُ البحَّارة وهو يفلق المحَارة:

«.. عِوَضًا عن موتِه قتيلًا بيدِ وَلَدِه..».

يعرِفُ سليمان أن لا وَلَد لمنصور الغَيص الذي أمضى آخر حياته القصيرة أعزب بين القوَّادين، يُلاحق بنات حمدية في مواخير الرُّمَيلة. استطرد العَم سَنَد:

«..يهديه الله..».

تدارك:

«.. يرحمه الله. كان ينوي الزواجَ بعدما ضَيَّق الشَّيخ سالم على البيوت النجسة في المرقاب وحاصرها. أجَّلَ زواجه إلى ما بعد

عودته في موسم قُفَّال العام الماضي لولا أن.. قدَّر الله وما شاء فعل.. هذا مصيرُ مَن يُصاحب سعدون شارب المنكر..».

ولأن لومًا طالَ شيخ البحَّارةِ غَلَّفَهُ سؤال سليمان؛ لماذا تركته؟ برَّر الشَّيخُ بصوتٍ وقور، وهو يحكُّ ذقنه المتغضِّن بكتِفِه، وأصابِعُه الزَّفِرة تعبث في أحشاء المحَارة النديَّة:

«..اِسمع يا ولدي..».

أرهفَ سليمان السَّمع. فاستطردَ الشَّيخ:

«..أنتَ رجلٌ عاقل. الغَوص بركة، والرِّجال على ظهور هذا الخَشَب رجالُ طاعةٍ وعبادة، ومنصور يُسامحه الله ويرحمه.. لم يكُن».

ينفخُ العَم سَنَد على طرفِ أنفِه الأقنى، يُبعِد سَيلَ عرقٍ هبطَ مِن بين حاجبَيه الكَثَّين. ويردف:

«..كلانا يعرفه، رجُلًا شَبِقًا لا يُفوِّت فائتة. لا يعتقُ عباءةً إن مرَّت من أمامه، يتعقَّبها بناظريه ويتخيَّل ما وراءها.. رجلٌ ضعيف قلب أمام النساء، وكُلُّ متحرِّكة في شَرعِهِ حلال.. لكنه، والشهادة لله، رغم فساد خلُقه كان شابًّا حَيِيًّا، لا يحبُّ أن يراه الناس في ما ابتلاه الله لولا من أغراه مِن أبناء إبليس في الحوطة..».

سليمان يتحاشى الحديث عن سعدون خشية غضب بِن هولين. واصل الشَّيخ حديثه عن منصور الغَيص:

«..بعدما طرده نواخِذة سُفُن التِّجارة مع سعدون بسبب طيشِهما

مع بنات الموانئ.. حسِبنا خلاصه في سُفُن الغوص، فالغوص امتحان الرِّجال، لا ميناء ولا نساء.. لكنه كان خلاصًا لحياتِه بأكملِها».

بدا سليمان غير مقتنعٍ بالحجَّة؛ أن يُترَكَ الرجلُ للموتِ بسبب سوء خُلُقِه! زَفَرَ شيخُ البحَّارةِ زفرةً طويلة وهو يهزُّ رأسه. ***سامحني يا ربي***. ضاقت المسافة بين حاجبَيه وعينيه. وجَّه نظره إلى عينيّ سليمان. أخفض صوته:

«أنت تعرف مصيرَ مَن يُـ..».

تلكأ وهو يستغفر. ***يالله سِترك وعَفوك ورضاك***. تفرَّسَ سليمان ملامح العَم سَنَد يحُضُّه على الاسترسال. فصاحت لَوْهَةٌ قبل أن تحطَّ أعلى دَقَلِ السَّنبوك. ورفعَ الاثنان رأسَيهِما إلى الأعلى يتحقَّقان من مصدر الصَّوت الذي يُشبه نهيق الجحش الصَّغير في هدأة الليل. تمتمَ شيخُ البحَّارة مُتَطَيِّرًا:

«لوْهَة!».

ثُمَّ أشارَ لِـ سليمان أن يصمت. ففردَت اللَّوْهةُ جناحيها واختفت في الظلام. ثُمَّ واصل العَم سَنَد إفضاءه بعد صمت:

«أنت تعرفُ مصيرَ مَن ينكح لُخْمَة»[1].

(1) لُخمة: سمك الرقيطة المفلطح. والمؤلف هنا يُغالي بتأصيل صورة ملفقة عن البحارة لا أصل لها في الماضي. (محرر وزارة الإعلام).

«أصدِّقك في كل ما تقول يا عم.. كل متحرِّكة في شرع منصور حلال.. لكن لُخمة؟!».

ثُمَّ التحفَ سليمان صمته حياءً. وطأطأ ينظرُ إلى النجومِ العائِمَةِ على وجه الماء. يتذكَّر نذيرَ الصاجَّات عن السَّمكة المفلطحة؛ ويلٌ لمن يُغويه البحرُ، ملعونٌ من ينكح اللُّخْمَة، تُنجِب له المولودَ المسخ في الحال، بُودَرْياهْ أبا العباءة، يولدُ من رَحِمِها في الماء يُنادي أباه، وإن لم يستجب الأبُ يخرجُ الابن من البحر إلى السِّيف بعد حين، يبحثُ عن أبيه.. يقتُله.. ثُمَّ يختفي.

يمَّمَ شيخُ البحَّارةِ وجهه شطر الظلامِ كَمَن يهذي:

«تقول الصاجّات إن بُوُدَرْياهْ هجين هذا الفعل بين بشرٍ ولُخمَة.. من يدري؟!».

يمسحُ دمعةً بظهرِ إبهامِه. ويُطلق زفرةً هازًّا رأسه:

«منصور الكلب!..».

مهما غرفَ بِن هولين من مُفردات الحاضرة والبادية في جعبته، لا كلمة مثلَ الشَّتيمةِ تُفصِح عن قدر المحبَّة، إذا ما فشلَ الرَّجلُ بانتقاء كلمةٍ ينعتُ بها من يُحِب. يشتمه وهو في الحقيقة لا يشتمُ إلا نفسه العاجزة عن التعبير. ارتعشت شفة الشَّيخ وهو يُقرِّب وجهه إلى سليمان يُفصِح:

«..سوف أُخبرك بما دار في مجلس الشَّيخ سالم».

استغربَ سليمان تهاون شيخ البحَّارة مع القَسَم:

«والله؟!».

أطرقَ شَيخُ البحَّارةِ حائرًا في أمرِه، ثُمَّ أوجدَ له مَخرجًا لتلافي القَسَم بالحيلة. هي المرَّة الأولى التي يكسر فيها العم سَنَد قسمًا في حياته:

«لقد صرتَ من رجال هذا السَّنْبوك، والشَّيخ سالم اِئتمنَ السِّرَّ بينه وبينَ رجالِ النُّوخِذا بِن حامد، وقد غدوتَ واحدًا مِنَّا، يعني يشملك قَسَمُنا مع الأمير وإن لم تكن معنا الموسم الذي فات، والسِّر عندك في أمان..».

بهتَ سليمان وهو يستمع إلى العَم سَنَد يُقرُّ بالمخرج العبثي لنكثِ القَسَم. يغيبُ الشَّيخُ في صورةٍ يمقُتها ويقول:

«..في واحدة من ليالي الموسم الماضي، لا أعادها الله، لم أجد منصور الغَيص في موضعه وقد أوكلتُ إليه مهمَّة الحراسة. لم يكن بين رجالِ السَّفينةِ النِّيامِ على سطحها. نزلتُ إلى خُنِّ[1] السَّنْبوك أشيل سِراجًا، وليتني ما فعلت. عثرتُ عليه مُقعيًا، منحنيًا مُتَحرِّرًا من إزاره في ظلام الخُن..».

يُبحلِقُ العَم سَنَد ساهِمًا إلى البحر كأنما يقرأ حروفًا تطفو بين انعكاسات النُّجوم. يُفضي بحكاية منصور الغيص التي بدأت في خُن «الحامِدي»، حيث ألفاه منحنيًا على الأرض. عظامُ ظهره المتعرِّق ناتئة، تكادُ تشقُّ جلده مثل عُرفِ ديكٍ فتيّ. دَنا إليه رافعًا سِراجه أمامه. وجده مُغمضًا يدُسُّ إصبعَيه في لُخمَةٍ مُلقاةٍ على ظهرها، غائبًا في لزوجةِ أحشائِها وملمسِ لحمِها الطَّري الرَّطيب. انتبه منصور إلى شعلةِ السِّراج في يد شيخ البحَّارة. والتفتَ إليه مثل مسحورٍ بعينين حمراوين وشفةٍ مُزبِدَةٍ مُرتخيةٍ في نوبةِ غياب. فعاجله العَم سَنَد بصفعةٍ أطارت الزَّبَد مِن شفتيه.

«..ما أسعفني لساني على قول شيء إلا: ليش يا كلب؟! تركتُ الخُنَّ إلى السَّطح أحملُ اللُّخْمَةَ وقد كسرتُ شوكة ذيلِها وقطَّعتُها إلى أربعةِ أجزاء. ألقيتُ بكُلِّ جُزءٍ في جهةٍ من جهاتِ السَّنْبوك، أُبطل

---

(1) خُن: مستودع السَّفينة أسفل سطحها. (محرر وزارة الإعلام).

اللعنة كما تقولُ الصَّاجَّات أخوات إبليس. أنا لا أصدقهُنَّ لكن من يدري؟! كانت سماءُ الليل صافية تطفو نجومها على الماء كما هي الآن. تخلُّصي من اللُّخْمَةِ لم يُخلِّصني من هواجسي. من يدري كم مرَّة فعلها منصور مع لُخماتٍ أُخريات؟ ومن يؤكد أو يكذب كلام الصاجَّات.. تُنجِب له بُودَرْياهْ، يطارد أباه في البحر أو يخرج إلى السِّيف يقتله ثم يختفي».

دبَّت رعشةٌ في جسدِ سليمان. دَنا من شيخِ البحَّارةِ أكثر، عاقِدًا حاجبيه:

«وهل صحيحٌ أنها مثل المرأة تمنح الإحساس نفسه؟».

صفعه العَم سَنَد على قفاه بكفِّه اللَّزجةِ الزَّفِرة، وهسَّ كيلا يسمعه البحَّارة النُّوام:

«وما أدراني يا جحش!».

همَّ سليمان يُقبِّلُ جبينَ شيخ البحَّارة يعتذر، غير أن الشَّيخ دفعَه وهو يتمتم باصِقًا:

«مُخّك زَفِر مثل مخ سعدون.. اِتفُوُهْ!».

بقِيَت تفاصيل حكاية فقدان منصور الغَيص والعباءة التي سرَّبها الفداوي ساطور، بالنسبة إلى أهل الدِّيرة، في ثوب الخرافةِ مُحتملة التصديق، إلى أن أثيرت الأقاويل عن نفي الشَّيخ سالم لـ ساطور من الكويت لأسباب لم يُفصَح عنها، ما دفعَ النَّاس إلى أن

تردَّ الأمرَ إلى إفشائه سرِّ العباءة التي ظهرت حيث اختفى منصور. ورغم أن المقرَّبين مِن قصر الأمير يردُّون سببَ النَّفي إلى صلةٍ تربط ساطور بإخوان مَن طاعَ الله، فإن سوادَ النَّاس آمن بحكاية العباءة أكثر حينما طرد الأميرُ تاجرَ الأقمشة السِّيلاني. الغموض الذي لفَّ الحكاية وصرامة الشَّيخ سالم في الحكم عليهما؛ رجَّحا صدق ما أفشى به ساطور إلى تاجر الأقمِشة؛ أن وراء العباءةِ سِرًّا عظيمًا.

سليمان صامتٌ. يُنصت إلى إفضاء شيخ البحَّارة الذي قال إن كبيرة الصاجَّات لها رأي في الأمر. حينما سمعتْ أُم حَدَب بأمر منصور الغَيص واللُّخْمَة والعباءة لم تستغرب، غير أنها جزعت واحمرَّ وجهها الأبرص. وجحظت عيناها وارتعشت شفتاها من وجود العباءة في قصر الأمير الحاكم. قرَّبت قبضتها إلى شفتيها المكتنزتين، لفظتْ فيها اسم الخبيث قبل أن تنفُضَ كفَّها بعيدًا تُحرِّر الكلمةَ في الهواء: لن يبحث المسخُ ابن منصور واللُّخْمَة عن أبيه في اليابسة، لأن منصورًا قد تبع نداءات ابنه واختفى في البحر، ولكن الابن حتمًا سوف يجيء بحثًا عن عباءته.. وعباءة بُودَرْياهْ سوف تجرُّ الويلات على الدِّيرة إن بقيَت فيها.

سهمَ سليمان في حديث شيخ البحَّارة الذي لا ينظر إليه:

«..لم يجرؤ أحدٌ على نقلِ كلام أُم حَدَب إلى الشَّيخ سالم. الشُّيوخ أعلَم، وعِلمُ الصاجَّة ليس إلا خُرافات وشعوذة يُعاقِبُ عليها الشَّيخ الدَّيِّن. رتَّبَت كبيرة الصاجَّات الأمرَ مع النُّوخِذا بِن حامد خِلسةً،

على أن يُخلِّصا الدِّيرة من اللعنة في اليوم الأوَّل لموسم الغَوص المقبل، وهذا ما شاهدتَهُ يا سليمان يا ولدي قبل أربعة أهلة، حينما رميتُ العباءة في مغاص أُم الطِّين».

بَصَق سليمان نواةَ التَّمرِ في الماء، فبدَّدت سكون النُّجوم على سطحِه. همسَ لِـ شيخ البحَّارة:

«عجيب! صرتَ تصدِّق كلام الصاجَّات يا عَم!».

أجاب الشَّيخُ ضاحِكًا:

«إلا حكاية طيرانهنَّ على جريد السَّعف!..».

اكتست وجهه الجدِّية قبل أن يقول:

«..ما كنت لأصدق يا ولدي لولا ما صار. أنسيت ما قالته كبيرتهُن البرصاء؟ إن البحَّار إذا ما فُتِن بصوت بُوُدَرْياهْ، واستجابَ لندائه..».

أمسكَ العَم سَنَد عن الكلام، وارتحل سليمان بذاكرتِه إلى حديث الصاجَّة عن خبيث البحر ذي العباءة؛ إذا ما أمسكَ بالبحَّار قتله على الفور، وإذا فلت البحَّارُ يُلاقيه الخبيثُ على اليابسة.

تنبَّه سليمان من شروده لحظةَ همسَ بن هولين:

«..لو صدَقَتْ أُخت إبليس الشَّمطا..».

أصاخَ إليه سليمان. أردفَ شيخُ البحَّارة:

«..فمن مَلك العباءة قادرٌ على حجبِ مدينة عن عين الشَّمس..».

لم يألف سليمان جديَّة في حديث شيخ البحَّارة عن الصاجَّات. لم يفُه بكلمة. سلَّم أُذنيه الكبيرتين لنديمِه الهَرِم:

«..غضب النُّوخِذا حينما اختليتُ به صُبحَ العباءة، أرجوه أن نُقفل إلى الدِّيرة لنُبلغ الشيخ سالم. لامني وحذرني أن الأمير تغضبه أمور الخرافة والشِّرك، وطعنني في إيماني. أي إيمان يا ولدي وأنا شفت البرهان؟!..».

قذف العم سَنَد المحَارة الفارغة في البحر، وراح يُعدِّد على أصابعه:

«..عبثَ منصور باللُّخْمَة، نزلت النُّجوم على الماء، وقفز منصور يتبع صوت امرأة! ثُمَّ اختفى وظهرت العباءة! ماذا يعني هذا كله؟ ها؟ ماذا يعني بالله عليك؟ أنا مؤمن والحمد لله.. لكن أفهموني كيف صار ما صار؟! أخبرتُ بن حامد أني سأُقفل مع أي قارب إلى الدِّيرة. وبَّخني أمام الرِّجال كما لم يفعل قط. لكن الرجل، والشهادة لله، عندما وجدني عازمًا ما تركني ولا استخف بقلقي. أمسك الرجلُ بشاربه يحلفُ أنه لن يترك شيخ بحَّارته وبركة سَنْبوكِه يقفل وحيدًا. نشرَ الشِّراع وعاد بالسَّنْبوك إلى الدِّيرة مُنكَّس الرَّاية».

التفتَ سليمان إلى البحَّارة النائمين قبل أن يهمس للعم سَنَد:

«ماذا قال الشيخ سالم؟».

«ضحك. قال هذه خرابيط وعيب على الرجال تصديقها. ثُمَّ جعلنا نُقسِمَ ألا نفشي أمرَ هذه الخرافة بين أهل الدِّيرة».

زفرَ سليمان طويلًا قبل أن يقول:

«وأنا مثل الشيخ الكبير أقول إنها خرابيط. أسألك بالله يا عَم أن تجيبني، لماذا لا يتركنا بُوْدَريـــ... أعوذ بالله مِن ذِكرِه، لماذا لا يتركنا في حالنا وقد أرجعنا عباءته قبل أربعة أَهِلَّة؟..».

لم يُجِر بن هولين جوابًا. نظرَ ساهِمًا إلى الماء المرصَّع بخيال النُّجوم. فأطلقَ سليمان زفرة ارتياح:

«..ابتلع البحرُ العباءة ثانية وانتهى أمرها».

بحلقَ البحَّار العتيق في وجه الفتى الغرير:

«العباءةُ التي ألقيناها في الماء حيلةٌ من أُم حَدَب يا ولدي، ليست هي العباءة نفسها».

ابتلع سليمان ريقه قبل أن يُفضي هامِسًا:

«أنتَ تعني أن عباءة بُوُدَرْياهْ ما زالت..».

ترك جملته مفتوحة على ما لا يُحب سماعه. فأشار بِن هولين صوب اليابسة على مبعدة أميال:

«في قصر الشَّيخ سالم!».

* * *

(8)

ساعة مُرور المسيح

«وَأَرْسَلَهُمْ لِيَكْرِزُوا بِمَلَكُوتِ اللهِ وَيَشْفُوا الْمَرْضَى»

الكتاب المقدّس/إنجيل لوقا

ارتفع دويّ مدافع إعلان القُفَّال في قصر الحُكم، وانعكس نور الشَّمس على مبنى مشفى الإرسالية مُشرع النَّوافذ على زُرقة الخليج السَّماوية. وسكبت الشَّمسُ أشعَّتها على مريضاتٍ مُلتفعاتٍ بسود العباءات، يتربَّعن على أرض عيادة النِّساء بين الأسِرَّة الأربعة، بعدما حُقِنَّ بدواءٍ حرَّاقٍ في العضل. وتوهَّجت الحوائط المدهونة بالجِصِّ بفعل الشَّمس، فأغرقت الحُجرة بياضًا لا يُرى فيه إلا ثلاث نساءٍ مُطرقات تحت السَّواد، تنشقُّ عباءاتهنَّ عن وجوهٍ شاحبةٍ منكودةٍ هدَّتها الحُمَّى.

إحدى النَّوافذ المطلة على الخليج مُطبقة الدَّفتين، يرسمُ إطارها الخشبيُّ المتقاطع صليبًا تبدَّى ظلُّه على الجدار. وإلى جوار ظِلِّ الصَّليب وقفت الطبيبة الأمريكية إلينور كالڤرلي أمام المريضات، تحمل الإنجيلَ بين يديها وتُوشوش بعربيةٍ مفهومةٍ بصوتٍ عذبٍ خفيض.

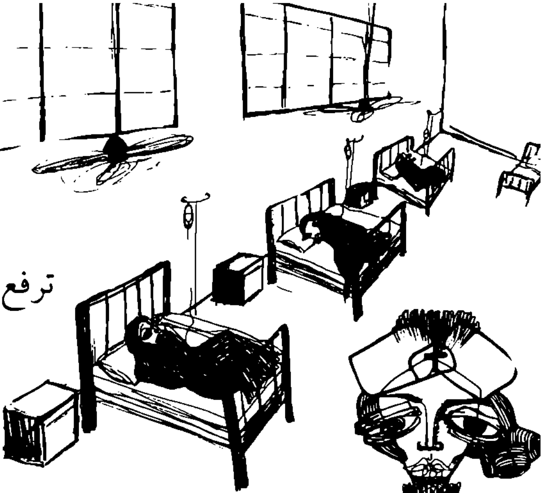

طُرق الباب

طرقتين هادئتين

مألوفتين، فهمست

إلينور من دون أن

ترفع عينيها عن الكتاب

المقدَّس:

«تفضَّلي

مبروكة».

دخلت ممرِّضةٌ بلباسٍ أبيض قصير الكُمَّين، يظهر تحت كُمِّها الأيمن طرفُ حِرْزٍ جلدي يُطوِّق عَضُدِها الصَّقيلة لامعة السَّواد. شابَّة في الثَّالثة والعشرين. حادَّة القسمات، عريضة الجبهة مستقيمة الحاجبين واسعة العينين. شعرها الفحميُّ مُسرَّحةٌ ضفائره الدَّقيقة إلى الوراء، وتُثبِّت أعلى رأسها قبعة التمريض المُنشَّاة تُغطي أثر حرقٍ في مُقدِّمة مفرق شعرها. أقبلت ممشوقة القوام تشدُّ حزامًا على خصرها المنحوت. تقدَّمت ومسحة حزن على ملامحها، تحملُ كؤوسَ ماءٍ ممزوج بدواء. فهمست بإنكليزيةٍ مفهومةٍ عند أُذن الطبيبة السَّاهمة في قراءتها. قالت إن المعتمد الإنكليزي يزور مرافق الإرسالية، وإن مشرف الإرسالية الدكتور ستانلي ميلْريا والقِس إدوين كالِفرلي يجلسان معه في المكتب. اكتفت الطَّبيبة الأمريكية

بهزِّ رأسها مرَّة، ثُمَّ طافت الممرِّضةُ على النِّساء. تنحني عليهِنَّ واحدة تلو أُخرى تسقيهِنَّ العلاج، ثُمَّ مرَّرت كفَّها على الرؤوس الوادعة تُباركها. فنهضت النِّساءُ مريضاتٍ ثقيلاتٍ عابِسات، واستلقت كُل واحدةٍ منهنَّ على سرير. فانصرفت مبروكة تحملُ الكؤوس فارغة. ونظرت إلى المريضات في أسِرَّتهن الواطئة قبل أن تطبق الباب؛ يشعُّ سوادهُنَّ في بياض الحُجرة، ويُنصتن إلى قراءة الطبيبةِ برجاءٍ دونما فهم، مثلها تمامًا قبل سِتِّ سنواتٍ يومَ دهمتها الحُمَّى في بيت سيِّدها المريض، قبل أن يُقام مبنى المشفى النِّسائي هذا. انفرجت شفتا الممرِّضةِ عما يشبه ابتسامة وأطبقت الباب على مشهدٍ منقوشٍ في ذاكرتها..

قرب هذا المكان، في زمانٍ غير بعيد، دخلت مبروكة حُجرةً اقتُطِعَت للنِّساء من مشفى الرِّجال. جلست أمام الطبيبة كالقِرلي، وقُيِّدَ اسمُها أوَّل مريضةٍ في سِجِلَّات مشفى الإرسالية، في سابقةٍ فجَّةٍ على أعراف الدِّيرة التي تقضي على المرأة التداوي في بيتها. لا حرج على مبروكة، الأَمَةُ المملوكة التي لا تطالها قيود الحرائر. تسير في السِّكك كاشفة الوجه تتنسَّم الهواء دونما بُوشِيَّة، وتتداوى أينما كان الدَّواء ولو في قارعة السِّكَّة.

كانت في السَّابعة عشرة آنذاك، بتقدير الطبيبة التي تكبرها بعشر سنوات. استقبلتها إلينور محتفية بأوَّل امرأة تطأ قدماها عتبة المشفى الأمريكي. ورغم أنها أقبلت محمومةً ترتعدُ وتهطل عرقًا، فإنها بدت

للطبيبةِ واثقة ناضجة جريئة. تشعُّ بثوبها القطني فاقع الصُّفرة ذي الزُّهور الحمراء دونما عباءةٍ تختبئ في سوادها حياءً. وجهها المنحوت وصَفُّ أسنانها البرَّاق وانحناءات جسدها تصرف النَّاظرين عن اتساع جبهتها المتراميةِ. جبهةٌ متوَّجةٌ بمفرق شعرٍ عريضٍ بسبب ذاك الأثر لما يُشبه الجرح القديم. أحبَّتها إلينور منذ الوهلة الأولى، وهي تُبصر فيها طريقًا ممهدةً لنساء الدِّيرة تُفضي إلى مشفى الإرسالية المنبوذ، أو المشكوك في أمره، من قِبل الكثيرين آنذاك.

***

«اسمي مبروكة».

هذا كل ما عرَّفت به الفتاةُ عن نفسها في ظهيرةٍ شتوية، حينما سألتها الطَّبيبة عن اسمها بعربيةٍ ممهورة بلُكنة بحرينية اكتسبتها زمن عملها في الإرسالية الأمريكية في المنامة. ففتحت الطَّبيبةُ سجلَّ المرضى، ودوَّنت بيانات المريضة الأولى في المشفى الرِّجالي. مبروكة التي لا تعرف لوالدها اسمًا ولا مسقط رأس، ولا تعرف عن نفسها إلا دلالة البشرة عن جذورها البعيدة، ومشاهد مثل ومضات الأحلام لسهولٍ فسيحةٍ تشرئب فيها أعناق الزُّهور الصَّفراء، تلوي أعناقها حيثما تكون الشَّمس. حتى ماضيها القريب ليس فيه إلا عوالق أحاديث في ذاكرةِ طفلةٍ اختطفت في إفريقيا من أبوين حُرَّين، في سادستها أو سابعتها، ولا تدري من أي مكان جاءت

على وجه التحديد، فكلُ إفريقي على لسان أهل الدِّيرة حبشي، مثلما يكون أيُّ أجنبيٍّ أشقر كافرًا أو «عَنْگريزي»، وإن لم يكن من الإنكليز كحال أعضاء الإرسالية الأمريكية «العَنگريز»!

كانت إلينور قد أتمّت سنتها الثَّالثة في الدِّيرة، تُغالب إحباطها من عُسر مهمتها وشكوكها في مقدرتها على خدمة الرَّب في هذه البلدة المحافظة. ضجرت من تخوُّف الأهالي من زيارة المشفى الغريب ذي النَّوافذ الزُّجاجية الكبيرة. وهي كباقي أعضاء الإرسالية تُحاول إقناعهم بحسن نواياهم، ولكن.. لأن الشَّياطين شيَّدَت لنبيِّ الله سُليمان صرحًا من زُجاج كأنه الماء، أجمعَ المَلالوة والصاجَّات على أن مشفى العَنگريز ذا النَّوافذ الزُّجاجية من عمل الشَّيطان، فأسموه «بيت الزجاج» تذكرةً لمن تسوِّل له نفسه بزيارة المبنى الذي أقامته الشَّياطين في الحَيّ القِبلي. ولمَّا أوشكت إلينور أن تُسلِّم لليأس من أداء مهمتها ظهرت ذات النَّفنوف الأصفر مثل إشارة من الرَّب. أفردت لها إلينور صفحة جديدة في سجل المرضى، وقيَّدت اسمها وتخمينها لسِنِّها وبقية بياناتها بخطٍّ مُتمهِّلٍ جميل: «مبروكة الأولى»، سبعة عشر عامًا (تقريبًا)، عنوان السَّكن تَلّ «بْهيتة»، تاريخ الدُّخول 21 ديسمبر 1914.

بيعت الطِّفلةُ لتاجرٍ عُماني في زنجبار قبل سنوات. ومثلَ ماسَةٍ فريدةٍ سوداء أخفاها التَّاجرُ عن الأعين. وحمل الطِّفلة ذات العينين الفاتنتين والضفائر الدَّقيقة الطَّليقة، وأبحر بها من إفريقيا على

متنِ سفينةٍ موسوقةٍ بالعبيد والعاج. فأنزلها في ميناء صُور جنوبي مَسْكَت. وفي سوق العبيد أسقط اسمها، وأسماها مبروكة ليستبشر بها المُشترون. واستبشر بها تاجرٌ كويتي، تفحَّصها بعينيه ويديه كأنما يُقدِّر ثمنَ سمكةٍ في مصاطب الصَّيادين. صغيرة صحيحة البدن تقدح عيناها ذكاءً وفطنة، والأهم أنها بخلاف الأطفال الباكين في سوق العبيد، كانت صامتة مثل خرساء. زايد التَّاجر على ثمنها. فلا يُبَزُّ في الطاعةِ عبدٌ أخرس. ونالها وأنهى المزاد بفارق كبير عن آخر المزايدين. وأبحر بها صعودًا على ضفاف الخليج الغربية، حتى رَسَا في الكويت سنة بناء قصر السِّيف.

وضجَّ بيت التاجر بصراخ التي ظنها خلقت بغير لسان، ترطن بما لا يفقه أهل البيت. وهربت كالمجنونة من حُجرة الخدم أوَّل ليلة لها في بيت سيِّدها، وهي تُطبق كفَّيها على أُذُنيها وتصيح: «جاءوا جاءوا». قالت إنها ترى في نومها أشياء مخيفة. وظلَّت على هذه الحال أيامًا، حتى أخذتها سيدتها في باكر الصباح إلى بيت الصاجَّة أُم حَدَب. وسمعت العجوز ما ترطن به الطفلة، فكررت ما تقول: «جاءوا جاءوا؟»، فردَّت الصاجَّة على ما ردَّت قِطَّةُ القُفَّال: «يااو.. يااو.. هؤلاء إن لم يخب ظني مَرَدةٌ من الجن!».

وعالجتها بالكَيِّ في مُقدمة رأسها في مفرق الشَّعر. وكتبت لها حِرْزها الحريز ذا التَّمائم الثَّلاث. ووضعته في الحافظة الجلدية الصَّغيرة، وشدَّت خيطها حول عَضُد الطفلة. ففعل الحِرْزُ أفاعيله،

وكان شيئًا لا يُصدَّق إلا في خيال عجوزٍ تقصُّه لأحفادها، أو في كتب النَّوادر وأعاجيب القصص. فقد شُفِيَت مبروكة من كوابيسها، وعادت لصمتها مطمئنة، ونامت لياليها دونما صراخ.

نضجت مبروكة على مهلٍ في دار التَّاجر، وطوَت عشر سنواتٍ قبل أن يهديها إلى جاره المريض إمام مسجد السُّوق الكبير، فصارت في رعاية المُلَّا الذي ماتت عنه زوجته وهو مبطونٌ لا يقوى على تدبُّر أموره، بسبب فتاقٍ في بطنه بدأ يبرزُ أعلى سُرَّتِه. وَرَم حرَمَهُ من الإمامة في مسجده الأثير، وأبعده عن تقديم الدَّرس للصِّبية في ساحةِ بيته، وحبَسَهُ في حُجرة نومه طريح الفراش عالةً على ولديه.

أطبقت إلينور في تلك الظهيرة الباردة السِّجلَّ على اسم مبروكة، بعدما منحتها لقب «الأولى»، وقاست حرارتها المرتفعة، وجسَّت نبضها المتسارع وهي تجيل النَّظر إلى عينيها الواسعتين مُتَّقِدَتَيّ البياض حول حدقتيها السَّوداوين. كانت الفتاةُ مُصابة بالحُمَّى إثرَ قرحٍ في ركبتها أبطأ القَيحُ اندماله. طهَّرَت الطَّبيبة القرح وسقت المريضة الأدوية وأمضت معها السَّاعات إلى حين يبدأ مفعولها. تُؤمِّل الفتاة بالشِّفاء ببركة المسيح، إذا ما مرَّ في إغماضِها يُبرئها من السَّقَم. ومرَّ المسيحُ أو لم يمرّ، وحدها مبروكة تعلم ما جرى في إطباق جفنيها حين زيارتها الأولى إلى «بيت الزجاج». ولمَّا تحقق الشِّفاء سريعًا مثل معجزةٍ ونقهت من مرضها بُعيد ساعاتٍ واستقامت مثل فرسٍ أصيلةٍ سوداء؛ ما عاد عيسى ابن مريم عليه السَّلام نبيًّا وحسب،

صار المسيح ابن الرَّب الوحيد. المولود من الآب قبل كل الدُّهور، إله من إله، نور من نور. لم تصدِّق مبروكة من الدَّهشة كيف انقلب حالها من حالٍ إلى حال، وكيف سمعت كلمات كتاب المسيحيين فبرئت في التَّو. آمنت أن «بيت الزجاج» ليس على ما قال الملالوة والصاجّات إن الشَّياطين شيَّدته في الحيِّ القِبلي، بل شيَّدته الملائكة حجرًا فوق حجر ورصَّعته بالزُّجاج. فتاقت نفسها إلى أن تعرف المزيد، ولمَّا عرفت المزيد رجت إلينور أن تُخلِّصها، وأن تُعمِّدها في السِّر من دون علم سيِّدها المُلَّا الذي لم تُسمِهِ لإلينور. كانت شغوفة بمعرفة المسيح، وملهوفة لمعرفة ما لم تعرفه في القرآن عن البتول مريم لسببٍ لا تدريه، غير أن طبيبة المَشفى سرعان ما أقفلت باب مريم في وجه مبروكة:

«ولِمَ كُلُّ هذا الاهتمام بمريم؟ هل استمرت بتولًا بعد ولادتها يسوع؟ ربما أنجبت بعده وواصلت حياتها بعد ولادته كسائر النساء.. من يدري!».

«أنا أدري».

أجابتها مبروكة ضائقةً تدافع عن البتول، تقول إنه من غير الممكن أن يولَد المسيح من امرأةٍ كسائر النِّساء. وتفهَّمت إلينور وتجاوزت حماسة الشابَّة، وتأثَّرت وقتذاك لإيمان المهتدية الجديدة، وفاضت الفرحةُ دمعًا في عينيها وارفَضَّ على خدَّيها وهي تتجاوز تقديس مبروكة لمريم عليها السَّلام. عانقتها وضربت لها موعِدًا

تجيءُ فيه، تلتقي زوجها القِس إدوين كالفِرلي. وعدتها وأعدَّتها لأن تكون امرأة حُرَّة، ولم تفهم الأَمَةُ كيف تصيرُ حُرَّة وهي أكثر حُريَّة من حرائر الدِّيرة قاطبة؛ أن أكون حُرَّة بلا عملٍ يعني أن أهيم على وجهي في السِّكَك، أجوع فأطعَمُ من جسدي مثلَ بنات حمدية الغجرية، مثل شكرية وفريدة وشفيقة وأنيسة وبهيجة وفردوس، أفتح ساقيَّ لرجال السُّوء في بيوت الرّميلة، أو أصون شرفي فأنام على رمل السِّيف دونما بيتٍ يأويني. أنا حُرَّة هكذا أكثر من الحرائر أنفسهن، أكثر من بنات الشُّيوخ والأكابر. أخرج حاسرة الرأس وأرفع صوتي في حضور الرجال وأُغني على السِّيف وأرقص.. سألتك بالله يا خاتون[1] من فينا «العبدة»؟!

وحدَّثت الطبيبةَ عن حُرِّيتها وهي لا ترتدي العباءة إلا اضطرارًا في مجلس عزاء أو لقاء حبيبٍ غيور. تخرج إلى البحر حاسرة الرأس تغسل الثِّياب، وترفع الصَّوت تُساوم أصحاب الدَّكاكين في السُّوق، وتُغنِّي في السِّكَك وتُخرِس الصِّبية إذا ما شاكسها أحدهم: «يا العبدة!». تُشهر سبَّابتها الطويلة إلى صدره: «العبدة أُمُّك!»، ثُم تمضي إلى حال سبيلها بعد أن تصِم الصَّبي «الحُرَّ» بلقبٍ يُلازمه طول العُمر.. «ولد العبدة».

(1) خاتون: مفردة تركية مغولية تُطلق على سيِّدة المجتمع أو المرأة رفيعة المستوى. وقد جاءت إلينور كالفِرلي إلى الكويت بهذا اللقب حيث أطلقه عليها البحرينيون عندما كانت تعمل وزوجها القِس إدوين كالفِرلي في الإرسالية الأمريكية في المنامة. (محرر وزارة الإعلام).

أسندت إلينور كفَّيها إلى كتفي مريضتها والإعجاب يطفحُ في عينيها:

«أن تكوني حُرَّة يعني ألا يُعاشرك رجلٌ من دون رغبتك».

بدا الحياءُ نشازًا في ملامح الفتاة عديمة الحياء آنذاك، وراحت تدافع عن سيِّدها المريض من دون أن تُسميه أو تنعته بلقبٍ غير «أبي»:

«لكن أبي لم يفعل قط! ما لمسني مرَّة ولا ولَداه. حتى أنه إذا ما حمَّمته أغمض يستغفرُ ويترحَّم على زوجته أُمِّ ولَدَيه..».

انزعجت مبروكة من أمارات عدم التصديق على وجه الطبيبة، فشمَّرت كُمَّها تكشفُ لها عن الحافظة الجلدية الصغيرة المعقودة حول عَضُدِها منذ وصولها الكويت قبل عشرة أحوال:

«..فيها حِرْز كتبته الصاجَّة، يطرد الشرور والكوابيس ويُبشِّر بإنجاب ولد، ولو رآه سيدي خصيمُ الصاجَّات معقودًا حول ذراعي يا ويلي! فهل يمسسني من لم يرَ ذراعي يا خاتون؟..».

ابتسمت إلينور معجبة بثقة الفتاة، وما فهمت مَن يكون سيدها خصيم الصاجَّات. ورقَّ صوت مبروكة وهي تستطرد:

«..أبي ابن حلال والشاهد الله.. يعلمني القراءة حتى في مرضه.. وأحفظني سورة مريم كاملة».

«لماذا مريم؟».

سألت إلينور عاقدة حاجبيها، فأجابت مبروكة:

«لأني أحبها».

«أحبيها.. كلنا نحبها لكن ليس إلى درجة القداسة».

وما فهمت مبروكة ما القداسة. فأطرقت تقول إنها لا تريد الآن إلا شفاعة الذي شفاها من مرضها، وباركها بمروره ساعة شُربها الماء وإغماضها. فوعدتها إلينور خيرًا:

«تعالي يوم الاثنين المقبل.. في مثل هذا اليوم بعد أسبوع.. لكن من دون هذا الشيء الذي تعقدينه حول ذراعك».

غير أن مبروكة الأولى خرجت من المشفى مثل عصفورٍ مهاجرٍ حطَّ بالمصادفةِ وغادر إلى غير رجعة مع أفول الرَّبيع. طارت الفتاة ولم تعُد لكنها عشَّشت في رأسِ الطبيبة وما خرجت منه لحظة. يتراءى لإلينور وجه الفتاة الدَّاكن وعيناها البرَّاقتان الواسعتان في الحُلم واليقظة. وآمنت إلينور أن مبروكة الأولى ستكون أوَّل من يهتدي، وأوَّل من ينال حرِّيته بجهود الإرسالية الأمريكية، فضلًا عن كونها أوَّل امرأة تطأ قدماها مشفى الرِّجال، تدخله مريضة وتغادره بَليلة الرُّوح والجسد. وما انفكَّت الطبيبة تسأل مرضاها عن فتاة سوداء اسمها مبروكة تسكن أحد البيوت في تَلِّ بْهيتة، غير أنها ما لقيَت مُجيبًا إلا شابًّا لطيفًا غريب الطبائع والهيئة، يصعبُ تخمين سِنِّه، حنطي البَّشرة ما طرَّ له شاربٌ ولا نبتت له لحية. ضئيل الجسم عَضِل السَّاعدين، قصير الدِّشْداشَةِ ناعم الصَّوت، يُخفي

إبهامه الأيمن في باطن كفِّه ويُلحفها بأصابعه الأربع. زار مَشفى الرِّجال بعد شهرٍ من زيارة مبروكة. أقبلَ يتقصَّعُ في مشيته وقُيِّد اسمه في سِجِلِّ المرضى رغم استغراب إلينور: «خليفة وبَس». كتبته الطَّبيبة في البدء خليفة، ولمَّا أبصر الشَّاب الفَطِن كلمة إنكليزية واحدة في سطر السِّجل؛ وضع سبَّابته على السَّطر وراء الكلمة المفردة وقال: «اِكتبي وبَس». فكتبَت. ثُمَّ تطوَّع يشرح:

«بيني وبينك ولا تُخبري أحدًا.. اسمي خليفة الخوَّاص، لكني لا أقول».

وسألته الطَّبيبة ما العيبُ في اسم الخوَّاص، فأجاب:

«ليس العيب فيه».

فتجاوزت إلينور غرابة الفتى، وسألته عن سِنِّه فتلكأ وهو يحسب. فاختصر وأجاب:

«وُلِدت بعد سنة الجراد بعامين.. سنة حكم الشيخ محمد بن صُباح رحمه الله».

فسجَّلت الطبيبة في دفترها 1892.. (22 سنة). وتصرَّف الشَّاب بغرابة رغم سلامة حديثه التي لا تشي باضطرابٍ عقلي. لا يَني يقاطع نفسه أثناء الحديث ليلتفِتَ فجأة إلى الوراء، رغم أن لا أحد غيرهما هو والطَّبيبة في حُجرة العيادة.

عرفَ النَّاسُ الشَّاب أجيرًا لدى الصاجَّة أُم حَدَب. مات عنه أبوه في معركة الصَّريف قبل بلوغه التَّاسعة، ولمَّا أتمَّ الثَّالثة عشرة

ماتت أمُّه بالسُّل مُعدمة. وما أورثت ولدها غير مكحلةٍ نحاسيةٍ لا تغادر مَخبى دِشْداشَتِه. قيل إنه ينزوي في داره آخر اليوم، يلبسُ مثل الحريم ويجلس أمام المرآة يزيِّن وجهه. وما كان لليتيم بعد وفاة والدته من أقارب إلا بيت أحفاد ابن عم جدِّه في أقصى الحَيّ الشَّرقي، لا يعرفونه ولا يُشاركونه إلا لقب الجدِّ البعيد «الخوَّاص». رفضوا التكفل بالصَّبي في بيتٍ ضعضع الفقرُ أركانه. فتكفَّلت به كبيرة الصاجَّات، وكبر في بيتها المثلَّث في «المرقاب» حتى استقلَّ في بيت صغيرٍ قرب سوق الحريم قوامه حوشٌ مُسَوَّرٌ وحجرة. وما انفكَّ يطيع أُم حَدَب طاعة عمياء محبَّةً، أو خوفًا بعدما أنبأته وحذرته بأن من يقول للصاجَّة «لأ» يُسخط في صورة فأر!

لا أحد في الدِّيرة يُناديه خليفة. واعتاد النَّاسُ ابتكار الأسماء للشاب الغريب، يُسميه أكثرُ أهل الدِّيرة على ما تُسميه نسوةٌ في الحيِّ الشَّرقي؛ خَليفُوُهْ، جريًا على عادتهنَّ بتحريف الأسماء تحبُّبًا أو تصغيرًا. ولُقِّب بـ «أبو القْطاوَة»[1]. نسبة إلى قِططٍ يُربيها في دارِه الصَّغيرة القريبة من سوق الحريم. تبرَّأ منه أبناء عمومته البعيدون بسبب ما أُثير حوله من أقاويل في مراهقته، فأخفى لقبَ أهلِه وأنكر نسبه إلى عائلة الخوَّاص خشية أن يؤذوه. وراوحت أسماؤه وألقابه بين خَليفُوُهْ أبي القطاوة، وخَليفُوُهْ الأملط، وخَليفُوُهْ الرُّخو،

(1) **القطاوة**: القِطَط؛ والمفرد «قَطو» للمذكَّر، و«قَطْوة» للمؤنث. وتُلفظ القاف جيماً قاهرية. (محرر وزارة الإعلام).

وخَليفُوهْ المائع، وخَليفُوهْ صبيّ الصاجَّة، وخَليفُوهْ البَرَنْثَى. غير أنه كره تسميات النَّاس له وما أحبَّ أيًّا منها، فصار إذا ما سُئل عن اسمِه يُجيب: «خليفة وبَس».

اعتاش الشَّاب على قاربٍ شراعيٍّ صغير اكترته له الصاجَّة الحدباء، يُخلِّص أمورها بين الدِّيرة وجزيرة فَيْلَكا. شوهِد أكثر من مرَّة في بيوت البغاء، ولا يدري النَّاس ما يفعل في تلك البيوت واحدٌ رخوٌ مثله. قيلَ إن امرأةً لم تدخل دارَه قَط، بل لم يدخلها بشرٌ غيره إلا سقائي الماء، وجامع الغائط يَجُمُّ سطح الدَّار ويجمع ما أيبسته الشَّمسُ كلَّ أسبوع. قيلَ إن ثلاثًا وخمسين قِطَّة في داره تجلِبُ النَّحس. وقيلَ أيضًا إنه يبغضُ الأطفال بُغضَ الموت لسببٍ لا يدريه إلا الله. ولأنه كان فتًى أملَط ليس فيه للشَّعر منبت فقد قيل إنه بَرَنْثَى؛ لا ذكر ولا أُنثى. خوَّاف، يصرخ مثل البنات لو وافاه كلبٌ سائب في الدَّرب. لا تتوارى عنه النِّساء في الحُجَر خجلًا إذا ما دخل البيوت، مثل دخول «العبيد» والصِّبية الصِّغار. ويمرُّ بين الرِّجال في السُّوق والسِّكك كما لو أنه غير مرئي بسبب إشاعة المُلَّا إبراهيم، كريم العين، حُرمة النظر إلى وجهه الخالي من الشَّعر، فلا رَبابِنة السُّفُن يضمُّونه إلى بحَّارتِهم، ولا أصحاب الدَّكاكين يرحبون به.

لم يتحرَّج الشَّاب من سؤال امرأةٍ طبيبة عن دواءٍ يُنبت الشَّعر. وخاب مسعاه. لكنه ما ردَّ الطبيبة الملهوفة لحظةَ سألته راجية إن كان يعرف مبروكة، وألحقت الاسم بصفاتها. فهزَّ الشابُّ الأملط

رأسه قبل انصرافه: «سويعة وتكون عندك». وما هي إلا ساعة حتى تعالت في آخر دقائقها جلبةٌ في ساحة المشفى المفتوحة على السَّاحل. وخرجت إلينور تستوضح الأمر وهي تسمع عن مجنونٍ يزمع على دخول مَشفى الإرسالية. هبطت عتبات المدخل تصيح بالشَّاب: «خليفة وبَس!».

انفضَّ الممرِّضون وعُمَّال الإرسالية من حوله، وتقدَّمت إلينور تُحملق إليه ذاهلة. وقفَ الشَّاب حافي القدمين يمدُّ ذراعيه بقطَّةٍ سوداء سمينة وقال: «مبروكة». ولما سمع خَليفُوُهْ كلمة مجنون في جلبة الممرضين أخبرها بأنه ليس مجنونًا، وأن لديه من بين قِططه الكثيرة زوج قِطَطٍ أسودين؛ ليل ومبروكة، وهذه القطة مبروكة يا خاتون حليمة، إذا ما أقامت في دارك تجلب البركة وتُقرِّب البعيد وتمهِّد الدَّرب لنيل مرادك. ابتسمت الطبيبة لسماع لقب خاتون. فحملت القطَّة السَّوداء بذراعيها تستغرب نظافتها وسلامتها من عبث الصِّبية في سِكَك الدِّيرة وأسيافها. واستغربت إصرار الأملَط على قبولها هديته، وكان استغرابها أكبر لثنائه على القِطَّة السَّوداء، وهي التي ما عرفت سود القِطط في رحلتها من أمريكا إلى البحرين والعِمْارة والبصرة والكويت إلا نذير شؤم. أردفَ خَليفُوُهْ يقول: «اِقبلي بنصف الخير فيُقبل الخير كله». فأسلمت إلينور مثلَ مسحورةٍ لقول الشَّاب الذي بالغ في رغبته في التخلُّص من القِطَّةِ. واستبدلت مبروكةَ القِطَّة بـ مبروكة الشَّابة التي سكنت خيالها، وانصرفَ الشَّاب دونما التفاتٍ إلى الطبيبة وقطته السَّوداء

بين ذراعيها. وفرحت غريس، ابنة إلينور الوحيدة آنذاك، بالقِطَّة التي انضمت فردًا جديدًا إلى العائلة. وما علِمَت إلينور أنها، بسبب قِطَّة خليفة وبَس، كانت قاب قوسين أو أدنى من لقاء مبروكة في عقر دارها بعد أيامٍ قليلة، لو أن القدر استجاب.

عادت مبروكة إلى البيت ذات ظهيرةٍ مبتورة الذَّيل. فبكت غريس بعد رؤية قِطَّتهم السَّوداء تقطرُ دمًا من منبت ذيلها. وكادت إلينور أن ترفع الأمر بشكاية إلى الأمير، لا بسبب حادثة مبروكة القطة، إنما بسبب ضيقها الدَّائم من أفعال الصِّبية من قصقصة أجنحة الطيور وبتر أذيال القطط وحرق الكلاب حيَّة، غير أن القِس إدوين نصحها أن تكتفي بشكايتهم لدى إمام مسجد السُّوق الكبير، فإن أغلب الصِّبية من تلاميذه، كما أن من شأن المُلَّا التأثير في النَّاس إذا ما نبَّههم إلى سلوك أبنائهم في خطبة الجمعة. اقتنعت إلينور بنصيحة زوجها، وتوشَّحَت بوشاحٍ خفيفٍ أبيض ألقته على رأسها وكتفيها، وشالت قِطتها مبتورة الذَّيل، وقطعت السِّكك راجلة تحت سماءٍ غائمة قُبيل الغروب. وطرقت باب المُلَّا عند منحدر تلّ بْهيتة. ودخلت حُجرته ووجدته بين ولديه منكودًا في فراشه منذ رحيل زوجته، مريضًا يشكو آلام بطنه وعزلته بعد تركه الإمامة في المسجد اضطرارًا، وتوقُّفه عن تدريس التَّلاميذ في ساحة بيته. جلست إلينور على الأرض إلى جوار الفراش ولم تتحدَّث كثيرًا، وما فتحت موضوع ذيل القِطَّة المبتور فحالُ المُلَّا لا تسمح، وقد أشفقت على الرجل الذي فتح لها باب بيته رغم مركزه الدِّيني

بين العامة. مسحت على ظهر قِطَّتها تنظر إلى المُلَّا المتحامل على تعبه بإعجاب. وسارع يخبرها أنه يدري سبب مجيئها، فلابد أنها سمعت من النَّاس بمرضِه وجاءت تعرض عليه خدمات المشفى. شكرها وتعذَّر بأن قدميه اللتين اعتادتا دخول المسجد خمس مرَّات في اليوم لا تطاوعانه على دخول مبناهُم في آخر العُمر. صمتَ معتكر الوجه قبل أن يُتِم:

«سمعتُ أن رجلك يطوف على مجالس الرِّجال، يخبرهم بنيته افتتاح مدرسة تعلم أبناءهم العَنْگريزي. ما كان له أن يفعل لولا استغلاله مرضي وانصرافي عن تقديم الدَّرس للصِّبية».

أجابته الطبيبة تنتقي كلماتها بحذر أن المدرسة التي يحلم زوجها بافتتاحها لا تتعارض مع دروس المَلالوة الدينية. لم يُدارِ المُلَّا انزعاجه وهو يتحجَّج:

«في المباركية يتعلَّم الصِّبية منذ أربع سنوات علوم دينهم ودنياهم، ما الحاجة لافتتاح مدرسة عَنْگريزية الآن؟!».

نظر ولداه كلٌّ إلى الآخر يستغربان قول أبيهما الذي تزعَّمَ مُعارضي إقامة المدرسة المباركية، مُهاجمًا ما يُسمَّى بالعلوم العصرية، حتى أنه اجتمع بالأمير الحاكم مبارك بِن صُباح، قبل أربع سنوات، مع مَلالْوَةِ الدِّيرة ليثنوه عن بناء المدرسة. غير أن الشَّيخ مبارك ردَّ عليهم بأن المدرسة سوف تُبنى بأموال المتبرعين من أهالي الدِّيرة الذين يرغبون في تلقي أولادهم تلك العلوم.

لم تُحر إلينور جوابًا كيلا تستفز الرَّجل المريض. وحتى لا يبدو المُلَّا فظًّا مع ضيفته فقد أدار دفَّة الحديث يُمازحها بوجهٍ منهك، فسألها عن بقية ذيل قِطَّتها. فنهضت إلينور:

«يؤسفني أن أقول لك إنهم الأولاد.. لكن لا عليك مُلَّا عبدالمحسن، سأتدبَّر الأمر بنفسي».

بدت متأثرة، فطلب منها المُلَّا أن تهدأ وتسمع منه ما يقوله الإسلام عن الرفق، غير أنها قاطعته على غير طبيعتها:

«سمعت كثيرًا ما يقوله الإسلام مُلَّا، هو رائع، لكني أسمعه ولا أراه!».

«يا خاتون نحن مؤمنون.. لا نأخذ تعاليمنا مِن.. منكم».

أجابها المُلَّا قاطعًا، وتدري الطَّبيبة أنه أمسكَ تلطُّفًا عن قول: كُفَّار. أجبرت شفتيها على ابتسامة:

«عمومًا مُلَّا، أنت محق، فقد جئت لأرجوك أن تقوم معي إلى المشفى. ولا تتحجَّج بقدميك اللتين لا تحملانك، سوف نوفر لك كل شيء وإن اضطررنا لحملك».

واضطرَّت الطبيبة إلى الخروج من بيت المُلَّا لا تحمل إلا قِطَّتها السَّوداء مبتورة الذَّيل. أسقطت وشاحها الأبيض على كتفيها تحت رذَّات المطر النَّميلي، يهطلُ خفيفًا صغير القطرات مثل نملٍ ينثالُ من سماء يناير. ومآذن الدِّيرة تصدحُ بأذان المغرب. وسارت الطَّبيبة في سِكَكِ بْهيتة يغسلها ماء السَّماء، تتذكَّر مبروكة التي

قالت إنها تقطن أحد بيوتها. تمنَّت رؤيتها خاطفة بثوبها الأصفر مثل فراشة الربيع. وانقبض قلب الطَّبيبة لَمَّا تذكَّرت الفتاة التي أوشكت أن تهتدي بين نساء الدِّيرة المتمنعات، فاختفت. ثلاث سنوات وإلينور تحاول والنِّساء في نفور. *هل فشلتُ؟* حتى أبسط الأشياء كعزمها أن تطلب إلى المُلَّا كفَّ الصِّبية عن أذى الحيوانات.. *شيءٌ بسيطٌ مثل هذا لم يتم.* لم يتم. وما أرادت شيئًا من كل هذا إلا إتمام مهمتها بنفسٍ راضية، وأن يهتدي النَّاسُ إلى ما يصبو إليه إيمانُها بواجبها المقدَّس. ما أرادت شيئًا إلا هذا. *لم يتم.* ولن يتم.

وعادت الطَّبيبة إلى بيتها في أرض الإرسالية، تتشاغل عن المُلَّا الذي اتَّهمها ضِمنًا بعدم الإيمان، وعن مبروكة التي نطَّت في خيالها حينما قطعت سِكَك بهيتة، وعن الشُّعور الذي دهمها وصاح في وجهها: أنتِ فاشلة. دخلت مسكنها والظلامُ والهدوء يشيان بنوم ابنتها الصغيرة. أشعلت سِراجًا فوجدت على طاولة حُجرة الجلوس ورقة من إدوين يُخبرها أنه يزور مشرف الإرسالية وسوف يعود في الثامنة. حملت السِّراج وغابت في حُجرة المكتب تصرفُ قلقها بالقراءة. *فلم أستطع*. وارتقت عتبات السُّلَّم تحمل السِّراج إلى حُجرة النَّوم، واندسَّت تحت اللِّحاف تتوسَّلُ غفوة. *ولم أستطع*. ما لبثت إلينور في فراشها دقائق حتى ارتفع أذان العِشاء من مئذنة مسجد «العثمان» القريب للإرسالية. فأزاحت لحافها ونزلتْ إلى حُجرة المكتب ثانية. ولاذت بآلتها الكاتبة هذه

المرة تلقمها ورقة تلو ورقة، حتى بلغت بالكتابة بعد ساعةٍ آخر الورقة الخامسة، فهبط عليها النَّومُ أخيرًا.

ما كنت أنوى أن أكتب عن شعورى بالخيبة. وحاولت ألا أفكر فيه فيكبر. دخلت فور عودتى من بيت الملا إلى غرفة المكتب أطالع فى كتب كبار المبشرين، حاولت القراءة لكنى لم أستطع، فحملت القنديل وصعدت إلى غرفة النوم فى الطابق الثانى. ولما استلقيت على السرير يائسة مثبطة الهمة بسبب الفشل الذى لاقيته سمعت صوتا حنونا يمزق سكون الليل، وكان صوت المؤذن فوق مئذنة فى مسجد قريب يرتل داعيا لآخر صلاة -صلاة العشاء:

الله أكبر، الله أكبر

أشهد ألا إله إلا الله

حى على الصلاة،

حى على الفلاح

الله أكبر، الله أكبر

أشهد ألا إله إلا الله[1]

ومع هذا الأذان اكتمل حزنى، ذلك أن العرب يعتبروننا كفارا غير مؤمنين بالله. مع أنى فى الواقع ما جئت إلى الكويت إلا بأمر الله وإرادته. نزلت بعد الأذان إلى غرفة المكتب. ومن الجيد أنى كتبت.

---

(1) هكذا ورد النص في الأصل الصادر عام 1958 عن دار Thomas Y. Crowell الأمريكية، بعنوان: My Arabian Days and Nights: A Medical Missionary in Old Kuwait. (محرر وزارة الإعلام).

*** ملاحظة:**

من الشائعات التي اعتدت تدوينها، سمعت اليوم عن خرافة جديدة، تقول إن عرافة جزيرة فيلكا أرسلت أحد ولديها -سنكور ومستور- إلى البلدة قبل أسابيع، وحملته أمانة عليه أن يسلمها لشخص لا يعرفه أحد. حتى هو!

أنا أشعر بالنعاس أخيرا.

Eleanor J. T. Calverley
Wednesday, January 20, 1915
7:40 PM

ونامت الطبيبة على يأسها من عودة الفتاة التي مرَّت مثل حُلم، واستيقظت بعد سنتين من لقاء مبروكة واختفائها، يوم تحقَّقَت المعجزة ذات شتاء، في ظهيرة يومِ عطلةِ الإرسالية، وقتَ اضطر فيه الأطباء والممرضون إلى العمل في عطلة عيد الميلاد، بسبب وعكةٍ صحية ألَمَّت بالأمير الحاكم جابر بِن مبارك بِن صُباح آنذاك.

جاءت مبروكة تشِعُّ بِنَفنُوفِها الأصفر راكضة لاهثة حاسرة الرَّأس، تصيح في ساحة المشفى تطلب النجدة. وكانت إلينور قد عادت من فورها من زيارتها إلى قصر الأمير المريض مع مشرف الإرسالية، الدُّكتور ستانلي ميلْريا. وجدت ذات النَّفنوف الأصفر التي ضيَّق عليها سيِّدها ومنعها من الخروج جزاء خروجها من البيت دونما عباءة وعقابًا على تداويها في «بيت الزجاج». جثت مبروكة

مُخضَّلة العينين تُقبِّل يديّ الطَّبيبة تستنجدها: «افعلوا شيئًا.. أبي يموت!». فخرج على صراخها الدُّكتور ميلْريا بشاربه الدَّاكن المتهدِّل عند شدقيه. هرول إلى ساحة المشفى حيث سيارة الإرسالية الفورد. أجلس مبروكة إلى جواره، وأسرع بالقيادة يتبعُ إصبع الفتاة المُشهرة صوبَ بيت المُلَّا أسفل تلِّ بْهيتة. الإمام الذي تخلَّف عن إمامة مسجد السُّوق الكبير بسبب وَرَمِ بطنه الذي ما انفكَّ يتفاقم على مهل.

قبِلَ المُلَّا عبدالمحسن دخولَ النَّصراني إلى بيته، وما رضيَ أن ينهض معه إلى مشفى الإرسالية. وأصرَّ على بقائه في البيت، يلتحفُ بِشْتَهُ البُنِّيّ، ويُسند كفَّه برفقٍ إلى النتوء الكبير في بطنه ويعضُّ مخدَّته من الوجع. مكثَ ولداه إلى جواره بلا حولٍ يُعلِّقان أبصارهما على وجه الطبيب، عساه أن يفعل شيئًا يعيدُ العافية إلى أبيهما. وجاء الفعلُ بعدما اشتدَّت نوبةُ ألمِ الشَّيخ وأغمضَ مغشيًّا عليه وطرفُ المخدَّةِ بين فكَّيه.

فتح المُلَّا عبدالمحسن جفنيه بعد أيام بين ولديه وأسِرَّة المرضى في مشفى الإرسالية، يتحسَّسُ الجرح المُقطَّب موضعَ ما كان وَرَمًا أعلى سُرَّتِه ويبكي في صمت. ولا ينقل له ولداه أخبار الدِّيرة التي سمعت بأمره، وما يروجه عنه إمام مسجد سوق الحريم، المُلَّا إبراهيم كريم العين الذي يدور على مجالس الرِّجال: المُلَّا عبدالمحسن خصيم الصاجَّات دخل «بيت الزجاج»! يا الله حُسن الخاتمة! لكن ولديّ المُلَّا لم يستطيعا منع مبروكة التي أقبلت تحمل ما

يتداوله النَّاس إلى المُلَّا؛ قيلَ إن أطباء المَشفى الشَّياطين، وبمساعدة الجن، قد شقُّوا بطن المُلَّا، وشالوا مصارينه إلى البحر، وغسلوها بمائه المالح قبل أن يُعيدوها إلى بطنه نابضةً مُعافاة.

لم يفه المُلَّا بكلمةٍ لخادمته المقبلة من دون عباءة. الخادمة التي خرجت من بيته قبل أيامٍ، ومن دون عباءة أيضًا، تتوسَّلُ أطباء المشفى إنقاذ حياته.

جاء ميلْريا وإلينور، في ظهيرة اليوم السَّابع بعد الجراحة التي استأصلت من بطنه وَرَمًا بحجم رأسِ الوليد. أقبلا يودِّعان الشَّيخ الصَّائم عن الكلام ويرخِّصان له بالخروج. فسارع المُلَّا يدسُّ أنفه في المصحف المفتوح بين يديه، على دأبه كُلَّما لاح له طبيبٌ أو ممرِّضٌ في أيامه السَّبعة الماضية. فرجاهُ الدُّكتور ميلْريا أن يداوم على زيارة المشفى لعدَّة أيامٍ ضرورة تطهير الجرح. ولم تفُه إلينور بكلمة. ما زالت غير مصدقة أن المُلَّا الذي زارته في بيته بعد اختفاء مبروكة قبل ما يقارب السَّنتين، لتشكوه إساءة الصِّبية إلى الحيوانات، هو سيِّد الفتاة المباركة التي تبحث عنها. وأن الرَّب أخفى الفتاة عن عينيها في تلك الزيارة، كي تهتدي سبيلًا إلى الإرسالية من تلقاء نفسها ثانية. وما انفكَّت إلينور تجفف دموعها بظهر سبَّابتها، وهي تبصر الفتاة واقفة أمامها تتَّقد عيناها ذكاءً وجرأة. نهضَ الشَّيخ يرتدي بِشْتَه البُنِّيّ، فاتكأ على ولديه تتبعهم مبروكة. المصحف في يمينه، ووجهه إلى الأمام لا ينظرُ ناحية الطَّبيبين. أبطأ عند بابِ

الغرفة ومالَ على أُذُن ولده الأكبر يُوَشوش. فاستدار الولدُ إلى إلينور وميلْريا:

«أبي يسألكما عن الحساب؟».

مكث المُلَّا موليًا ظهره للطبيبين. وأجاب ميلْريا بأنهم هذه المرَّة سيتقاضون حسابهم من الله. مال الولدُ على أُذن أبيه قبل أن يُحدِّث الطبيبين ثانية:

«أبي يسألكما.. ما المقابل؟».

أصرَّ الدكتور ميلْريا أن هذا دور مشفى الإرسالية، وكرَّرَ أن الله هو الذي يرعاهم ويكافئهم ويبارك عملهم. فانزعج المُلَّا لاضطراره، من بين كُلِّ المرضى، أن يقبل خدمة من الإرسالية بلا مُقابلٍ يُحرِّره من جميل النَّصارى. وخشِيَ أن تصمه لعنةٌ تطارده أبدًا لدخوله مرتع الشَّياطين «بيت الزجاج».

برطمَ المُلَّا عاقدًا حاجبيه، واختفى وولداه وخادمتهم وراء الباب، ولبثت إلينور تغالب دموعها وهي تُبصر الإمام يمشي على قدميه ثانية، ملهوفًا إلى الإمامةِ وصعود المنبر للخطابة في مسجد السُّوق الكبير بعد انقطاع حَولَين. فكرت في كيفية تلقِّي النَّاس خبر شفاء المُلَّا والثقة التي سوف يحظى بها مشفى الإرسالية التبشيرية. فكَّرت في نفسها، ووجدت أنها في لحظةٍ مناسبةٍ لن تتكرَّر لتحقيق مُرادها. فسارعت الخطوَ وراءهم، تهبط عتبات باب المشفى تنادي إمام مسجد السُّوق في السَّاحة:

«مُلَّا!».

وقفت تواجهه بصدرها متسارعة الأنفاس. تُقلِّب الكلمة في فمها قبل أن تفضي:

«أريد المقابل».

سارع المُلَّا يرفع صوته:

«كم؟».

تلكأت إلينور فاستلّت نفَسًا قبل أن تقول:

«أريد مبروكة».

بحلقت مبروكة تُنقِّل بصرها بين الطبيبةِ والمُلّا. وكما لو أن لدى المُلّا أكثر من مبروكة، سارع يسأل إلينور:

«مبروكة بنتي؟!».

تعلَّقت أبصار الجميع في ساحة المشفى بالشَّابةِ الصامتةِ في ثوبها الأصفر الفاقع. لا يريد المُلّا التَّخلي عن فتاةٍ أقامت في داره بمنزلة ابنة، تلك التي ما عصَت له أمرًا إلا ارتداء العباءة عند الخروج، ولم يرغب في الوقت نفسه أن يكسر كلمته لأعضاء الإرسالية وقد وعدهم بتلبية ما يطلبون لقاء علاجه ليتحرَّر من قيد معروفهم، غير أنه كان واثقًا بوفاء الفتاة التي ما نادته إلا أبي طول سنتين. فسأل مبروكة بدافع إحراج الطبيبة بالإجابة:

«يا مبروكة يا ابنتي، هذه النَّصرانية تريدكِ وأنتِ مسلمة سلَّمك الله من الشَّر، فأخبريها برأيك؟».

ولمَّا صارت مبروكة في عهدة الإرسالية خلَّصَ القِس إدوين أمر معموديتها في يومٍ من آحاد الرَّب، وتناولت العشاء الرَّباني، ودرَّبتها إلينور على التَّمريض وتعلَّمت الشَّابةُ مبادئ الإنكليزية في وقتٍ قصير، واستبدلت بالنَّفْنُوف الأصفر المئزر الأبيض. وتخلَّت

عن كل شيءٍ قديمٍ إلا حِرْز الصاجَّة أُم حَدَب، فقد رفضت مبروكة أن تنزعه من عَضُدِها، فهو الحِرْزُ الحريز الذي أنقذها من كوابيس الماضي المرير، الماضي المجهول للطبيبة. ومرَّ كل شيء على إلينور مثل حلمٍ بعدما كادت تفقد إيمانها بقدرتها على أداء مهامِّها في هذه الدِّيرة، وسارعت إلى آلتها الكاتبة في آخر ذاك اليوم تكتب:

أعود للكتابة بعد انقطاع، وأعترف أني –خلال خمس سنوات من العمل هنا– شعرت أكثر من مرة أني لم أعد قادرة على خدمة الإرسالية بالقدر الذي تستحقه رغم كل محاولاتي. انقطع ذلك الإحساس الذي ما فارقني منذ سنوات عمري المبكرة، فأنا منذ زمن طويل، وكنت لما أزل طفلة صغيرة، وهبت حياتي إلى الرب. ومن يومها لا أقدم على خطوة مهما كانت الضرورة الداعية إليها مالم أحس بالإلهام من العناية الإلهية يرشدني سواء السبيل. هذا هو نهجي ومعتقدي في الحياة، غير أن هذا الإلهام انقطع منذ عدة أعوام لسبب غير مفهوم. كنت أريد أن أكرس وقتا أطول من أجل القراءة في الكتاب المقدس أمام الزائرات لكي أشرح لهن طريقة المسيحيين في الحياة. لكن كأنني افتقدت شغفي. حاولت أن أستعيده بالصلاة والقراءة في الكتاب المقدس أو المطالعة في سير عظماء الأطباء الذين كانوا يعالجون المرضى ويشفونهم بالصلاة والإيمان. لم أستعد ذاك الإلهام القديم للأسف، فجاءت مبروكة وغيرت كل شيء. مبروكة التي أسميتها «الأولى» وكتبت عن زيارتها بثوبها الأصفر قبل سنتين.

كان كل شيء واضحا لكني لم أنتبه إلى كل الرموز الإلهية: دلالة اسمها ومعناه بالإنجليزية «أنثى مباركة». كيف لم أنتبه لإشارات الرب

الكثيرة؟ كيف ظهرت الفتاة أول مرة وكيف اختفت؟ وكيف هداني «خليفة وبس» إلى بيت سيدها بحجة ذيل القطة المقطوع؟ وكيف أعماني الرب عن رؤيتها في بيت الملا لكي تأتي من تلقاء نفسها إلى المستشفى اليوم، واليوم عطلة كسرها الرب بمشيئته لأجل هذا اللقاء، وكيف تخلى عنها الملا للإرسالية برضاه وبهذه السهولة؟ وكيف اختارت هي الانضمام إلى الإرسالية رغم أنها لم تشتك من سيدها ومالكها ولا يزعجها أن تكون عبدة، فالعبيد بصفة عامة **هنا يعاملون بلطف ويعتبرون كأنهم من أفراد العائلة**. ومع ذلك جاءت مبروكة أخيرا لتختار عائلتها الجديدة، رغم أني كنت قد فقدت أملي بمجيئها.

كنت يائسة، نعم كنت، وليسامحني الرب، لأني كنت قد بدأت أتعب من بقائي هنا، خصوصا من البيوت الواقعة حولنا في «قبلة»، بين أناس يصدون عنا، يرفضون علاجنا ويكرهون كتابنا المقدس. يتفاءلون بصياح الديك لأنه شاهد ملاكا، ويتشاءمون من نهيق الحمار لأنه شاهد شيطانا!

لكن -وبكل صدق- بمجيء مبروكة اليوم قبل عيد الميلاد **حدث لي شيء ما. شيء لم أره ولم أسمعه، ولا يقع تحت حاسة من الحواس الخمس. كان أشبه بحضور من وراء المحسوس ملأ على الوعي والوجدان، وأدركت في التو بما لا يقع ضمن حدود الشك أن حياتي قد تقرر لها** منذ البدء أن تكون في خدمة الارسالية.

مبروكة اليوم حرة، وتحريرها من أجل خدمة الإرسالية أفضل من تحريرها لغير ذلك، فالأسياد في المدينة لا يحررون عبيدهم إلا تكفيرا لذنب أو طمعا بأجر من الله كما يوصي الإسلام، أو أن يشتد الفقر على

الأسياد فيتخلصون من الأفواه الزائدة في بيوتهم بتحرير العبيد. وأنا لا أريد لمبروكة أن تكون من فئة العبيد الإفريقيين الذين حرروا فانقطعت عنهم مساندة أسيادهم السابقين وباتوا في حالة يرثى لها من العوز والإملاق.

* ملاحظة ١:

صحة الشيخ جابر غير مطمئنة. أخبرناه أننا جئناه اليوم في عطلة عيد الميلاد للاطمئنان عليه وحرصا على صحته ومساعدته، لكنه رفض قبول طلبنا بالكشف عليه وعلاجه. نعرف في الإرسالية أنه غير مسرور بنشاطنا التبشيري لكننا لم نتوقع رفضه محاولة العلاج. يبدو أن شقيقه ونائبه الشيخ سالم سوف يحكم الكويت قريبا.

* ملاحظة ٢:

لم يعثر ستانلي على ديك حبش، فأرسل لنا الشيخ أحمد ابن الأمير زوجا من طيور الحباري لأجل وليمة عيد الميلاد، فهذا موسم هجرة طيور الحباري حيث تتكاثر في صحراء الكويت، وحيث يتبارى أبناء الشيوخ على صيدها بواسطة الصقور.

* ملاحظة ٣:

سوف يزورنا ستانلي اليوم ليقرأ لغريس من قصص وأناشيد الميلاد لتشارلز ديكنز.

* ملاحظة أخيرة:

ارتديت اليوم قلادة الصليب التي أهدانيها إدوين في عيد زواجنا الأول قبل عشرة أعوام، أما قلادتي التي اعتدت ارتداءها هنا فقد أهديتها اليوم مبروكة التي فرحت بها وقبلتها على الفور. وحاولت أن أقنعها بعدم جدوى التعويذة -يسمونها الحرز- التي تعقدها في محفظة جلدية حول ذراعها، وبأنها لا تناسب أتباع المسيح، لكنها رفضت أن تنزعها رفضا قاطعا.

Eleanor J. T. Calverley
Sunday, December 24, 1916
4:00 PM

(٩)

أُذُنا الحُصْني

«حليبُ المُرضعِ كُلُّه بركة، إلا الحَليبُ المُر»

طارَت لَوْهَةٌ من سور شايعة بعدما طُرق الباب بالصَّفَّاقة الحديدية ثلاثًا. فدفعت الصاجَّة أُم حَدَب الباب الخشبي الموارب. وأقبلَت مُشتمِلةً بعباءتها المتقبِّضة. تتمايل تحت حدبتها مثل بعير يترنَّحُ تحت هودج. تمسكُ بيمينها صُرَّةً وبشِمالها سعفة. والتفتت صوبها النِّسوة في ليوان أم سليمان، وتعرَّفنَ إليها من ظهرها المُقوَّس تحت العباءة السَّوداء، وظهرت درَّاعتها في شِقِّ العباءة قانية الحُمرة، وخشخشت في صدرها قلادة الأصداف والأظلاف. كانت شايعة مشغولة في رُكن الحَوش قُرب دار الكَيل، مستودع الحبوب والأقِط والسَّمَك المملَّح، تسكبُ خليط الطَّحين والحليب والسُّكر في قِدر، تصنع العصيدة لكنَّتها النَّفساء. فتناهى إليها صوت أُم حَدَب وهي مقبلة ترفعُ البُوشِيَّة عن وجهها الأبرص ذي الثُّؤلول الأسود، تُحيِّيهنَّ لاهثة:

«صباحكم خير يا بنيَّات».

أَجَبْنَ تحيَّةَ الصاجَّةِ رغم أن لا بُنيَّة بينهنَّ إلا فضَّة، وخادمة شريفة، التي ترسلها الجارة لخدمة فضَّة بين حين وآخر. تساعدها في شؤون الرَّضيع، وتسرق من سُقط شعرها ما يعلق في المشط أو ما تدسُّه النَّفساء في شقوق الجدران. فتحملُ الخادمةُ شعر فضَّة إلى سيدتها شريفة في آخر اليوم، وتصير الشَّعرات في اليوم الموالي في يد أُم حَدَب، فتصنع كبيرة الصاجَّات منها ما يُفرِّق بين المرء وزوجه.

أسندت أُم حَدَبَ سعفتها إلى الجدار وراء الباب بعدما أطبقته. ومرَّت من أمام الخادمة الصَّغيرة المُنزوية في رُكن الحَوش، تُزيل السُّخام عن زُجاج السُّرُجِ بمنشورات تبشير الإرسالية الأمريكية، لا تفقه ما كُتِبَ فيها عن الأب والابن والرُّوح القُدُس. فارتفع صوت شايعة من رُكن الطَّبخ:

«حَيَّا الله أُم حَدَب.. تبارك البيت يا صاجَّة».

فتقدَّمت الصاجَّة نحو الجارات المتحلِّقات في ليوان البيت الطِّيني، من دون أن تتوقف عند مساحةِ أنعُل وقَباقيب وأمدِسَة الزائرات. واستقبلتها النِّسوة في الليوان الظليل المطل على الحوش المُربَّع غير المسقوف، تُحيطُهُنَّ حُجُرات الدَّار المشرفة على حَوشٍ تلهو به خمس دجاجات وديك وتيس نجدي وعنزٌ بربرية وسخلة صغيرة مربوطةٌ قرب ركن التَّنور. نهضت أُم غايب وشريفة فاستقامت النِّسوة لقدوم الصاجَّة، وتجاذبنها بالعناق والقُبلات والسُّؤال عن صحَّتِها وأخبارها، كما لو أن لقاءهنَّ في ظهيرة دقِّ الهريس ما كان قبل يومين.

تربَّعت أُم حَدَب على الأرض، وطافت الخادمةُ على نساء الليوان بكؤوس الشَّاي الصَّغيرة، وانحنت على فضَّة تمد إليها كأس شراب القِرفة السَّاخن. وجلست النَّفساء الصغيرة تُمدِّد ساقَيها على فراشٍ أرضيٍّ بين النِّساء ورضيعها إلى جوارها والبُوشِيَّة مُلقاة على وجهه كما أوصت الصاجَّة ليلة الوضع. تُجدِّل فضَّة شعرها بعد مَشطِه وجمعِ المتساقط منه، لتُخفيه تاليًا في شقوق الجدران كما أوصتها الصاجَّة، خوفًا من سقوطه على الأرض فيُداس ويُصيبها الصُّداع.

ورغم تورُّم وجه فضِّة بفعل الحبَل والنِّفاس، بدَت الفتاة مليحة للنَّاظرات على نحو يُثير غيرة النِّسوة، ويُرسِّخ حسد شريفة وضغينتها، الجارة ذات الجمال والحسب والنَّسب، دلُّوعة بيتِ العِزِّ وشَمعة الجُلَّاس التي قاربت الثالثة والعشرين وما قبلت بخاطب طرق بابها. ***لو حنَّ قلبك يا سليمان يا ولد شايعة!***

تململت فضَّة في جلستها وأفلتت زفرةً تعبقُ برائحة الحُلبة والرّشاد مثل أي امرأةٍ نفساء. عبثت بطرفِ جديلتها، تحملِقُ إلى وجه الحَدباء البرصاء التي وفدت للتَّو، وأقبَلَت على النِّساء بجلدٍ يشفُّ عن عروق الوجه، جلد منحته شمسُ الضُّحى حُمرةَ جلد البريعْصي[1].

---

(1) بريعصي: حيوان زاحف: الوزغة أو البرُص أو أبو بريص. وفي سِفر «كائنات مدينة الطين» جاء في باب الزَّاحفة: [وفيها كثيرٌ من الجن. وقيل منها الجنية فاجرة الصيت «ناع البغي» المذكورة في باب ملكات الجان، ساكنة أطلال المعبد الدلموني في جزيرة الماء شمال شرقيّ مدينة الطين، وقد طوَت سنين عمرها ممسوخة في صورة وزغة، بعدما تزوجها جنيٌّ مارق نفاهُ سبعة ملوكٍ من أبناء عمومته إلى الجزيرة..]. (المزيد في باب ملوك الجان، صفحة 417). (المؤلف).

أوجدت لها بين أُم غايب وشريفة موضعًا على الأرض. وبحلقت فضَّة ساهِمة إلى ثؤلول العجوز الناتئ، يستقرُّ على خدِّها الأيسر بحجم شيخ ذُباب. يبرزُ في وجهها الأبيض مُنتفِخًا مثل حرقٍ في خبز التَّنُّور. ومرَّرت الفتاةُ بصرها على خصلات الشَّعر الشَّيباء الفالتة من ملفع العجوز، وحاجبيها، ورموشها التي ابيضَّت فبدا وجهها كأنه معفَّرٌ بالطَّحين. فأدارت فضَّة وجهها عن الصاجَّة وهجست وهي تنعمُ النَّظر إلى السَّعفة المستندة إلى الجدار. *ما رآكِ أحدٌ تطيرين!*

شالت الحدباء الرَّضيع النائم فانتشرت منه رائحة كريهة. فوضعته أمامها على الأرض وانشغلت بفكِّ قِماطه من دون أن تُبعد البُوشِيَّة عن وجهه. وهبطت فضَّة بنظرِها عساها تلمحُ قدمَيّ الصاجَّة وتُعاينهما عن قرب، ولكن عباءة أُم حَدَب مُسدلة كما هي على الدَّوام. تزدادُ فضَّة حيرةً وهي تنظرُ إلى أنعُل النِّساء عند عتبة الليوان، فهي لم تُبصر نَعليّ الصاجَّة بينها. ففكَّرَت. *وأي نعال تناسب حافر الحمار!* فهمست العجوز إلى فضَّة بفطنةٍ أو بإيحاءٍ من كاتب الأسفار من دون أن تنظر إليها:

«لا أدخل بيت نفساء حافية القدمين».

تهزُّ فضَّة رأسها مرتبكة وهي تفتعلُ ابتسامة بدَت بلهاء. *وما دخلتها حافية قبل نفاسي.* تبدَّدت ابتسامة الفتاة. *كيف تعرفين ما يدور في رأسي؟!*

هَفهَفت الصاجَّة الهواء بكفَّيها قُدَّامَ وجهها ضيقًا برطوبة الجوّ.

ثُمَّ أخرجت عصًا قصيرةً من صُرَّتِها، وعقدت بطرفها قِماط الرَّضيع الملطَّخ بفضلاتِه. فنادت خادمة شريفة التي فرغت من توزيع الشَّاي، وأوصتها بأن تَركِز عَصا القِماط في سطح الدَّار مثلَ راية. فإذا ما انتشرت رائحة القِماط استجارَ المكان بالهواء، فيهبُّ الهواءُ إشفاقًا ليُبعد الرَّائحة، وإذا ما هبَّ الهواءُ لن يُبعد الرَّائحة الكريهة وحسب، بل يأخذ في دربه هذه الرُّطوبة.

تناولت الخادمة الصَّغيرة العَصَا والقِماط القذر عكِرة الملامح، فقالت الصاجَّة مُبتسمة:

«يا رطوبة! لا تلعبي مع أُم حَدَب».

فانبرت شريفة تشكر الصاجَّة وتدعو لها:

«جزاك الله خيرًا.. وبيَّض الله وجهك يا أُم حَدَب».

انتفضت كبيرة الصاجَّات وصاحت ملءَ شدقيها وهي تُشير بسبَّابتيها إلى وجهها الأبرص:

«أكثر من هذا؟!».

هرولت الخادمة بالعَصا والقِماط إلى السَّطح تُنفِّذُ الأمر، في حين راحت أُم حَدَب تُقمِّط الوليد بقِماطٍ آخر نظيف. ثُمَّ تناولت الجارة شريفة الرَّضيعَ من حِجر الصاجَّة، فتحركت البُوشِيَّة عن وجهه وانكشفت أُذُنه. شهقت شريفة:

«ما شاء الله.. لهُ أُذُنا أبيه!».

أردفت ضاحِكة:

«أُذُنا الحُصْني!».

اضطربت فضَّة في فراشِها، تواصلُ عبثها بإحدى جديلتيها وهي تخزرُ جارتها اللَّدود.

ومدَّت شريفة ذراعَيها تمرِّرُ الرَّضيعَ إلى امرأةٍ تليها في حلقة النِّساء، تُصدِرُ أساورها الذَّهبية رنينًا مع كُلِّ حركة. تتلقَّفه المرأة من يدي شريفة، تُداعِبُ أصابعه قبل أن تُناوله امرأةً تليها، ليطوف الرَّضيع المُقنَّع بين النِّساء مثل صينية شاي.

وفضَّة ما زالت تُحملِقُ في شريفة صامتةً عاقدة الحاجبين. تعرفُ النّسوة طبيعة شريفة ويخفنَها؛ العين جوعانة والبطن شبعانة، لو أنعم الله عليها بتسعٍ وتسعين نعمة لانصرفت عنها لتلاحق نعمة تنقصها لدى الأخريات. وتعرفُ نسوة الحَيّ أن عين شريفة على سليمان حتى من قبل بلوغه مبلغ الرِّجال، رغم أنها تكبره بخمس سنوات. زمَّت فضَّة شفتيها تحدج الجارة الحسود بنظرة مرتابة. *هذه المرأة تهذي! كيف وأين رأت أُذنّي سليمان؟* تنقلُ بصرها إلى

رضيعِها بقماطِه المشدودِ محمولًا، تلقفه أيدي النسوةِ المتربِّعات فوق بساط الحصير، حول موقد الحطب وإبريق الشاي.

ارتفعَ مواءٌ في الخارج، فطُرق الباب ثلاثًا:

«يا أهل البيت!».

نادى أحدهم فنهضت شايعة يابسة العود طويلةً مثل مِدقِّ الهريس، وارتدت عباءتها فوق ثوبها المنثور بالزَّري الذَّهبي تمضي إلى الطَّارق.

شمسُ الضُّحى تُرسل أشعَّتها إلى الحوش. ورطوبة الجوِّ في البيت الطِّيني القريب من السَّاحل حفَّزت الأشياء تُطلِق روائح خليط؛ تربة وذرْق طيور وجِصُّ الجدار وحطب الموقد ومكونات عصيدة شايعة. روائح تُناوش مزيجَ أدخِنةٍ مِن مُرَّة وشبَّة وملحٍ محروق في مبخرةٍ خشبيةٍ مُطعَّمةٍ بالنُّحاس المطروق، جاءت بها الخادمة بعد تثبيتِها راية القِماط القذر في سطح الدَّار. تطوفُ حول الجالسات، تقيهنَّ من شرور الدَّنَس في بيت المرأة النَّفساء. والمرأة النَّفساء، فضَّة، تختلسُ نظرات إلى شريفة، بعينين تتَّقِدان غيرة وخوفًا من أحابيل تُحيلها ضَرَّةً تخطف منها حشاشة القلب سليمان.

أرخت شايعة البُوُشِيَّة على وجهها قبل أن تفتح الباب، ثُمَّ رفعتها تكشفُ عن وجهها ثانية عندما لاح لها الشَّاب الأملَط خليفُوُهْ، يقفُ حافي القدمين، بدِشْداشَةٍ قصيرة تُظهر شِبرًا من

ساقيه، مُطأطئًا يلُوثُ إزاره حول رأسِه كيفما اتفق. ناولها بِشِمالِه كيسًا من الخيشِ بعدما ألقى التَّحية، على حين أخفى كفَّه اليُمنى وراء ظهرِه على عادته، يُطبق أصابعه على إبهامِه يُخفيه عن النَّاظرين. ابتسمت شايعة وهي تتسلَّم الكيس، تنظرُ إلى ثلاث قِطَط تُحيط بالشَّاب، قطٌّ أسود وقطة بيضاء وثالثهما يخالط سواده البياض، تمسحُ أجسادها بساقيه، وتعبرُ بينهُما أسفل دِشْداشَتِه، وتلعقُ قدَميه الحافيتين. يبتسم خَليفُوُهْ من دون أن يرفع رأسه توقيرًا لحُرمة البيت:

«بالسلامة والغنيمة يرجع ولدك سليمان.. قولي آمين يا خالة».

«آمين.. الله يسمع منك يا ابو القْطاوَة».

تتغامز النسوة عند ذِكر اسم الشَّاب غريب الأطوار، وترفعُ شايعة ذراعها تحمل كيسَ الخيش عاليًا. تومئ إلى أُم حَدَب تُبشِّرها:

«وصل مطلبك يا صاجَّة».

تضاعفت الخطوطُ في وجه أُم حَدَب. ابتسمت وهي تداعُب شُعيراتٍ بيضاء نابتة في ثُؤلولِها الأسود. فهزَّت رأسها تُفضي ببشارة عودة البحَّارة:

«غدًا يعودون».

ردَّدت زائرات شايعة وهسَّت شريفة:

«آمين».

واستدارت أُم سليمان نحو خَليفُوُهْ ثانية، تمُدُّ إليه خِرقة صغيرة

من الموسلين مُعطَّرة بالمسك والعنبر، ملفوفة على الحبل السرِّي لحفيدها:

«اسمع يا خَليفُوُهْ؛ هذه سُرَّة ولد سليمان».

التفتَ الشَّابُّ فجأة إلى الوراء، مثل قِطٍّ يتحاشى عصًا أو رمية حصى. يعرفه الجميع بالتفاتاتِه الهوجاء تلك، ويعزونها إلى لوثة في عقلِه تسبَّبت فيها القِطَط التي تحيطه طول الوقت:

«اِسم الله عليك.. لا أحد وراءك!».

شايعة ما زالت تمدُّ يدها بخرقة القماش، تستغرب سلوك الفتى المريب رغم اعتيادها عليه. تناول خَليفُوُهْ الخرقة بشِمالِه. فدسَّها في مخبَى دِشْداشَتِه. وأنصتَ إلى وصِيَّة أُم سليمان بأن يُبحر إلى جزيرة فَيْلَكا، وشدَّدَت على أن يكون إبحاره من موضع صخرة السَّاحل السَّوداء.

ارتفعَ صوت أُم حَدَب من بين نِساء الليوان، تُسمعهنَّ وهي توصي خَليفُوُهْ بأن يتحقَّق من أثر وطأة الخِضر وثَقب عَصاه في الصَّخرة قبل الإبحار إلى الجزيرة، ليبارك الله إبحاره على خطوة المبروك.

هزَّ خَليفُوُهْ رأسه هزَّات متتالية تشي بخبرتِه بالسَّاحل مقابل «بيت الزجاج» أقصى الحيِّ القِبلي. خبرةٌ زادته إيمانًا بعِلم الصاجَّة منذ سنوات. فقد كان يُبحر إلى الجزيرة من أحد مراسي «رأس عجوزة» في الحيِّ الشَّرقي، ذراع الدِّيرة الأقرب إلى الجزيرة،

فنصحته الصاجَّةُ أن يُبحر من الموضع الأبعد الأسرع، على مسافة خطوة الخِضر من ساحل الوَطْية في الحَيِّ القِبلي إلى الجزيرة شَرقًا. ولا يفهمُ الشَّاب إلى يومه هذا كيف تتحالف الرِّيح مع البحر والزَّمن على خطٍّ إبحاره ذاك، فيسبقَ قاربه القوارب المبحرةِ إلى فَيْلَكا من «رأس عجوزة».

تابعت الصاجَّة حديثها بما يشبه الصُّراخ بأن يحملَ معه حبلَ السُّرَّة في طلعته المقبلة:

«سلِّم على الصاجَّة أُم صَنْقُور، وقُل لها أن تدفن السُّرَّة في مكانٍ قريب من عتبات مقام الخِضر عليه السَّلام».

استغرب خَليفُوْهْ وهامسَ شايعة عند باب الدَّار:

«ولمَ في الجزيرة وما أكثر المساجد هُنا في الدِّيرة؟!».

تأففت شايعة وهي لا تملك جوابًا لتوصية كبيرة الصاجَّات أُم حَدَب:

«هذا ليس شغلك! سلِّم على الصاجَّة أُم صَنْقُور، وقُل لها إن الصاجَّة أُم حَدَب توصيكِ خيرًا بالسُّرة».

فتحت عُقدةً في طرف مِلفَعِها وأخرجت منها نقودًا معدنية. ونقدتهُ من سُلفة بِن حامِد لولدِها ثلاث روبيَّات هندية، وأوصته أن يُسلِّمها لخادِمَة المقام في الجزيرة:

«هذي للصاجَّة أُم صَنْقُور».

ثُمَّ راحت تعدُّ بقية النُّقود في راحة كفِّها، تفرز الرُّوبيَّات عن الآناتِ كما لو أنها تُنقِّي رُزًّا من السُّوس. وضعت في كفِّ خَليفُوُهْ من الآناتِ الهندية قطعةً مُثمَّنة الأضلاع:

«وهذي لك».

بُهِت الشَّاب وهو يُبحلق إلى الرَّبع روبيَّة. برطمَ وهو يزنها بكفِّه:

«بس؟! أربع آنات؟».

أشارَ إلى نقش الملك الإنكليزي جورج الخامس على وجه القِطعة المعدنية:

«لو ينطق الشايب لقالَ هذا قليل!».

هشَّت شايعة بكفِّها أمام وجهه:

«اِحمد ربِّك على النعمة. أربع آنات تطعم قِططك أسبوعين!».

أومأ خَليفُوُهْ برأسه موافقًا، فانتفض كأنما تذكَّر شيئًا مُهِمًّا، وأخرج من مخبَى دِشْداشَتِه مُغلَّفًا أزرق وناوله شايعة:

«هذا لعمَّتي أُم حَدَب كما طلبت من صاجَّة الجزيرة».

أمسكت أُم سليمان بالمغلَّف، فابتعد خَليفُوُهْ متخطرفًا تتبعه قِطَطُه تؤرجح أذيالها. وأطبقت الباب وراءه فسقطت سعفة أُم حَدَب عن الجدار. ارتبكت شايعة وهي تُعيد إسنادها إلى جوار الباب، في حين كانت الصاجَّة تبتسم مطمَئنةً إلى قُرب وصول حبلِ السُّرَّة إلى جزيرة فَيْلَكا، حيث بدفنِها هُناك تكون قد دقَّت وتدًا يتردَّد

عليه الرَّضيعَ إذا ما كبر أبدا. مشَت شايعة الحُبارى إلى الصاجَّة، تناولها المُغلَّف الأزرق مع كيس الخيش وقد انتفض وتلوَّى ما في داخله. حدَجتها أُم حَدَب بنظرة من كشَفَ سِرًّا:

«ثلاث روبيات لأُم صَنْقُور؟!».

تلكأت أُم سليمان قبل أن تجيب:

«للكِ مثلُها فور عودةِ الغاصة».

انتفضت الصاجَّة كمن يدرأ عنه تهمة:

«أنا لا آخذُ مالًا!».

أخفضت صوتها مُبحلقة العينين، تُنهي جملتها وهي تُشير بسبَّابتها نحو الأرض دونما تسمية من يسكن باطنها:

«..إلا من أجلِ حاجاتهم».

طأطأت شايعة وَجِلة متطيِّرةً من الجِن:

«سكِّنهم مساكنهم».

مدَّت الحدباء كفَّها بالمغلَّف الأزرق الذي جلبه خَليفُوُهْ من صاجَّة الجزيرة، وناولته فضَّة إلى جوارها:

«دواء الرضيع من أُم صَنْقُور، بدل الذي أخذته منك العنگريزية البيضا الماسخة أُم الصُّلبان.. قطيعة تقطعها».

دسَّت فضَّة الدَّواء السِّحري تحت وسادتها، ومضت شايعة إلى ركنٍ قريبٍ تُكمل إعداد العصيدة. انفرجَت شفتا أُم حَدَب عن

ابتسامةٍ واسعة، كاشفة عن أسنانٍ سليمة لا تُناسب عجوزًا في مثل سِنِّها، أسنان نضيدة لؤلئية لا ينقصُها إلا ناب. وبينما كيس الخيش يتلوى إلى جوار الصاجَّة، أسندت العجوز رأس الوليد إلى كفِّها الشِّمال، ودسَّت اليمين تحت البوشية الملقاة على وجهه وأخذت تَرقيه مُغمضة العينين، هامسة بآياتٍ من القرآن وتمتمات غير مفهومة.

أُم غايب تمسح جسدَ الرَّضيع، ثُمَّ تُربِّت على بطنها البائر، وتُتمتِم بكلِماتٍ من تلقين أُم حَدَب. وأُم البنات التي تحرَّرَت من نفاسِها قبل أسبوع تفتح قِماطه. تلمسُ خصيتيه بكفِّها قبل أن تُسنِدَها إلى بطنها، تمسح وتهمسُ بكلماتٍ غير مسموعةٍ تدعو الله أن يرزقها بمولودٍ ذكر في حملها المقبل. والصاجَّة مُغمضة العينين ما زالت تَرقيه وتُحصِّنه بالله والأنبياء والأولياء، رغم أنها تعرف مصيرًا قدَّره كاتب الأسفار للوليد من قبل مولده.

نهضت أُم حَدَب بعد مُباركتها المولود. نزعت عباءتها عن درَّاعتها الحمراء. وسارعت فضَّة تُخالس النَّظر إلى قدمي العجوز، غير أن درَّاعتها كشأن عباءتها كانت طويلة مُسدلة على السَّاقين والقدمين اللُّغز. وحملت الصاجَّة كيس الخَيش في يمينها وصُرَّتها في شِمالِها، تجرُّ خُطاها بدرَّاعتها إلى ركنٍ بعيد عن نسوة اللِّيوان. جلست وفتحت الصُّرَّة تعبث بمحتوياتها؛ مِدَق هاوَن، أوراق شاي يابسة، ومسحوق حِنَّاء، مسامير ومِكحَلة فضِّية وطاستها المنقوشة بآية الكرسي. أخرجت من كيس الخيش قِطَّة صغيرة

بيضاء. وضعتها في حجرها ثُمَّ أطبقت فخذيها على رقبتها تحبس وجه القِطَّة بينهما.

بَدَت فضَّة ساهمة. ما زالت تُفكِّر في كلام شريفة عن أُذُنَي سليمان. تطردُ أفكارها وتنظرُ إلى رضيعها تتلقَّفه الأيدي. فتململت في جلستها، ودُخان البخور يجثُمُ على فضاء الليوان مثل سحابة في سكون الرِّيح:

«هذا يكفي!».

ما كاد يصلُ الوليدُ إلى ذراعيها ثانية حتى راحت تتلمَّس، خلسة، أُذُنيه من تحت البُوشِيَّة، وقد لاحظت منذُ ولادتِه أنهما كبيرتان، مثل أُذُنيّ زوجها الذي أتمَّ غيابه الهلال الرَّابع مع الخَشَب في مغاصاتِ الخليج. ***لاحظتُ ذلك ساعة مولدِه، أُذُنا الحُصْني.. ولكن كيف لـ شريفة أن تُحيط بأمرِ أُذُنِ سليمان وهو الذي ما أزالَ رباط الغُترةِ عن رأسِه خارجَ البيتِ قط؟!***

أرسلت فضَّة نظرها إلى حماتِها المشغولةِ بإعدادِ العصيدة، تُقلِّب الطحين والحليب والسُّكر في قِدرٍ صغيرة، فوق حَطَبٍ خمدَ لهيبه واتَّقدَ جمره. قالت الكنَّة وقتَ انشغال البقية بالحديث:

«خالتي شايعة! شريفة تقول إن للولد أُذُني أبيه!».

صمت بعض النّسوة. ونظرت أُم سليمان إلى الجارة، بغير اهتمام، وهي تواصل تقليب الخليط قبل أن يتماسك قوامًا واحدًا، تُضيف إليه الحُلبة واللُّهوم والزَّنجبيل:

«شريفة!».

نبَّهتها قبل أن تسأل:

«ما هذا الكلام هداكِ الله؟!».

نثرت شايعة القرفة والهال المطحون في القِدر، وراحت تُقلِّب على مهل. فتضوَّع الليوان برائحة أكلةٍ تتوق إليها أُم غايب طول عمرها الماضي. صوَّبَت فضَّة نظرها نحو شفتيّ الجارة تتحرَّى إجابةً على سؤالِ حماتها، غير أن شريفة أمسكت عن الإجابة، وتشاغلت بتحريك مهفَّة سعفٍ أمام وجهها على وقعِ رنين أساورها، تُبدِّدُ الرُّطوبة والدُّخان. تسرَّب القلق إلى فضَّة وشايعة التي كرَّرت:

«وما أدراكِ بأُذُنيّ سليمان يا شريفة؟ ألا تنطقين؟!».

أرخت شريفة غطاء رأسها الأسود كاشفة عن غُرَّة منحتها الحِنَّاء تحتَ الشَّمسِ صبغة فريدة. أجابت بنصفِ إغماضةٍ وهي تُرقِّصُ حاجبيها:

«أُذُنا الحُصْني، كانت تُسميها أُم سرور المرضعة. كأني أرى سليمان رضيعًا بين ذراعيها يمصمص الحليب ويطبق كفيه على ثديها الكبير».

امتقع وجه فضَّة. بدت منزعجة من القول، ومن رنين الأساور في معصم شريفة. دسَّت كفَّها تحت وسادتها خلسة، إلى جوار زجاجة الدَّواء السحري، تتحسَّس سِكِّينًا تنامُ أسفل رأسها أبدًا.

تهامست النساءُ فيما بينهنَّ، ثُمَّ أخرسهُنَّ مواءٌ حادٌّ أطلقته القِطَّة في ركن الحَوْش، بعد ارتفاع صوتِ طرقةٍ مُدويَّة في زاوية أُم حَدَب. فرغت العجوزُ من ثقب أُذُن القِطَّة بثلاثة مسامير دقيقة بضربة واحدة من مِدَق الهاوَن.

التفتت شايعة صوبَ المواء قبل أن تُدير وجهها عن مشهدٍ مألوفٍ قبيل كلِّ موسم قُفَّال. ونظرت إلى شريفة ثانية، موقنة أن ما قالته الجارة محض وهمٍ أو افتراء. غابت أُم سليمان مع خيالها يلُفُّها الصَّمت. *سوء صحَّتي وجفاف صدري، وقتَ أنجبتُ سليمان، دفعاني إلى بيت أُم جرَّاح المرضعة في آخر السِكَّة.* أشارت شايعة نحو أُم حَدَب تُشهِّدُها:

«أنتِ تذكرين يا صاجَّة! لا علاقة لأم سرور بالأمر!».

«أُم سرور خادمة أُم جرَّاح وتسكن البيت نفسه..».

لم تلتفت الصاجَّة إلى شايعة وهي تُجيب. أردفت مُبرطمة: «..كأني أتذكَّر». تركت قولها مفتوحًا، وصكَّت فخذيها على القِطَّة ثانية. فافتعلت شريفة ارتباكًا إزاء ما يُشبه زلَّة لسانٍ حول أُم سرور. عقدت العجوزُ الحدباء حاجبيها القُطنيَّين بعدما فَرغت من تثبيت ثلاثة أقراطٍ رخيصةٍ صفراء في أُذُن القِطَّة. فمرَّرت عينيها على حلقةٍ

النِّساء من دون أن تلفظ كلمة. وافتعلت شريفة نصف ابتسامةٍ بلا معنى. أخفضت صوتها:

«تكوَّدَ الرُضَّع في بيت أُم جرَّاح.. كان لِزامًا طلب العون من خادمتها أُم سرور..».

رفعت شريفة رأسها تنظرُ إلى شايعة التي جحظت عيناها. استطردت:

«..ولأنكِ لم ترغبي في أن يرضَع ابنك من «عَبدةٍ» -وكلنا عبيد الله- رُبَّما، أقول رُبَّما، لم تخبركِ أُم جرَّاح بأمر أُم سرور».

ارتعشت شفتا أُم سليمان. كفَّت عملها في قِدر العصيدة. وأطلَقت شهقة أردفتها بعبارة:

«أم سرور أرضعت ولدي؟! أنتِ واهمة!».

زمَّت شايعة شفتيها وهي تنظرُ إلى شريفة صامتةً مُضيِّقة عينيها:

«كذَّابة ودنيئة نفس!».

التفتت شايعة إلى أُم حَدَب لعلَّها تضعُ حدًّا لهذا الجدل الخطير. غير أن العجوز كانت غائبة في طقوسها، وهي تمسِكُ المكحلة بكفٍّ والمروَد بالكفِّ الأُخرى، تعضُّ على لِسانِها وتُكحِّل عينيّ القِطَّة الجاحظتين، والقطةُ راضية مستسلمة، مرتخية القوائم فيما يُشبه شللًا بين فخذي الصاجَّة.

كفَّت شريفة عن تحريك مهفَّة السَّعفِ أمام وجهها. فصمتت أساورها وقالت مهوِّنة:

«أُم سليمان! صلِّي على النّبي.. ما صار إلا الخير!..».

تنحنحت قبل أن تُردِف:

«..رأيتُها مرارًا تُلقِمهُ ثديها وأنا مشغولة بمراقبة أُذُنيّ الحُصْني في حضنها..».

وجَّهت إصبعيها إلى عينيها:

«.. رأيتُها بهاتين اللتين سيأكُلُهما الدُّود».

لمعت عيناها وأطبقت شفتَيها بشِدَّة وهي تنظرُ إلى شايعة شزرًا. أردفت هاجسة:

«..أكَلَكِ الدُّود والعقارب السُّود».

كفُّ فضَّة، تحت وسادتها، تتحسَّسُ بأناملها السكِّين لا تزال. هي تؤمن بأن الحديد يحدُّ الشَّر، لا يخترقهُ جنٌّ ولا يمسُّه سِحر. *اِصرف شرًّا تحمله شريفة يا حديد.* ولأن الصَّمت تسيَّد المكان تشجَّعت شريفة تهوِّن على شايعة:

«ما الفرق يا أُم سليمان؟! أُم جرَّاح أو أُم سرور، الأولى ماتت والثانية أخذها أبو جرَّاح مع أبنائه إلى الهند.. ما فرق بيضاء أو سوداء ما دامَ الحليبُ في كلِّ ثديٍ أبيض!».

لم تتمالك شايعة هلعها. *يا ربي عفوك وسترك ورضاك.* خُطِفَ

لونها، تنظرُ إلى كنَّتها التي بدت صفراء واهنة إزاء حوارهما أكثر من وهنها بفعل النِّفاس. وقطعت شريفة صمت نساء الليوان. وراحت تتحدث عن فضل أُم سرور وصلاحها ونقاء سريرتها، وأن الله بارك لها في ثدييها العظيمين، وأنه منحها وجهًا بلون الفحم وقلبًا بلون القُطن. قاطعتها أُم سليمان زائغة العينين تهزُّ ذراعيها:

«أُم سرور.. أُم جرَّاح.. سوداء بيضاء.. لا فرق عندي، لكن اسمعيني يا بنت الحلال!».

تفصَّد العَرق من جسد فضَّة غزيرًا، وغابت عن الوعي مُنحنية على رضيعها الذي انفجر باكيًا تحت صدرها. وتسارعت لها شايعة وأُم البنات، واحدة تحملُ رضيعها والأخرى تُسند رأسها إلى وسادتها. لكن فضَّة بدت في حالٍ غريبة، تشهق ملءَ صدرها بالكاد تلتقط أنفاسها، وتُحرِّك ذراعيها كأنها تغرق. تئنُّ باسم سليمان ولا تدري النِّساءُ بما تُبصره الفتاةُ في إغمائها خيالًا على حافة سَنْبوكٍ بعيد، وتشعرُ بنفسِها غريقة في ظلام البحر الذي غيَّب زوجها، فتتضخَّم في دواخلها صرخة، وتنبلج من بين شفتيها مثل غصَّة. *الحقّ عليّ يا سليمان!*

لكزت شريفة أُمَّ غايب. وتعلَّقت عيون بقية النِّساء بوجه شايعة التي راحت تنثرُ الماء على وجه كنَّتِها وتصفعها صفعاتٍ رفيقة. بعضهنَّ يدري ماذا يعني كلام شريفة، والبعض الآخر يتحرَّى دراية. وأُم حَدَب غائبةٌ في ركنها، تصبُّ ماءً دافئًا في طاستها، وتعجنُ

أوراق شايٍ مطحونة بالحِنَّاء تصنعُ عجينة بُنيَّة داكنة. تحشرج صوتُ أُم سليمان:

«لا مزح في هذه الأمور يا شريفة، رحم الله والديك، مضت سنوات طويلة على إرضاع سليمان.. كنتِ طفلة وربما اختلط عليك الأمر!».

ضربت شريفة صدرها بكفِّها. فرنَّت أساورُها:

«اِختلط علي الأمر؟! أحلفُ على المصحف إن أردتِ».

ارتفع صوت أُم سليمان نافدة الصَّبر:

«لكن أُم سرور مُرضِعة فضَّة!».

امتقعت وجوه النساء وتهلَّل وجه شريفة. فتركت مروحتها في حجرها وضمَّت كفَّيها أسفل ذقنها:

«ما شاء الله! ألم أقُل لكِ أنها صاحبة فضل؟ أُم سرور تُرضع العِجلَ ولا يشِحُّ حليبُها!».

عاودت تُحرِّك المهفَّة أمام وجهها مُبتسِمَة، في حين مسحت شايعة العَرَق عن جبين فضَّة بكفٍّ مرتعشة. *يا ربي رحمتك*. صرخت بِـ شريفة:

«ألا تفهمين يا خبلة؟!».

أردفت تكزُّ على أسنانها:

«يا شريفة إن صَحَّ القول إن أُم سرور أرضعت سليمان وفضَّة..».

تركت جملتها مفتوحة على احتمالٍ واحدٍ لا ثاني له. ومَشَّت أم حَدَب كفَّيها معًا تُزيل عوالق عجينة الحِنَّاء عن جلدها الأبرص. ورفعت كفَّها عاليًا من دون أن تُبعد وجهها عن القِطَّة الدائخة بين فخذيها:

«أخَوَان من الرضاع، ولا رادَّ لأمر الله».

هبَّت ريحٌ رفرفت بفعلها راية القِماط الوسخ في سطح الدَّار، وتبدَّدت رطوبة المكان، وسكتَ الليوان إلا مِن مواء قِطَّة خَليفُوُهْ، وبكاء الرَّضيع، وأنين فضَّة باسم سليمان، ورنين أساور شريفة.

* * *

(10)

غربة الماء

My Arabian Days and Nights

ولمَّا تلاشت أصداءُ دوِّي مدافع القُفَّال في قصر الأمير الحاكم، وارتفعت شمسُ الضُّحى فوق «بيت الزجاج» المطل على البحر. وهبط ظلُّ الصَّليب من الجدار الأبيض إلى الأرض أسفل النَّافذة متقاطعة الإطار، ودخلت مبروكة الحُجرة ترتدي مئزر التَّمريض الأبيض، وفرغت إلينور من قراءة كتابها المقدَّس. وسرى الدَّواء مسرى الدماء في عروق المريضات الثَّلاث على الأسِرَّة ينشر فيها الخدر.

لمَّا مرَّ كلُّ هذا طلبت الطبيبةُ من مريضاتها، أخيرًا، أن يُغمضن ويُصِخن السَّمع ويستشعرن قدومه:

«سوف يمرُّ ابن الرَّب يُشفيكن ويُخلِّصكن من الآلام».

وتحتجبُ الثَّلاث بعباءاتهنَّ ولا يُظهرن من أجسادهنَّ مَغَزَّ إبرة. ويمرُ المُخلِّص أو لا يمر، يتحرَّينَ في إغماضِهنَّ حِسَّه مُقبلًا؛ في رفرفة زرزورٍ خاطفٍ وراء النَّوافذ المُشرعة على زُرقة الخليج.. في صيحة نورسٍ يقود سربًا وراء أسماكٍ عابرة.. في غناء شُيوخ البحر السِّتة

للموج المتمنّع عن ملامسة أطرافهم.. أو في هفهفة السّتائر البيضاء إذا ما أحيَتها نسمةٌ رطيبة. ويقتربُ المساء، ويُثمر الدَّواء، ويخمدُ التهاب النِّساء، فيكشِفنَ وجوههنَّ من وراء العباءات تنظرُ واحدتهنَّ إلى الأخرى. ثُمَّ يتركن الأسِرَّة ناقِهات خفيفاتٍ باسمات، فتجسُّ واحدتهنَّ جبين الأخرى بأصابع غير مرتجفةٍ وقد انطفأت سُخنتها. وتسارعن إلى الطبيبة التي أطبقت كتابها المقدَّس، يشكرنها ويحمدن الله الشَّافي المعافي الذي سخَّرَ الكافرة لشِفاء المسلمات. وانصرفنَ يدعين الله أن يهديها إلى الإسلام، لأن امرأة طيبة مثلها تستحق الجنة لا عذاب النَّار في الآخرة. وتركن ما يشبه الابتسامة على وجهها، وما يشبه اليقين القديم في نفسها، إن مبروكة الأولى، أولى أخيرة.

خرجت الطَّبيبة من المشفى في المساء، فأدارت ظهرها للبحر تُنعم النَّظر في المبنى الحُلُم، مَشفى الرِّجال ذي الطَّابقين. تنتشي في كُلِّ مرَّةٍ تقف فيها أمام الصَّرح الذي سوف يشهدُ أبد الدَّهر على مرورهم من هُنا. وتتذكَّر ما كتبته في مذكِّراتها قبل سِتِّ سنوات، في ليلة من ليالي أكتوبر 1914، بعد افتتاح أوَّل بناءٍ في الدِّيرة يتمرَّدُ على الطِّين، وتقوم أساساته على الحديد وأسمنت پورتلاند الصَّلد:

إن المستشفى نفسه نعمة كبرى، وقد سماه العرب بسبب كثرة النوافذ فيه «بيت الزجاج».

لاعبت نسمات البحرِ ثوبها الواسع والخُصل الفالتة من شعرها المضموم أعلى رأسها. ونقلت بصرها إلى المشفى النِّسائي الجديد

ذي الطَّابق الواحد، تتذَّكر يومًا كادت فيه أن تفقد الأمل في علاج امرأة، لولا مبروكة التي كسَّرَت أقفال العُرفِ وأشرعت باب مشفى الإرسالية على مصراعيه أمام نساء الدِّيرة. فأرسلت إلينور يومها إلى الكنيسةِ البروتستانتية الإصلاحية في مدينة فلاشينغ في نيويورك، تُشهدهم فرحتها الكبيرة برسالةٍ عنونتها بـ «مبروكة الأولى»، رسالة سوف تُنسى في أرشيف مجلَّة الكنيسة الدَّورية «جزيرة العرب المهمَلة» ما يربو على العقود السِّتَّةِ، حتى يهبط كاتب الأسفار أرشيف الإرسالية في قابل العقود، ويتحصَّل على نسخة منها مَصدرًا لكتابة أسفار المدينة.

* * *

جلسَ القِسُّ إدوين كالڤِرلي إلى طاولة مكتبه في بيته اللصيق بالمشفى، في حُجرةٍ يُفتح بابها على نافذةٍ بين مكتبين خشبيين، أحدهما يواجه الحائط الأيمن والآخر يواجه الأيسر. ويبدو المكتبُ الأيمن مُرتَّبًا لا شيء على سطحه إلا آلة كاتبة حديدية سوداء، يلمعُ شعارها الذَّهبي يسارَ حروفٍ إنكليزية خُطَّت على مسند الورق Underwood. وعلى الكرسيِّ الدوَّار للمكتب الأيمن تربضُ القِطَّة السَّوداء السَّمينة مبتورة الذَّيل، وقد أتمت عامها الخامس في بيت القِس.

النافذة بين المكتبين موصدةٌ ومُسدلةُ السِّتارة على غير المألوف. يهبطُ من السَّقفِ حبلٌ دقيقٌ يتدلَّى منه سراجٌ شحيح. وقد انحنى

القِسُّ متين البِنية طفولي الوجه على رزمة أوراقٍ على سطح المكتب الأيسر، مُطرِقًا برأسٍ كستنائي الشَّعر موخوط بشيبٍ خفيف. وانكبَّ يكتب الملاحظات في أوراقه، ويرسمُ خُطوطًا ودوائر أسفل السُّطور في المعاجم المحيطة بمجلدٍ صغيرٍ خُطَّ على غلافه بالعربية: «تحذير المسلمين من اِتِّباع غير سبيل المؤمنين»، للعالم الجليل والكامل النبيل الشيخ عبدالعزيز بن أحمد الرشيد البداح الكويتي الحنبلي السلفي فسح الله في مدته ووفقه لخدمة دينه وقومه ومِلَّتِه.

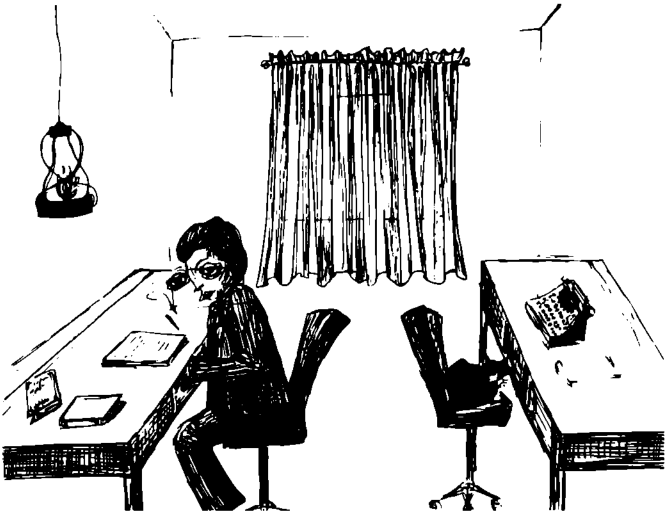

فتحت إلينور الباب بعد طرقاتٍ خفيفة، وأقبلت بزي المشفى:

«مساء الخـــــ...».

قطعت تحيَّتها وهي تُشير إلى النَّافذة المغلقة أمامها. ونطَّت إليها مبروكة تعبر بين ساقيها وتتمسَّح بهما. فسارع إدوين يشرح:

«زارنا الميجور مور هذا الصباح، ودعانا إلى العشاء يوم الثلاثاء بعد المقبل. قابلته في مكتب الدكتور ميلْريا وتحدَّثنا كثيرًا..».

ما زالت إلينور واقفة صامتة تُشير إلى النَّافذة المغلقة على غير عادة. استطرد إدوين:

«..ومن بين الأحاديث مع الوكيل تلقيت منه نصيحة بعدم الكتابة أمام النَّافذة. يقولُ إن الشَّيخ سالم قد يرتاب إذا ما أوصل إليه النَّاس أننا نكتب كُلَّ ليلة».

«إدوين!».

حملت إلينور قِطَّتها، واقتعدت الكرسي الدَّوار تواجه زوجها:

«أنت تترجم كتبًا عربية وأنا أكتب يومياتي. أين ما يزعج الشَّيخ سالم؟ ثُمَّ من يجرؤ على إيصال الأمر إليه؟ وبماذا يُجيب إذا ما سأله الشَّيخ كيف علمتَ بالأمر؟ أيجيب أنه اخترق حرمة البيوت من نوافذها؟».

ابتسم إدوين ومدَّ كفَّه صوبَ النَّافذة مستسلمًا:

«افتحيها».

«ما أسهلك إدوين! أنت سريع الاقتناع!».

قالت إلينور ضاحكة وهي تستدير بمقعدها إلى الآلة الكاتبة في مواجهة الجدار. وتركت القِطَّة عند قدميها وفتحت درج المكتب. أزاحت قنينة زجاجية ذات غطاءٍ فضِّي من فوق مفكرة المواعيد.

وأخرجت المفكرة وسجَّلَت في سطر الثُّلاثاء الخامس من أكتوبر 1920: «عشاء الوكيل البريطاني، أنا وإدوين وستانلي ميلْريا». وأطبقت المفكرة وأودعهتا ثانية تحت القنينة الزُّجاجية في الدُّرج الخشبي، فألقمت الآلة الكاتبة ورقةً ثُمَّ أدارت المقبض وراحت تعزفُ على الأزرار المستديرة:

My..

استدارَ إدوين بمقعده على صوت النَّقرة الثَّانية على أزرار الآلة الكاتبة. يشاهد ظهرَ زوجته التي ما زالت بلباس المشفَى تُسابق الحروف:

..Arabian Days and Nights

نهضَ وطوَّقها بذراعيه من ورائها فلثمَ رأسها:

«إلينور! هل أنتِ بخير؟ أنت تكتبين قبل العشاء».

«لا تقلق بشأني إدوين.. تعشَّ أنت والأميرات الثَّلاث».

رفع القِسُّ السِّتارة وفتح النَّافذة على ظلام السِّكَّة قبل أن يترك زوجته تواصل الكتابة بمفردها. ونطَّت مبروكة تقف على دكَّة النَّافذة المفتوحة تتشمَّم إطارها الخشبي، ثُمَّ ألصقت صدرها بالدكَّة تُباعد قائمتيها الخلفيتين وترفعُ منبِتَ ذيلها المقطوع.

ضحكت إلينور على مبروكة التي على غير مألوف طبعها لم تكترث لصوت أزرار الآلةِ الكاتبة. نطَّت من دكَّةِ النَّافذةِ إلى ظلمةِ

السَّاحةِ أمام بيت الطبيبين في أرض الإرسالية. وأدارت إلينور مقبضَ الآلةِ تهبطُ سطرًا، فداعبت الأزرار:

«نهاية موسم الغوص وعودة المراكب الشراعية»

سمعنا صباح اليوم إطلاق المدافع فى القصر، وغدا على الأرجح يعود الغواصون وتحتفل البلدة. لم أخرج من المستشفى إلا فى الليل بعد علاج ثلاث نساء محمومات جئن فى باكر الصباح. بدويتان مبرقعتان جاءتا من الصحراء برفقة زوجيهما اللذين رابطا طيلة الوقت فى ساحة المستشفى مع جمليهما. وثالثتهما امرأة من البلدة، جميلة تزين ذقنها بوشم، وغطاء رأسها بالكاد يحجب شعرها البنى. تتحدث بصوت عالٍ بخلاف طبيعة النساء هنا. وعرفت السبب لاحقا عندما أخبرتنى مبروكة أن المرأة الثلاثينية واحدة من نساء منطقة الرميلة ذات البيوت المشبوهة فى حى المرقاب. وتقول مبروكة إن سركيس الأرمنى العامل فى الإرسالية يعرف المرأة وقد شاهدها أكثر من مرة فى واحدة مما يسمونه «الحوطة» وراء المقبرة القديمة، وهى امرأة من مجموعة نساء يطلق عليهن اسم «بنات حمدية»، ولا أعرف فى الحقيقة من تكون حمدية ولا يهمنى الأمر، لأن ما يهمنى هو أمر سركيس.

كلنا فى الإرسالية يعلم بأمر إدمان العامل الأرمنى تعاطى الكحول منذ هجرته القسطنطينية هربا من العثمانيين. وكلنا يتعاطف معه ويشفق عليه خصوصا عندما ترتفع أنغام آلته الموسيقية –تلك التى تشبه المزمار– فى حجرته فى سكن الممرضين. واحتملنا مشاكله الكثيرة مع إدمانه، وقد أدخلنا مؤخرا فى مشاكل مع المصلين فى المسجد القريب،

حيث يجلس على كرسي أمام باب المستشفى كلما سكر، يحيي المصلين الخارجين من المسجد قبل شروق الشمس، ويدعو لهم بالبركة.

لكن مسألة ارتياده الحوطات يجب أن يوضع لها حد. وسألت مبروكة إن كانت متأكدة من كلامها، فقالت لتقنعني بكثرة تردد سركيس على الحوطة: إن حبله السري مدفون هناك. وهي عبارة تشبه المثل عن كثرة تردد المرء على مكان محدد، لأن بعض الأهالي -رغم تحريم شيوخ الدين- يدفن حبال السرة للمواليد في ساحات المساجد اعتقادا بأن الإنسان يتردد على مكان دفن حبله السري، وإذا ما عرف عن الرجل تردده على المسجد ينال تسمية «حمامة مسجد»، أو «مدفون سره في مسجد»، نعتان من شأنهما أن يمنحا حاملهما ثقة مطلقة، لا سيما في الزواج، حتى صارت أحواش مساجد البلدة مقابر للحبال السرية[1].

أبلغت مشرف الإرسالية الدكتور ميلريا بشأن سركيس على الفور ليتصرف بحزم على عادته، لكنه استخف بالأمر. ضحك وقال:

- يبدو أن الحوطة تجمع ما يفرقه المسجد والكنيسة والكنيس!

ثم ربت على كتفي قبل أن ينصرف:

- سأهتم بالأمر.

---

(1) هذه مبالغة فجة سببها المثل الشعبي: «مدفون سره في المسجد، أو في البلد الفلاني» للدلالة على كثرة زيارة الرجل إلى مكان محدد، ولا يصل الأمر إلى حد تصديق الناس ودفن الحبال السرية في المساجد أو في غيرها. (محرر وزارة الإعلام).

ارتفع مواءٌ وراء النَّافذةِ دفع إلينور إلى ترك مقعدها والآلة الكاتبة لتطلَّ بنصف جسدها على الخارج. ألفَت مبروكةً في غبش اللَّيل تحت قمر الأسبوع الأوَّل من محرَّم، تموءُ تحت قِطٍّ أسود قرب شجرة سِدر. [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 138 / 1990]. وأبصرت إلينور خيالَ رجلٍ مُلثَّمٍ يقف غير بعيدٍ عن القِطتين السَّوداوين؛ ليل ومبروكة. فصاحت باسمة:

«خليفة وبَس؟!».

سارع يُميط اللِّثام عن وجهه الأملس:

«إنه الشوق يا خاتون حليمة».

اعتادت إلينور زيارات الفتى صاحب القِطَط بين حينٍ وحين، يجيء بقِطِّه الأسود العجوز للقاء قِطَّتِها السَّمينة مبتورة الذَّيل. ولطالما أبدت عدم فهمها للشاب لماذا أهداها القِطَّة قبل سنواتٍ خمس، وزوجها لا يقوى على فراقها! ولن تعرف الطَّبيبة السِّرَّ أبدًا. ضحكت إلينور وقالت لـ خَليفُوهْ:

«لا تنسَ! سوف تعتني أنت بالصِّغار إذا ما حملَت مبروكة!».

ضحك الشاب وأخبرها أن مبروكة عجوز متصابية لا يمكن أن تحبَل، ثُمَّ انحنى على قِطِّه الهَرِم يحمله بين ذراعيه بعدما فرغ من سبب الزِّيارة الليلية. ونطَّت مبروكة تلجُ حُجرة المكتبين ثانية، راضيةً وادعة، فمالت إلينور بجذعها خارج النَّافذة وارتفقت على دكَّتها تُجيل النَّظر إلى خَليفُوهْ:

«متى تزور الجزيرة؟».

«غدًا إن شاء الله.. هل توصين بشيء من هُناك؟».

طلبت منه الانتظار ريثما تعود. واختفت وراء النَّافذة ثواني، وعادت تطلُّ على السَّاحة المظلمة، وألفته قريبًا من النَّافذة يحمل قِطَّه الأسود وقد أحكم لفَّ لِثامِه على وجهه. مدَّت إلينور يدها إلى صاحِب القِطَط بزجاجة الدَّواء ذات الغِطاء الفضِّي، وقبل أن تفوه بكلمة سارع خَليفُوُهْ يقول:

«ماي غريب!».

استغربت إلينور اللفظ المُحرَّف لاسم الدَّواء Gripe Water. نظرت إلى مُربِّي القِطَط صامتة. ***هو ماءٌ غريبٌ لا شك على بلدةٍ كل ماءٍ فيها غريب إلا ماء البحر***. هزَّت رأسها تدفعه ليواصل، فأخبرها خَليفُوُهْ أن أُم صَنْقُور تداوي الأطفال -لعنهم الله- بهذا الشيء الذي تُسميه «ماي غريب». لا تدري الطبيبة لِمَ يلعن الشَّاب الأطفال، ولم تهتم، فطلبت منه أن يجيء لها بزجاجة مثلها، وأن يسأل صاجَّة الجزيرة من أين تبتاع هذه الزُّجاجات. ثُمَّ تداركت توصيه مبتسمة:

«ليس ضروريًّا أن تخبر الصاجَّة أن الزَّجاجة لي».

«أنا لا أكذب على الصاجَّات يا خاتون.. ولا أنوي في يوم أن أصير فأرًا!».

انطفأت ابتسامة إلينور ولا تدري ما شأن الفأر بالأمر، وأومأت برأسها إلى الشَّاب تودِّعه نادمة على طلبها الأخير. وجلست إلى

مكتبها الخشبي ثانية. فأعادت زجاجة الدَّواء إلى درج المكتب وعاودت الكتابة:

..طلبت مريضة المدينة حقنةَ (أم ثلاثة) كما يسمونها، أي ثلاث روبيات تمييزا عن الحقنة الأخرى الأقل تكلفة وتركيزا والتي يسمونها (أم اثنتين) أي روبيتين. ولأن المريضة عالية الصوت شعرت بوخزة الإبرة ولم تشعر بحرقة الدواء اعترضت قائلة إن مبروكة غشتها بالدواء وحقنتها بالماء. قالت إنها تريد أن تشعر بالوجع، وكررت كلمة وجع ثلاث مرات:

- أريد أن أحس بالوجع الوجع الوجع.

وارتفع صوتها أكثر تهدد بأنها ستخبر الأهالي أننا نغش في الدواء، وهذا ما أربكني ودفعني للاستنجاد بالدكتور ميلريا ثانية رغم انزعاجه وعدم تفضيله التعامل مع النساء في البلدة لكثرة المواقف السخيفة التي مر بها حسبما يقول. بدا على وجهه الغضب وهو يجيب:

- **كم أكره أن أعالج النساء.**

وانطلق يتذمر على عادته ساخرا من العباءة والملفع، لكن بصوت منخفض:

- لا أريد أن أقترب من امرأة! **أقترب من هذه الكتلة الملفوفة بالسواد وأقول: نعم يا أختي، بماذا أقدر أن أساعدك؟ فتكون كل إجاباتها أن تمد لي يدا ملفوفة بطرف العباءة السوداء ولا تزال ماسكة بالطرف الآخر حتى لا يسقط وتطلب مني أن أجس نبضها. أحتج على هذا التصرف وأحاول أن أفهمها بأني يجب أن**

أفحصها تماما حتى أقدر أن أساعدها على الشفاء فيكون أقصى ما تصل إليه من التساهل أن تشق ثقبا في الملفع تمد لى منه لسانها.

ضحكت رغم ارتباكي. فرجوته أن يتدخل هذه المرة لأن المرأة لا تحترم العباءة والملفع ولا ترتديهما مثل بقية النساء، واستعجلته فتبعني إلى عيادة النساء، وتراجع ستانلي عن كلماته المتبرمة فور ما وصل إلى غرفة المريضات ورأى المرأة. تعرف إليها على الفور وهي -على عكس نساء البلدة في العادة- كاشفة وجهها عن وشم ينحدر عموديا من أسفل شفتها إلى رقبتها ويختفي في ياقة نفنوفها. تنظر في وجه الدكتور ميلريا دونما حمرة خجل.

- هذه بهيجة!

قال مشرف الإرسالية وهو يقف عند الباب، وأمر مبروكة بالإنجليزية -كي لا تفهمه عالية الصوت بهيجة- أن تحقن المريضة بمزيج ماء وملح مركز، وعندما استغربت الممرضة الأمر قال كي تشعر بالألم الذي تريد، ثم أن الماء بالملح لن يضر بصحة المريضة غير شعور عابر بالحرقة كما ترغب. وإنها أخذت الدواء بالفعل قبل ذلك، وإنه لن يساوم على سمعة المستشفى بعد سنوات من العمل على كسب ثقة الأهالي لتأتي بهيجة وتشيع أنهم يغشون في الدواء. «هذه المرأة غريبة أطوار»، قال ميلريا، وأخبرني أنه أجرى لها عملية أثناء إجازتي قبل أكثر من سنة، وأعاد فكها السفلي إلى مكانه بعدما خلعه أحدهم بلطمة أو لكمة أطاحت بها في مستشفى الإرسالية أسبوعين.

ومن وراء الستار في زاوية الغرفة خرجت بهيجة تعرج وتفرك

موضع الحقنة الحراقة. «نعم، هذه هى الإبرة أم ثلاثة»، قالت قانعة مبتسمة رغم دلالات الألم التى بدت على وجهها. لم أستغرب شعورها بالرضا، فقد عرفت أكثر الناس هنا لا يؤمن بالشفاء دونما ألم، لأنهم اعتادوا ربما علاج الألم بالألم، إذا ما اعتبرنا الكى علاجا يصرف المريض عن ألم المرض الذى تسببه عيون الناس الحاسدة، فينشغل المصاب بالتهاب الحرق فى جسده عن آلام مرضه. ربما لا أكون على صواب فى رأيى، ولكن الأكيد أن ذات الذقن الموشوم كانت منتشية بالألم على نحو غريب.

تناوبنا أثناء العلاج، أنا ومبروكة، نقرأ على المريضات بالعربية **بعض المقاطع من الكتاب المقدس ونصلى ونسأل الله أن يبارك المريضات والدواء ويوفقنا فى معالجة من يقصدنا.** وفى آخر الوردية المسائية **قرأت فصل «الراعى الصالح» من إنجيل يوحنا، وبعد قليل وقفت** بهيجة التى اتهمتنا بحقنها بالماء **قبل انصرافها لتقول لى: حين جئت إلى هنا كنت أشعر بالهم يسحق قلبى، ولكنى أشعر الآن بالارتياح. جزاك الله كل خير.**

مازالت مبروكة قليلة الكلام، مترددة بشأن لقاء حبيبها السرى، الحبيب المجهول الذى اشترط عليها الاختيار بينه وبين العمل فى مستشفى الكفار كما يقول. هى لا تدرى كم يحزننى حالها، كما تؤلمنى إلى اليوم نظرة البعض **إلىّ ككافرة لا تؤمن بالله** لو أنهم يعلمون أنى **ما جئت الكويت إلا بأمر الله وبإرادته.**

سوف تلتقى مبروكة حبيبها بعد غد الأربعاء عند صخرة الساحل السوداء، لقاء قد يكون الأخير، يقرران فيه استمرار العلاقة أو إنهائها. ومبروكة حتى الآن لم تخبرنى بقرارها، وأنا لا أريد أن أسأل.

* ملاحظة ١:

زارنا قبل قليل، حوالي الثامنة والنصف مساء، «خليفة وبس» على عادته مع قطه الأسود. تعرف إلى زجاجة الدواء على الفور حينما سألته عنها، وقال إنه سوف يطلب لي زجاجة جديدة من عرافة الجزيرة.

* ملاحظة ٢:

تواترت أخبار غير أكيدة أن الشيخ سالم أرسل يوم أمس فارسا إلى الجهراء يأمر المقاتلين بالاستعداد لغارة محتملة.

Eleanor J. T. Calverley
Monday, September 20, 1920
8:45 PM

مكتبة
t.me/soramnqraa

(11)

فِتنَةُ الليلَةِ الأخيرة

«شَبَقٌ على شَفَا السَّنْبوك»

«شي عجيب غريب والله سليمان سليمان يا نوخِذا يصرخ وينازع البحَّارة يريد إلقاء نفسِه في البحر وأغلب الظن أنه الخبيث أعوذ بالله من شرِّه بُوُدَرْياهْ يناديه ولا أحد غيره والمسكين سليمان يحسب أن زوجته تناديه يقف على حافَّة السَّنبوك ربِّي كما خلقتني يُرافس ويخورُ خوار العِجل الذَّبيح والله يا الله إنك الملجا والمنجا ولا غيرك قُم يا نوخِذا افعل شيئًا بالله عليك وإلا ألقى الفتى بنفسِه في الماء يُعيد فعلَ منصور الغيص العام الماضي و..».

صرخ النُّوخِذا الذي أفاق من نومِه فَزِعًا ساعة السَّحَر:

«بَس!».

بُهِتَ الهذَّار. وتخشَّبَ مُبحلِقًا إلى النُّوخِذا وغترته حول رأسِه يلُفُّها مثل ملفعِ امرأة. كوَّر شفتيه أسفلَ شارِبِه الكث العريض، وراح يُصفِّر حينًا ويتلو من القرآن حينًا. ثُمَّ نهضَ بِن حامد واقفًا أسفل سقيفةِ السُّدَّة في مؤخرة السَّنْبوك، وتلفَّتَ مُرتبكًا إلى تزاحم

الرِّجال وضجيجهم المفاجئ. ورفع رأسه ينظرُ إلى الأعلى حيث نهقت لَوْهَةٌ فوق إحدى الصَّاريتين.

وتلوَّى سليمان على طرفِ السَّنبوك الأيسر عاريًا كما ولدته شايعة، يصرخُ مناديًا فضَّة. يقِفُ على إزارِه المكوَّم تحتَ قدمَيه، ويحيطُ به الرِّجالُ بوجوهٍ ورَّمَها النَّوم، ورؤوس طأطأها الخجلُ إزاء كشفِ سليمان اسم زوجتِه في العلَن، مقرونًا بفعلِه البذيء.

ضجَّ رأسه بصوت فضة. وفشل الفتى في طرد صور وأصوات ليلتِه الأولى في نوبة جنونه؛ تمنُّع الصبيَّة وحلاوة حيائها، خوفها، بكاؤها وتعفُّفها، وكلُّ فعلٍ ينأى بها عن صورة المرأة البارع[1] قليلة الحياء التي يبغضُها الرَّجل في زوجاتِه، ويتوقُ إليها في غَيرهنَّ. كان على فضَّة، شأن كُلِّ النِّساء، تصَنُّع كُره الفِعل ونفسها تهفو إليه رغبةً تتستَّر بألحُفٍ من حياء، فيما يُشبه اختبار قبول، وكان تمنُّعها وخوفها وخجلها مدعاة جنونه ليلته تلك.. وهذه الليلة.

تعالت صرخات سليمان حيوانيةً وحشيةً قرب حافَّة السَّنْبوك، وأطبق جفنيه متوجِّعًا وقد مسَّه الضُّر الذي يخشاه البحَّارة. يُشاهد في رأسِه خيال فضَّة بدهشتِه الأولى، مصبوغة الشَّفتين بلحاء شجرة الجوز، مخضوبة الكفَّين بالحِنَّاء، ورطوبة العَرق تُلصق خُصلات شعرها الليلي بوجنتَيها. يسحُّ العَرقُ من عُنقها الطَّويل نزولًا إلى ثمرتَيّ الرُّمَّان في صدرها، ويتنسَّم خليطَ عطورها؛ دهن العُودِ في

(1) بارع: البارع في اللهجة الدَّارجة؛ الخبيرة التي لا تستحي. (محرر وزارة الإعلام).

كفَّيها، نفحُ الحِنَّاء والزَّعفران في شعرِها المفروق في منتصفِه، أريجُ البخور في ثوبها الشَّفيف المطرَّز بذهبي وفضي الخيوط، عطرُ المسك والعنبر في جيدِها، وفوحُ نبتة المشموم وراء أُذُنَيها، وطعمُ الهال والقرنفل في ثغرها، والعرق الحامض الذي ينضحه الجسدان.

يطأُ حافَّة الخشبة بقدمِه وهو يتلوَّى بين أيدي البحَّارة كالمصروع. عيناه على الماء لا تُبصران إلا صورًا تومضُ في رأسِه بين النُّجوم. تتوهَّجُ مشاهد الليلة الأولى في ظلمة إغماضتِه؛ بَتولان وظلالٌ مرتعشة على الجدران، همسٌ وأنينٌ ولهاثٌ وصريرُ خشب، وجسدان يسفحان العرق والدَّم والماء.

كاد أن يقفز من السَّنْبوك وراء الصَّوت، لولا حيلولة البحَّارة دونه ودون مصير منصور الغَيص الموسم الماضي، في حين وقفَ النُّوخِذا بِن حامد غير بعيدٍ يضُمُّ ساعديه إلى صدره، يُحَدِّقُ صامتًا إلى العَم سَنَد. *هذا ما كنت أخشاه يا شيخ البحَّارة.. سامحك الله.*

وافتعلَ شيخُ البحَّارةِ ثباتًا، ينادي أحدَهُم أن يناوله سراجًا، ووقفَ على أطراف أصابعه يُمشِّطُ البحر حول السَّنْبوك بنظرِه. يصيحُ بالجموع، يدهمه قلق انتقال عدوى السُّعار إلى رجال السَّفينة:

«سدُّوا أُذُنيه واربطوه إلى الدَّقَل!».

شدَّ رجالُ السَّنبوكِ سليمان بالحبال الخشنة، وقيَّدوه إلى الصَّاري الخشبي عاريًا، وأطبق عَزُّوز الهذَّار كفَّيه على أُذُنَيّ الحُصْني، وردَّد البحَّارةُ ذِكر الله ورسولِه يحثُّون الشَّاب على ترديد الصَّلوات معهم،

وهو مُطبق الأُذُنين غائبٌ في نوبةٍ سعارٍ وحشيةٍ لا تُصيب إلا من خصَّه الخبيثُ بنداء. وتعالت صيحةُ اللَّوْهَةِ ثانية فوق الصَّاري، فصفقت جناحيها الكبيرين وحلَّقت في الظلام صوبَ الدِّيرة. وتسارع الرِّجال يسترون عورة سليمان بإزاره، وتحت قدميه يتمايلُ السَّنبوك بفعل ركض بحَّارتِه.

يصيحُ العَم سَنَد:

«النهَّام.. أين عبدالله النهَّام؟».

أبعد الهذَّارُ كفَّيه عن أُذُنيّ سليمان حينما تقدَّم مُغَنِّي السَّفينة الأعمى مهرولًا إلى الصَّاري الكبير وَجلًا. يدفعه البحَّارة:

«اِنهَم اِنهَم».

ينفخُ النهَّامُ الشَّاب صدرَه. يُلصِق كفَّه بأُذنه، ويُغمِضُ عينيه. فينسلُّ صوته يخالِطُ بحَّةً شفيفةً وهو يَنهَمُ نِهمَةً[1] تستقرُّ في نفوس البحَّارة قبل آذانِهم. يجرُّ بصوتِه انتباه سليمان عن نداءاتٍ لا يسمعها سواه، فيوجدُ النهَّام سببًا لنزول النُّجوم في نِهمَتِه غير مجيء بُودَرْياه:

---

(1) نِهمة: ضرب من فنون الغناء البحري يؤديه «نهَّام» السَّفينة. (محرر وزارة الإعلام).

لو بَشتكي ما في قلبي على النجوم.. نزلتْ..

يطأطئ سليمان، وقد هدأت أنفاسُه وتباطأ وجيبُ قلبه. يُبحلِقُ إلى النُّجومِ الطَّافية على صفحة الماء. ولا يدري كيف فرَّت من رأسِه الآية الكريمة ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾، فضلَّ سليمان وغوى وكاد يتبع النِّداء، وهو الذي بالقرآن الكريم ما انفكَّ يُحصِّن نفسه ويُبعد عنها الشُّرور. وردَّ البحَّارة أجمعون على النهَّام بنغمةٍ تُحاكي هديرَ موجة: «هيــــــه». فواصلَ مُغنِّي السَّفينة النِّهمة الشَّجية:

وسبع السَّموات مِن جور الزمان.. نزلتْ..

وصْعود الجبال من بعد الرفاع.. نزلتْ..

لو بَشتكي..

أعوذُ بالله من الخبيث وفتنته. حدَّث شيخُ البحَّارة نفسه قبل أن يصيح على البحَّارة المتجمّعين حول سليمان:

«فكُّوا رباطه».

حرَّره الرجالُ ثُمَّ انفضُّوا من حوله، وأعينهم على النُّجوم الطَّافية على صفحة الماء المظلمة. ونترَ العَم سَنَد سليمان من كتفه، وصاح عليه أن ينقلعَ إلى الخُنّ أسفل السَّفينة، وهو يتبع الفتى مادًّا سراجه إلى الأمام.

تربَّع سليمان على أرضِ الخُنِّ مُطأطئًا، بين الحبال والشِّباك في حُجرة الخشب الرَّطبة، يُكوِّمُ إزاره على موضع عورتِه، والعرقُ ينزُّ

من جسده غزيرًا. أطالَ العَم سَنَد نظره إلى سليمان، رافعًا سراجه أمامه، من دون أن يفوه بكلِمةٍ عدا:

«ليش يا كلب؟!».

فأولى ظهره للفتى وهو يهزُّ رأسه مُتحسِّرًا. فارتقى الدَّرجات الخشبية خارجًا من الخُنّ.

أسندَ سليمان جبينه إلى كفَّيه، وشعورٌ بالخزي يتملَّكه بسبب فعله المشين، مقرونًا باسمِ زوجته الذي انتشر بين رجال السَّنبوك انتشار الأدخنة في سوق البخور. يتخيَّلُ عَزُّوزَ الهَذَّار يطوفُ في سِكَك الدِّيرة يُفشي ما شاهده مُلصقًا باسمِ فضَّة. دسَّ كفَّه في إزارِه المتكوِّم بين فخذيه. لمسَ ذلك الشِّيء الصَّغير الصلب البارد فتذكَّر زوجته التي ما نسيها ساعة. تذكَّرها تمدُّ يديها مطوِّقةً معصميها بأساور ذهبية مطعَّمة بالشَّذر الفيروزي، وأصابعها الدَّقيقة منقوشة بالحِنَّاء، ساعةَ شكَّت دبُّوسَ مِشبَكٍ في حاشية الإزار قبل دخولِه البحر بسويعات:

«حديد.. يحُدُّ الشَّر».

قال لها إن هذا حرام، لكنها قالت ما تقوله أُم حَدَب من سورة الحديد في القرآن الكريم: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾. فدبَّ نملُ وجهه. وصمَت.

ضمَّ ساقيه إلى صدرِه في ظلمة الخُن يُطبق كفًّا على المشبك البارد. ويتحسَّسُ بالكفِّ الأُخرى الحبال تحته، فلا يجدُ في خشونتها

ملمسَ جديلتيّ فضّة، ولا في رائحة زفر الخُن عطر شعرها وثيابها. *فضّة. فضّة. فضّة*. أسندَ حنكه إلى ركبتيه. وراح يُكرِّر الاسمَ وطيفُ ابتسامةٍ على وجهه، كما لو أن للاسمِ مذاقًا حُلوًا يُبدِّد ملوحة الدَّمع على شفتيه. *كذوب من يقول إني فقدت عقلي اشتهاءً. كذوب من قال إني قاربت اللُّخمة.. كذوب يؤلف القصص.. كذوب ولو كان من يكون، فأنا والله ما فعلت الذي فعلت إلا بأمر ما سمعت*. طردَ كُلَّ خيالاتِه المجنونة كمن يُكفِّر عن ذنب. *أنا والله ما أذنبت!* وتاقَ إلى سماع صوتِ بديعة الجمال فضَّة وهو يتحسَّس تعويذتها الحديدية في حاشية إزارِه. *ظنُّوا بي السُّوء وأنا والله ما فعلتُ الذي فعلت لولا أني غفوت فحلمت بك.. أما إزاري فأوقعه الذي أوقع قلبي، حينما سمعتُ صوتك في غفوتي بالكاد تصرخين وفي فمك ماء: الحقْ عليّ يا سليمان!*

تنبَّه إلى غناء النهَّام ينسلُّ إليه من الأعلى:

إنَّ الأمورَ التي باللوحِ قد كُتبت
إما أتتك أو أنتَ آتيها

غارت رقبتُه بين كتفيه، ينصتُ إلى كلماتِ الأغنية التي وقَرت في نفسِه. وبحلق إلى الأرضِ المظلمة ساهِمًا يُصيخ السَّمع إلى صوت النهَّام الشَّجي.

«هيـــهْ». جاوَب البحَّارةُ النهَّام في السَّطح، قبل أن يُسندَ النهَّام كفَّيه إلى خَدَّيه، يواصلُ غناءه:

إن الأمورَ التي تخشى عواقِبَها
من السَّلامةِ ترك ما فيها

انبجسَ الألمُ باردًا كأنه سيف في خاصرة سليمان. *إي والله سيف في خاصرتي.*

رفعَ النهَّام صوته بأذان الفجرِ ما إن فرغَ من غنائه الذي استمرَّ طول اللَّيل. واصطفَّ الرِّجالُ السَّهارى يُصلون على ظهر الخشبة، يؤمُّهُم بِن حامد. كُلُّ الرِّجالِ إلا سليمان الذي تخلَّف عنهم في خُنِّ السَّنبوك. بقيَ ساكِنًا في الأسفل مُجلَّلًا بالخوف والعار. وردَّدَ المصلُّون وراء النُّوخِذا: آمين، إلا شيخ البحَّارة ساهيًا في صلاته.

ولمَّا بزغَ نورُ الشَّمسِ تقدَّم العَم سَنَد نحو سُدَّة النُّوخِذا في المؤخرة، تحت سقيفة العريش. يحكُّ ذقنه الحليق، يطوِّقه شعورٌ بالحَرَج:

«يا نوخِذا..».

تلكأ شيخُ البحَّارة قبل أن يُتم:

«..أحسبُ أنك تنوي قولَ شيءٍ.. وشيءٌ يصدُّك».

قرقرت نارجيلة بِن حامد طويلًا. ثُمَّ قال صاحبها المتجهِّم دونما التفاتٍ إلى شيخ البحَّارة:

«أمضيتُ عمري نوخِذا يا بِن هولين. حادثة منصور الغَيص الموسم الماضي، وما حلَّ بِـ سليمان اليوم.. هذا كثير على صيتِ بحَّارتي.. غدًا يتداولُ أهلُ الدِّيرة..».

ربَّتَ شيخُ البحَّارة على كتِف بِن حامد، يُقاطعه بأدب:

«بحَّارتك أهل صلاح، طاعة وعبادة..».

تغضَّن جلدُ الشَّيخُ حول عينيه وشفتيه وهو يستطرد يبتسِمُ مُهوِّنًا:

«..ثُمَّ إن ما جرى لِـ سليمان، من بين كُلِّ هذا الخشب، لا شيء.. ضرطة في سوق الصفَّارين».

قرقرت النَّارجيلة ثانية ولم يفُه النُّوخِذا بكلمة، فتدارك العم سَنَد:

«.. لك الحِشمة والكرامة يا بِن حامد».

أطلق النُّوخِذا بِن حامد زفرةً حرَّى:

«لم أدخل البحر بالحامِدي إلا موسمين، الحول الذي فات وهذا الحول، وكلاهما منحوس يا بِن هولين، ولو أني أُصدِّق خرابيط الصاجَّات.. لآمنتُ أن عاقرًا عبَرَت بيصَ هذا السَّنْبوك وقتَ بنائه..».

«صلِّ على النَّبي يا نوخِذا..».

نهَضَ النُّوخِذا واقفًا يُضيِّق عينيه صوبَ شيء بعيدٍ في الأفق مع طلوع الشَّمس. وأشار بيدِه إلى شيخِ البحَّارة أن يصمت. فالتفتَ العَم سَنَد إلى مرمى بصر بِن حامد، وأبصرَ سفينة أمير الغَوص الكبيرة، خاطفة بين السُّفُن، ويقفُ في صدرها السِّردال بِن رومي

يُلوِّح للبحَّارة في المراكب والسُّفن حول المغاصات، ويُشير بذراعه شمالًا صوبَ ساحل جليعة، ويُدوِّي مدفعُ سفينته إيذانًا بتلقي أمرِ الأمير الحاكم وبدء موسم القُفَّال.

«دَوَّى مدفعُ الأمير.. الحمدلله».

ردَّدَ البحَّارة التَّهاني يزفُّون البشارة بعضهم لبعض، كأنما لم يُعكِّر سليمان صفوَ صُبحهم قبل سويعة. تطفحُ على وجوههم سعادةٌ لم تتسلَّل إلى وجه النُّوخِذا المكدود. ارتفعَ صوتُ بحَّار له جديلتان طويلتان، يطأ حافة السَّنْبوك، يُنشد أُهزوجة الخلاص باسِمَ الوجه:

يا هَنَا مَن فارَقَ السَّنْبوك

وشاف الغَنَم والبعاريني

تسعين ليلة وأنا مملوك

كأني من السُّوق شاريني

صاحَ النُّوخِذا بِن حامد يُصدر أوامره إلى رجل الدَّفة، وصاح على الرِّجال أن ينشروا الشِّراع للإبحار وراء أمير الغَوص إلى ساحل جليعة، لتكتمل أعداد الخشب هُناك قبل أن يقودهم الأمير إلى أسياف الدِّيرة. واقترب النُّوخِذا من شيخ البحَّارة سَنَد بعدما وجَّه بحَّارته. وحدَّثه عن سليمان وهو يتذكَّر منصورَ الغَيص:

«يشهد الله أنه بحارٌ صلب، شديد العودِ طويل التبَّة، ولكني لا أرغبُ بتنكيس راية السَّنبوك ثانية يا بن هولين، وليس لي

قلبٌ يحتملُ تسليم أُمِّه مطويةَ أغراضِه، ولا أرغب في مصادرة بيته المرهون إذا ما أصابه سوءٌ ومات في البحر، وليس في بيته إلا امرأتان.. والأهم من كل هذا وذاك أني لا أريد أن أتعرض لحرج جديد أمام الشَّيخ سالم بعد خرافة العباءة التي أحرجتمونا بها الموسم الماضي..».

هزَّ العَم سَنَد رأسه عاقِدًا حاجبيه يدفعُ النُّوخِذا ليُتِمَّ حديثه. تنحنح بِن حامِد قبل أن يقول:

«..إن كتبَ الله لنا عُمرًا في الموسم المقبل يا بن هولين؛ لا مكان له على ظهر سَنْبوكي!».

أطالَ شيخُ البحَّارة النظرَ إلى النُّوخِذا بن حامد، يذكره بما يشبه الابتزاز:

«ولكنه مدينٌ لك بِسُلفةٍ ودَين أبيه».

قاطعه النُّوخِذا:

«الدَّين قائم، يُسدِّده متى ما أعطاه الله».

أشاح العَم سَنَد بوجهه صوبَ سفينة أمير الغَوص الخاطفةِ بين السُّفن الخشبيةِ يُدوِّي مدفعها:

«معك حق يا بِن حامِد، كل الحق.. ولا أنا لي مكان لي على ظهر الخشب.. كُلِّ الخشب».

من شأن النُّوخِذا -في ظرفٍ عادي- أن يتراجع عن قرار تخليه

عن سليمان إزاء قرار شيخ البحَّارة اعتزال البحر، غير أنه في هذ الظرف الطارئ لم يفعل.

ابتعدَ دويُّ المدافع وخفَت صداه، وارتفعَ غناء البحَّارة وهُم يشدُّون حبال الأشرعة العظيمة، يزفُّون أسطولهم الخشبي وراء سفينة أمير الغَوص إلى ساحل جليعة جنوبي الدِّيرة، قبل الإبحار إلى الدِّيرة جديدة السُّور. وسليمان في ظلمة الخُنِّ يطوِّق ساقيه بذراعيه، ويُنصت إلى ضحكات البحَّارة وأهازيجهم في الأعلى، تتردَّدُ في رأسِه استغاثة فضَّة فيما يُشبه الحُلم:

اِلحق علي يا سليمان!

* * *

(12)

مَن طاع مَن؟

«حُلمٌ يزحفُ إلى كابوس»

هجرَ أهلُ الدِّيرةِ النَّوم فوق السُّطوح منذ بزوغ نجم سهيل. بعدما صافح الصَّيفُ الخريفَ وانصرف على موعدٍ غير بعيد. وهبطَ الأهالي، كُلُّ الأهالي، للنوم في حُجرهم مفتوحة النَّوافذ على الأحواش الفسيحة، إلا عطا الله، كأنما لم يُغادر الصَّيفُ الدِّيرةَ بعد بزوغ النَّجم البشير. مكثَ الخادمُ مفترشًا سطح جناح خُدَّام القصر وإمائه. ظلَّ وحيدًا متيقِّظًا يُناوش تأملاته طوال ليلٍ ما غفا منه ساعة، حتى بهتت النُّجوم، فاتَّشحت سماءُ عطا الله بلونٍ لا اسم له. يوشك أن يكون أسود، شبيه الكُحلي، أو رُبَّما رماديًّا داكنًا أو أشهب. وهو يكره الأشياء في حال الـ بين بين هذه. يُحبُّ اليوم نهارًا أو ليلًا، لا معنى للشُّروق والغروب. يُحبُّ الحَول صيفًا أو شتاء، ما معنى الرَّبيع يُذِلُّك بجمالٍ عابرٍ لا يُطيل بقاء؟ أو الخريف؛ مثل حاله الآن، في فصلٍ لا بارد ولا حار.. *لا تدري ماذا يريد!* ويريدُ عطا الله الشيء أسود أو أبيض. *أنا أكره الأملح*. يريدُ المرءَ واضحًا ذكرًا أو وأُنثى. *أنا أكره البَرْنَثى*. وفكَّر في عدم وضوح أسمائه الهلامية؛ ابن

القصر، ولد بخيتة، أخو ساطور، عبد الشُّيوخ، أو كما يُسميه من يتحرَّج من مناداته باسم أُمِّه؛ عطا الله الخيزرانة، لشدَّة نحولِه وطوله الشَّاهق. فوافقته التَّسمية شكلًا، وكفَت الرِّجال أن ينسبوه إلى من لا يعرفون، بخلاف أخيه ساطور الذي يُنسب إلى جدِّه العَرد. *من يدري يا عطا الله ماذا يُسمونك غدًا؟ عسى ألا تُنعت بخادم بيت النَّصراني.. أعوذ بالله! والله إن الخيزرانة أحسن اِسم!* فكَّرَ في نهاره الأوَّل الذي قضاه في البيت الذي يكره لدى المعتمدية البريطانية يوم أمس. ما كان ليقبل يومًا، أو يفكِّر حتى للحظة، في العمل لدى عدوّ الله الإنكليزي، لولا أن جاءه الأمر ممن يُحِبُّ ولا يقوى على معصيته وهو في منزلة أب.

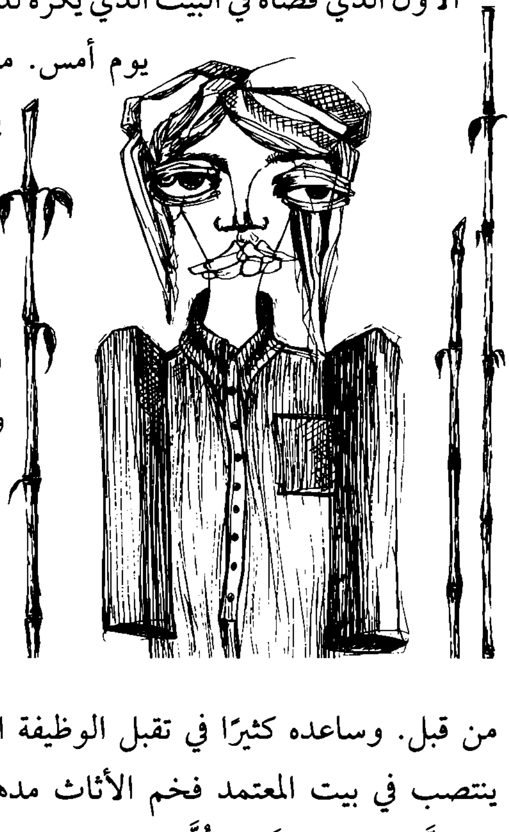

كان يومًا طويلًا غريبًا وجديدًا على عطا الله. هي تجربة لم يَخبر مثلها ابنُ القصر من قبل. وساعده كثيرًا في تقبل الوظيفة الجديدة أن لا صليب ينتصب في بيت المعتمد فخم الأثاث مدهش التَّفاصيل. غاب في جِدَّة المكان يتفحَّص كُلَّ شيء من حوله. ***أين الصَّليب الكبير***

المستور في بيت العَنْكَريزي يا مُلّا إبراهيم؟ والله لأحطمنه وأسعد قلبك المؤمن لو عرفت أين تُخفيه. قطع خادم دار الاعتماد خيط أفكار عطا الله أثناء جولةٍ أولى سريعةٍ في المكان، وناوله خرقة رطبة وأمره بتنظيف الرُّفوف الخشبية في حُجرة الجلوس.

بخلاف بيوت الدِّيرة، يتألف بيتُ المعتمد البريطاني من طابقين. أبيض يتميَّزُ بنوافذه الزَّرقاء المطلَّة على الخليج. يحملُ زائِرَهُ إلى لندن بمجرد دفع بابه. دخل عطا الله مهزوز الخُطى بصحبة الخادم الهندي القديم كانديد. أخذته الدَّهشة باستقبال حُجرة الجلوس في كامل زينتها، كما لو أنه ما جاء من القصر. أجال بصره في الحُجرة ڤيكتورية الطراز، على حالها منذ مجيء الكولونيل نوكس قبل ستة عشر عامًا، أوَّل ممثل لحكومة الدَّولة البهيَّة القيصرية البريطانية. يروح مُعتمدٌ ويجيءُ آخر وأغلب ما في الحُجرة مُقيمٌ دائمٌ مثل صاحب مكان والمُعتمدون ضيوف. تُغطي نصفَ الأرضية سجَّادة كشميرية برسومِ أفيالٍ وطواويس وأزهار لوتس. وستائر مُشجَّرة بيضاء بتطريزٍ أخضر تنفرج على جوانب النَّوافذ المشرعة. بحلقَ عطا الله إلى كلِّ قطعةٍ في الحُجرة كأنما يُحصيها، وكلُّ قطعةٍ تشي بذوقٍ رفيعٍ تملكه إدارة المكان؛ أريكة طويلة سماوية القطيفة ومقاعد خشبية القوائم. وطاولة صغيرة تحملُ صندوقَ غرامافون خشبيًّا سُداسيَّ الأضلع له بوقٌ نحاسي على شكلِ زنبقة، عجِبَ عطا الله لضخامته. يحملُ الصُّندوق الموسيقي على أحد أضلاعِهِ شعارَ كلبِ مونغريل، أبيض الجسد أسود الأذنين، يُقعي أمام بوق غرامافون كأنما يبحث

عن شيءٍ في داخله. وأعلى صورة الكلب تبدَّت حروفٌ إنكليزية صفراء His Master's Voice عجز الخادمُ الجديد عن قراءتها. أشاح بصره وتجاوز كاميرا كوداك سوداء تقفُ على ثلاث قوائم لم يفهم ماهيتها. فمرَّ على طاولة عريضة واطئة أمام المقاعد، على سطحها رقعةُ شطرنج ومجسَّم الكُرة الأرضية. عبسَ عطا الله وبرطمَ فأشاح بوجهه إلى الجدار المقابل وفغرَ فمه أمام فِراء نمرٍ بنغالي وعاج فيلٍ نيجيري وفك تمساحٍ مصريٍّ مفتوح على اتساعه. وتاه في خريطة ورقية كبيرة للإمبراطورية العُظمى، تحملُ شعار شركة الملاحة الهندية البريطانية، يعلوها العلمُ البريطاني وشعار المملكة. وانتفضَ ولدُ بخيتة لحظة غرَّدَ عصفورٌ ظهر فجأة من كُوَّةٍ في ساعةٍ خشبيةٍ على الجدار. يتدلى منها بندولٌ طويل. فانفجر ضاحكًا على نفسه وأدار ظهره لساعة الحائط، وأطال النَّظر أمامه يتفحَّص الحروف على أغلفة الكتب المجلدة في المكتبة الخشبية في بيت العجب.

أمضى عطا الله نهار الأمس في سلامٍ لولا ما خدش إيمانه وهو يمسح الرُّفوف بالخرقة الرَّطبة. شهقَ وقفزَ إلى الوراء ثلاثة أذرع، فتخشَّب في موضعه يبحلق إلى تمثالٍ أبيض لملاكٍ مُجنَّح.

«صنم يا ابن الحرام؟!».

لم يُجبه الصَّنمُ فهبط عطا الله بناظريه إلى أسفل بطن الملاك الرُّخامي:

«وبلا هدوم؟!».

تسحَّب الخادمُ الجديد محاذرًا مثل لِص، محنيَّ الظَّهر نحيلًا مثل قوس ربابة. وما كاد يقترب من التِّمثال مسافة كافية حتى أطبق جفنيه، وأدار الصَّنمَ بسبَّابته محاذرًا كأنما يُزيح جمرة. فقلبَ الوجه الرُّخاميَّ إلى الجدار. ثُمَّ فتح عينيه وأبصر المؤخرة المكتنزة البيضاء قُدَّام وجهه. ثُمَّ طارَ إلى الباب يحملُ الخرقة الرطبة يُكمل تنظيف أي شيء في أي مكان إلا حُجرة الجلوس الملعونة هذه. ***أعوذُ بالله!***

اشتكى كانديد، لدى الميجور مور، فِعلَ عطا الله الذي يتأمَّر في يومِه الأوَّل. وقال له إن الخادم الجديد ما انفكَّ يسأل عن صليبٍ عملاق يخفيه المعتمد في بيته، لكن الميجور مور ضحك بلا اكتراث وفاجأ الخادم الهندي: مكتبة سُر مَن قرأ

«أخبره أن لا صليب في دار الاعتماد.. واعقد معه صفقة؛ يبقى وجه التمثال إلى الجدار لقاء دخوله الحُجرة وتنظيفها».

أُحبط كانديد، وعاد عطا الله إلى حُجرة الجلوس ثانية يُكمل التَّنظيف، بعدما شقَّ الخرقة الرَّطبة بأسنانه وخاطَ بنصفها سروالًا يستر مؤخرة التِّمثال الملساء. وانشغل أثناء تنظيف نوادر لندن والهند وإفريقيا بتفحُّصها. وتوقَّف أمام الغرامافون يُطيل النَّظر إلى شعار الشركة ذي الكلب الأبيض الحزين. فحذا حذوَ الكلب في الصورة، ومثله أطلَّ برأسِه داخل فوَّهة البوق النُّحاسي كأنما ينتظر خروج جنيّ المصباح. وجاء من المطبخ صوت كانديد يستعجله إنهاء عمله ليعاونه في إعداد الطعام. فناداه عطا الله ليجيء إلى

حُجرة الجلوس في الحال. ولما أقبل الهندي سأله عن صورة الكلب، فشوَّح كانديد بيده وأجابه بعربية لا بأس بها:

«لا وقت لديَّ.. تعال أُجيبك في المطبخ».

أغمضَ عطا الله عينيه على السَّماء غريبة اللَّون. ينسدحُ على فرشِه اليابس في سطح مسكنه في القصر. يُنصت في صمتِ السَّحَر إلى وشوشاتٍ بعيدة، يخالُها مَور الموج وهي ابتهالات شُيوخ البحر السِّتة الحزانى، لا موجة تطالُ موضعهم على الرَّملِ فيلتحمون بها وتأخذهم معها ثانية إلى البحر. يسرحُ عطا الله مع الأصوات عابرًا بذاكرته إلى نهار الأمس. يُفكِّر في صورة الكلب الحزين على الغرامافون في بيت العَنْكريزي. بدا له كلامُ الخادم الهندي في المطبخ ضربًا من الخرافة والكذب، حينما أخبره عن رسَّامٍ إنكليزي مات عنه أخوه فأورثه غرامافون وأسطوانات تحفظُ صوته وكلبًا أبيض من فصيلة المونغريل. وأن الكلب، في بيت الرسَّام، سارع يطلُّ برأسه داخل بوق الغرامافون عندما انبثق منه صوتُ صاحبه الفقيد من الأسطوانة. فالتقط الرَّسام مشهد الوفاء هذا في لوحةٍ اشترتها شركة تسجيلات إنكليزيةٍ تبيع الغرامافونات فصار شعارها. قال له عطا الله إن حكاية الكلب الحزين هذه تصلح لتنويم الأطفال ليس إلا، وأن هذا الجهاز الذي يصدحُ بالمعازف في بيت المعتمد إنما هو من عمل الشَّيطان، وعمل الشَّيطان حرامٌ كُلُّه. هبَّ كانديد في وجهه، يسأله من الذي يُحرِّم الغرامافون؟ وأجابه عطا الله: «الله».

فسأله كانديد من يقول ذلك؟ وأجاب عطا الله: «كريم العين». وانتهى الحوار على استخفاف ابن القصر بالجهاز البِدعة، يفتعلُ ضحكة على قصة الكلب الذي يقتفي أثر صاحبه الفقيد في البوق النحاسي، غير أنه في قرارة نفسه أحبَّ القصة على نحوٍ أعاده إلى حُجرة الجلوس ثالثةً، قبل انصرافه من بيت المعتمد آخر النَّهار. وقفَ أمام الجهاز، وعثر في درج طاولته على علبٍ معدنية أصغر من علبة الثقاب، تحفظُ إبر الأسطوانات. حمل واحدةً وحدَّق إلى شعار الكلب الأبيض على سطحها، موليًا ظهره للملاك المجنَّح بسرواله الجديد بعدما أدارَ وجههُ الرُّخاميَّ إلى الجدار. أبصر عطا الله في كلب الشِّعار ذاته الأليفة، وأطلَّ في بوق الغرامافون وأبصر قصرَ مولده وصباه وشبابه.

صاح ديكٌ في بستان القصر بدَّدَ هواجس عطا الله. ونهض الخادمُ بجذعه جالسًا على فرشِه الأرضي. تمغَّطَ وطقطق مفاصل رقبته وظهره، واستقام واقفًا يطلُّ على البحر في الغبشة. دسَّ كفَّه في مخبَى دِشْداشَتِهِ وأخرج حافظة إبر الغرامافون، قلَّبها بين يديه وحدَّق إليها طويلًا. تجذبه أسفل حروف إنكليزية بيضاء صورة كلب الغرامافون الحزين. انقبضَ صدره. لماذا تخلَّى عنه بِن صُباح للعمل نهارًا في بيت المعتمد؟ ***أتراه يُبعدني؟ يعاقبني بجريرة خيانة ساطور، وبعد أكثر من حَوْل!*** فكَّر في همِّه الأكبر، فكَّر بأخيه الأكبر. فكَّر في نعيم الخلاص إذ يحظى بمُؤاخاة مَن طاع الله وحكم بشرعه. لطالما أُعجب بأخيه وفُتن به فتنة الولد بأبيه. تمنَّى نفسه شجاعًا

مثله، قرَّبه الشَّيخ الكبير واستأمنه على حياته وجعل منه فداويًّا مُقربًا بعدما كان مجرَّد خادمٍ من خُدَّام القصر، إلى أن فعل ساطور فعلته. *لو أني أصير إلى ما صرتَ إليه يا ابن أمي، لكن لا حول لي على خيانة ولي نعمتي. ولو أن الخلاص يُشترى بغير خيانة بِن صُباح لأشتريه بماء عيني، وأشيل مبروكة بعيدًا عن أطباء النَّصارى وأكتفي بها زوجة، لا غيرها امرأة، وأتبعك إلى حيث تكون. هل برئ جرحك يا ساطور؟ هل عثرت في الأربَع على من تنسيك ابنة تاجر الخيل؟*

من يدري الآن كيف يعيش ساطور؟ ما يُشاع في الدِّيرة يقول إن الفداوي المارق يعيش خلاصه كأحسن ما يكون لواحدٍ مثله. قيل إنه تزوَّج بأربع حرائر، وبسطَ يمينه على بضع إماء، عوَّضه الله بهنَّ عن ابنة تاجر الخيل ابن الطاروف الذي -بحسب ما يقول ساطور- رفض تزويجه ابنته وأهانه ونعته أمام الرِّجال بالـ «عبد»، رغم أن من شهد حوار الاثنين قال إن ابن الطاروف ما نعته بشيءٍ ولا انتقص من شأنه، إنما استقبله وحيَّاهُ تحيَّةَ الرِّجال في مربط خيلِه، وأكرمه بالرَّد يُجيبه معتذرًا أن ابنته حُرَّة.

أعاد عطا الله الحافظة المعدنية إلى مخبَى دِشْداشَتِه. وطرد هواجس ساطور من رأسه، وكبح جماح رغبة الخلاص بأي سبيل تشوبه الخيانة. *الخلاص؟ ما الخلاص يا عطا الله؟ لديك كُلّ ما تريد إلا معشوقة أرادتك حُرًّا وما انفكَّت تُحدِّثك عن الخلاص، كأنها لم تكن ذات يومٍ في بيت مُلَّا مسجد السُّوق الكبير خادمة.. ما أحسن*

المُلّا عبدالمحسن تربيتك ولا خاف الله فيك يا حبيبة، فسلّمك للنَّصارى ثمنًا لعلاجه في مشفاهم. لو حباكِ الله بسيِّدٍ تقيّ يخاف الله مثل المُلّا كريم العين.. لكنا أين؟ فكَّر في مُدرِّسه القديم، إمام مسجد سوق الحريم، وقد زيَّن الخلاصَ في عينيه مثلما زيَّنه من قبل في عينيّ ساطور. وبودِّ عطا لله لو يفعل لكنه مقيَّدٌ بالسؤال: مَن يخون مَن؟ أيخون الخادمُ القصرَ وحليب بخيتة وذاكرته في أحواش صباه، في مكان مولده وحَبْوِهِ وارتباك خطواته الأولى في حوش الخَدَم الرَّحب؟ أيخونُ النِّعمةَ وولي النِّعمةِ وكُلَّ ماضيه الذي بدأه باللَّهو على السِّيف مع أولاد الشُّيوخ، فصِباه بينهم على صهوة جوادِهِ في رحلات القَنص وصيد الحبارى بالصُّقور، فشبابه في خِدمة الرِّجال في مجلس الضُّيوف؟

هبطَ السُّلَّم من السَّطح حاملًا فراشه إلى حُجرته في الأسفل. وجلس على عتبة ليوان حَوْش الخدم يُنصت إلى صياح ديوك الفجر، تتخايلُ بقوَّة حناجرها وتبزُّ خوار البقر في حوش البهائم القريب. فظهرت من الحُجرة المقابلة بخيتة وقد أيقظها صياح الديوك، تشيلُ أمام وجهها سراجًا يُبدِّد ظلمة الفجر. بدت مشدودة القوام، متينة الجذع شامخة الطُّول مثل أشجار التبلدي في قرية صِباها. شاخت وما كبرت فيها روحُ ابنة السَّابعة، مُذ اختُطفت من عائلةٍ حرةٍ من نسل أحرار. ألفَت نفسها شمالًا في شِندي فرُحِّلَت إلى سواكن، ثُمَّ عبرت البحر وبيعت في سوق «العبيد» في جدَّة، وتنقَّلَت من سوقٍ

إلى سوق في موانئ البحر الأحمر، حتى أدركت الخليج وبيعَت في رأس الخيمة، فباعها الذي اشتراها في سوق «العبيد» في الأحساء، فألفت نفسها ابنة عاشرة في الدِّيرة. وما نالت بخيتة من حُسن البخت إلا اسمها، وما حملت من أبويها تذكارًا إلا شُلوخ القبيلةِ في وجهها المليح، وما أورثت ولديها إلا عبوديَّتها وطولها الشَّاهق.

مرَّت بخيتة من أمام عطا الله ترتدي درَّاعة بيضاء تحت ثوبٍ شفيفٍ أسود. يتلألأ وجهها أمام شعلة السِّراج، وتتبدَّى شُلوخ أسلافها في خدَّيها، ثلاثةُ شُلوخٍ عمودية في كُلِّ خد، ويلمعُ جبينها المتغضِّن ببشرةٍ سوداء برَّاقة تحسدها عليها أُم حَدَب لو رأتها. حملت دلوًا نحاسيًّا واختفت في حَوْش البهائم، فتبعها ولدها فألفاها تجلس على مقعدٍ خشبيٍّ قصير القوائم عند بقرةٍ سمينة. وغير بعيدٍ عنهما ينامُ عِجلٌ على الأرض متكوِّرًا على نفسه. انحنى عطا الله على أُمِّه يُقبِّل مفرق رأسها الأشيب، ثُمَّ جلس إلى جوارها يُبحلق إلى أطلالِ المَلاحةِ القديمةِ في وجهها البَش. سألته:

«صلَّيت؟».

ضحك عطا الله وهو يُخبرها أن المؤذن لم يرفع الأذان بعد. فضحكت بخيتة وهي تشخبُ اللَّبن من الضَّرع الطَّافح:

«ضحك عليّ الديك!».

مثل أبي الذي عبثتِ معه وأكله الدُّود. قال عطا الله في نفسه وهو يُطيل النَّظر إلى وجه أُمِّه المشغولة بضرع البقرة. يتذكَّر العبارة

نفسها قالتها «عبدةٌ» شركسية لأمِّه في يومٍ بعيد. يوم أقبلت وافدة القصر الجديدة مُهداة من الشَّيخ خزعل الكعبي أمير عربستان. قالت لـ بخيتة وهي تُشير إلى ساطور في سابعته وعطا الله في سادسته وقتذاك: «لا يتشابهان!». فأشارت بخيتة إلى بِكرها تقول: «ساطور ابن المرحوم مريان بِن نوح العَرد» رحمه الله مات في الغَوص وقُبِرَ في البحر. ثُمَّ فتحت ذراعيها تحتضنُ ابنها الثاني تقول: «وهذا عطا الله» مكتفية بذكر اسمه الأوَّل. فأفلتت الشَّركسيةُ ضحكة من أنفها: «ضحك عليك الدِّيك؟». فأجابتها بخيتة: «كنت صغيرة خبلة.. قال إنه سيتزوجني، وطلب أن يُعتق وعُتِق وسُرِّح من القصر ولم يعُد». كان عطا الله صغيرًا آنذاك، لا يفقه لقول أُمِّه معنى، لكن ذاكرة الطفل تحتفظ بغير المفهوم إلى عُمرٍ مُسمًّى، يفهم فيه المرءُ فيقولُ ليتني نسيتُ ما لم أفهمه صغيرًا. ***هل أسأل عن معتوق الرَّقبة وأبحث عنه اليوم، فأجده في الغد، وإذ به ليس أبي؟ ساطور يدري أن قبر أبيه في البحر. أنا لا أدري إن كان أبي في قبر***. وأطفأ عطا الله جذوة السُّؤال بإيمانٍ مغصوب. ***ديكٌ أكله الدُّود***.. ونسي أمر أبيه.

امتلأت دلو بخيتة باللَّبن، وطفَت على سطحِه الرَّغوة الكثيفة. وتلمَّظ عطا الله بريقه ومالَ إلى الدَّلو، فدفعته أُمُّه برفقٍ بكتِفِه تُبعده عن حصَّة فطور الشُّيوخ: «ما طارت الطيور بأرزاقها بعد!»، قالت واسعة الابتسامة وهي تُشير بحاجبيها إلى الضَّرع المتدلي بين قائمتي البقرة مثل قربة. فاندسَّ عطا الله بظهره تحت البقرة يرتفقُ الأرض ويطبق شفتيه على واحدةٍ من حلمات الضَّرعِ الأربع يمتصُّ حِصَّته.

وأفاقَ العِجلُ النَّائمُ وأسرع يذودُ عن حقِّه
فأفسح له عطا الله. وهبَّت بخيتة تحملُ الدَّلو
واقفة وهي تُقهقه:

«بالمبارك!».

أشارت بذقنها
إلى العجل الثائر
«صار عندك أخ
من الرِّضاع».

قاومَ الشَّاب
ضحكة مُباغتة
فأفلتَ الضَّرعَ،
وغصَّ حتى
سالَ اللَّبن من
مِنخريه. نهض ينفضُ الرَّمل ويابس البرسيم عن ثوبه وحملَ عن أُمِّه
الدَّلو الممتلئة، فسألها وقد هدأت أنفاسُ الضَّحك في صدره:

«راضية عليّ يُمَّه؟».

قبَّلت جبينه تُجيبه برضاها عسى أن يرضى عليه الرَّحمن. وسايرها
وهي تحملُ السِّراج إلى خارج حوش البهائم قاطعًا جناح الخدم يُفكِّر
في أخيه. وأنزل الدَّلو عند عتبة باب المطبخ فسأل:

«وساطور؟».

قطَّبت بخيتة حاجبيها تستوضح، فأوضح:

«راضية عليه؟».

انحنت بخيتة على الدَّلو، حملته وهي تقول قبل أن تدلف إلى المطبخ:

«قلب الأم راض ولو ما رضي.. سامح الله كريم العين ما فعل خيرًا في أخيك، وسامح الله أخاك ما فعل خيرًا فيمن أكرمه وما زال يكرمه بإكرام أمه وأخيه».

خنسَ الفتى، وأقفل إلى حجرته في جناح الخدم. استلقى على فراشه وطرد هواجسه كُلَّها إلا واحدًا. فانقبض صدره يُفكِّر في قرار معشوقته التي يلتقيها يوم غد؛ أنا أم مستشفى العَنكريز يا مبروكة؟!

فلأكن اختيارك، فآخذك إلى كريم العين يُزوِّجنا. ويوجِد لنا محَلَّ الخلاص كما وعد.

فهل من سبيلٍ إلى تحقيق هذا الحلم؟

وارتفعَ أذان الفجرِ من مآذن الدِّيرة، وما كاد ينتهي الأذان حتى دوَّت ساحة القصر بطلقات المدافع، لليوم الثاني على التَّوالي، تُعلن قُرب القُفَّال.

* * *

ومثل حبَّة رملٍ في الصَّحراء، أو قطرة ماءٍ في الخليج، انغمس ساطور العَرد في عالمه الجديد وذاب فيه، نائيًا عن الدِّيرة والقُرى وراء سورها وعن صحاري باديَتِها. فاحتوته جمهرةٌ هابَها النَّاسُ في المدن والقُرى والصَّحاري، وميَّزوها من سلوك أفرادها وسيماهم إذا ما اختلفت لهجاتهم. رجالٌ أقبلوا [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 138/ 1990]. [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 138/ 1990]. [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 138/ 1990]. [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 138/ 1990]. وتقشَّف ابن مريان مثلهم في المأكل والملبس، وأعفى لحيته وقصَّرَ دِشْداشَتَه إلى الكاحل لئلَّا تكنس بأطرافها نجاسة الأرض فتبطل صلواته فتُفارقه البركة. وعِوضًا عن العِقال اعتمرَ ساطورٌ العُصابة البيضاء فوق الشِّماغ الأحمر، وشال الخيزرانة مثلما يشيلونها أبدًا.

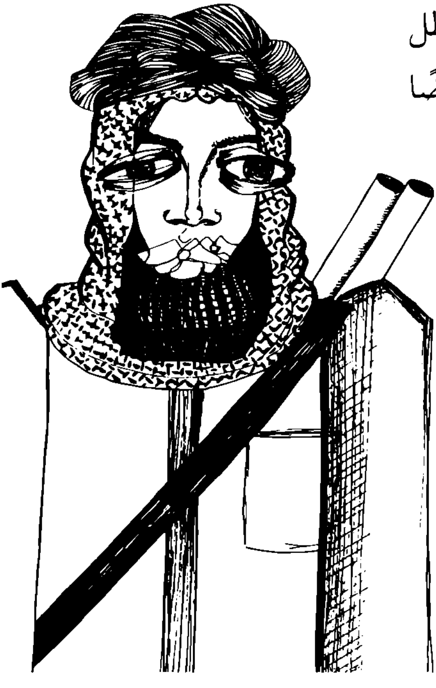

ميَّزه النَّاسُ في الحاضرة والبادية، وألِفوا رؤيته مع جماعةٍ استحدثت القُرى وهجرت حياة البراري. تتحرَّكُ لفيفًا،

رَجَّالةً وفرسانًا وهَجَّانة. رجالٌ اِعتصموا بحبلِ الله جميعًا على اختلاف مشاربِهم، وما تفرَّقوا، وذكروا نعمة الله عليهم، فألَّفَ بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمتِه بعد العداءِ.. إخوانًا.

أفاقَ ساطورٌ قُبيل موعد أذان الفجر. أيقظته جلبةٌ وراء الجدار فخرج من حجرته وشمَّ رائحة تبغ في حوش داره الصَّغيرة. حكَّ أنفه براحة كفِّه وخرج يستوضح الأمر. وكان أحد إخوته في الجماعة قد أمسك برفيقه يُخفي علبة تبغٍ نحاسية تحت عُصابة رأسه. أفرغها على الأرض وعفَّرها بالتُّراب تحت قدمه قبل أن يلكم صاحب العلبة في كتفه:

«سوَّد الله وجهك!».

اعتاد ساطور تكرار المشهد بين يومٍ وآخر. *من يكترث لمطارد المدخنين وهو مُفخَّخ الثِّياب بالتَّبغ؟!* لم يكترث العَردُ إلا لدعاء الرَّجل في آخر العِراك: سوَّد الله وجهك! فتذكَّر كريمَ العين قبل سنوات، في ساحة مسجد سوق الحريم، كُلَّما أبصرَ وجه خَليفُوْهْ البَرَنْتَى دعا عليه بسواد الوجه. وتذكَّر عِتابه للمُلَّا في آخر الدَّرس صغيرًا: «لماذا تمنح هذا المائع لوني؟!». ولم يشغل كريم العين نفسه ولم يفكِّر في إجابةٍ ليست في الأصل لديه. أخرسَ سؤالَ الفتى بما يُشبه النُّبوءة، يزُفُّ إليه البُشرى إجابة على ما لم يُسأل:

«يطلُّ من عينك اليُسرى عنتر بن شدَّاد، ومن اليُمنى يطلُّ مؤذِّن الرَّسول بلال!».

فنسي ساطور السُّؤال. وانشغل يُفكر في العبدين المحرَّرين، كلاهما نال حُريِّته وتزوَّج بحُرَّةٍ وعاش أبد الدَّهر اسمًا لا يموت، عنترة وبلال.. ***وساطور***.

وبعد سِتَّة عشر حَوْلًا تذكَّر سؤاله المنسي، فورًا، لحظة دعا أخوه على أخيه مُدخِّن التَّبغ بسواد الوجه. أفلت ضحكة من أنفِه. ***سامحك الله يا أخي.. لماذا تمنحُ هذا الآثَم لوني؟*** أدار ساطورٌ وجهه عن المتعاركين عند جدار داره، ومضى إلى البئر في الخارج ليتوضَّأ قبل صلاة الفجر. ***رائحة التَّبغ سوف تجلب لنا المشاكل***. أقعى على حافَّة الحُفرة المُحاطة بالصُّخور يطلُ في الغَوْر المظلم العميق. ودَّ أن يصرُخ، يلفظُ همومًا عشَّشت بين ضلوعه مُذ غادر الدِّيرة قبل ما يربو على الحَول. من أنتَ يا ساطور؟ ***من أنا؟*** أما زلت لا تدري؟ ***والله لا أدري***. هذا أنت، أيُّها المفتون بعالمك الجديد يا كارهًا حالَك المتوارث في القصر. الآن يا ساطور أنت حُر. ***هل أنا حُر؟*** لكن فقير. ***بل زاهد***. ودروبك دومًا محفوفة بالمخاطر. ***يا ساتر***. هذا أنت بلا مكاسب «عبيد» القصر، ولا مكاسب الأحرار خارج جدرانه. ***لكني سيِّد نفسي***. تأخر سؤالك طويلًا يا أنت لتعرف من أنت. ***من أنا؟*** يا رجلًا ما حظيت بِحُرَّةٍ تمنيتها وحال والدُها دون زواجكما. ***اِخرَس يا شيطان!*** لأنك يا ساطور تأخذ من القصر كلَّ شيءٍ إلا صيته. ***قلت لك اِخرَس!*** قال لك كريمُ العين تُنكح المرأة لأربع. ***بل قال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام***؛ تُنكح لمالها ولحَسَبها ولجمالِها ولدينها، فاظفر بذات الدين. فما نويتَ الزَّواج إلا بابنة تاجر الخيل!

على سُنَّة الله ورسوله. هل جننت؟ أم أنك مكويٌّ على رأسك يا ساطور؟! لماذا يا ساطور ما اخترت إلا تاجر الخيل نسيبًا؟ *شاع صيتُ بناته بحسن الخلقِ والتديِّن والمال والجمال فأردتُ أن أظفر بواحدة على ما دعا رسول الله*. فردَّك ابن الطاروف وأنت تعيشُ في قصرٍ أفخم من بيته ألفَ ألفِ مرة. *إي والله*. وتَطعَمُ من مُجَفَّفِ ثمارِ الشَّام والهند وبلاد فارس ما يحلمُ تاجر الخيل أن يقطفه في الجنَّة. *إي والله*. فبحثتَ عن ذاتك في حَوْطةِ سعدون تنشدُ خلاصًا ما نلتَ منه إلا المهانة في السُّكْر. *لا تذكِّرني*. وكثرة الشَّكوى وقلة الحيلة. *إي والله*. ولا عزَّزَت فيكَ صحبة المجون تلك إلا شعور النَّبذ والإقصاء. *لا أعادها الله من أيام*. فهجرتَ الحَوْطة. *الحمد لله*. ووسوَس لك الخنَّاسُ أن تُنهي عبوديتك بشكايةٍ تلجأ بها إلى المعتمد النَّصراني. *يخسأ إبليس!* فأنِفَت نفسك من سعيها إلى حُريةٍ موصومةٍ بالعار. ومشيتَ فيما حسبته طريقَ خلاصٍ مهَّدهُ لك كريم العين. *اخرَس.. اخرَس.. اخرَس!*

رائحة التَّبغ المحروق ما زالت تجول في المكان. *عسى أن تهبَّ الرِّيح قبل صَحو الجميع*. ألقى ساطور الدَّلوَ في البئر ووقفَ منفرج السَّاقين يسحب الحبل. فأقعى والدَّلو المليئة بالماء بين ركبتيه. غطَّس كفَّيه يغسلهما ببطء وطشَّ الماء على وجهه يُسبِّح باسم الله ويستغفر، فيفكِّر.. اشتريتَ خلاصك بالانقلاب على القصر والدِّيرة برمَّتِها، وانضممتَ إلى الذين انقلبوا على بداوتهم واشتروا دينهم وزهدوا في دنياهم. *إخوتي*. ولا يفهمُ المنقلبين إلا المنقلبون من أمثالهم يا

ساطور. *والله ما انقلبت إلا على نفسي، وما دريتُ أن نفسي رهينة القصر وإني إن خنتها أخونه*. أقبلتَ عليهم حافظًا القرآن. *جازى الله كريم العين خير الجزاء في هذه*. أقبلتَ تخُصُّهُم بنبأ عباءة القصر سبيلًا للتقرُّب منهم وبرهانًا على صدق النيَّة. *اِخرس!* صرتَ حُرًّا لا مالِك لك إلا الله. *سبحانه*. تهفو نفسُك إلى حياةٍ هانئةٍ تُنهيها بميتةٍ تليقُ بحُر. *شهيد بحيل الله*. يُرعبك أن تموت مثل سمكةٍ نافقةٍ تنهشها أخواتها في البحر. *أعوذ بالله من أن أموت بلا قبر*. مثل أبيك الذي أمضى في الغِبَّةِ نصف حياته غيصًا مملوكًا. *رحم الله مريان بِن نوح العَرد*. مات في السَّفينةِ وما ساوى جثمانه عبء إرساله إلى اليابسة، فقُبِر في الخليج. *اِخرس! لعنك الله يا فاجر!* ليس المؤمن بالطعَّان، ولا اللعَّان، ولا الفاحش، ولا البذيء يا بِن مريان. *صدقَ رسول الله عليه الصلاة والسلام*. هل صدَّقت أنك حرٌ يا ساطور؟ *ها؟!* وجدتَ نفسك فارسًا مثل عنترة منتشيًا بين رجال قبيلته، منسوبًا إلى أبيه في مضارب بني عبس. *فآمنتُ بما رآه كريم العين في عيني اليُسرى*. تسند رأسك كل ليلةٍ إلى وسادتك الخشنة. تُفكِّر؛ *أحسنت الجماعةُ معاملتي وإيوائي وتلقيني تعاليمها وصحيح الدِّين*. واعتمرتَ العُصابة البيضاء فوق الغُترة الحمراء. *مثلهم*. وأعفيتَ لُحيتك وقصَّرتَ ثوبك إلى الكاحل. *مثلهم*. ورضيت بشظف العيشِ والزُّهد عقِبَ رفاهية القصر من أجلِ أن تكون سيِّد نفسك وحسب. *مثلهم*. صرتَ واحدًا منهم. *مثلهم*. أكرموك وصيَّركَ أميرُ الإخوان مؤذِّنًا للجماعة، مثل بلال في كنف

النَّبي الكريم. *فآمنتُ بما رآه كريم العين في عيني اليُمنى.* مرَرْتَ على الدَّكاكين تُغلقها أوقات الصَّلاة. *آمُر بالمعروف.* أمسكتَ مثلهم بخيزرانةٍ تلسبُ بها مُدخِّن تبغٍ ولابسَ حريرٍ وعابرةً من دون محرم. *أنهى عن المنكر.* تتلفَّتُ حولك تُحصي الهاربين شهودًا على مرور السَّيد ساطور من هُنا. *سيِّد ونص.* تنتشي كُلَّما هَوَت خيزرانتك على ظهر أحدهم نشوة الأحرار. *هل يدري الأحرار بنعمةِ ما هم فيه أم أنهم لا يُدركون؟*

جفَّف ساطور وجهه وساعديه بحاشيةِ دِشْداشَتِه بعدما فرغ من وضوئه. وترك البئر وراء ظهره، وسارَ صوبَ مسجد القرية الملاصق لداره تُشاكسه الوساوس وتحاوره.

أين المُلَّا إبراهيم؟ *أينك يا كريم العين تنظر إلى حالي؟* ما كادت تمضي الشُّهور يا ساطور حتى استعرَّ بك الحنينُ إلى حياة القصر؛ أُمِّك بخيتة وأخيك الذي تتذكَّره في كل لحظةٍ تشيلُ فيها خيزرانة. *سقى الله أيامًا جمعتنا يا شبيه الخيزران.* تشتاق أخاك وتخشى عليه. *عسى ألا تجمعنا الأيام في هذا المكان.. وعسى أن يعرقلك أمرٌ عن المجيء.* اشتقتَ إلى المأكل الأثير والملبس الوفير والسَّقف الآمن. *لكن صبرت.* عجزت أن تفهم نفسك بين حالٍ وحال، بين ماضٍ وحاضر، بين عبوديةٍ آمنةٍ وحُريةٍ محفوفةٍ بالمخاطر. *اخِرس!* أخبروك عن الحنين، إنما هو امتحان من عند الله. *فصبرتُ.* ولَمَّا أردت اجتياز امتحان الله بأن تحطَّ لك موضع

قدمٍ في حياتك الجديدة؛ عزمتَ على إتمام نصفِ دينك، وتأصيل انتمائك بين القبائل التي تآخت بالله وتصاهرت فيما بينها. صرتَ بلالًا يا مؤذِّن الجماعة. وأحببت بلالًا أكثر من أي وقتٍ مضى. فما المانعُ أن تحظى بزوجةٍ حرَّةٍ ذات نَسَب كما حظيَ بلالٌ بالقُرشيَّةِ هالة بنت عوف؟ *فهبَّ لي إخوتي في طاعة الله، ينعتون لي الإماء مِن بين ما ملكَت أَيمانهم. لا أبغضُ الإماء وأنا ابن بخيتة، لكني لم أرغب بها أَمة..* لكنهم لا يُصاهرون أسود.. *لكن الله لا يُفرِّق بين أبيض وأسود إلا بالتَّقوى..* لكن التَّقوى مفتاح للجنَّةِ لا يفتحُ مغاليق الزَّواج ومصاهرة أقحاح العرب. *فصرتُ، بخلاف الأطفال في هذه القرية، الأعزب الوحيد.*

حرتَ يا ساطور وعجزت عن فهم نفسك. أنت الذي لم تُفكِّر قط، صرتَ تُحاصر نفسك وتُسائلها؛ قدرٌ هي العبودية أم اختيار؟ إلامَ يُفضي التَّمرُّد وإلامَ يُفضي التَّسليم؟ *يا الله!*

في قريتك الجديدة، أنزلتَ خيزرانتك على ظهور المارَّة تنتشي بإرهابهم وإذلالهم. *آثِمون.* تدبُّ النَّشوةُ رعشةً في جسدك تشبه التي انتابتك لحظةَ لطمتَ بهيجة. *أنا سيد سيدها.* يومَ خلعتَ فكَّها وأسقطتها في مشفى النَّصارى أسبوعين. *هي عبدتي المطيعة.* أما اكتفت نفسك يا ساطور؟ *لو أني أملكها.* بهيجة؟ *نفسي.* كلُّ أثرٍ تخطُّه خيزرانتك في ظهر آثمٍ يُزيلُ أثرًا قديمًا دُمغ في قلبك. *اِخرَس!* انتشيت نشوةَ «عبدٍ» ذاق الألمَ واستعذبه بغيره. *كذاب!* إلا أنك ما

وجدت إجابة في كل ذلك. فدفعتك الخيبة إلى قرار الرَّحيل بعيدًا بحثًا عن ذاتك. *الزُّبير أو البصرة، أو البحرين شأن كبار الدِّيرة إذا ما زعل واحدهم أخذ ماله وحلاله، ويَمَّم وجهه جنوب البحر، يقصد البحرين ملاذًا، يتذرَّى بظلال نخيلها ويشرب من عذب عيونها*. ما تخلَّى عنك إخوتك الجُدُد للرَّحيل، إخوتك في طاعة الله الذي ألَّف بين قلوبهم، وقفوا في وجه قرارك يا ضعيف الإيمان يُخيِّرونك بين البقاء أو الموت مُرتَدًّا. فأجلت موتَ الرِّدَّة ببقائك على قيد حُلم الخلاص. *خلاص*. ما الذي أوصلك إلى كل هذ ساطور؟ *كنت غبيًّا*. كنت؟ *وما زلت*. أهو عقابٌ ما أنت فيه يا ساطور. *خلاص!* قُل لي بربِّكَ أهو عقاب؟ *قلت لك خلاص!* بلى.. هو عقاب بغير ذنب. *اِخرَس يا شيطان!* لو أنك لم تخُن؟ *قلتُ لكَ اِخرس.. اِخرَس.. اِخرَس!* اسمعني يا خائن. *أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم!* اِخرَس أنت! *أعوذ بربِّ الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخنَّاس.* قلت لك اِخرس! *اِنصرف.. اِنصرف.. اِنصرف.*

الحمد لله..

هل من خلاصٍ لهذا الكابوس؟

ارتقى ساطورٌ سلالم مئذنة مسجد القرية الصَّغير، ورفع كفَّيه عند أُذُنيه وصدح بصوتٍ عالٍ شجي:

«الله أكبر.. الله أكبر».

* * *

(13)

قُفَّالٌ أكيد

«سُبحانَ مَن أنطَقَ القِطَّةَ بالحق!»

مثل جيوش نملٍ تقتفي ريح الدَّسَم، خرجت حشودُ النِّساء بعباءاتها السُّود إلى السِّيف الشَّرقي، بعد يومٍ من إطلاق مدفع الأمير الحاكم إيذانًا ببدء القُفَّال. ووقف المعتمدُ البريطاني في شُرفة بيته المطلة على الخليج، يرتدي بدلة سفاري قطنية بيضاء، بأربعة جيوبٍ في قميصٍ قصير الكُمَّين بدا ضيِّقًا على جسده الممتلئ. رفعَ قبعته الفلينية ومسح جبهته الرَّطبة بمنديل، ثُمَّ انحنى على كاميرته السَّوداء القابلة للطيّ، وحرَّك قاعدتها ثلاثية القوائم يوجِّهها صوبَ السَّاحل. وزجَّى وقته قبل مرور موكب الأمير ليصحبه إلى حضور مراسم القُفَّال أوَّل مرَّة منذ مجيئه. وراح يلتقطُ صُوَرًا لجمهرةٍ نسائيةٍ خُيِّلَت له وراء عدسة الكاميرا مثلَ سربٍ من الغِربان يحطُّ على رمال السَّاحل.

لفيفٌ من النِّسوة والأطفال تقوده أُم حَدَب هذا اليوم. تسير مثلَ راعٍ يقودُ قطيعَ شياهٍ أسود. ترفعُ السَّعفة أمامها مِثل حاملِ راية يتقدَّم كتيبة. وصاجَّات الدِّيرة السَّبع مع جموعِ النِّساء تمشي وراءها، تزحفُ تحت شمس الظهيرة، وتتحرَّكُ بلا ملامح مثلَ ظلال. أفواجٌ

تُفرِّقُها السِّكَكُ التُّرابية بين المساكن الطِّينية في الحَيِّ الشَّرقي، وتجتمع ثانية في السَّاحات التُّرابية مثل موجٍ أسود يصبُّ جهة السَّاحل. أطفالٌ يطرقون أبواب الدُّور الطينيَّة، يزفُّون البشارة بأن المراكب قد أبحرت فجر اليوم من ساحل جليعة، مُقفلةً إلى أسياف الدِّيرة:

«القُفَّال.. القُفَّال».

وارتفعت الزَّغاريد داخل البيوت وخارجها. أُم غايب وشريفة أكثر النِّساء بهجة. كُلُّ الأبواب تُفتح في وجوه الأطفال الباسِمة، وتُناول ربَّاتُ البيوت رُسُلَ البِشارة حلوى البرميت ولسان الثَّور وبيض القطاة وكبدة الفَرَس والسَّمسمية والزلابيا. وطافت البنات في السِّكَك تهزج مُنادية نساء البحَّارة والمتخلفات عن الخروج إلى السِّيف:

يا يُمَّه قومي طلي

وشوفي البحر محتاس

شوفي شراع أبونا

أبيض كما القرطاس

فُتِحَت كُلُّ الأبواب على فرح إلا باب دار شايعة، ظلَّ مُطبقًا على حزنها وفجيعة كنَّتها؛ لا زغاريد لا حلوى للصِّغار، ولا ابتسامة ملحوقة بدعاء من القلب لحاملي البشارة.

تقدَّمت شريفة وأُم غايب تغُذَّان خطوهُما، تتجاوزان الجموع

إلى الصاجَّة في مُقدمة الحشد. تحملُ شريفة أغراض طقوس القُفَّال في سلَّةٍ من الخوص. همسَت في أُذن أُم حَدَب من وراء بوشِيَّتِها وهي تُسايرها إلى السِّيف لاهثة:

«المراد؟ هل قُضِيَ الأمر؟ هل يُطلِّق سليمان فضَّة؟».

لم تلتفت صوبَها أُم حَدَب. واصلت مشيَها مثل مُسرنمة مُطبقة كفَّيها على سعفتِها. تنشَقُّ عباءتها عن قلادة الأصداف والأظلاف تبرقُ فوق الدرَّاعة الحمراء. اكتفت تُجيب هامِسة:

«لا طلاق!».

«لازم أنه يُطلِّقها».

قالت شريفة مُتسارعة الأنفاس، فكزَّت أُم حَدَب على أسنانها تهمس:

«قولي «لازم» عند أمك يا دلوعة بيت العز وشمعة الجلَّاس.. هذا الحكي مو عند أُم حَدَب!».

أبطأت شريفة الخطوَ والخيبة والسُّخطُ في ملامِحِها. بَرطَمَت تشتمُ وتلعن فضَّة الحظيظة في سِرِّها، فابتلعَتها موجةُ العباءات، واختفت في الزِّحام الأسود مثل نملةٍ في كومة فحم.

«سليمان بِن سهيل لن يُطلِّق فضَّة.. سليمان لن يُطلِّق فضَّة.. سليمان لن..».

بدأت العبارة همسًا قبل أن تتلقَّفها الآذان وتُعيد تدويرَها

الألسُن، تُثير أقاويل صمتت فورَ ما مَشَت الصاجَّة مُتهاديةً على رمال السَّاحل. وخبَّت أُم غايب وراء الصاجَّةِ تهمس عند أُذنها:

«ألا ترتابُ شايعة؟».

عينا الصاجَّة إلى الأمام على البحر. لا تلتفت وهي تُجيب بصوت خفيض:

«شايعة الحبارى؟!».

برطمت تستثقلُ سفاهةَ أُم غايب قبل أن تُردف:

«هذي مسكينة.. مكوية على رأسها.. الطول طول نخلة والعقل عقل سخلة. وَلِّي عن وجهي يا أمينة!».

البحرُ هادئٌ ولا كائن على ساحله قبل وصول النِّساء إلا بضعة أطفالٍ تلهو على الرَّمل، والفِرَق الغنائية الرجالية تجهز الطُّبول والدُّفوف، وتسعة من طيور اللَّوهة مُشرئبَّة الأعناق واسعة العيون تُصيخ السَّمع، وشيوخ البحر السِّتة تحت سقائف العريش يحيكون الشِّباك. ترتفعُ ابتهالات النِّسوة وصلواتهنَّ وراء أُم حَدَب التي تمشي على مهل، تسحبُ سعفتها وراءها تُشوِّه آثار خَطوِها. فوقفت عند التقاء الرَّمل بالبحر، وناولت السَّعفة لِـ شريفة، وأخذت منها وعاءَ الحَلول. فأطبق الصَّمت على نساء السَّاحل المترقِّبات، وارتفعت همهمات شيوخ البحر: «هولو هيِهْ». وتقدَّمت أُم حَدَب بضع خطواتٍ إلى الماء الذي بلَّلَ حاشيةَ درَّاعتها، تسكبُ نقيعَ العِشرِج المُسْهِل على أوَّل موجة يستقبلها السَّاحل:

«حَلول، يا الله حِلّ إمساكَ البحر للرِّجال. يا الله سهِّل عليهم».

ترفع أُم حَدَب رأسها وكفُّها مبسوطة تُظلِّل على عينَيها. تنظرُ إلى البعيد. لا شيء. ظلَّ البحر مُمسِكًا. مدَّت يدها وراءها فناولتها شريفة السَّعفة وقد أضرمت في رأسها نارًا. توتَّرت الصاجَّة فيما يُشبه اختبارًا سنويًّا لقدراتِها أمام نساء الدِّيرة اللاتي يؤمنُ بعضهُنَّ بنبوءاتها أكثر من مدفع الأمير وإعلانه القطعي لبدء القُفَّال. استدارت تنظرُ إلى زُمرة النِّساء الصَّوامت وراءها، والنارُ تضطرم في السَّعفةِ وهي تُقرِّبها إلى البحر مؤمنة أن الكيَّ آخر الطب، فسألت حشدَ النِّساء:

«أكويه؟».

ونظرت النِّساءُ الوالِهات واحدتهُنَّ إلى الأُخرى، ثُمَّ زعقت إحداهُنَّ تشرخُ نغمات حائكي الشِّباك:

«اِكويه يا صاجَّة.. اِكويه عساهُ يخاف من الله ويتوب».

نقَّلت أُم حَدَب بصرها على وجوه النِّساء تُثير حماستهُنَّ. وتكرَّرت الكلمة على استحياء في البدء، «اِكويه»، ثُمَّ تعالت الأصوات شيئًا فشيئًا: «اِكويه.. اِكويه ما يخاف من الله.. اِكويه». أولتهن الصاجَّة ظهرها تواجه البحر ثانية، مُنحنية بكتفين تنوءان بحملِ حدبتها البارزة مثل سنام النَّاقة، والعَرق يسحُّ من جبينِها إلى الماء:

«أكويك لو ما جئت بهم.. والله العظيم أكويك».

غطَّسَت رأس السَّعفة المشتعلِ تكوي البحرَ، فسكتَ حسيسُ النَّار ثُمَّ خيَّم الصمتُ على المشهد. وأرسلت العجوزُ الحدباء نظرها بعيدًا في مدى الخليج الأزرق. تمسحُ عرق جبينها بظاهر كفِّها وتبلعُ ريقها، تتحرَّى توبة البحرِ وعودته إلى رشده بعد الكَيّ. فصاحَ طفلٌ من ورائها بمطلعِ أُهزوجة الصاجَّة:

«يا صاجَّة يا صاجَّة..».

أطفالٌ آخرون، أُثيرَت حماستهُم، راحوا يردِّدون:

«ما صدقتي».

سارعت الأُمَّهات تُسكِت الصِّغار قرصًا، أو بتكميم الأفواه بالكفوف. والتفتت الصاجَّة وراءها مضطربة. تهتزُّ شامتُها الناتئة في وجنتها، كما لو أن شيخَ الذُّباب قد دبَّت فيه الحياة فجأةً. فكزَّت العجوزُ على أسنانِها تُغَمغِم:

«لا يلأمْ خَليفُوْه في بغضكم يا فُروخ السُّوء!».

هزَّت رأسها وعادت تواجه البحر. وافترَّ ثغرُها عن ابتسامةٍ بدَت دخيلة على ملامحها الوَجلة:

«يعودون.. يعودون بعون الله يعودون».

صاحت امرأةٌ خللَ ضجيج نساء السَّاحل:

«الشَّيخ الكبير.. الشَّيخ الكبير».

خَبا الضَّجيجُ وقتَ ظَهَر الفداويَّة يُحيطون الموكب بأحصنتهم

المزيَّنة. يقطعون الدرب التُّرابي شِبه المعبَّد لكثرة الوطء، يصيحُ كبيرهُم بالمارَّة لإفساح الطريق لفيلِ الأمير:

«بالِك.. بالِك».

أنشدت فِرَق الرجال على قرع الطبول ونقر الدُّفوف أغنيات العَرْضة[1]، وارتفعَت زغاريد النساء تُحيي الأمير وقد تأكد لهُنَّ قُرب عودة الرِّجال.

بدا الشَّيخ سالم شارد البالِ مهمومًا. وبخلاف عادته، ما لوَّحَ بيده ولا أومأ برأسه إلى جمهرةِ السِّيف التي تتحرَّى ظهور سُفن ومراكب الرِّجال المقفلة. ولم يترجَّل من سيارتِه الـ Minerva البلجيكية، تلك التي ورثها عن أبيه الشَّيخ مبارك، والتي أثارت ذُعر النَّاس آنذاك بضخامة حجمها وصوتِ نفيرها إذا ما ظهرت

(1) **العرضة**: ضرب من الفنون الشعبية المحلية المصاحبة للغناء الحماسي الذي يختص به الرجال. وهي نوعان: عَرضة بحرية يؤديها الرجال عند وصول السفن والمراكب إلى سواحل الوطن، والعرضة النجدية التي يحمل فيها الرجال السيوف أثناء أدائها، وهي بمنزلة رقصة أو أهزوجة الحرب. (محرر وزارة الإعلام).

في طُرق الدِّيرة غير المعبَّدة، حتى صار العامَّة يسمونها الـ فيل، رغم أن أحدًا لم يسمع نهيمَ الفيل ولم يُبصر هيأته إلا في نعوت من سافر إلى الهند، أو في زخارف السجاد الكشميري في بيوت التُّجَّار، أو بصورةٍ أسطوريةٍ في خيالهم لفيلٍ له في القرآن الحكيم سورة.

تبدَّت أمارات القلقِ على وجه الشَّيخ أحمد الجابر، الذي كان يجلسُ وراء عجلة القيادة إلى جوار الأمير المهموم. يجلس وراءهما الشَّيخ عبدالله بِكر الأمير الحاكم، والميجور مور بقميصه الأبيض، يُدير رأسه إلى النِّساء الفَرِحات وينصتُ إلى الأهازيج، ثُمَّ ينظر إلى الأمير الصَّامت في المقعد الأمامي، يُخمِّن ما يُفكر فيه ربُّ الرعيَّة، ويتحرَّى منه طلبًا لوقف مساعي الإخوان.

أجالَ الشَّيخ سالم النظر إلى جمهرة السَّاحل دونما تعبير، كأنه لا يُبصر في النِّساءِ إلا ثَكالى الرِّجال في معركة خاسرة. وكأنما العَرْضة التي يؤديها الرِّجال ليست عَرْضة بحرية، إنما نجدية تُنذر بحرب وشيكة لا تُبقي ولا تذر. تأفف يستعيذُ بالله من عاقبةٍ تُشبه ما مُنيَت به الكويت على يد الإخوان قبل أربعة أهِلَّة، ثُمَّ أشارَ إلى ابن أخيه أن يُدير عجلة القيادة إلى القصر قبل ظهور طلائع السُّفن المقفلة.

وانسحبت السَّيارة من المشهد السَّاحلي الصَّاخب بأصوات النِّساء، والأميرُ يطلُّ منها ساهمًا، يرسلُ بصره بعيدًا إلى شيوخ البحر المنكفئين على متاهة الخيوط، تتضخَّمُ أصواتهم في أُذنيه رغم

لِجَّةِ نساء السِّيف، تتردَّدُ في رأسِه مثل حفيف أجنحةِ الحَمام في هدأة الفجر.

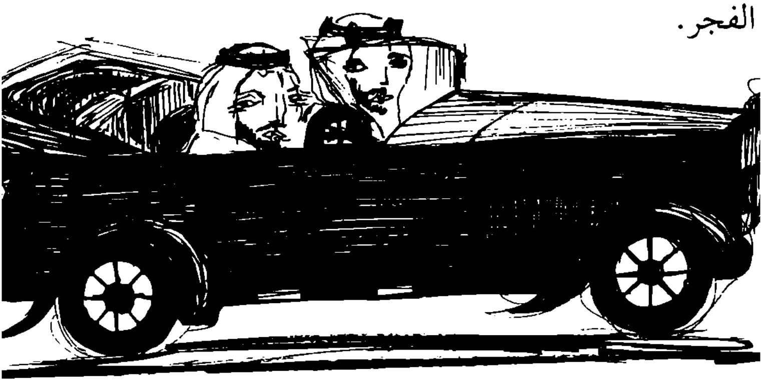

همدت طبول ودفوف العَرْضة عند انسحاب موكب الأمير. واستغربت النِّساء انصراف الموكب سريعًا. وتسلَّل الشَّك إلى نفوسهنَّ بأمر عودة الخشب اليوم، وتعلَّقت أبصارهنَّ بالصاجَّة التي زادها ارتباكًا انسحابُ الأمير من المشهد.

أعادت أُم حَدَب السَّعفة معطوبة الرأس إلى شريفة، وتناولت منها كيس خيش، وهي تلتفتُ وراءها صوبَ موكب الأمير المنسحب قبل وصول البحَّارة. فأخرجت من كيس الخيش قِطَّة خَليفُوُهْ البيضاء بهيأتها الجديدة، كأنها هي عروس القِطَط في ليلة زفافها. كحيلة العَينين، مُقرَّطة الأُذُن، مخضَّبة الظهر بالحنَّاء، مُعطَّرةً بماء الورد ودهن العود والمسك والعنبر، مُتقلِّدة سلاسل فضِّية ومطلية بماء الذَّهب. وأطبقت الصاجَّة كفَّها على كاهل القِطَّة، ترفعها عاليًا أمام نساء السَّاحل الصَّامت إلا من هدير موج رتيب. ثُمَّ انحنت تُغطِّسُها تَبَّةً كاملةً مع مجيء موجة أعلى من سابقاتها. فحبست نساءُ السِّيف

أنفاسهنَّ يترقَّبن طقسَ التَّغطيس، آخر طقوس القُفَّال وأصدقَها. والتفتت أُم حَدَب إليهنَّ بوجهها المتعرِّق تُمرِّر بصرها على الوجوه. ثُمَّ انحنت تُقرِّب شفتيها إلى الماء فوق رأس القطَّة الغاطسة. فماءَت وصاحت:

«بنبيّ الله سُليمان، الذي كلَّمَ الجان، والطَّيرَ والريحَ والحيوان.. مِياو، يا مِياااو.. جاء الغاصة وإلَّا ما جاااو؟».

ثُمَّ رفعت ذراعها بالقِطَّة عاليًا بعدما أخرجتها من الماء. وماءَت ربيبةُ خَليفُوُهْ ما إن تنسَّمَت الهواءَ بعد غطستِها الطويلة:

«يااااو».

تهلَّلَ وجه الصاجَّة، وانفجرت من ورائها زغاريد النِّسوة، وتصفيقُ الأطفال يردِّدون ما قالته القِطَّة بشأن مجيء الغاصةِ على طريقة أهل الدِّيرة بقلب الجيمِ ياءً:

«ياو.. ياو الغاصة.. ياااو!».

ودوَّت طبول العَرْضة ودفوفها ثانية، ووقفت النسوةُ على رؤوسِ أصابعهنَّ مُشرئبَّات الأعناق، يُبحلقنَ إلى الأُفُق مثلَ طيور أبي الخُصَّيف تترصَّدُ فوج سَمَكٍ خاطف. فظهرَ رأسُ شراع سفينة أمير الغَوص الكبيرة، من بين سرب نوارس تفردُ أجنحتها وتنعقُ خاطفةً بين الأشرعة، ثُمَّ لاحت في الأفق أساطيل الخشب تباعًا، ما يربو على ثمانمئة مركب وسفينة تُقبل في الأوان نفسه، فُرادى ثُم جموعًا، عشرات، مئات السُّفن الخشبية متفاوتة الأشكال والحجوم

والتَّسميات تُقفل مُتهادية إلى مراسيها الآمنة. تُرفرف فوقها الرَّايات الحُمر. وتعرفُ كُلُّ امرأةٍ سفينةً تضمُّ رجُلها المنتظر، تُميِّزُها من هيئة مُقدِّمتها؛ هذا بتِّيل[1] السرِّدال بِن رومي.. ظهرَ بومُ[2] بِن سلامة.. ها هو جالبُوت بِن هلال. وارتفعت الأهازيج تُحيِّي الصَّاجة وتُثني على صدق نبوءتها:

«يا صاجَّة يا صاجَّة.. ما كذبتي».

لكزت أُم غايب خاصرة شريفة بمرفقها:

«هناك.. انظري هناك.. سَنبْوك بِن حامد!».

قرصت شريفة أُم غايب في عَضُدِها:

«صَه! علامَ تفرحين والصاجَّة تقول إن سليمان لن يُطلِّقها؟!».

صمتت أُم غايب، ثُمَّ أدارت وجهها صوبَ الصاجَّة التي تقدَّمت تخوضُ في المياه حتى جاوزَ رُكبَتَيها. تنشَّقت أُم حَدَب ريحَ السَّاحل، وأرسلت طيورَ اللَّوْهَةِ في خيالها، وراحت تُبصر بأعين الطيور السَّوداء ما يدور في الخشب، قبل أن تُغمض عينيها تُغمغِم باسم كاتب الأسفار. تنظرُ عبرَ دواخِلِها إلى الخارج البعيد.

لا أثرَ لِـ سليمان على سطح «الحامِدي»! تهمسُ أُم حَدَب بكلماتٍ غير مفهومة ووجهها يتصبَّب عرَقًا. ***لعلَّ هذا سَنبوك***

(1) بَتِّيل: نوع من السُّفُن الخشبية. (محرر وزارة الإعلام).
(2) بوم: نوع من السُّفُن الخشبية. (محرر وزارة الإعلام).

النُّوخِذا بِن فضل الله؟! تُقلِّب صحائف الغيب في خيالها، تمعِنُ في إطباق جفنيها تتحقَّق من كونِه سَنْبوك بِن حامد. تقرأ ما خطَّه كاتب الأسفار وتتشكَّل في خيالها الصُّوّر؛ رجالٌ على جانبَي السَّنْبوك ينشدون أثناء التجديف أُهزوجة جَرِّ المجاديف، تُمِيِّز الصاجَّةُ من بينهم عَزُّوز الهذَّار من شاربه الكثيف، يقرعُ الطَّبل البحري كأنما يصفعُ الصَّمت الذي يخافه. وفي المقدِّمة يقفُ سَنَد بِن هولين مُقطِّبًا حاجبَيه الأشيبين، ويحكُّ ذقنه الحليق، ينظرُ صوبَ اليابِسة في صمت. وبضع رجالٍ يتربَّعون على سطح الخشبة، يتحلَّقون حول الهذَّار والطَّبل والنهَّام الأعمى عبدالله. يُصفِّق الكفَّافة بكفوفٍ مشدودةٍ مثل جلود الدُّفوف، ويُغني النهَّام الشَّاب على إيقاع تصفيقهم الموزون. وتَطرَب أُم حَدَب لغنائهِم وتؤرجحُ رأسها طربة مع أصوات الأهازيج المقبلة من آخر الزُّرقة. ويُشَتِّتُ تركيزَها ضجيجُ نساءِ السِّيف. فتتنشَّق مزيدًا من ريح السَّاحل. تلهث، وتكزُّ على أسنانِها وهي مُغمضة العينين. تغيب في الكشف. ***ها هو الفتى مُتكوِّدٌ في الخُنِّ المظلم مُطأطئًا كأنما يدري ما ينتظره في الدِّيرة. تأخر، وإن بكَّر فليس في يديه أن يغيِّر أمرًا كان مقضيًّا وإن نادته فضَّة: الِحق عليّ يا سليمان.***

«المراد يا أُم حَدَب، يتحقق المراد؟».

انتفضت الصاجَّة وقد نبَّهتها أُم غايب من شرودِها في كشف كاتب الأسفار. بتَرَت وصلها برجالِ السُّفن وأعادتها ثانيةً إلى نساء

السِّيف. بدَت عينا العجوز حمراوين ظاهرتي العروق، تُبحلق إلى أم غايب وشريفة التي تقفُ إلى جوارها.

«يتحقَّق.. كُلُّ شيءٍ في أوانِه».

تبتسم شريفة وسع شفتَيها.

«يُطلِّقها؟».

يرتفعُ صوتُ العجوز فجأة بنبحةِ كلبٍ مسعور:

«لأ!».

وتمُشُّ زبدَ شدقَيها بكُمٍّ عباءتها وتُردف مُبحلقة:

«لا طلاق!».

تُدير ظهرها للبحر تعبر بين النِّساء المحتفيات مُقفلة، تتبعها أُم غايب وشريفة. ترفعُ رأسها إلى الشَّمس التي مالت وبدأت تستطيل بفِعلِها الظلال، فتلوذُ العجوزُ تحت الجدار الغربي الواطئ لمقبرة «هلال». تدفنُ ظِلَّ عباءتها بظِلِّه. قالت لأم غايب:

«أشيعي بين الحريم أنك حامل يا أمينة».

وما كادت أُم غايب تسألها عن السبب حتى اقتبست الصاجَّةُ إجابتها من القرآن الكريم:

﴿فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فتَعجبُ المرأتان ولا تفهمان فصاحةً تحطُّ على لسان العجوز بغير موعد، فتُسَوِّغ الصاجَّةُ بلاغة القول:

«ولا تسألاني عن كلمات الله التَّامَّات يضعها كاتبُ الأسفار على لساني متى شاء».

تُدير ظهرها لأُم غايب وشريفة وهيِ تدعوهُما:

«بنيَّات!».

تجدُّ في السَّير آمرة:

«ورائي!».

تُباعد العجوز الحَدباء بين خُطاها مسرعةً بعباءتها الظليلة، تتفيأ بظلِّ جدار المقبرة والرِّيحُ تلهو بالعباءة. تمضي إلى «المطبَّة» والمرأتان عن يمينها وشِمالها تتعلَّقان بحبل أمل. تتبعانها متخلِّفتين بضع خطواتٍ مُرَفرَفتي السَّواد. فتمضي الثَّلاثُ صوبَ بيت شايعة التي ما خرجت مع النِسوة إلى السِّيف كمدًا وحسرة وخوفًا من مواجهة ولدها بالنبأ المرير.

ومضت الثَّلاثُ مسرعات مثل غربان الدُّوري تحثُّ نطيطَها نحو فرخٍ غابت عنه أُمُّه.

***

(14)

مقامُ الخِضر

«خَليفُوْهْ أبو القْطاوَة يدُقُّ الوتد»

شمسُ العصر مُتوهِّجة، ولا خطَّ أُفقٍ يفصل السَّماء عن مياهِ الخليج، والزُّرقة تُعانق الزُّرقة. وصفحة الماء الرَّقراقة تبدو مثلَ ثوبٍ سماويٍّ منثورٍ بالزَّري والشَّذر الذَّهبي. وقارِبٌ شراعيٌّ يمضي نحو الجزيرةِ وعلى متنِه شِباكُ صَيد، وقُفَّة من الخوص المجدول، وأربعة نفوس؛ خَليفُوُهْ ورفاقه الثلاثة؛ ليل وأشهَب وإلينور.

أبحر خَليفُوُهْ من شاطئ الوَطْية، ثُمَّ يمَّمَ صدرَ قاربه صوبَ الشَّرق، موليًا ظهره صخرة السَّاحل السَّوداء ذات الثَّقب والتجويف المستطيل. وأبحر على مسافة خطوة الخِضر المباركة. ومرسى قرية سعيدة يبعدُ عن القاربِ أقلَّ مِن نصفِ ميلٍ شَماليّ غرب الجزيرة. يواصلُ خَليفُوُهْ إبحاره شرقًا، في المياه الضَّحلة بين جزيرتي فَيْلَكا ومَسكان. وحدَه القاربُ في البحرِ يمنحُ خَليفُوُهُ أمانًا يفتقده على اليابسة. يتخلَّى عن طبع الالتفات وراءه بين حين وآخر، وينظرُ أمامًا إلى وجهته ويمضي قُدُمًا حتى الوصول، غير أنه تمسَّك بعادةِ إخفاء إبهامِه في راحة كفِّه المطبقة. وبانت فَيْلَكا. وتراءى للشَّاب الأملط

المقامُ فوق تَلِّ الجزيرة الصَّغير قُرب المرسى. فالتفتَ يرمق قُفَّة الخوص في مؤخرة القارب، تضمُّ ثلاثة أقراص خبزٍ وبضع تمراتٍ وآنية ماءٍ فخَّارية وعِلَّة إبحارِه إلى الجزيرة؛ حبل سُرَّة ابن سليمان بن سهيل.

ينتصِبُ البناءُ الدَّائري الصَّغير المشيَّد مِن الحِجارة فوق مُرتفَعٍ قريبٍ من السَّاحل. مقامٌ له عدَّة عتبات صخرية تمثِلُ سُلَّمًا يؤدِّي إلى بابِه الصَّغير الوحيد، وعلى قِمَّتِه المستوية ما يُشبِه القُبَّة الحلزونية.

أرخى خَليفُوُهْ شراعَهُ الصَّغير وراح بالمجداف يضرب القاع ويدفعُ القارب نحو المرسى الصَّغير. وما كاد الشَّاب الأمرد يربطُ قاربه إلى صخرة حتى قفزَ أشهَب وإلينور بذيلَين مُنتصبين، يتشمَّمان الصُّخور الزَّلِقة يتبعان زَفَر الأسماك. التفت خَليفُوُهْ يتفقَّدُ ليلًا. ولاح له ذيلُ القِطِّ الأسود يطلُّ من قُفَّةِ الخوص. انتفضَ خَليفُوُهْ قافزًا كما لو أنه جلس بثقله على مسمار. فقذفَ بجسده إلى طرف المركب يجرُّ القُفَّة. وبُهت وهو ينظرُ إلى القطِّ فاحم السَّواد غائر العنق خائفًا يمضغ ماذا؟ خبطَ صدره بكفِّه:

«يُمَّه!».

لا خبز ولا تمر لا خبز ولا تمر. ضربَ خَليفُوُهْ فخذيه بكفَّيه مثل عجوزٍ سُرِقَ عشاؤها. يُغمغم وهو يدري ما الذي صار في جوفِ القِط.

تحقَّق داخل القُفَّةِ وإذ بمنديل أُم سليمان قد حُلَّت عُقدته، ولا أثر لحبلِ سُرَّةِ حفيدِها في داخله. صار يقضمُ أظفاره وهو ينظرُ حولَه جاحظ العينين. ودهمه الوقت وهو يُفكِّر في حلٍّ لمُعضلته. فألقى بشبكةِ الصَّيد في الماء. **لا شيء**. أعاد الكرَّة ثانية. **لا شيء**. أعادها ثالثة فأمسك بسمكةِ عَنْفُوُز كبيرة تشعُّ زُرقةً وصُفرة. استغرب اقترابها في المياه الضَّحلة وهي التي لا تفعل. ***عجوز هرمة، رُبَّما جاءت إلى المقامِ تبتهلُ لقضاء حاجة***. قال لنفسِه. ***أو أنها جاءت لتنتحر على سِيفِ الجزيرة.*** كانت تحاول قرض الشَّبكة بأسنانٍ ينقصها واحد. فحرَّرها من الخيوط وحملها بين كفَّيه وهي تلبط. استغربَ انطفاءَ لونِها فجأة بمجرد خروجها من الماء. صارت السَّمكةُ المفلطحةُ رمادية، وبهتت البقعتان الصَّفراوان على جانبيها، وبرزَ تحت عينها اليُسرى نتوءٌ أسود يشبه الثُّؤلول. ثبَّتَ أبو القْطاوَة السَّمكة بين سطح القارب وكفِّه المبسوطة، وأمسك بسكِّين وراح يشقُّ بطنها بحرص. ثُمَّ استلَّ شريط أمعائها وأفرغه من عوالِقِه فطهَّره بالمياه المالحة، ودسَّه في قلب المنديل وأحكم ربط عقدته، وأودعه في مخبَى دِشْداشَتِه.

هبطَ من القارب عند ضريح سعيدة المطل على المرسى، تاركًا رفاقه الثَّلاثة وراءه يُعاركون النَّوارس وسرطانات البحر على السَّمكة المنطفئة سليبة الأمعاء، وهي تلبطُ لبطاتها الأخيرة بين الصُّخور. ومضى صوبَ المقام الذي اجتمعت حوله النِّساءُ من كل حدب وصوب تنحرُ الأُضحيات، وتسحُّ دماءَها وتصبُّها على العتبات الصَّخرية مثل شلَّالٍ أحمر. نساءٌ زائرات من الدِّيرة، وأُخريات وفدنَ إلى الجزيرة من بلاد فارس، ومن المحمَّرة في عربستان، ومن البصرة والزُّبير والفاو والقطيف والأحساء. يلتفتُ خَليفُوُهْ وراءه مثلَ مخبولٍ يتلافى ضربة غادرة لا تجيء. ***لا أحد***. ويعاودُ النَّظرَ إلى زائرات المقام. يدسُّ بعضهنَّ خرق قماشٍ خضراء بين صخور المبنى، بعضٌ آخر يطبعُ الكفوف الملطَّخة بدم الأُضحيات على الجدران. وقفَ خَليفُوُهْ أبو القْطاوَة غير بعيدٍ عن المقام، يتحسَّسُ منديلَ حبلِ سُرَّة ابن سليمان المزيَّفة في مخبَى دِشْداشَتِه. وفي يدِه الأُخرى يحكُّ رأسه أمام تلك المجاميع التي تنحر وتبتهِل وتقدمِّ النُّذورَ لردِّ غائبٍ أو إبراء عاهةٍ أو منح ولد. تعالى صياحُ أطفالٍ، غير بعيد، يتهاوشون ممتطين يابس السَّعف مثلَ أحصِنة. يحملون سيقان الخيزران مثلَ سيوف. وأطفال أصغر عُراة يلهون برمل السَّاحل. وصبيَّاتٍ يخطِّطن الرَّمل مربعاتٍ فيقفزن بينها على ساقٍ يلعبنَ الحجلة. وأخريات يلعبنَ بَرُّوُي، يرتدين العباءات ويتحلَّقنَ حولِ صبيَّةٍ تتقمَّص دور كبيرة الصاجَّات، تتقلَّد حبلًا شكيكًا بالأصداف والأظلاف، وتنثرُ القواقع والبُنيَّات يستقرئنها الفأل.

أقبلَ على خَليفُوُهْ طفلٌ أقرع عاري الجسد أصفر الوجه جاحظ العينين. بدا في الخامسة، أو السَّادسة رُبَّما. جاء من حُجرة المقام يركضُ هاربًا مذعورًا. فمدَّ أبو القْطاوَة ذراعيه إلى الأمام يصدُّ الصَّبي الذي صاح:

«صَنْقُور القصاصة[1] يُخرِج الضَّوَّ من كفِّه!».

صاح عليه خَليفُوُهْ يرفع سبَّابته:

«لا تقرب وإلا والله بالنعال!».

هبطَ الصَّبيُّ الأقرع بناظريه أسفلَ دِشْداشَةِ الفتى القصيرة:

«أين نعالك يا حافي!».

ركضَ الصَّبيُّ ساخرًا من الأملَط الحافي:

«يا البَرَنْثَى!».

فصاح خَليفُوُهْ وبصق:

«ألعن خلق الله.. اِتفُوُهْ!».

كأنما لم يكن طفلًا ذات يوم. يمقت الأطفالَ ولا ينفكُّ يبتدعُ مُسوِّغات نُفور. كائنات بغيضة وسخة لا تجلبُ إلا المشاكل والإزعاج، مثل البهائم تحبو على أربع، ثُمَّ تستوي وتمشي على اثنتين مثل القرود ليبدأ بعدها خرابُ الدِّيار. تتبوَّل وتتبرَّز في كل

(1) قصاصة: القُصاصة من الشيء، وتطلق في اللهجة الدارجة على قصير أو قصيرة القامة. (محرر وزارة الإعلام).

مكان، تلعقُ بواطن الأنعل ولا تتورع عن التقاط هوام الأرض، تلتقمُ الصراصير وتلوكها لوكَ التَّمر. *قطيعة تقطعهم!* لا رحمة في قلوبهم ولا يسلم من أذاهم قِطٌّ ولا كلبٌ ولا طير. مخلوقات حُرَّة اللسانِ واليَدِ وقحةٌ لا يردُّها عيبٌ ولا حياء. *عمى يعميهم!* يُشير واحدهم إلى ذي العاهةِ أمام العامَّة: أنت أعوَر.. أنتَ أعرج! أو أنتَ.. *أنتَ بَرْنَتَى، لا ذكَرٌ ولا أُنثى.* لا شعر في وجهك وتتكلَّم مثلَ الحريم! *وكيف يتكلَّم مثل رجلٍ من لا يقبله في مجالسهم الرِّجال؟* تتلقَّفه النِّسوة منذُ صِغره. يعملُ أجيرًا بين حريم الصاجَّة التي أكرمته واكترت له قاربًا شراعيًّا صغيرًا، عسى أن تشُدَّ حبال الشِّراع والمجدافان عوده وتُقوِّي ساعديه فيبلغ مبلغ الرِّجال. فاشتدَّ عوده وقويَ ساعِداه وما بلغَ مبلغَ أحدٍ في عيون أحد. أدار الرِّجال وجوههم المُشعِرة عن وجهه الأملس. وأنكره البحَّارة فدخلَ البحرَ على متن قاربه الصَّغير يقلُّ النِّساء بين الدِّيرة والجزيرة، فالرِّجالُ يسمحون، ولا يُمانع الغيارى أن تختلي حريمهم بكائن رخوٍ مثله.

واللعنة! كُلُّ طفلٍ في هذه الدنيا بلاء. اللعنة على الأطفال واللعنة علَيَّ يومَ كُنت طفلًا! قالت لي أُمي قبل أن يصيبها المرض ما تقوله الأُمهات لأطفالهنَّ البهائم. كرَّرَت. أنذرَت وحذَّرَت؛ إياك أن تُديرَ ظهرك لرجل، أي رجل، كيلا يكسر ظهرك! لو أنها صارحتني بما يُخيفها فأفهم! ولكن ما من طفلٍ يفهم! أمضيتُ طفولتي في السِّكَكِ أُكثر من الالتفات ورائي مثل مخبول، أحمي ظهري من كسرٍ حذَّرتني

منه أُمّي. يتردد في رأسي صوت تكسُّر عظام ظهري كأني أسمعها كُلَّما عبرت سكَّة في اللَّيل وحدي. يُفزعني أي مارٍ من ورائي، ويرعبني نباح كلبٍ سائب، فأنادي مثلما أنادي كلما أفزعني شيء: يُمَّه! فيضحك الرجال. آمنتُ بأني لن أكون بمأمنٍ خارج البيت بعيدًا عن أُمّي إلا وأنا أستندُ إلى الجدار، أيُّ جدار، وكُلُّ الجدران كانت آمنة إلا جدار مسجد سوق الحريم. تعال يا ولد! صرخ بي المُلَّا إبراهيم قبل سنين. قبل أن تشيب لحيته وتُحمِّرها الحِنَّاء، وقبل أن يستبدل بالعِقال عُصابة الرأس البيضاء، وقبل أن يصير كريمَ عين. أشار إلي بسبَّابته وأنا على ما تعوَّدتُ أتربَّعُ بين صِبية الصَّف الأخير، على ما حذَّرتني أمي، لا يجلس أحدٌ ورائي ولا أُدير ظهري إلا للجدار.

صاح علي المُلَّا أمام الصِّبيةِ في ساحة المسجد مبحلق العينين، بلغتَ سِنَّ الرُّشد ولم ينبت لك شارب. وصاح على الصِّبية المنكفئين على ألواحهم يخطُّون الحروف بالطَّبشور، وحذَّرهم: «مَن كرَّر النظر إلى الأمرد أو داومه وقال: إني لا أنظر بشهوة، فقد كذب!». وصرفهم عن مصافحتي وقال إن النظر إلى وجهي من غير حاجة حرام. فانصرف أقراني عن النظر إلى وجهي حتى وإن تحدَّثوا معي اضطرارًا، إلا منصور رحمه الله، قبل أن يتولَّاه بن هولين ويجعل منه بحَّارًا. وقبل أن يشيع صيته الذي صار يسبقه؛ منصور «الغيص». فقد أشفق عليَّ حينما صرتُ مسخرة الدَّرس لا يكفُّ الصِّبيان سخريتهم مني. وما انفكَّ يُدافع عني من وراء كريم العين إذا ما

تطاول عليّ بالضَّرب تلميذا المُلّا النَّجيبان، ولدا بخيتة «العبدة» وكلنا عبيد الله؛ ساطور العَرد وأخوه عطا الله الخيزرانة. وربما تعب منصور من الدفاع عن صبيٍّ ضعيف لا يُحسن الدِّفاع عن نفسه، حتى أمام ولدَيّ بخيتة اللذين يصغرانه ببضع سنوات. أمسك بياقة دِشْداشَتي وشدَّني إليه مُقرِّبًا وجهه إلى وجهي: «اللِي يقول لك بَرْنَتى.. اتِفل في وجهه». وهكذا تَفَلتُ في وجوه الذين لا ينادونني باسمي حتى جفَّ ريقي، ومللت التَّفل والضرب الذي يجيئني من بعده. وما فلت أحدٌ من تَفْلةٍ إلا أوّل من أطلق عليّ اللقب.. لو أنه يردّ لي سلامًا.

كرهتُ الدَّرسَ في الكُتّاب. كرهتُ وجهي الأملس. كرهتُ دعاء كريم العين عليّ بسواد الوجه كلما رآني: «سوَّد الله وجهك الأمرد!»، ودعاءه للصِّبية كلما رضِيَ عنهم: «بَيَّض الله وجوهكم». كرهتُ وجه المُلّا وعينيه اللتين تنظران إلى كل شيءٍ إلا وجهي. يقلِّبُ نظره إلى جسدي كأنما يجرِّدني من ثيابي في خياله، يُشكِّك في أني صَبي، فيعتكر وجهه ويستغفر ويستعيذ بالله من سوء المُنقلب. كرهتُ نفسي قبلًا وكرهت كل بني آدم بعدما حذَّرنا المُلّا إبراهيم في أول الدُّروس من الكِبْر، لمّا شافَ اعتداد منصور بنفسِه، قال علامَ الكِبْر وعلامَ يختالُ ابن آدم وهو يجيء إلى الدُّنيا أول ما يجيء من مخرج البول؟ يقذفه أبوه من ذكرِه، فيستقرُّ في أحشاء أُمِّه ويكبر تسعة شهورٍ فيخرج من موضع النجاسةِ بين فخذيها. فليتذكَّر

الإنسان أصله. ركضتُ إلى أُمّي قبل أن تمرض آنذاك أسألها هل صحيح أني؟! وحلفَت أمي إني خرجت من بين فخذيها لكن ليس من مخرج البول، وسكتُّ عن القول: معنى ذلك أني خرجت مِن.. اللعنة! من أين خرجت؟! ومن يومها وآنا لا أرى في نفسي إلا نجاسةً تمشي على الأرض.

كنتُ وحيدًا، وصرت وحيدًا ومذعورًا حينما أصاب السُّلُّ أُمي. ولو كان «بيت الزجاج» هُنا ذاك الزمان لما سعَلَت أُمي دمَ صدرها خاثرًا على كفِّها. دفعتني إلى الدَّرس غصبًا رغم مرضها. وأمضيتُ الدُّروس أخطُّ بقطعة الطَّبشور في لوحي فيحسبني المُلّا أكتب. بينما يخطُّ رفقةُ الدَّرس في ألواحهم: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أرسُمُ على لوحي حاجبين وشاربًا عريضًا مثل شارب الهذار زوج أمينة البيعارية.

دسستُ كفَّي في التَّنُّور الذي أخمده مرض أمي، ألطخها بسُخام جداره. وسوَّدتُ موضع حاجبيَّ ووجنتيَّ وأعلى شفتيَّ أرسمُ خيالَ حاجبين وشارب ولحية، كي أصيرَ إلى ما صاره أقراني ممن شارف البلوغ من صِبية المُلّا إبراهيم. ولكن المُلّا ما قَنع برجولتي الخالية من الشَّعر، وصاحَ علي وسُخام التَّنُّور على وجهي: يا مُسوَدَّ الوجه يا ولد إبليس! أطبقَ قبضته على زندي بعد الدَّرسِ وجرَّني إلى مَغسلِ المسجد. أجلسني على الدَّكَّة بين أوعية الفخَّار والصَّفيح يغسلُ وجهي بالماء، يصفعني ويُزيل السُّخام، ويلطخُ بالسَّواد روحي. يقول إني بنتٌ في

ثوب ولد. فيُقلّبني بين يديه، وينعتني بالأمرد الأملط. كنت أُنصتُ إلى نداءات بائع الصَّرّة اليهودي وراء سور المسجد يُنادي على بضائعه. وأتذكر أن البُلبُل الذي جاء به شاؤول من البصرة، قبل أسابيع، قد حطَّ على جدار مغسل المسجد، ينظر إليّ ويُزقزق بصوت واطئ كأنما يحدث نفسه، حينما راح المُلّا إبراهيم ينهرني ويصيحُ علي أن أنقلع من أمامه لأن النظرَ إلى وجهي حرام.. حرام.. حرام. فصرتُ غير مرئي. لا ينظر إلى وجهي إلا النِّساء والأطفال، وأصحاب الحَوْطة لمّا بلغتُ الشَّباب، وبُلبُل اليهودي الذي شهد انكسار روحي أمام كريم العين، قبل أن يطير مذعورًا. حمدًا لله أن البُلبُل لا ينطق!

أتذكر يوم المغسل في كل لحظة أثني فيها إبهامي في راحة كفِّي، مُطبقًا عليه أصابعي الأربعة كي لا أراه، فأستعيد صياح كريم العين وفرار البُلبُل. نسيتُ وصية أُمّي بألا أُديرَ ظهري لرجلٍ كيلا يكسره. وكان جدار المسجدِ آمنًا على ظهري، لكنه ترك روحي للمُلّا إبراهيم يكسرها. ولمَّا رجعت إلى البيت من الدَّرس الأخير؛ كان السُّلّ قد التهمَ آخر لُقمةٍ من رئة أُم خليفة.. وبَس.

عافت النَّفسُ كُلَّ شيء. وما رغبتُ في شيءٍ إلا ردَّ تحيةٍ من كريم العين، لكنه لم يُردَّ لي في يومٍ تحيَّة. فتمنيتُ أن تجمعني وإياه وحدنا سِكَّةٌ ظلماء فأنتقم، ولا أدري كيف أنتقم. لكنني أدري أني ما رغبت في شيءٍ منذ صغري إلا أن أصيدك يا كريم العين في سِكَّةٍ ظلماء.

تربَّع أبو القَطاوَة على رملِ سِيف الجزيرة غير بعيدٍ عن المقام، يلفُّ حاشية دِشْداشَتِه حول خصره، ويرسمُ خطوطًا ودوائر في الرِّمال، يصرفُ انتباهه عن أصوات الصِّبيةِ وصياح الأطفالِ وذكرياتِهِ المريرة قبل أن يؤاخي القِطَط ويسدَّ بها فراغات الوحدة. يتحرَّى انصراف الجموع التي بدأت تنسحب شيئًا فشيئًا مع أُفول الشَّمس وراء البحر في صحراء الدِّيرة. وهبطَ اللَّيلُ وارتفعَ غناءُ الجنادب لإناثها في ليل الجزيرة.

ولاحت لـ خَليفُوُهْ الصاجَّة أُم صَنْقُور، مُمتلئةً عامرة الصَّدر تقفُ بعباءتها السَّوداء أعلى العتبات. امرأة حباها كاتب الأسفار منزلة في صحائفه وهي ما كادت تبلغ الأربع والأربعين من عمرها. مات عنها زوجها آدم المُصَوْقَر بعد أربع سنواتٍ من الزَّواج، ولها من الأبناء اثنان رهنت نفسها لتربيتهما ونذرت حياتها لخدمة المقام. أكبر الولدين صَنْقُور والأصغر مستور. وكان من يراهُما لا يُصدِّق أن صَنْقُورًا هو الأكبر. فقد بلغ الولدُ البكرُ الثَّلاثين وله قوة رجل، لكن صوته وجسده لازَما العاشرة ولم يكبُرا أبدًا. وما فارق الرجلُ الطِّفلُ أمَّهُ طوال حياته إلا لمامًا، على حين

أبحر شقيقه الأصغر مستور إلى الدِّيرة قبل سِتَّةِ أحوال، يحملُ من أُمِّه كتابَين لا ثالث لهما، أوصته بأمر كاتب الأسفار أن ينتظر أحدًا لا يدري أحدٌ من يكون، ويسأله عن الأمانة. وطال مكوثُ الولد في أحد بيوت المرقاب، وهو يرسلُ من الدِّيرة الرُّسل إلى أُمِّه لتأذن له بالعودة إلى الجزيرة، فقد طال غيابه وما سأله عن الكتابَين أحد، والشوق يعتصره إلى رابية الصِّبا حول المقام، ولا جاء من أمه خبر يُبشر بالرجوع. غير أن أُمَّه -الملعونة بكلمةٍ واحدةٍ لا تُثنيها إلا بأمر كاتب الأسفار[1]- ما كانت قادرة على السَّماح له بأن يعود ما لم يُسلِّم الأمانة فيأذن كاتب الأسفار بعودته. ومُذ غادر مستور الجزيرة إلى الدِّيرة بالكتابين لم يُعد.

---

(1) ورد في سِفر «حوليات مدينة الطين» عن أم صنقور في باب صاجّات الجزيرة: [الصاجَّة الضَّحوك، خادمة مقام الخِضر كبيرة صاجَّات سِفر التَّبَّة. ومنزلتها الحادية والعشرون في سلسلة كبيرات صاجَّات مدينة الطين، صُغرى صاجَّات الجيل العشرين. وُلدت في السَّنة العاشرة من حُكم الشَّيخ عبدالله الثاني بن صُباح، وتموت في سنةٍ يُهدم فيها المقام. تتولَّى مقاليد الكهانةِ في الجزيرة بعدما تطوي من السِّنين أربع وأربعين. وتكون في خيال كاتب الأسفار صاجَّةً ضحوك، نزَّاعة إلى الخِفَّة والرَّقاعة، ولا تولي مكانتها حقَّ قدرها، فيُكَلِّف كاتبُ الأسفار أصغر ولدَيها في أمرٍ ويرسله إلى مدينة الطِّين. يحيا العُمر فيها يشيخ ويمرضُ ولا يموت ما لم يُنجز الأمر. ويمكث طويلًا بعيدًا عن الجزيرة في مدينة الطين، لعلَّ الأُمَّ بفقد الابن تكف الضحك، فتحزن وتصطبر فيمسَّها الوقارُ بهالته. لكن صاجَّة المقام لا تحزن ولا تنفك تسأل كاتب الأسفار عن موعد عودة ولدها الأصغر، فيُبشِّرها كاتب الأسفار: «حينما تحطُّ في الدِّيرة البلابل»، والصاجَّة تدري أن البلابل لا تحطُّ في ديرة لا ماء فيها ولا زرع، فتسأل ثانية: «متى تحُطُّ في الدِّيرة البلابل»، فيضيقُ كاتبُ الأسفار ذرعًا والصاجَّة اللَّحوح تُعرقله عن تحبير صحائفه، فيلعنها بقول القول مرَّةً واحدةً لا تُثنِّيها إلا بأمره. ولا تفوهُ أُم صَنقُور بعد اللعنة لتسأل ثانية: «متى يعود مستور»]. (المؤلف).

أشعلت أم صَنْقُور
فتيلَ سراجٍ مُعلَّقٍ
أعلى الباب الصَّغير.
وتلألأت بشرتها
السَّوداء النديَّة، وتوهَّجَ خدَّاها
المكتنزان بفعلِ ضياء الشُّعلة.
وظهرت من شقِّ عباءتها
درَّاعتها الخضراء. ثُمَّ انحنت
على موقد حطب،
فحملَت مِنقاشًا اِحْمَرَّ
حديدُه بفعل الجمر.
وعادت إلى حُجرة
المقام، وأطبقت الباب قبل أن يتخطرف أبو القْطاوَة في مشيته مُقبلًا عليها. كاد أن يطرق الباب لولا أن ضجَّ المقامُ بصرخةِ غلامٍ تشظَّت أصداؤها في ساحل الجزيرة.

وارتفعَ صوتُ الطَّبل البحري والطَّار[1] بإيقاعٍ «قادريٍّ» تميِّزه أُذْناه. لا تُقرع الطُّبول ولا تُنقَر الدُّفوف في ليل مثل هذه الأماكن إلا من أجلِ إقامة حفلة زار كما يعرف خَليفُوُهْ. ويُميِّز الشَّاب حضرةً

(1) طار: والجمع طِيران، أكبر من الدَّف، من أدوات الإيقاع في الفنون التقليدية. (محرر وزارة الإعلام).

عن حضرةٍ بأُذنيه. فإذا ما جاء إيقاع الدُّفوف قادِريًّا فطِنَ إلى أنها جلسةُ ابتهالٍ لسلطان الأولياء الإمام عبدالقادر الجيلاني. وإذا ما سمع الإيقاع الـ «سَنْكَني» أيقنَ أنها جلسة كشفِ كاتب الأسفار. أو جلسة تضرُّع وقضاء حاجة من السيِّد الخِضر صاحب المقام إذا ما ارتفع الإيقاع «الخِضري».

أطلَّ خَليفُوْهْ من كُوَّة الجدار ينظرُ إلى الدَّاخل. ينتشرُ دُخان البخور في المكان كثيفًا تحت سقف الحُجرة الذي تقشَّر دهانه الأخضر. وغصَّت حُجرة المقام الضيِّقة بالنِّساء، بعضهنَّ وقوفًا، وبعضهنَّ على الأرضِ يتربَّعن في حلقةٍ كُلُّ واحدةٍ تشيلُ طارًا، إلا واحدة بينهنَّ متربِّعة وراء طبلٍ بحريٍّ كبير. لا يظهرُ من سوادِ عباءاتهنَّ إلا الوجوه مُغمضة الأعين، والكفوف تصفعُ الدُّفوف، وخفقُ القلوب يُحاكي إيقاع القرع والنقر.

يقعدُ في أحد الزَّوايا الرَّجل الصَّغير طفوليّ الوجه مُكتنز الخدَّين كثيف الشَّعر سَمْح المحيَّا، صَنْقُور القصاصة ابن خادمة المقام. يفوق الأقزام طولًا بقليل، كأنه قُصاصة من شيء، أو شيء غير مكتمل النُّمو. يضمُّ ساقيه إلى صدرِه داخل دِشْداشَتِه ويرتفق ركبتيه. وعلى الجدران الكلسيَّة من حوله حروفٌ وطلاسم مخطوطة بالرَّماد والدَّم، ولطخات عجائن الحنَّاء اليابسة، ومناديل خضراء مدسوسةٌ في شقوق الجدران الصَّخرية. ولِصق الجدار المقابل عمودٌ مدهونٌ بالأخضر يتوسَّطه رسمُ عين.

اخترقت أُم صَنْقُور حلقة النِّساء الغائبات في طقسهنَّ. تتنكَّبُ سَعفتها بعدما علَّقت عباءتها على مسمار في الجدار. وتهادت بدرَّاعتها الخضراء في رقصةٍ بطيئةٍ رصينة. ومَرَشُّ ماء الورد في يمينها، تنثرُ الماء العطري على غلامٍ أقرع، ينسدحُ عاريًا وسط حلقة النِّساء فيما يُشبه إغماءة .ويبدو على رأسِه أثرُ كيٍّ ملتهب. انفرجت شفتا خادمة المقام الغليظتان وراحت تُغني بصوتٍ حادٍ كالصَّفير:

«بِسم الله.. أوَّل مَبدا؛

بسم الله».

ظهرت أسنانها اللؤلئية برَّاقةً ينقُصُها ناب. أسنانٌ منحتها بشرةُ المرأةِ الدَّاكنة بياضًا مضاعفًا. انحنت بجذعِها تناولُ إحدى النِّساء السَّعفة ومَرَشَّ ماء الورد. وأمسَكَت بالطَّارِ تصفعه صفعاتٍ متتالية قبل أن تستأنف شَدوَها:

«شِي لله.. عبدالقادر؛ شِي لله».

اشتدَّ القرعُ والنقرُ حتى راح الصَّبي الأقرع ينتفضُ في منتصف الحلقةِ كما لو أنه مسَّهُ صَرَع. جحظت عينا خَليفُوُهْ وراء كوَّة الجدار كأنه لا يألف المشهد. همدَ الغلام مكويَّ الرأس وسط حلقة النِّساء،

وعيناه مفتوحتان على أعمدة السَّقف الخشبية مع آخر ضربات الطَّبل والطِّيران. وكَشَطت أُم صَنْقُور قطعةً من عجينةِ حنَّاء يابسة من الجدار، ألقمَتها الغلام العاري تُطهِّر جوفه وتُبارك روحه. ثُمَّ استدارت نحو المناديل الخضراء تستلُّ واحدًا من شقِّ الجدار، وناولته امرأة وأوصتها أن تلُفَّ به رأس ولدها بعدما تشرَّب المنديل بركة المقام لثلاثةِ أيام. ذكَّرت الحاضرات فيما يُشبه خطبةً بفضل الخِضر الذي شرب ماء الحياة وأصبح خالدًا محجوبًا عن الأنظار، يمرُّ بمن يلفظ اسمه، الرَّجل الصالح الذي تخضرُّ الأرضُ من حولِه وتحت قدميه إذا ما سَجَد. فهدأت أنفاس الشَّاب المصروع وأغمض عينيه.

صاحت الصاجَّة بصوتها الغريب تُنادي ولدها المتكوِّر في الزَّاوية، تمُطُّ حرف الرَّاء كأنما تُطلق صفيرًا:

«يا صَنْقُوووور!».

أجابها الفتى:

«خير».

نهرته أُمُّه:

«قُم عاون الصَّبي على النُّهوض».

تراجع خَليفُوُهْ. هبطَ عتبات المقام الصَّخرية رافعًا أطرافَ دِشْداشَتِه عن دماء الأُضحِيات. وراح يتحرَّى خروج أُم صَنْقُور من بعيد.

انفضَّ الجمع. ونهضَ صَنْقُورٌ قصير القامةِ والدِّشْداشَة، وعاون الغلام على لبس دِشْداشَتِه، ومشى مكويُّ الرأس كالمُسَرنم صوبَ أحد الحَمَّارة. فامتطى حمارًا غاب به وراء إحدى السِّكَك القريبة، تتبعه أُمُّه وتختفي عباءتها في ظلام اللَّيل. ومكثت صاجَّةُ الجزيرة وحدها في حُجرة المقام لاهثة مرهقة مكفهرة الوجه. أخرجت من ثوبها ما يشبه عجينة التَّمر اليابسة. وكشطت بظفرها قطعة صغيرة رمتها على جمرة المبخرة، فاستنشقت دُخانها الأزرق وانشرحت واستحال اكفهرارها ابتسامًا.

أسرعَ خَليفُوُهْ يرتقي العتبات بحذرٍ وهو يمسحُ بثوبِه باطن كفِّه اليُمنى من العَرَق. سمعت صاجَّةُ الجزيرة وقع الأقدام على العتبات، وصاحت تسأل عن المقبل:

«صَنقُور؟».

أجابها الشَّاب:

«خليفة وبَس».

«حيَّاك الله يا خَليفُوُهْ يا أبو القْطاوَة.. أسفرَت وأنورَت واستهلَّت وأمطرت».

دسَّ كفَّه في مخباتِه وهو يقف عند الباب، فمدَّها مبسوطةً إلى أُم صَنْقُور:

«أُم حَدَب تسلِّم عليك.. وتوصيك خيرًا بالسُّرَّة».

ابتسمت الصاجَّة أُم صَنْقُور كاشفةً عن سِنِّها السَّاقطة ما إن سمعت اسم كبيرة الصاجَّات. تقدَّمت إليه ومدَّت يدها تتناول المنديل من أبي القْطاوَة. وبدا خَليفُوُهْ ساهِمًا في نتوءٍ بحجم بذرة الرُّمان برزَ في خدِّها الأيسر، بالكاد يُميِّزه في سُمرَة بشرتِها. مدَّت أُم صَنْقُور كفَّها ثانية من دون أن تفوه بكلمة. تنبَّه خَليفُوُهْ، فنقَدَها الرُّوبِيَّات الهندية الثلاث. انفرجت شفتا الصاجَّة:

«ألم تخبرك الصاجَّة أُم حَدَب أنه لا يجوز أن تجيء لوحدك؟!».

فطن خَليفُوُهْ إلى ما ترمي إليه أُم صَنْقُور. تُردِّدُ الصاجَّات عند طقس دفن حبلِ السُّرَّة: «جاؤوا بالسُّرَّة.. جاؤوا بالسُّرَّة.. الخير داخل والشَّر برَّا»، ومجيء خَليفُوُهْ بمفردِه يُعارض المبتدأ: جاؤوا. التفت أبو القْطاوَة يُشير وراءه صوبَ الظلام.

«جئتُ بصحبةِ ليل وأشهَب وإلينور».

رفعت الصاجَّةُ حاجبيها:

«إلينور؟! الخاتون العَنكريزية؟!».

هزَّ خَليفُوُهْ رأسه:

«لا، هي قطة أسميتها على الطبيبة بعدما ورطتها بقطة سوداء لا أراكِ الله مثلها يا أُم صَنْقُور. مبروكة، قطيعة تقطعها، قطة غيورة وطويلة يَد. حذفتها قبل خمس سنوات على الطبيبة إلينور.. وعلى سيرة العَنْكريزية؛ لقد أرسلتني إليك تطلب منك زجاجة ماء غريب».

صعَّرَت أُم صَنقُور خدّها ورقَّصَت حاجبيها:

«سَلِّم على الخاتون العَنْگريزية التي أخلفت بوعدها ولم تَشفِ المبروكة أُم حَدَب من البَرَص.. سلِّم عليها كثيرًا يا خَليفُوُهْ، قل لها أُم صنقور تسلِّم عليك سلام الله، وتقول لك إن شاء الله سوف تُحضر لك زجاجة ماء غريب في عرس أُمّك».

فرنَّت ضحكتها الرَّقيعة في المكان، واستدار خَليفُوُهْ يُعدِّل وضع غُترته الملفوفة على رأسِه كيفما اتفق. وقرَّب كفَّيه مبسوطتين إلى فمِهِ، وماءَ مثلما يموءُ قِطٌّ في موسم تسافُد. فظهر في ظلام سِيف الجزيرة القِطُّ العجوز فاحم السَّواد يقترب منتصب الذَّيل، يتبعه قِطٌّ يُخالط بياضُه سوادَه، وقِطةٌ بيضاء. أغربت الصاجَّة في الضَّحك ثانية، واختضَّ جسدها الشَّحيم على أعاجيب القِطَط التي لا تنتهي في أحاديث خَليفُوُهْ.

عاد صَنْقُور يجرُّ عربةً خشبية بعجلتين تحملُ دلاءً من ماء البحر. راحَ يصُبُّها على العتبات الصَّخرية يُزيل الدِّماء العالقة. وينظرُ على عادته إلى الشَّاب الأملط في ريبةٍ يُخالِطها احتقار. وهبطت أُم صَنْقُور العتبات الرَّطبة تُحاذر الانزلاق مُمسكةً سَعفتَها. وضربت الرَّمل الرَّطِب بكعبِ جريد السَّعفة القاسي تُحدث ثَقبًا في الأرض. فأقعَت أسفل عتبات المقام إلى جوار الثَّقب تهمُّ بدفنِ منديلِ حبلِ السُّرَّة، كي تصير بدفنِها وتدًا يجيء بصاحبها في قابِل الأيام. قرَّبت المنديلَ إلى شفتيها وهي تُنقِّل بصرها بين خَليفُوُهْ والقِطط الثَّلاث:

«جاؤوا بالسُّرَّة.. جاؤوا بالسُّرَّة.. الخير داخل والشَّر بَــ...».

أمسكت عن نطقِ بقية الجُملة. تشمَّمَت المنديلَ وتشنَّجت عضلات وجهها. فمَطَّت شفتيها الغليظتين، وتحسَّست محتواهُ مقطِّبة حاجبيها. حلَّت العُقدة تُبحلِق إلى مُحتواها، وجحظت عيناها عند رؤية أمعاء السَّمكةِ ثُمَّ حدجت خَليفُوهْ:

«وهل أنجبت حُبلاكم سمكة؟!».

ارتبك أبو القْطاوَة لاكتشاف صاجَّة الجزيرة لعبته، وانفرجت شفتا القصاصة بين خديه المنتفخين وأطلق ضحكة مجلجلة.

«صنقور!».

صاحت عليه أُمُّه فأطبق شفتيه الغليظتين وواصل الضَّحك مكتومًا. وراحَ خَليفُوهْ يُبرِّر فِعلَه وهو يُشير بسبَّابتِه صوبَ ليل الذي

التهم حبل السُّرة في القارب. فهزَّت الصاجَّة رأسها وهي مُقعية عند ثقب الأرض ما زالت:

«بسيطة.. بسيطة».

توقَّعت أن قطَّهُ الأسود لم يتبرَّز الحبلَ السُّري بعد. أمرته أن يحمل لها القِط لتسوِّي الأمر بنفسها. وحمله بين يديه فتردَّد. ومدَّت أُم صَنْقُور يديها وهو يحتضن القِط واجمًا في مكانه، فنهرته:

«أُم صَنْقُور تقول القولَ مرَّة ولا تُثَنِّي».

ناولها قِطَّه الأسود، ورجاها أن تسقيه ما يُعجِّل بخروج الحبل السُّري مع فضلاتِه، لا أن تحده على القيء فالقِط مفرط الحساسية. فهزَّت أُم صَنْقُور رأسها:

«لا حاجة.. عند الله السِّعة».

ووسَّعَت ثَقبَ الأرضِ وراحت تحفرُ في الرَّمل بيدٍ والقِطُّ الأسود مُحاط بذراعها الأُخرى. فرنَّت ضحكتها المجلجلة بعدما قالت:

«حيَّا الله طوعَس!».

وسريعًا سوَّت عجوز الجزيرة المسألة. وأبحَرَ خَليفُوُهْ فجرًا، يطوِّقه الخَرَس. وطَفا قاربه على صفحة المياه الرَّمادية المنطفئة، يحملُ على متنِهِ ثلاثة نُفوس؛ هو ورفيقيه أشهَب وإلينور، يطِلَّان من مؤخرة القارب، ويُخفيان ذيليهما بين قوائمهما.

***

(15)

سَيفٌ في خاصِرة سُليمان

«وما دبَّت في وجه الفتى نملةٌ بعد ذاك النَّهار»

«دَرْب.. دَرْب».

ردَّدَ سليمان رافعًا صوتَه وهو يدفعُ بابَ بيته، يُحيط ذراعًا حول مطوية أغراضه على كتفِه. أطبق الباب الخشبي وراءه. وتنحنحَ وهو ينظرُ إلى زوجين من الأنعُل النِّسائية عند عتبة اللِّيوان، ثُمَّ عاود تنبيه النِّساء ليُلقيَنَّ بوشِيَّاتهنَّ على الوجوه إن كُنَّ سافرات، يرفعُ الصَّوتَ يُكرِّر طلبهُ دربًا يسلكها إلى الدَّاخل:

«دَرْب.. دَرْب».

لم يُجبه أحد. شايعة في حيرةٍ بين شوقِها العارم إلى ابنها، وبين خوفها عليه من سوء النبأ. لو كان الظرف غير ظرفها هذا، لهرست له السَّمكَ خِثرةً يُحبها، وتستقبله كما يُستقبل الغاصة بالغناء والزَّغاريد. غير أن شيئًا من هذا لم يحدث في البيت الأخرس. بدا سليمان مُثقلًا بحادثة السَّنْبوك، كارهًا سوء ظنون البحَّارة وهو الذي وفق قناعته ما قارف الذنب ولا فقد إيمانه. أقفل وفي رصيده

تسعمئة وثلاثة وسبعون تَبَّة، وفي وجدانه صورةٌ لنظرة شيخ البحَّارة في الخُنِّ لن ينساها أبدًا، يرنُّ في أُذنه صوته المتعب الغاضب: ليش يا كلب؟

أحكمَ لفَّ غُترته حول رأسِه، يُخفي أُذُنَيِّ الحُصْني بعدما أسندَ مطوية الحصير إلى الجدار وراء باب الدَّار. يسترقُ نظرةً خاطفةً إلى نساء الليوان في ريبة، وهُنَّ يتربَّعنَ على بساطِ حصيرٍ في الأرض، مُتحلِّقات حولَ موقد الحطب؛ أُمُّه، وأُم حَدَب تفضحها حَدَبَتها، وشريفة بغيرِ حياءٍ لا تُسدِل البُوُشِيَّة على وجهها ذي العينين الكحلاوين والشَّفتين المصبوغتين بالدَّيْرم[1]. تلتهمه بناظريها والهةً وهي تلوكُ عِلكة بَصْرية. ولا يُميِّز الشَّاب أُم غايب الغاطسة بينهنَّ في سواد العباءة والبُّوشية. أوجسَ قلبُه فزعًا وهو يُبصر الفراش الأرضي في اللِّيوان خاليًا من فضَّة. فخشيَ أن زوجته مريضة، فأصابه الذُّعر. *أو أنها قد تُوفِيت*. تلك الوفاة المحتملة وهي تضعُ مولودَها الأوَّل. نهضت شايعة أسيانةً صامتةً متثاقلة الخُطى، فسارع سليمان يخبُّ صوبَ حجرتِه في اللِّيوان المطل على الحَوش غير المسقوف. يُسابق أُمَّه التي هرولت تسبقه إلى وجهته. وقفت على عتبة باب الحُجرة الموصد، تُباعد بين ذراعيها وكُمَّا ثوبِها الواسعان مفرودان مثل جناحَي عُقاب، تحولُ دون دخوله على فضَّة. ارتعشت شفَتا

(1) دَيْرَم: من أدوات التجميل، لحاء شجرة الجوز، يبيض الأسنان ويترك لونًا داكنًا على لثة المرأة وشفتيها. (محرر وزارة الإعلام).

سليمان وهو يُفكِّر في دافع أُمِّه لصَدِّه عن الدُّخولِ على هذا النَّحو. فكَّ غُترته عن رأسه وأعاد لفَّها لِثامًا على مداخل الهواء في وجهه:

«سُلٌّ أم جُدَريّ؟».

أجابته شايعة بعينين مخضَّلتين ووجهٍ صلدٍ مثل وجه سخلةٍ ساهمة:

«يا ليت».

شعرَ بقرصةٍ في قلبِه وأماط اللِّثام. قفزَ الموت إلى هواجسِه ثانية. وكرَّت على ذاكرته كلمات نَهَّام السَّنْبوك، مثل صرخةٍ دوَّت داخل رأسِه على حين غُرَّة. «إنَّ الأمورَ التي باللوحِ قد كُتبت.. إما أتتك أو أنتَ آتيها».

انفجرَ الرَّضيع يبكي في الحُجرة وراء ظهر شايعة. فارتفع نشيجُ فضَّة يُخالط بكاء الرَّضيع. وتنحَّت أُم سليمان جانبًا تكتمُ أنينها، تُسنِد كفَّيها إلى رأسها، ما جعلَ من أجواء البيت ما يشبهُ مجلس عزاء. وسليمان لا يفهمُ شيئًا من هذا كُله. طأطأت النّسوة المجلَّلات بالسَّواد، ونشجت شايعة مثل طفلة:

«اِدخل يا وليدي إن شئت، ولكن، إن جئت تعانق.. اِعلَم أنها أُختك».

جحظت عينا سليمان، ورفعت الصاجَّة أُم حَدَب كفَّها عاليًا دونها إلقاء نظرةٍ صوبَهُما:

«ولا رادَّ لأمرِ الله».

تحرَّكَ النَّملُ التَّائه في صدغَي سليمان إزاءَ إجابةِ الصاجَّة مقرونةً باسم الله. *يا الله!*

ردَّدَت أُم غايب وشريفة، واحدة بعد أخرى:

«ونعم بالله.. سبحانه».

فطِنَ إلى ما تعنيه أُمُّه. أسرع يُجيب:

«لكن أُم جرَّاح لم تُرضِع فضَّة!».

كتمت شايعة نشيجَها غضبًا:

«ولَمَ تُرضعك يا وليدي».

تلفَّت سليمان حوله يُمرِّر نظره بين الصاجَّةِ والمرأتين في اللِّيوان. والتفتَ إلى أُمِّه ثانيةً يستوضح. طأطأت شايعة:

«أرضَعتها خادمتها أُمُّ سرور..».

لم يكد سليمان يسألها عن مكمن المشكلة حتى أجابته:

«..وأرضعتك».

اِستدقَّت شفتا سليمان وكزَّ على أسنانِه والشَّررُ يتطايرُ من عينيه الدَّامعتين. لكمَ بابَ حُجرتِه بقبضتِه زاعقًا مُزبدًا مُربدًا، فانتفضت أُم غايب وشريفة، ولم يشهد الارتباك على وجه الصاجَّة البرصاء التي ارتعشت وجنتُها ذات الثُّؤلول الأسود وراء البُوشِيَّة.

راحت الصاجَّة تُتَمتِم وتهزُّ رأسها مُطأطئةً مُغمضة العينين. ولأنها تعرفُ ميلَ سليمان بطبعِه إلى التدَيُّن، وخشيتِه من الله، قالت تُذكِّر:

«أمر الله.. ولا جزع من أمر الله».

دبَّت جيوشُ النَّملِ ثانية في وجه سليمان واقشعرَّ بدنُه.

تمتمَت أُم غايب وشريفة:

«ونعم بالله.. سبحانه».

فاستطردت أُم حَدَب بصوت مرتفع:

«خير يا طير؟ أختك من الرضاع.. ما طاحت السّما على الأرض.. خذ غيرها وهي تأخذ غيرك».

ارتفعت صرخة فضَّة في الحُجرة:

«الله ياخذني».

فأفلتت العجوز الحدباء زفرة:

«والله إن كلام الناس سوف يأكلك يا بِن سهيل لو أبقيت فضَّة على ذمتك.. أختك يا ولد.. أستغفر الله.. أختك».

ارتعش قلبُ سليمان حينما شاكست الصاجَّة أكبر مخاوفه. تبدَّى الغضبُ على وجهه، ولم يُجدِ صراخه على العجوز بأن فضَّة زوجته، وأن لا دليل على ادعائهنَّ إلا كلام الحريم، وأن المرضعة أُم جرَّاح قد ماتت، وأن «عبدتها» أُم سرور راحت مع سيدها وأبنائه

إلى الهند. غير أنه يدري أن ما أسماه كلام الحريم إنما هو الجحيم. لو ضربَ كلامهنَّ عرض الجدار وبقيَ مع فضَّة؛ لأمضى العُمر كله يُلسع بألسنة النَّاس؛ «سليمان أخذ أخته». والدِّيرة على ما يقولون.. صغيرة، ومن لا يعرفك يعرف الذي يعرفك، ورأس مال المرء سُمعته في دِيرةٍ يُمَجِّد فقراؤها المَثَل: الصِّيت ولا الغِنى.

صمتَ الفتى حينما فُتِحَ بابُ الحُجرة مساحة بالكاد تسمح لمرور الرَّضيع، محمولًا بقِماطِه على ساعِدَي فضَّة، محجوب الوجه بتلك الغلالة السَّوداء الشَّفيفة. ولم يظهر من الفتاة عدا كفَّيها الصَّفراوين. ولم يكشف سليمان عن وجه الوليد ولم يتفحَّص ملامحه تحت البُوشِيَّة. زمَّ شفتيه، واختنق بعبراتِه وهو يُحملق إلى كفَّي فضَّة مُنطفئ العينين، يُبصر أصابِعها الدَّقيقة وقد شحَبَ فيها لون الحِنَّاء. رفَعَ ذراعيه عاليًا يهزُّ رأسَهُ رافضًا لمس الوليد، ومن وراء البُوشِيَّتَين تهلَّلَ وجه الصاجَّة وابتسمت أُم غايب غصبًا عن حزنها المفتعل. ثُمَّ تناولت شايعة الرَّضيع من يدَي كنَّتِها التي أطبقت الباب مختفيةً في حجرتِها.

نهضت الصاجَّة متثاقلة مُنحنية تُسنِد كفَّيها إلى رُكبتَيها، والحَدَبة بين كتفيها تُشبه رأسًا وراءَ رأسِها. حملت الوليدَ وهي تُبسمل وتُحوقل، ولم تلتفت إلى سليمان وشايعة وهي تقول:

«أبي يا خالي.. أُمِّي يا عمّتي».

فهم سليمان ما رَمَت إليه أُم حدَب. أيُّ مصيرٍ ينتظرُ الرَّضيع

ابن الأخوين في متاهة النَّسَبِ هذه! اقتربَ من العجوز الحَدباء من دون أن يصوِّب نظره إلى وليده بين يديها، يبتلعُ عبراته:

«زبدةُ الحكي يا أُم حَدَب! أُطلِّق فضَّة؟».

صرخت بالتفاتةٍ سريعة، في سواد عباءتها والبُوشِيَّة، كما لو أنها تنبح:

«لأ!..».

ابتسم سليمان وسع شفتيه. تقدَّمت شايعة نحوهما متهلِّلة الوجه. وأردفت الصاجَّة:

«..وكيف تُطلِّق من لم تكُن يومًا زوجتك؟! زيجتكما باطلةٌ بُنِيَت على باطل..».

تخثَّرت المرَّارة أسفل لسان سليمان وانطفأ عزمه. واستطردت الصاجَّة أُم حَدَب:

«..تُسرِّحها، تذهب في حال سبيلِها، كأن شيئًا ما كان».

مرَّت في رأس سليمان كُلُّ الذكريات الهاجعة في نفسه؛ طفولتهما وحفلات الزِّفاف الوهمية عند باب بيت أبي جرَّاح، منشأ الحب الأوَّل في لعبة المحاكاة؛ بَرُّوي.. نداؤها كُلَّما اقترب منها المسعورُ في لُعبة «الخروف المسلسل»: اِلحَق عليّ يا سليمان.. زفافهما، أحاديثهما، طعامهما، غَزَلها، فراشهما، أماسيهُما في سطح الدَّار بداية الصَّيف إذا ما افترشا أرض السَّطح والتحفا السَّماء، يُخلِّفان حُجرتهما في

الأسفل قبل أن تفورَ حرًّا مثلَ التنُّور، دموعهما يومَ دخولِه البحر واشتياقه على ظهر السَّنْبوك ولوعته.

«كأن شيئًا ما كان؟!».

سألها سليمان. لم تنظر إليه. عيناها مصوبتان إلى الرَّضيع بين ذراعيها وهي تجيب:

«لا طلاق في زواجٍ باطل.. أنتَ مؤمن وهذا أمر الله».

كرَّرَت أُم غايب وشريفة:

«ونعم بالله.. سبحانه».

رفعَ الفتى رأسه ينظرُ عبر ضباب الدَّمع إلى سماء الحوش، بعينين ذاهلتين، وشمسُ العصر ترتحل غربًا. *يا رب. يا رب.* وانبجسَ الدَّمعُ من عينيه وما أطفأ فيهما شررًا. وما نطق بكلمة اعتراضٍ على أمر الله رغم ما ارتسمَ في قسماتِ وجهه. وأنعمَ النظر إلى السَّماء ممتقع الوجه كسير النَّفس يزمُّ شفتيه. *أنا ما خالفتُ أمرك قط. يا رب. هذه العجوز تقول ما لا قدرة لي على تكذيبه. أنت تعلم ولا غيرك يعلم يا رب.* بهتت شايعة وهي تنظر إلى ملامح ولدها في غمرة صمتِه يُناظر السَّماء، كأنما انطفأ في روحه شيء. اتَّسعت عيناها وأطبقت كفَّيها أسفل ذقنها. وبحلقت إلى تعابير وجهه وقد تغيَّرت ملامحه، كأنها تبصرُ غريبًا في ليوانِ دارها. وعينا سليمان مُعلَّقتان على السَّماء. *بكتابك الذي أحفظ، أيقظني من هذا الجاثوم أو اقذف بي في قعر الحُزن ثانيةً يا رب.* انفجر في رأسِه صوتُ النهَّام الأعمى

في أُهزوجةِ الأمس: «إن الأمورَ التي تخشى عواقِبَها.. مِن السَّلامةِ تركُ ما فيها». هبطت عيناه من السَّماء، وفرَّ النَّملُ من وجهه وما عاد يشعرُ بدبيبه. أولاهُنَّ ظهره، وغذَّ الخطوَ نحو بابِ البيت بوجهٍ كظيم. ثُمَّ صاحت به الصاجَّة عند موطئه عتبة الباب:

«سليمان يا ولد شايعة!..».

استدار نحوها ودموع غضبٍ تتحدَّر على وجنتيه. أمَّلَ نفسه بمصيرٍ آخر تُبشِّر به الصاجَّة يُغيِّر ما ينوي فعله. سألته العجوز مادَّة يديها بالرَّضيع:

«..ألا تُريد رؤية الولد؟».

«بل لا أريدُه!».

صفقت شايعة صدرها بكفِّها، وأطرقت أُم حَدَب تتفرَّس وجه الرَّضيع بين يديها:

«فألُ الدَّار سيئٌ إن بقيَ الوليدُ فيها، ولكن..».

نظرت إلى عينيّ سليمان من وراء بُوشِيَّتِها وهي تتمُّ جملتها:

«..ولدك.. ولك حقُّ تسميته».

وكأنما ادَّخر إجابته منذ زمنٍ للحظةٍ مثل هذه. العُرف يقول إن أول الذُّرية تحمل اسم الجد؛ سهيل. لكن سليمان لفظَ الاسم مثل تفْلَةٍ مُرَّةٍ في وجه نِساء الليوان:

«سَيف».

ودوَّى ارتطامُ باب البيت وراءه.
وشايعة باهتةٌ مُنصرفة عن حديث الصاجَّة، تُفكِّر في وجه الغريب الذي خرج من دارها للتوّ. ولدها الذي دخلَ البيت عائدًا من البحر ينشدُ الرَّاحة، فخرج من البيت مُهشَّمًا، شخصًا آخر لا تعرفه.

ماذا قال للسَّماء؟ وماذا قالت له؟! ولمَ اكفهرَّ وجه الولد؟ ***يا ولدي!***

* * *

(16)

بُلبُل شاؤول

«وَتُطْرَحُ فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ جَمِيعُ خَطَايَاهُمْ»

التناخ/ سِفر ميخا

ارتفع الصَّفيرُ في شجرة بَمْبر[1] شامخةٍ وسط بيت شاؤول، كما لو أن سِتَّة من بلابل البصرة تتذرَّى بالأوراق المفلطحةِ وتُغرِّد في الأوان نفسه، لكنه بُلبُل اليهودي مكث على الغُصن وحيدًا، وانبرى للصَّمتِ في بيت الصَّائمين المعتكفين في حُجراتهم صبيحة يوم الغُفران. وانفرد يُزغرد وينثرُ أطوار تغاريده على غصن البَمْبَرة الرَّطيب، بين الأوراق المغبرة وبواقي ثمار الصَّيف النَّاضجة المكتنزة بعصارتها الصَّمغية الشَّهية، تشعُّ مثل شموسٍ صغيرةٍ بين الأوراق شاحبة الخضرة.

وبينما توارى أصحابُ البيتِ في حُجرهم يتسربلون بِيضَ الأوشِحة، يواجهون قِبلتهم ويتعبَّدون فارِغي البطون يابِسي الحلوق، ويطلبون الرَّحمة استغفارًا في يوم غسل الخطايا، ويُكفِّرون عن ذنوب عامٍ مضى؛ بينما هُم في ذاك كان عاموس بِن شاؤول

(1) شجرة البمبر: شجرة السبستان الدبق/ المخيط. (محرر وزارة الإعلام).

يتقلَّب في فراشه إثرَ صفير البُلبُل الهَرِم في حَوْش البَمْبَرة. وظلَّت أبواب حُجرات البيت المطلة على الحَوْش مُطبقة حتى ضُحى يوم الصَّوم الطويل. وما انفكَّ السَّابلةُ يُبطئون عند مرورهم قُدَّامَ بيتِ البُلبُلِ في سِكَّة اليهود، بيتٍ في الحَيِّ الشَّرقي قرب سوق الصَّاغة تفوح منه رائحة التَّمر واليانسون على مدار الوقت.

يُشنِّف المارَّةُ مسامعهم بسحر تغاريد البُلبُل ويَطربون. بُلبُلٌ بصراويٌّ مُكتنز، رماديُّ الجسد أسود الرأس أبيض الخدَّين. تنبت حول منقاره شعيراتٌ طويلةٌ مثل شوارب القِطَط، وتشعُّ أسفل ذيله الأسود لطخةٌ فاقعةٌ صفراء. طائرٌ طروبٌ طلْقُ اللسان حسن الصَّوت. جلبه صاحبُ البيتِ شاؤول قبل سنين، حينما عاد إلى الدِّيرة على متن سفينةٍ موسوقةٍ بالمؤونةِ مُقفلةٍ من البصرة. فدخل البُلبُل الدِّيرةَ أسيرًا وحشيًّا غريبًا في قفصٍ من جريد نخلةٍ بِرْحِيَّة. يعتلي أكوام الخُضَر والفاكهة وأقفاص الحمام اللَّاحِم وجِلال التَّمر وزكائب اليانسون وجِرار

المُربَّيات والقَيْمَر[1] وأواني الجُبن وأكياس الصَّمُّون والبَقْصَم[2]. وما كفَّ البُلبُل يومها التفاتًا داخل قفصه، يتعرَّف البلدة الخالية من الرِّفاق إلا قليل من بلابل البصرة والأحساء، يُغرِّد في قصر الأمير وبيوت بعض التُّجار. فالدِّيرة بطبيعتها لا تعرفُ تلك الطيور، والبلابلُ بطبعها لا تبرح بساتين النَّخيل هُناك، حيث جيءَ به مقفوصًا من ضِفاف شط العرب. حتى في مواسم الرَّبيع وهجرة الطُّيور، كلُّها يُهاجر، قال شاؤول لولدِه، إلا البلابل لا تهاجر أبدًا.

* * *

عاد شاؤول بِن ساسون، قبل خمسة عشر عامًا، من البصرة معتمرًا طربوشه. يرتدي ثوبًا رماديًّا مُقلَّمًا بخطوطٍ عمودية سوداء، ويشدُّ خصره المكتنز بالزبون[3]. وأقبل على بيته يحملُ القفصَ الخشبي فاستغرب عاموس الوافدَ الشَّمالي غير المألوف، بتراكيب لونِه الرَّمادي والأسود والأبيض والصُّفرة الفاقعة في عَجُزه. وسأل أباه لماذا يُحبس الطَّائر في قفص؟ فأجابه شاؤول أن بلابل البصرةِ لا تُفارق البصرةَ إلا في أقفاص.

---

(1) قَيمر: قشطة من حليب الجاموس العراقي الموجود في الأهوار ومناطق الأنهار. (محرر وزارة الإعلام).

(2) الصَّمُّون والبَقْصَم: نوعان من المخبوزات العراقية عرفها الكويتيون -شأن القيمر- من المسافرين العائدين من البصرة. (محرر وزارة الإعلام).

(3) الزبون: رداء قطني في الصيف أو صوفي في الشتاء يلبس فوق الدشداشة مفتوح من الأمام ويشد بحزام. (محرر وزارة الإعلام).

فانشَدَه عاموس أمام القفص في حوش الدَّار، تحت شجرة البَمْبَر الفتية آنذاك. فرح الصَّبي بالطائر وتعلَّقَ به إلى حدِّ سؤال أبيه عن عُمر البُلبُل، فأجابه شاؤول بغيرِ يقين، وبلهجةٍ بصْرية مع لُثغةِ راءٍ تميَّزت على لسان مُعظم أهل مِلَّتِه:

«نصف عُمغِك».

«يعني خمسة؟».

وافقه أبوه يهزُّ رأسه باسِمًا، فسارع عاموس يسأل:

«متى تموت البلابل؟».

ثبَّت شاؤول طربوشه على رأسه قبل أن ينحني على ولدِهِ ودلائل القلق على وجهه. قال له لا تعكِّر صفوَ الحياة بذكر الموت. فتجاوز عاموس قولَ أبيه وكرَّر:

«متى تموت البلابل؟».

ونزل الأب عند إلحاح ولده، وأجابه مُبالغًا أن بلابل البيوت تعيش حتى عشر سنوات، إحدى عشرة أو اثنتي عشرة، بل إذا أُحسِنَت معاملتها، قد تُعمَّر حتى عشرين سنة، ورُبَّما أكثر. فاطمأنَّ عاموس أن له مع البُلبُل، على ذِمَّة أبيه، خمسة عشر عامًا من الرِّفقة على أقل تقدير. خمس عشرة عامًا يرهن فيها سعادته بكائنٍ فانٍ. وأشار الولدُ إلى شجرة البَمْبَر الفتيةِ آنذاك وسأل أباه: متى تموت؟ فتقطَّب جبينُ شاؤول وربَّت على رأس صغيره:

«تعيش الدَّهْغَ كله».

تقبَّل الصَّبيُّ أجمل الإجابات، يتوق إلى سماعها كُلَّما أشار إلى كائنٍ يحبه وهو يسأل: «متى يموت؟»، كما لو أنه سيعيش الدَّهر كله. فأمضى الأسابيع يُحضِّر لرفقةِ السَّنوات الخمس عشرة مع البُلبُل مُفرط الذَّرق والتَّغريد. يُدرِّب البُلبُل الوحشي بالتَّجويع تارةً وبالتَّعطيش تارةً أخرى حتى يصفَرَّ من الجوع والعطش لسانه. ويساومه على الطاعةِ بفتات الخبز ودود الأرض وشحيح الماء، ويكافئه بالتَّمر وأوراق الفجل، أو بمكافأة كبرى إذا ما أحسن البُلبُل التَّصرف فيُلقِمه عاموس أُم أربعة وأربعين؛ دودة لامعة طريَّة شهيَّة مُكتنزة مُشبعة، وجبة ترُدُّ الحُمرة إلى لسانه المُدبَّب الذي اصفرَّ من الجوع والعطش. وعلى مدار أسابيع ظنَّ عاموس أنه يُدرب البُلبُل، لكن البُلبُل على الصبر وحسن المعاملة كان يربي عاموس، ويُحسن ترويضه قبل أن يحطَّ على كفِّه للمرَّة الأولى يمنحه الولاء ممهورًا بذرقةِ اعترافٍ على كفٍّ آمنة. فلا يذرق الطَّيرُ على كفٍّ ما لم يحُطّ عليها، ولن يحُطَّ عليها ما لم تمنحه الأمان.

ولَمَّا درَّبَ البُلبُلُ عاموس، وأعدَّه للتعامل مع الطُّيور، منحه أسراره وطرائق الوصل صديقًا لصديقٍ ونِدًّا لِنِد، لا مالكًا لمملوكٍ ولا سيِّدًا لعبد. وصار البُلبُل أخيرًا «رُبُوَّة»[1] يتبعُ من أطعمهُ

---

(1) رُبُوَّة: مِن التربية؛ وتُطلق على الطائر الأليف المدرَّب الذي لا يفزع من الإنسان. (محرر وزارة الإعلام).

وربَّاه. ففتح له الصَّبيُّ باب القفص الخشبي، فأطلق البُلبُل مُطمَئِنًّا إلى أن الرُّبُوَّةَ قد أَلِفَ المكان وترقَّى وصار **مُولافًا**[1] لا خوف عليه من صدودٍ أو غياب. أمضى الصَّبيُّ أيَّامه يُنصِت إلى التَّغاريد الضاحكة والباكية بين الشُّروق والغروب. ووضعَ له صُبح كلّ يومٍ آنيةً من الماء أسفل البَمْبَرة. يهبط البُلبُل يتمرَّغ فيها ويتقلَّب على بطنه وظهره، فيطيرُ بعد الاستحمام حول الحَوْش شوطين، يرفرفُ بجناحيه يُجفِّف رطوبتهما قبل أن يحط نظيفًا على كتفِ صاحِبِه مُفلتًا تغريدة الصَّباح. وما فارق المُولاف غُصونَ بَمْبَرة البيت إلا رفقةَ الصَّبي. وانتشى عاموس لإتيانه أمرًا يشدُّ إليه نظرَ أقرانه مِن أتباع محمَّد ويُثير دهشتهم. فذهب إلى العمل طِفلًا والبُلبُل يراوح الحطَّ بين رأسِه وكتفيه. يُبصره النَّاسُ في السُّوق يخرج من دكَّان أبيه يحملُ البقجة على ظهره. يطوفُ السِّكَك بين بيوت الطِّين. وينادي على بضاعته فيصمت البُلبُل، ويُغرِّد البُلبُل فيصمت عاموس.

وأمضى الغلامُ نهارات صِباه يقطع السِّكَك ببضاعته، يلازمه البُلبُل مثل حِسِّه وضميره، يؤنبه ويحاسبه إن غشَّ أو أخطأ. وإذا ما قرص الجوعُ عاموس في منتصف نهارٍ طويل؛ يكفيه إطعامُ البُلبُل الجائع، فيحسُّ هو بالشَّبع. ولو حاصر عاموس العطش في ظهيرة صيفٍ قائظ؛ يرتوي بقطرات ماءٍ يودعها جوف البُلبُل الغِرِّيد.

---

(1) المولاف: مفردة لوصف أي طائر يألف المكان ويستقر فيه. (محرر وزارة الإعلام).

ولمَّا وافته الصاجَّةُ أُم حَدَب قُرب بيتها المثلَّث في إحدى سِكَك حَيٍّ المرقاب ذات ظهيرة، أشاح عنها ببصره وتشاغل بنداءاته في الدَّرب، فنادته أن يقترب وما استطاع أن يرفض طلبها رغم نفوره، فقد أنبأته وحذرته من قبل أن من يقول للصاجَّة «لأ» يُسخط في صورة يبغضها!

ابتاعت منه ثلاثة واراتٍ من الكتَّان الأحمر. ورفعت البُّوشِيَّة عن وجهها الأبرص، وانفرجت ابتسامتها عن صفٍّ أسنانها العلوي ناقص النَّاب، فنبَّهته إلى ما سوف تقول وما عليه أن يؤمن به، فلا داعي إلى تذكيره أن من لا يُصدِّق الصاجَّة يصيرُ دودةً تُطاردها الطيور أبدًا. فباحت بالنُّبوءة مُتطوِّعةً، تُفضي لبائع الصُّرَّة الصَّغير الذي لم يسألها قراءة الفأل. وقالت بلغتها الغريبة المُلَغَّزة وهي تُشير إلى البُلبُل فوق رأسِه:

«اعتنِ به جيِّدًا يا صبي، فإن قصتي معكم مرهونة به.. قصتي وقصصكم الطويلة مضفورة مثل جديلة، مثل دودةِ أُم أربعة وأربعين، لا تعرف لها رأسًا من ذيلٍ إلا إذا شارفتْ نهاية أحد الأسفار، بعد ظهور أمارات الختام الخمس، آخرها يا ولدي تطلع روح البُلبُل وينتهي سِفر».

فأسدلت كبيرةُ الصاجَّات بُوشِيَّتَها على وجهها، وأدبرت تمشي تحت ظلال جدران البيوت تحملُ القُماش قاني الحُمرة. وانقبض قلبُ ذي العاشرةِ وهو ينظر إلى أعلى سور بيتها حيث تحطُّ طيورُ اللَّوْهَةِ

السَّوداء ذات القمل، تمدُّ أعناقها الطويلة تُراقب السَّابلةَ بعيونها الصَّفراء، وتتصايح بصوتها الأجش. ووقَع حديثُ أُم حَدَب في نفس الصَّبي موقع خوف، رغم أنه ما فَقِهَ من قول الصاجَّة كلمة، لكنه فهم أن هذا البُلبُل يجبُ ألا يلفِظ الرُّوح وينفق، كيلا يُكسر قلبه، وكيلا ينتهي شيءٌ ما لا يدريه. ومرَّ الحَولُ تلوَ الحَول، ونبوءة الصاجَّة تنشطُ في ذاكرة عاموس، حتى بلغ البُلبُل شيخوخته، وفق حساب شاؤول، وأدرك العشرين هذا العام. فكفرَ عاموس الشَّاب بقول أبيه حينما كان طفلًا، وآمن أن بُلبُلًا يُغرِّد على هذا النَّحو لا يشيخ ولا ينفق أبدًا.

* * *

خرج الشَّاب من إحدى حُجُرات البيتِ وقد ورَّم النَّوم وجهه وقبَّض دِشْداشَتَهُ البيضاء. ظهرَ على صورةٍ يبغضها أهل البيت لابنهم البليد الذي بلغ الخامسة والعشرين وما زال أعزب. خرج من حُجرته يحملُ في يمينه تمرةً بِرْحِيَّة وفي يساره آنية ماء صغيرة. تقوده تغاريد البُلبُل صوبَ شجرة البَمْبَر الكبيرة وسطَ البيت. فقطعَ الحَوْشَ الذي يشبه المستودع لكثرة السِّلَع تحت ظلال لَواوينِه؛ لفائف قماش وزجاجات فارغة وسَحَّارات خشبية وجِلال تَمرٍ وزكائب يانسون الشَّام وأكوام حطبٍ لزوم تقطير النَّبيذ وصناعة عرق التَّمر الزهدي. تذرَّى بِن شاؤول بظلال البَمْبَرة الكبيرة قُرب ساقِط الأوراق، يُنصت إلى طورِ التَّغريد الصَّباحي الرائق. وانحنى على

الأرض يضعُ آنية الماء، فهبطَ البُلبُل عشرة أذرع من أعلى غصون البَمْبَرة. وتمرَّغ بماء الآنية يُقلِّب جسده مُرفرفًا بجناحيه، فطارَ حولَ الحوشِ شوطه الأوَّل يُجفِّفُ جسده، وقبل أن يُتِمَّ الثَّاني رفع عاموس يده بالتَّمرة البرْحِيَّةِ مهروسةً بين إصبعيه، فحطَّ البُلبُل على منبتِ إبهامِه، ينقرُ التَّمرة ويُرفرف. وانفرجت شفتا عاموس تحت شاربه الدَّاكن الدَّقيق، وهمسَ يُهنِّئ طائره باسِمًا، يتمنَّى له نهاية حسنة في كتاب الحياة:

«شاناه توفاه».

نفَشَ البُلبُل ريشه ورفع ذيله الأسود كاشفًا عن مؤخرته فاقعة الصُّفرة، فذرقَ على كفِّ صاحبه قبل أن يطير إلى غصنه ثانية مخضَّب المنقار بالدِّبس.

«يلعن أبوك!».

قال عاموس والبُلبُل يمسح دبقَ منقاره بغُصن البَمْبَرة. ونفضَ كفَّهُ ضاحكًا وانحنى يُمرِّغها بالتُّراب. فاستقام ينظرُ إلى البيت المنطفئ من حوله، لا نار فيه تُشعَل اليوم ولا طعام يُعَد ولا عمل يُنجز ولا بيع ولا شراء. ***أيُّ ضجرٍ ينتظرك اليوم يا عاموس!*** عادته وقت الشُّروق يذهب إلى حَوْطة سعدون، يوصلُ سحَّارة عَرَقٍ جديدة مملوءة الزُّجاجات، ويُعيد القديمة ذات الزجاجات الفارغة إلى بيته قبل أن يخرج إلى محلِّ أبيه في السُّوق، غير أن اشتراطات عيد الغفران اليوم تُحرِّم عليه العمل.

أجال عاموس النَّظر إلى حُجرات البيت موصدة الأبواب على أصحابها، فقذف تمرة البُلبُل في فمه يلوكها بسرعة، وسرقَ نظرة ثانية قبل أن يبصق نواتها متبرئًا من برهان معصيته. فأسرع إلى دار الكَيل في زاوية الحوش حيث بُرمة الماء الفخَّارية، وزكائب الحبوب وجرَّات العسل وأكياس الرُّز ومُجفَّف الثِّمار وبضع ثمرات رُمَّان شاحبةٍ متغضنةٍ في سلَّةٍ من القش. انحنى على البُرمة وغسل وجهه من مخلَّفات النَّوم على عجل، قبل أن يُمسَك بجرم الاغتسال في اليوم المتمِّم لأيام التَّوبة العشرة. جفَّف وجهه بطرف دِشْداشَتِه، وأطبق كفَّه على ثمرة رُمَّانٍ يُغري بها البُلبُل، يلهو بقذفها في الهواء والتقاطها. ثُمَّ أقعى على عتبة اللِّيوان يرتفقُ رُكبتيه، وأنصتَ إلى تغاريد طائره الأثير المتواري خلف أوراق البَمْبَرة. وهَفَت روحه ورفرفت إلى الأغنيات في حَوْطة سعدون، أو المَنْسَى كما يُسمي سعدونٌ حَوْطَتَهُ، حيث أرادها مقبرة للذاكرة ومَطفأة للعقل. *غدًا أسهر في الحوطة*. هناك حيث بهيجة. *بهجة الرُّوح ومهجة الفؤاد*. تغني فنونًا يحنُّ إليها في ذاكرته المتوارثة سَمعًا، قبل نزوح جدِّهِ ساسون جنوبًا إلى الكويت، مُحمَّلا بكنوزٍ من اللِّيرات هربًا من الجزيةِ ومضايقاتِ هِدايت باشا والي البصرة، وتلافيًا لتجنيد أبنائه في الجيش العثماني، ونأيًا عن سيفِ السَّلطنةِ الطويل.

ليس لِـ عاموس، بطبيعة يهودِ الدِّيرة، صداقاتٌ كثيرةٌ حميمةٌ خارج أهلِ مِلَّتِهِم، ولا كثير احتكاكٍ مع العامَّةِ بغير بيع وشراءٍ للقماشِ والذَّهَب في سوق اليهود، أو للصرافة وللاستدانة أو لشراء

الخمر. لا صداقات إلا قديمة مع الصِّبية في صِغَره، حيث جمعتهم السِّكَكُ لا يُبالي واحدهم بمِلَّة الآخر. تُثيرهم أحيانًا أسئلة بِن شاؤول عن الإسلام إذا ما عجز عن إبهارهم بأعاجيب الحكايات من أسفار موسى الخمسة، حينما يجيبه سعدون الذي يصغره بعامين: «عندنا مثلها في القرآن.. وأحسن»، ويؤكد الصِّغار قول سعدون ويتطوعون لهدايته بأعاجيب الإسلام، ويعِدهم بِن شاؤول بغير يقين: حينما أكبر.

تطبَّع الصَّغيرُ بطباعهم، غير أن الاختلاف ما انفكَّ يُحدِّد المسافات ويرسم الحدود بينه وبين رِفقة السِّكَك سنة تلو أخرى. ولَمَّا جاوز عاموس مراهقته وصدَّ عنه رفاق الطُّفولة، أوجدَ له محطَّ قدمٍ في المَنْسَى، المكان الوحيد في الدِّيرة الذي لا تُكسر فيه الأواني، ولا تُطهَّر، بعدما يأكل منها غير المسلم أو يشرب. المكان الوحيد الذي لا يمدُّ له سبَّابة اتهام؛ ابن المرابي اليهودي بيَّاع الخمر! دقَّ بِن شاؤول وتده في الحَوْطَةِ كما يقولون، وصار واحدًا من أقرب رُوَّادها لـ سعدون، واحتكرت جدران الحَوْطة حدود الصَّداقة في داخلها.

ولأن سعدونًا لا يحتمل كلفة الخمرة الفاخرة التي يُسرِّبها الهنود العاملون لدى دار الاعتماد، ولأنه أيضًا يكره أن يضطرَّ إلى ابتياع خمرةٍ فارسيةٍ رديئة الطَّعم والمزاج، فقد صار يشربُ مما يجودُ به صاحِبُه اليهودي من العَرَقِ الذي يُقطِّره أهلُه ويبيعونه في بيوتِهم. ولأن سعدونًا مدمنٌ على معاقرة المنكر حدَّ الثُّمالة، وبِن

شاؤول يهوى الغناء والطَّرَب، حدَّ الثَّمالة كذلك، فقد عقدا ما يُشبه اتِّفاقًا غير مُشهَر؛ عليك السَّهرة وعليَّ الخمرة. يمضي الأوَّل لياليه في شُرب ما يُسميه حليب السِّباع. يقتلُ ذكرياتٍ عايشها. يدفنها كما لو لم يعِشها يومًا؛ صدى صوته طِفلًا في سماء الفجر يُردِّد الأذان على سطح البيت، وربُّ البيت الذي طرده من البيت، وأمُّه التي يشتاقُ إلى ريح الحِنَّاء في جديلتها. ويهيمُ الثَّاني في الأغنيات يُحيي ذكرياتٍ سَمِع عنها، ويحكيها كأنما عاشها دهرًا؛ بساتين النَّخيل في أرض أسلافه، والماء العذب، وليالي الغناء والسَّمر، وبلابل البصرة التي لا تُغادر البصرة إلا في أقفاص.

وجد عاموس في الحَوْطَةِ من يُشبهه، سعدون ابن الحاج عبدالله بِن صالح. كلاهما، هو وصاحب الحَوْطة، يضعُ الموت نصب عينيه إذا ما نبض قلبه بالحُب. عاموس يخشى أن يُحبَّ شخصًا يموت، وسعدون يخشى أن يُحِبَّ شخصًا يُعلِّقه بالحياة التي يكره، لأنه منذ سنواتٍ ينوي أن يموت.. ولا يموت. وسعدون يكره الحياة ويحب الموت ويخافه، فسلَّم لقرارٍ اتَّخذه في ساعة سُكر؛ أن يحيا ميتًا.

كلاهما، عاموس بن شاؤول وسعدون ابن الحاج عبدالله بن صالح، يمشي على أطراف الحُبِّ ويخاف الوقوع فيه خشية الفقد، كأنما أضمرا عهدًا ألا يُحِبَّا ما دام آخر الحُب موت، كما لو أنهما لن يكونا وليمةً لدودِ الأرضِ ذات يوم. ولمَّا وقعَ المتشابهان في الحُبِّ صبابة.. أحبَّا في الوقتِ نفسه امرأة واحدة.

وذابَ عاموس في خليط الحَوْطةِ حتى صار يلبسُ ما يلبسون، مُتخليًا عن طربوش أهلِه والدِّشْداشَةِ المُقلَّمةِ والزّبون. مُتبرِّئًا من لثغةٍ قديمةٍ فاضحة. ورنَّ حرفُ الرَّاء واثقًا صريحًا في الحَوْطةِ على لِسانه بخلاف لسان أهلِه الألثغ. ولا يكاد من يُبصره أن يُميِّزه عن بقية شباب الدِّيرة، فصار واحدًا منهم إلا قليلًا. مسموحٌ لابن شاؤول في الحَوْطة، شأنه شأن سركيس عامِل الإرسالية الأرمني، أن يطرَب ويُطرِب ويشرب حتى الثَّمالةِ كُلَّ ليلة، بشرطِ عدم الاقتراب من بناتِ ليلٍ يتعفَّفنَ عن لمسِ المسيحي واليهودي، فلا يقبلنَ مُضاجعة المغضوب عليهم ولا الضَّالين كما يُسميهما سعدونٌ في ساعات سُكره.

صمتَ البُلبُل عن غنائه وراء أوراق البَمْبرة. فطار من الغصن وهبط على رأس صاحبه السَّاهم بخيالِ عذبة الصَّوت بهيجة، فحطَّ على كتفه، ثُمَّ قطع ذراعه نطيطًا حتى استقرَّ على ثمرة الرُّمَّان في كفِّه، يؤرجحُ ذيله صعودًا ونزولًا مثل سبَّابة مُصّلٍّ يتلو التَّحيَّات في سِرِّه، فأمالَ رأسه وحملقَ إلى وجه عاموس وبادله عاموس النَّظر. ونفخ البُلبُل صدره قبل أن يُطلِق طورًا غاضبًا من التَّغريد، فعاود الصَّمتَ يُميل رأسه ثانيةً ويبحلق في وجه صاحِبه. فأفلتَ الشَّاب ضحكةً على نظرة البُلبُل الواقف على ثمرة الرُّمَّان غائص الرَّقبةِ عابس الوجه:

«حِماغ من يقول إنك تُغَغِّد!».

آمن عاموس منذ خمسة عشر عامًا أن بُلبُله يقول أشياء كثيرة. *هذا ما علَّمني البلبل*. يتفكَّرُ بنظرات الطائر وهزَّات رأسه وإيماءات جسده في أطوار تغريده المتباينة؛ تغاريد السُّرور فجرًا والتَّغاريد الخابية عند الغروب، وكل ساعة بمزاج وكل مزاج بطور تغريد فريد. *أدري أنك تقول، ولا أدري ماذا تقول*. آمن أن الطيور تقولُ بمنطقها العَجَب، لا نفقه منه إلا لحنًا شجيًّا يصرفنا عن أصل القول في حروف تغريدها. وأفلتَ البُلبُل طورًا من التَّغريد الرَّصين وهو يقفُ على الرُّمَّانة في كفِّ عاموس. *مالك يا أنت؟ الآن وقد غادرتَ القفصَ أدركتَ ألا جناحين لكَ فتطير. مثلي تطير. إلى بهيجة في ذاك الحيِّ تطير. فتقفُ أمام باب عُشَّتها ليس في وسعك أن ترضيها ولا في وسعها أن ترضيك. ولستَ على مِلَّة أهلها وليست على مِلَّةِ أهلك فتصطفيها زوجة، ولستما على مِلَّة الطيور فتفرِدا جناحيكما، وتُحلِّقا حجًّا أبديًّا إلى مناسك الحُبِّ في أحرام الرَّبيع. تودُّ أن تفعل يا عاموس.. تودُّ لكن لا تستطيع.*

أوقف البُلبُل تغريده وأمال رأسه يُبحلق إلى وجه

عاموس عابسًا. فأطلق الشَّاب وصلة صفيرٍ قصيرة، وقاطعه البُلبُل يُجيبه طورًا أعلى من التَّغريد المندفع.

اِخرس يا بني آدم! كُفَّ عن صفيرك الماسخ وقُل لي مالك يا أنت؟ تخشى أن تُشمِّر عن ذراعيك فيفطِنَ أهلك إلى أن معصميك بلا أصفاد. والحقُّ أن الأصفاد يا رفيقي ليست تحت رُدنَيك، وكل الأصفاد في رأسك وحواليك. أنت مولافٌ مهما حسبتَ أنك غادرتَ القفص.. أنت تمشي على قدميك لكنك داخل القفص. أنتَ رُبُوَّةٌ من أطعمك وربَّاك.. أنت مُقيَّدٌ في هذا المكان ولا تستطيع مغادرته إلا في قفص، والقفص أنتَ وأنتَ عالقٌ في ثوبك الضَّيق اللَّصيق بجسدك مثلما الجلد.. أنت من أنت يا عاموس؟ وماذا يفعل بك الُحبُّ وهل أحببتها فقادك المستحيل إلى فعل المستحيل؟ أتحبُّ من تعصى عليك حليلةً أو خليلة؟ أتحبُّ من تفنى غدًا؟ أتحبُّ من ترغب فيك ولا تحبك؟ وهي تحبُّ من يرغب فيها ولا يعترفُ لنفسِه بحُبِّها لأنها المتاحة للجميع، ولأنه يعرف مَن ضاجعها مِن قبله، ويعرف من سوف يفعل من بعده. لن تُسلِّمك نفسها فلستَ من الجميع يا مسكين، ولن تنال من جسدها الشَّهي ولا نظرة عين.. أدريك تتحرَّق رغبةً لتتبُّع خطِّ وشمٍ يحكون عنه. خطٌّ دقيقٌ يبدأ من تحت شفتيها، يمرُّ بعُنُقها، وينزلقُ على صدرها، فينسلُّ ناعمًا عبر مضيق نهديها فينتهي في غَوْر السُّرَّة. أليس هذا ما يقولون؟ ما لك يا أنت؟ وماذا تريد؟ أتخرج من مِلَّةٍ فتدخل مِلَّة؟ لست قادرًا على مواجهة أهلك، وليس لك جَلَدٌ على ضرب مدمنة

الضَّرب فتُحيِّك وتمنحك نفسها مثل كل الذين وشموا جسدها بآثار كفوفهم. أرجوك يا رفيق الصِّبا، وبحقِّ محبتي ليدك التي ما أساءت إليَّ يومًا، لا تضرب بهيجة وإن عرضت لك نفسها لقاء صفعة.

انزعج عاموس من تغريد البُلبُل المتَّصلِ ورفرفةِ جناحيه. فدسَّ يده في مخبَى دِشْداشَتِه يُخرج علبة تبغٍ فضيَّة، قُسِمت في داخلها قسمين؛ في الأيسر لُفافات تبغ، وفي الأيمن خمسة من دودِ الأرض، حيث اعتاد عاموس أن يُطعِم بُلبُله دودةً بين الوجباتِ كلَّما أشعل سيجارة، غير أنه في هذا النَّهار المبارك يُمنع من إشعال نارٍ فيقرب التَّدخين. فالتقطَ من العلبة دودةً يُسكت بها البُلبُل الغِرِّيد الذي خطفها من بين إصبعيه وطارَ ثانية. فاختفى وراء أوراق البَمْبَرة وصمت عن التَّغريد. وأفلتَ عاموس صفيرًا يشجع بُلبُل البَمْبَرة على مواصلة أطوار غنائه، لكن طائره الأثير رَكَن إلى السُّكوت ضائقًا بنشازِ صفيرِ بن شاؤول وخُلوِّه من المعنى. فصمتَ الحَوْشُ وأطرقَ عاموس. وتواثبت في رأسه الهواجس وهو يُبحلق في الرُّمَّانة. قرَّبها إلى وجهه يشمُّ قشرتها مُنطفئة الشَّذا. فقلَّبها أمام وجهه. وأجال بصره إلى أخاديد يباسِها. *تُشبه غضون جبهة صاحَّة المرقاب أُم حَدَب*. فأفلتَ ضحكة.

***

لطالما حَسِبَ الرُّمَّان في طفولته ثمرًا سحريًّا مباركًا، وارتبط حضوره في ذاكرته بالأفراح، فكُلَّما عاد أبوه من رحلةٍ فارسيةٍ بزجاجات الزَّعفران وتلك الثِّمار الحمراء في صناديق من الخشب؛ حلَّ عيدُ روش هاشَناه. فتتزيَّن مائدةُ الوليمة في رأسِ سنتهم بالرُّمان بين أطباق الحمام اللَّاحِم والخبز المضفور والتُّفاح المغموس بعسل السِّدر. قالت له أُمُّه إنها ثمرة مباركة، وردَّدَت له من الإصحاح الرَّابع لنشيد الأنشاد وهي تقرصُ وجنتيه باسمة: «أَغْرَاسُكِ فِرْدَوْسُ رُمَّانٍ مَعَ أَثْمَارٍ نَفِيسَة». وأنصت إلى صلواتها ترجو الإله سنةً جديدةً حُلوةً بمذاق هذا الزَّاد الحُلو المبارك. فتفلِق الرُّمَّان وتُقسِّمُ بذوره حِصَصًا للجالسين حول المائدة تحت ضياء القناديل أسفل البَمْبَرة، أبيه وأعمامه ونسائهم وأبناء عمومته والبُلبُل. يجرشُ الجمعُ البذورَ الياقوتية ويهمسُ بالصَّلوات. *عسى أن تتحقَّق إرادتك، إلهنا، وأن تملأنا الحسناتُ مثلما الرُّمان تملؤه البذور*. أحبَّ الرُّمَّان طعمًا، وأكثر من الطَّعم أحبَّه بُشرى العيد وبركة الأيام العشرة وأمنية الأيام الحُلوة. *لماذا أنتظر مجيء البركة من بلاد العجم مَرَّة كُلَّ حول؟* فاصطفى رُمَّانة نديَّة من صندوقٍ خشبي، أرادها تعويذة بُشرى سنةَ وصول البُلبُل. حملها الطِّفلُ تذكار عيدٍ ورسمَ على قشرتها عينين وأنفًا وشفتين لصديقٍ ما أنجبته الأيام بعد. يُريها أصحابه المسلمين مثل ثمرةٍ من ثمار الجنة، ثمرة مباركة مذكورة في التَّوراة، فيُحبطه سعدون: «ومذكورة في القرآن». فينكفئ عاموس ويركض إلى بيته ويترك صاحب الوجه الأحمر إلى جوار وسادته لا يُخرجه من الحجرة.

وكبر الصديق المتخيَّل الذي لم يَبهر أحدًا بمعجزةٍ وشاخ بسرعة. شحب وتغضَّن وجهه وانكمش، وارتعب عاموس الصَّغير لحظة رأى تمدُّدَ العَفَن الأسود على القشرة الحمراء، ففلق الرُّمَّانة قبل أن يطال الموتُ فصوصَ الياقوت في قلبِها، فألفاها من الدَّاخل سوداء. دفنها في الحال تحت شجرة البَمْبَر اليافعة آنذاك، غير مُصدِّق ما قالته أُمُّه عن بركة الرُّمَّان بعدما أبصر السَّواد في قلبه. *أنا أكره أن أُحبَّ شيئًا يموت*. فرفع كفَّه إلى أغصان البَمْبَرة الدَّانية، وهبط البُلبُل الرُّبُوَّة على كفِّه الصَّغيرة. فقرَّبَ عاموس وجهه إليه يهمس:

«لا تمُت».

أراد الطِّفلُ وقتذاك أن يركضَ إلى الكنيس قُرب «براحة مبارك» وسط المدينة، ليسأل الحاخام شمعون أجاسي عن سِرِّ بركة الرُّمان الذي مصيره العفن، لكنه يعلم أن الحاخام يشيلُ في خاطره عتبًا كبيرًا عليه. هو لا يضيق بكثير أسئلته الدينية وغيرها، ولكنه غضب حينما جاءه عاموس بصحبة البُلبُل وسعدون قبل أسبوع من يوم الرُّمانة ذاك. اشتكى عاموس -بتحريض من صاحبه- جورَ أبيه. وأخبر الحاخام أن شاؤول لا يكتفي بأخذ ثمن بيع بضائع الصُّرَّة، إنما يُصادر ما يجود به النَّاس عليه من بيزات. عاتبه الحاخام كيف يتمرَّد على أبيه حتى بينه وبين نفسه، وقال إنه ليس في هذا إكرامٌ للأب، وتلا عليه من سِفر الخروج: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ.

برطم عاموس وأجاب سعدون نيابة عنه:

«ما يجوز! حرام أن يأكل الأب مال ولده».

انصرف عاموس عن الحاخام والتفتَ ساذجًا يسأل سعدونًا:

«ماذا يقول المُلَّا؟».

بدا الغضب على وجه الحاخام، وصاح على سعدون يأمره بالخروج من الكنيس، وانصاع له سعدون. فانحنى الرَّجل على عاموس يُربِّت على كتفِه بمحبة:

«أتصدِّق الملا وتُكذِّب بابا شمعون؟».

اعتذر عاموس مطأطئًا ولثمَ يد الحاخام، وركض يتبعُ سعدونًا الذي ينتظره خارج المعبد مع البُلبُل. فسار الاثنان إلى «بْهيتة» وطار ثالثهما يتبعهما إلى حيث بيت المُلَّا عبدالمحسن، وطرقَ سعدون باب مُعلِّمِه يسأل إجابة عن جواز مصادرة الأب أموال ابنه. فأجابه مُلَّا مسجد السُّوق مستنكرًا سؤال سعدون: «أنت ومالك لأبيك». ضحكَ عاموس، وأُحبط سعدون عند عتبة بيت المُلَّا، وهُزِمَ أمام

صاحبه وخسرَ جولة من جولات المفاضلة بين دينيهما. وأقفل عاموس يُحلِّق وراءه الطَّير إلى الحاخام يُبشره بأن: دينهم مو أحسن من ديننا.

وبعد أسبوع، لمَّا أبصر عاموس العفن في قلب ثمرته السِّحرية، تردَّد كثيرًا في زيارة الحاخام الذي عاتبه على زيارة المُلَّا، غير أنه انصاع لرغبة السُّؤال. وركَضَ الطِّفلُ إلى الكنيس لا يكبح فضوله لماذا الرُّمان ثمرٌ مبارك؟ وكيف يأكل الِبركةَ العفنُ. قطعَ السِّكَك يُحلِّق فوق رأسه البُلبُل، ومكث قرب الباب تحت شُجيرة أثلٍ صغيرة، ينتظر الحاخام شمعون أجاسي يخرج في موعده، فسأله عند خروجه إن كان الرُّمَّان ثمرًا مُباركًا، فأجابه شمعون أن كل ما أحله الإله من الطعام مبارك. ولمَّا جاء ردُّهُ بلا دهشةٍ مُزخرفةٍ بالأعاجيب الدينية تدارك الكاهنُ خشية إحباط الصَّبي الذي ما بلغ الحُلمَ بعد. فأفضى له بالسِّر وقال إن في ثمرة الرُّمان الواحدة سِتّ مئة وثلاث عشرة بذرة، فلم يفطِن الصَّبيُّ إلى موضع الدَّهشة في عدد البذور، فسأله الحاخام يدفعه إلى التفكير في مكمن العجب:

«كم عدد الوصايا في شريعة موسى يا بُنَي؟».

اتَّسعت عينا عاموس، وبرقت في رأسه الصَّغير فكرةٌ ساحرةٌ أطاحت بصورة العفن في قلب الرُّمَّانة من مخيلته. وفغر فمه بابتسامة واسعة أمام دهشة الاكتشاف الإعجازي الذي سوف يحمله إلى رفاق السِّكَك من الصِّبية المسلمين، لعلَّهُم يهتدون:

«عظيم! سوف أُحصي حبَّ الغُمَّان اليوم!».

انحنى عليه الحاخام بلحيته السَّوداء القصيرة، وربَّت على كتفه معاتبًا فطارَ البُلبُل وحطَّ على غصن شُجيرة الأثل القريبة.

«أتصدِّق الرُّمانة وتُكذِّب بابا شمعون؟».

قال الحاخام، فطأطأ عاموس الصَّغير من الحرج، يعتذر ويعده بأن يأكل الرُّمَّان في أيام التَّوبة العشرة ولا يُحصي البذور السِّتِّ مئة وثلاث عشر أبدًا. بارك الحاخامُ الطِّفلَ الذي عاد إلى بيته مطرقًا على رأسِه الطَّير مُضربًا عن التَّغريد شارد النَّظرات. يُثقله النَّدم لتسرُّعه بالرَّد على الحاخام. غير أنه ما ألجم لهفة الفضول عن شقِّ بطون الرُّمَّان والتَّحقُّق من المعجزة الإلهية. لعلَّه يُدهش رفقاء السِّكَك المحمَّديين بالمعجزة الموسوية، وبخاصَّةٍ راوية القصص الديني سعدون، الصَّبي غريب الأطوار مكويّ الرأس الذي يسحر الصِّبية بأسلوبه الحكائي وهو يروي قصص الأنبياء بصوته ويمثلها بجسده. الصَّبي الذي ما انفكَّ يُحدِّثه عن الإسلام ومعجزاته وأبطاله وبطولاته، لعلَّ الله يُنير بصيرته، فيهتدي فلا يلقى مصير أسلافه المغضوب عليهم في نار جهنم.

تحمَّس عاموس لكسبِ جولةٍ من جولات لُعبةٍ ابتكرتها روح المنافسة بين الطفلين، هو وسعدون؛ «ديننا أحسن من دينكم»، فدعا صاحبه إلى بيته بعدما صافحه في السِّكَّةِ وهو يقول:

«ديننا أحسن من دينكم».

فأجابه سعدون وفق قواعد اللُّعبة المبتكرة قبل أن يستدير عاموس:

«لأ. ديننا أحسن».

مكتبة
t.me/soramnqraa

فاستدارَ عاموس:

«اِمش وراي».

ومشى سعدون وراءه إلى سِكَّة اليهود، وانزوى الاثنان في ركن المطبخ في بيت شاؤول. وانتقى عاموس ثلاث رُمَّانات يصرعُ بها سعدونًا بالحُجَّةِ القاضية. قشَّرَ جلدتها السَّميكة وانتزعَ بذورها الحُلوة الحامضة شهيَّة الحُمرة. وقسَّمها على دكَّةِ المطبخ كُل عشرة بذورٍ على حدة ليسهل حِسابها. وأحصى في قلبِ الصَّغيرة مئة وإحدى وثلاثين بذرة، وفي قلب المتوسِّطة مئتين وتسعًا وأربعين، وفي قلب الكبيرة أربعمئة وثمانية وخمسين. فدوَّت ضحكة سعدون في المطبخ، وصدَّق عاموس الرُّمَّانة وكذَّب بابا شمعون.

* * *

مضت خمسة عشر عامًا على ذاك الزَّمن. طردَ الشَّاب هواجس رُمَّان الطُّفولة من رأسه، ونهضَ من عتبة اللِّيوان المُطلِّ على البَمْبَرة الكبيرة وارفة الظلال، وأعاد الرُّمَّانة الشَّاحبة إلى سلَّة القش قُرب جِرار العسل. ووقف يتكئ بكتفِه اليُمنى على عمود اللِّيوان، يُخفي كفَّيه في مخباتَي دِشْداشَتِه ويُجيل بصره في السَّماء. يُطيل الوقوف

فتهبُّ النَّسائم تُرقِّص أوراق البَمْبَرة والبُلبُل وراءها مضربٌ عن التَّغريد. وتنثُّ زكائب اليانسون مع هبَّات النَّسيم روائحها، فيتضوَّعُ حَوْشُ الدَّار بالعطر الزَّكي. لم يُخفض عاموس وجهه عن السَّماء، عادته كُلَّما ضاق صدره بالأرض أن يهرب إلى رحابة سُمُوِّها الأزرق. نهاره صَحوٌ ورأسه غائم بهموم بهيجة. ولا يدري ماذا دهاه لحظة انبثق السُّؤال الملعون في رأسه قبل أسبوعين؛ *هل أُحِبُّها؟* فأقنع نفسه أنها نزوةٌ ينساها بعد يوم، يومين أو ثلاثة. وفي الرَّابع نُفِخَ الشُّوفار في الكنيس صبيحة عيد روش هاشَناه. وخرج مع أهلِه وجيرانه مُجللين بالأوشِحة البيضاء، يمضون إلى البحر جماعاتٍ عصر رأس السَّنة. تطمحُ نفوسهم إلى سنةٍ جديدةٍ مليئةٍ بالخير والبركة. ووقف عاموس بين أهل مِلَّتِه عند التقاء الرَّمل بالبحر في سِيف الحَيِّ الشَّرقي، يقرؤون الإصحاح السَّابع من سِفر ميخا، ويطرحون في أعماق البحر جميع خطاياهم. ينثرون كسرات الخُبز ذنوبَ عامٍ مضى طلبًا للغفران. فيَقفلون إلى بيوتهم ويمكث هو في مكانه، وحيدًا على السِّيف يتذكَّر الذَّنب تلو الذَّنب، ويُلقي الخُبز كسرة تلوَ كسرة. ولَمَّا أمسك بآخر واحدةٍ تذكَّر أكبر خطاياه الماضية، حينما اشتهى بهيجة خليلة سعدون، وأوشك أن يرمي كسرة الخبز الأخيرة مع سابقاتها في البحر، فتدارك وألقاها في فمه، يُذيبها فوق لسانه على مهلٍ ويستطعم فيها رغبةً أخفقَ يفهمها بين عشقٍ حقيقيٍّ أو اشتهاء امرأةٍ مستحيلة، لأنها مستحيلة. غانية نَقيطة تُشرع البابَ لأيِّ عابر، وتوصد الباب في وجهه هو بحجَّة

مخالفته مِلَّتها؛ حرام! *ما الحرامُ يا بنت الحرام؟ ما الحرام إلا رغبتي فيها في يدك يا سعدون. يا من أخذتَ كلَّ شيء؛ خلاصك وحياتك في بيتك الذي اخترته حَوْطَة تنادي التائهين، ومَنْسَى ينشده المثقلون بجروح الماضي وأحمال الذَّاكرة.*

أعاد عاموس لفَّ غُترتِه حول رأسِه كيفما اتفَّق، وخرج ينحاشُ من ضجر بيته في سِكَّة اليهود الصَّائمة، لعلَّه يعثر في الطَّريق على مَن يُشعل له سيجارة. وانطلقَ وراءه البُلبُل يُحلِّق وقد انحلَّت عُقدة لِسانه، فملأ فضاءات السِّكَكَ بالتَّغريد حتى غاب في زحام السُّوق المنتعشة بعد القُفَّال وعودة الغاصة.

* * *

(17)

حديثُ المقهى

«بخورُ السُّوق مشاعٌ للسَّابلة»

ردَّ عَزُّوز الهذَّار باب داره، ووقفَ خارجها عند العتبة يتلفَّتُ ويُنقِّل بصره يَمنة ويَسرة. فتناثر المارَّة في السِّكَّة يفرُّون فرارَ الدَّجاجات من ابن عِرس. تراكضوا، شيبًا وشبابًا، تحت شمسِ الضُّحَى فور ما بانَ الهذَّار عند عتبه الدَّار المكروهة الملعونة المنبوذة. دار ضيِّقة مشيَّدة كسائر بيوت الدِّيرة من الطِّين واللَّبِن وصخور البحر ودعائم الأخشاب الإفريقية. دار تُناسب زوجين بلا أبناء عُرفت بدار «أبو لسانين»، ورثتها زوجة الهذَّار أمينة عن أُمِّها، وكانت دار أهل خير وصيتٍ حسن ما عُرفت إلا بطيب صاحبتها المرحومة. فصار النَّاس يتجنَّبون المرورَ ببابها، أو يُسرعون الخَطوَ أمامها مُقبلين أو مُدبرين، مُذ أقام فيها صاحبُ الدَّار غثيث اللسان، عَزُّوز الهذَّار، يوقِفهم عنوة ويسرق ثمين أوقاتهم برخيص لَغوِه. يلهثُ، ولا يسكت إلا في ما ندر؛ سكوته أثناء وقوفِه قُدَّام زوجته التي يخشاها ولا يردُّ لها طلبًا، أو سكوته التقاطًا لأنفاسه إذا ما انقطعت، قبل أن يعاود الغطسَ في لُجَّةِ الثرثرة مرَّة بعد مرَّةٍ بعد ألف.

شقَّ الهذَّارُ زحام سوق التُّجار شقَّ السَّيف، باسمًا وسعَ شفتيه فخورًا بشاربه العظيم الذي يغطي امتداد المسافة بين أنفه وشفتِه العُليا. انتشى للرَّوائح السُّكَّريةِ التي فاحت من المدابس في موسم كبس التُّمور. واستبشر بزحام السُّوق ونشاطه بعد عودة البحَّارة. ومشى في السِّكَّة المسقوفةِ يقصدُ مقهى «بوناشي» بين سوق التُّجار والسُّوق الدَّاخلي. يحملُ بشارة أمضى عُمرًا يقتفي أثرها ولا أثر لها إلا ما ابتدعته أُم حَدَب. يتوقُ إلى اصطياد مُنصِتٍ يزفُّ إليه الخبر السَّعيد، فيُكافئ المُنصِتَ بحكايةٍ ساحرةٍ جرت على ظهر السَّنْبوك لقاء سماعه البُشرى. فينتشر نبأ سليمان في آخر ليالي الغَوص انتشار بخور السوق.

وسارَ الهذَّار يفعلُ بموج الزِّحام فعلَ عصا نبيِّ الله موسى باليَم. ومرَّ فرعون الكلامِ وما أطبق عليه موجُ الزِّحام. مرَّ بسلامٍ يرفع يمينه بالسَّلام، وأصحاب الدكاكين والمخازن عن يمينه ويساره على جانبي السِّكَّة، يُدْبرون ويتشاغلون بأعمالهم عن ردّ التَّحية. ويمرُّ المنبوذُ قُدَّامَ مخازن القمح والشَّعير والسُّكَّر والتَّوابل مُشرئب العنق، نحيلًا أكحل العينين. يعقدُ طرفي الغترة أسفلَ فكِّه مثل حجاب. ويمشي على أطراف أصابعه باسم الوجه. يتطاول على الرُّؤوس من حوله، ويبرزُ رأسه ويُديره في كل اتجاهٍ يبحث عن أيِّ وجهٍ مألوف يفترسُ وقته بالكلام. *لا أحد*. حتى المتسولين لا يرغبون بصدقةٍ لقاء وقتٍ أغلى من قيمتها. فيُسَلِّي الهذَّارُ نفسه يُكلِّمُها، يُحاورها ويُجادلها على مسمعٍ من النَّاس المتطارشة. يتلثَّم أحدهم ما إن يُبصره مارًّا،

ويلبدُ بأقرب دُكَّان يختفي فيه شاريًا وقته. ولا ينتبه إليه الهذَّار الذي راح يملأ صدره برائحة دبس التَّمر وعيناه تبحثان عن المعارف أو معارف المعارف. ويمرُّ شابٌّ مألوف الوجه من أمامه، يحطُّ على رأسِه بُلبُل ويسأل المارَّة أن يشعلوا سيجارة تتدلَّى من شفتيه. ويسارع عَزُّوز بالسَّلام مادًّا كفَّه بعلبة ثقاب. وقبل أن يشعل له عودًا يسأله أين رآه من قبل. فيمضي الشَّاب مُسرعًا وهو يشيرُ إلى أُذنيه يومئ إليه بما لا يقول: أنا أصَم. ويهجس. ***يلعن أبو شاربك!***

ويتجاوزه الهذَّار يُطبق أذنيه لتغريد البُلبُل الذي لا معنى له، ويُزاحم الرِّجال أمام مدابس التَّمر، وقتَ أفرج نواطير السُّوق عن مشبوهٍ قبضوا عليه البارحة يطوف بين الدَّكاكين المغلقة. وحامَ أبو اللسانين حول الرَّجل مثل ذُبابة الخريف ثقيلًا دَبِقًا، يسأله عن حكايته ولماذا حبسوه في المدابس وما سبب مروره في السُّوق ليلًا ألا يدري أن المرور في اللَّيل ممنوع وكيف أمضى ليلته واقفًا بين دبس التُّمور وهل المدابس كما يقولون تملؤها الفئران في الليل وأن الفأر فيها بحجم القِط؟ شي عجيب غريب والله!

فهربَ المشبوه رافعًا طرفَ دِشْداشَتِه الملطَّخة بالدِّبس:

«أعوذ بالله.. حتى نواطير السُّوق ما سألوني عن كل هذا!».

يُقطِّب الهذَّار جبينه يستنكر مبالغة الرَّجل وحساسيته المفرطة وقِلة ذوقه في الرَّد، كما لو بدر منه ما يزعج وهو ما أراد إلا الاطمئنان على الرَّجل بعد ليلة الحبس. ويمضي في دربه يتلصَّص على أحاديث

الرِّجال علَّه يفتح باب حديث. وكل الأبواب موصدة في وجهه. فيعاود محادثة نفسِه مُتبرِّمًا من السُّوق الصمَّاء. يقطع الدَّرب المسقوف بالعريش على دعائم الأخشاب، يفتعلُ ابتسامة بَدَت لقِلَّة النَّاظرين إليه، بلهاء. يذبلُ مع كل خطوةٍ يقطعها لا يُحدث فيها أحدًا. يرتبك. يصيبه الذُّعر. يتلفَّت يتحرَّى ضحية يلتهمُ من وقتها ما يعينه على العيش، لكن النَّاس تعرفه من غمغماتِه قبل وصولِه فتتحاشاه. وهو يمشي فاغرًا فمه يُحدِّث نفسه، ويصيحُ فجأة مثل ديك الحبش متبرِّمًا، يزعجه ابتعادُ الدَّهماء عنه ابتعاد الجنِّي عن العُطبة.

«شي عجيب غريب والله لعنة الله على النَّاس كل النَّاس ما بالهم لا يسمعون لا يفهمون كما لو أني أُحدِّث جدارًا يُنصت ولا يردُّ جوابًا مجانين والله العظيم إنهم مجانين حتى السَّلام لا يردونه لا عيب ولا حرام يعرفون شيء عجيب غريب والله لا بد أن صممًا قد أصابهم كان الله في عونهم الله يلعنهم..».

وحثَّ الهذَّارُ خطوه نحو مقهى بوناشي في الرُّكن آخر الطريق مُقابل السُّوق الدَّاخلي، يحملُ البشارة مُسرعًا قبل انصراف الرِّجال إلى مسجد السُّوق الكبير على مبعدة خطوات.

***

تموجُ أصوات السُّوق حول المقهى القديم، موجةٌ إثر موجةٍ في لجَّة المكان؛ الحناجر تصدح بالأرقام في مزادات بيع الجملة،

ومساومات الدَّكاكين تبدو للسَّامع شجارًا بين بائعٍ وشارٍ، وبركات الأدعية ينثرها الشَّحاذون العابرون بأسمالهم بين رُوَّاد السُّوق. وأخبار يُردِّدها المارَّة بشأن إرسال الحاكم للفارس مرشد إلى الجهراء، وشائعات عن حربٍ وشيكة مع الإخوان سببها عباءة القصر، وأن العباءة التي أُلقِيَت في مغاص أُم الطِّين عباءة بديلة. وأوغل البسطاء بترويج ما تقوله صاجَّة المرقاب أن في العباءة بلاء، وأن من يملكها يقدر أن يواري مدينة عن عين الشَّمس. أما العاقلون فردَّدوا ما تسرَّب من أمنيات القصر؛ مجرَّد سحابة صيف.

يتربَّع الرِّجال في مقهى بوناشي على الدَّكَّات الطينية الأربع، تحت سقيفةٍ من جريد النَّخل تتسرَّب خللها أشعة الشَّمس خيوطًا ذهبيَّة. يجلسون فِرقًا مُتقابلة تتنشَّق روائح القهوة وجمر الحطب وتبغ النارجيلة. ويتحدَّثون على وقع قرقرة المياه في فخَّار النَّارجيلات، واحتكاك خرز المسبحات بين الأصابع. مجموعة من الرِّجال تلعب الدُّومِنة مشغولة بتحريك أحجارها. وشَيخُ البحَّارة سَنَد يُقابل رجلًا ابيضَّ كأنما تمرَّغ بالطَّحين، أبيض الغترة والعقال واللِّحية والدِّشداشة والبِشت؛ الحاج عبدالله بِن صالح، أو أبا السّواعد كما لقَّبه النَّاسُ نسبة إلى أبنائه التِّسعة؛ سعد وسعود وسعيد ومساعد ومسعود وأسعد ومِسعِد وسعيدان و.. سعدون. يتشابهون في ملامحهم حتى يكفي المرءَ أن يُبصر وجه أصغرهم سعدون؛ فيعرف ما كانت عليه ملامح الإخوة قبل سنوات، ويكفي أن يبصر وجه أكبرهم سعد فيعرف إلامَ تصير إليه ملامحهم بعد سنوات. وكان

الحاج أبا السّواعد يُباهي الخلق بثمانيةٍ منهم، تزوَّجوا صغارًا وصانوا أنفسهم عن الحرام، ومنحوه دزينةً من الأحفاد. ملؤوا له البيت وما سمع لهم الجيران صوتًا. فبالغ جيرانه في الحي القِبلي في الثَّناء على بيته المحافظ، ونعتوه بالبيت السَّاكت، لا يرتفع فيه صوت امرأة رغم وجود زوجته وكنَّاته الثَّمان اللائي ما خرجن من البيت قط. ويُبالغ الأب في الثَّناء على أبنائه الذين برُّوا بوالدَيهم وأقسموا ألا يتوكأ أبوهم على عصًا ما داموا يشمُّون الهواء: «هُم سَعدي وسواعدي».

ينحني الشَّيخان، بِن هولين وأبو السّواعد، على رُقعة الدَّامةِ يُنقِّلان قِطعها الخشبية يتباريان في صمت. ويبدو أبو السّواعد على منظرٍ دائم، يمدُّ ساقيه على طاولةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ بسبب آلام مفاصل ما انفكَّت تتفاقم. يكوِّم بِشْتَهُ الأبيض على الطاولة الصَّغيرة، لئلَّا يوجِّه باطن قدَمَيه إلى الرِّجال الجلوس أمامه.

والمُلَّا إبراهيم كريم العين غير بعيدٍ عنهما، مميَّز الرأس بعُصابته البيضاء، يتربَّع على دكَّةٍ وبِشْتُه الرَّمادي مُكوَّم في حِجره، يُحادث الفقيه عبدالعزيز الرشيد بشأن الإخوان على تخوم البلاد، وبشأن ما يراه، كريم العين، تهاونًا مِن الأمير مع الفاسقين في الدِّيرة، بخلاف ما بدأ فيه عهده بالتضييق على أوكار الحرام والمفسدين.

صبيُّ المقهى، بدِشْداشَتِهِ الرثة وإزاره المهترئ، يطوف على الرِّجال بالفناجين ومصبِّ القهوة الشَّادنية يتضوَّع منه ريحُ الهال

والقرنفل. والنُّوخِذا بِن حامد معتكر الوجه يتفكَّر في لعنةٍ أصابت سَنْبُوكه الجديد؛ في دخوله الأوَّل اختفى منصور الغيص، وفي دخولِه الثَّاني كاد سليمان أن يختفي إثر نوبة جنون. *الخوف والله أن عاقرًا عبرَت بِيص سَنْبوكك يا بِن حامد.* يُحدِّث النُّوخِذا نفسه وهو ينحني على حُفرة الجمر بين دكَّات الجلوس الأربع، يلتقط بالمنقاش جمراتٍ متوهِّجة يُغذي بها النَّارجيلة الفخَّارية. ثُمَّ يقفل إلى مكانه يتربَّع على الدَّكَّةِ تحتَ تجويفٍ في الجدار. ما عاد الغرامافون يركنُ في هذا التجويف بعدما تخلَّص منه صاحبُ المقهى، نزولًا عند تضييق المُلَّا إبراهيم، كريم العين الذي ما انفكَّ يُطارد الغرامافونات وأسطواناتها في مقاهي الدِّيرة، وينتقد وجودها في مجالس أعيانها.

عدَّل عبدالعزيز الرشيد عِمَّته وتنحنح قبل أن يرفع الصَّوت يُجيب المُلَّا إبراهيم:

«ليس الأمير وحده المسؤول يا مُلَّا. إنما كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته. فليحاسب المرء نفسه أولًا على فساد ولده، أم أنكم تريدون من الشَّيخ الكبير أن يُربي أبناءكم؟».

وكما لو أن دبُّوسًا وخزَ الحاج عبدالله بن صالح في قلبه. انتفض الرَّجل المسنُّ وترك رقعة الدَّامة، منصرفًا عن منافِسه بِن هولين، وأقحم نفسه في حديث المُلَّا والرّشيد، يدفع عن نفسه تهمة تضمنها حديث الفقيه لم يكن هو المعني فيه، وقال بلهجتِه الزُّبيرية الليِّنة:

«عندي ثمانية أولادٍ غيره فيهم الصلاح، حَمَامُ مسجد يا شيخ عبدالعزيز.. هل أُحاسَب على تاسعٍ عاق؟».

التفت شيخ البحَّارة والتَّاجر بن حامد إلى عبدالعزيز الرشيد، يتحرَّيان إجابته على صاحبهما الذي يُبجِّلانه ويتعاطفان معه في مصابه وعقوقِ أصغر أولاده.

«والله ما قصدتك يا أبا السّواعد! إنما كلكم مسؤول.. والله يهدي ولدك».

صمتَ الحاج أبو السّواعد ولم يُعاود مُلاعبة العَم سَنَد. وبدت الشَّفقة في ملامح الرشيد على حال الرَّجل الذي ابتُلِي بولدٍ ماجن. وارتحل الفقيه صامتًا مع هواجسه وهو يُمرِّرُ خرز السُّبحةِ الكهرمانية بين أصابعه. *لو أن الأمير أكمل ما بدأه سنة توليه الحكم! ما زال الرجل غيورًا على دينه غير أنه ما عاد على عزمه القديم. الخوف والله من الإنكليز.* حكَّ الرشيد عثنونه وأعاد تثبيت نظارتيه الدَّائريتين على أنفِه. فأكملَ حديثه للمُلَّا كريم العين:

«ليس من العدل يا مُلَّا أن تنتظر من بِن صُباح أن ينصرف عن مشاغلِه بين الإنكليز وإخوان من طاع الله ليتفرَّغ لصغائر الأمور. بالله عليك يا مُلَّا، أتريده أن ينزل عند مطالب الإخوان ويطارد مُدخني التَّبغ في المقاهي ودكَّات السِّكَكِ وداخل البيوت؟».

صمتت قرقرة نارجيلة النُّوخِذا بن حامد بعدما غصَّ بدُخانِها. وراحَ يسعل واضعًا كفَّه على صدره. فكتم بن هولين وأبو السّواعد

ضحكتهما على انتفاضة بن حامد الذي التفت إلى المُلَّا إبراهيم يُحدِّثه بصوتٍ مبحوح:

«أصلي وأصوم وأزكي.. أيدخلني الله جهنَّم من أجل هذه؟!».

أشارَ بن حامد إلى النَّارجيلة بذقنِه رافعًا حاجبيه. وسدَّد المُلَّا إبراهيم سبَّابته صوبَ رأس النَّارجيلة المتَّقِد:

«والله لو وقعت منها جمرة في حضنك لما هزئتَ بجهنَّم!».

هزَّ بن حامد رأسه ممتعضًا:

«أستغفر الله! خفِّف علينا يا مُلَّا، عند الله السَّعة!».

تجاوز كريمُ العين حديث النُّوخِذا، وردَّ على عبدالعزيز الرشيد مُخفضًا صوته:

«للإخوان مطالب أُخرى مشروعة غير منع الدُّخان..».

عدَّدَ المُلَّا إبراهيم على أصابعِه بدءًا من الخنصر:

«..ترك المنكرات والخمر، وهَدم مستشفى النَّصارى وطرد أطبائها المشركين، وهدم مقام الجزيرة، وماذا بعد؟ نعم، وهَدم بيوت الحرام في الرُّمَيلة، فقد ضاقت الحال بالأهالي وصاروا يبيعون بيوتهم بتراب البيزات، ينحاشون من جيرة بيوت حمدية وبناتها، ويعتقون أنفسهم من صيت الحَيّ الملعون».

تدخَّل بن حامد يُحاجج كريم العين ويُذكِّره:

«يا مُلَّا الشَّيخ حَط مختارين يُنظفون السِّكَّة من بيوتها الوسخة

وأنت تدري، والكل يدري أنه، طال عمره، قلَع بنات السُّوء إلى البصرة قبل ثلاث سنين وردَّهم الحاكم العَنگريزي هناك..».

انحنى بن حامد بجذعه إلى الأمام مثبِّتًا عينيه إلى عينيّ المُلَّا إبراهيم:

«تقول لأ للعَنگريز؟».

أجابه المُلَّا على ما يقول المَثَل بصوتٍ خفيض:

«البيت بيت أبونا والغُرب يحكمونا».

سارع الرشيد يُلقي بسؤالِه وهو يُداعب مِسْبحته:

«واليهود؟ لماذا لا يُطالب الإخوان بطردهم يا مُلَّا؟».

أشار كريم العين بذقنِه إلى المِسبَحة في كفِّ الرّشيد:

«التَّسبيح بالأصابع هو الصَّحيح يا ولدي.. هذي المسابيح بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالةٍ في النار والعياذ بالله».

اعتدلَ النُّوخذا بن حامد يُدير دفَّة الحديث إلى وجهتها قبل شَطط المُلَّا إبراهيم:

«اليهود لهم منافع بالتِّجارة يا شيخ عبدالعزيز، ولا يُبشِّرون بدينهم مثل المسيحيين».

سارع كريمُ العينِ يُحاجِج الرّشيد:

«على ذِكر اليهود.. هل يعلم الشَّيخ سالم أنه بعدما منعهم من

بيع الخمر في دكاكينهم صاروا يصنعونه ويبيعونه في البيوت؟ من يوقفهم؟!».

ابتسم الرّشيد لكريم العين وتجادل الاثنان:

«اليهود يا مُلَّا يتبعون حكومة العَنگريز ولا لك كلمة عليهم».

«لكن المعتمد العَنگريزي نصراني».

«والمندوب السامي الذي فوق المعتمد.. هو لعلمك يهودي..».

صمت كريمُ العين، وأردف الرّشيد:

«..ومع هذا استدعى الشَّيخ كبارهم ومنعهم من بيع المنكر في السوق».

«فباعوه في بيوتهم».

أجاب كريمُ العين، فكسر العَم سَنَد قيدَ صمتِه على غير عادةٍ في أحاديث السِّياسة، وهو الذي يؤمن بأن الشُّيوخ، من أُسرة الحُكم، وحدهم في هذه الأمور أعلم:

«مُلَّا إبراهيم! أنت تضع نفسك خصمًا للشَّيخ سالم».

ما كان في الدِّيرةِ من يتجاوز لقب «شيخ» من العَم سَنَد «شيخ» البحَّارةِ غير الشُّيوخ من أُسرة الحُكم والمُلَّا إبراهيم كريم العين:

«سَنَد! ومن تكون يا أنت حتى تتكلَّم في شؤون الدِّيرة؟ عُد لبَرِّ أعمامك فإن بحر أخوالك لا يعنيك!».

صاحَ النُّوخِذا بن حامد يُقاطع كريمَ العين، يذودُ عن صاحِبِه القديم وبركةِ سَنْبوكِه وشيخ بحَّارتِه بن هولين:

«مُلَّا!».

رفعَ شيخُ البحَّارةِ ذراعه العضيلة يُصمت النُّوخِذا الذي هبَّ للدفاع عنه. وجَّه بصره إلى المُلَّا إبراهيم:

«أنا سَنَد بن هولين شيخ البحَّارة وأطيع الله.. ولست أخو من طاع الله».

«صلُّوا على النبِّي يا جماعة!».

قال الرشيد يُرطب جفاف الحوار. فصلَّى الحضور على النَّبي وصحبه وآلِه. فالتفت يُنادي أحد الصِّبيةِ عند مروره قُدَّامَ المقهى. وأرسله إلى مكتبة بِن رُوَيِّح يسأل صاحبها عن وصول مجلة «الهلال»، فلامه كريم العين على قراءة صحف ومجلات السوق وفيها من لغو الحديث ما لا يُسمن ولا يغني من جوع.

«لا أقرأ الصحف والمجلات وحسب يا مُلَّا، إنما أدعو الناس لقراءتها والاطلاع على العلوم العصرية إن جئت للحق..».

ضيَّق المُلَّا ما بين حاجبيه وخزرَه:

«هذا كلام يوسف بِن عيسى وصقر بن شبيب!».

«وكلامي».

كادَ المُلَّا إبراهيم أن يرُدَّ على تحدي الرشيد لولا أن أقبلَ المُلَّا

عبدالمحسن، إمام مسجد السُّوق الكبير، باشّ الوجهِ أبيض اللحية يتكئ على عصاه ويلفُّ سِبحةً حول إبهامه. يتسربل ببِشْتِهِ البُنيّ ويرفعُ كفَّه لرجال المقهى:

«السَّلام عليكم ورحمة الله..».

نهضَ المُلّا إبراهيم كريم العين وقد اعتكر مزاجه. ارتدى بِشْتَهُ الرَّمادي المرقَّع، وتعذَّر لرجال المقهى بموعد إمامتِهِ الصَّلاة بمسجده قرب سوق الحريم:

«في أمان الله».

التفتَ المُلَّا عبدالمحسن إلى المُلَّا إبراهيم وابتسامته على مُحيَّاه ما زالت:

«في أمان الكريم.. أسرِع إلى مسجدك يا مُلَّا إبراهيم..».

لم يرُدَّ على المُلَّا عبدالمحسن الذي تربَّع مقابل عبدالعزيز الرشيد. انصرف المُلَّا إبراهيم عابس الوجه عاقد الحاجبين، يُمسِّد لحية حمَّرَت الحِنَّاء شعرها الأشيب. واختفى في زحام السُّوق. وسارع بن هولين وتبعه أبو السّواعد يجرُّ ساقيه للسَّلام على المُلَّا عبدالمحسن والجلوس إلى جواره على الدَّكة. فارتفعَ مواءٌ عَدائيٌّ حادٌّ غير بعيدٍ عن المقهى، تبعته صرخة المُلَّا إبراهيم الذي توارى في الزحام:

«اِتركوا البِشْتَ الله يقطعكم!».

تضاحك الرِّجال واختضَّ جسدُ المُلّا عبدالمحسن كاتمًا ضحكته.

هداه الله وأصلحه! حتى قِطَط السِّكَك لا تطيقُه.

ارتفعَ صوتُ عبدالحي حلمي يشدو: يا مسلمين يا أهل الله. جاء الصَّوت المصري من غرامافون أحد الدَّكاكين القريبة بعد انصراف المُلّا كريم العين. وأتى صبيُّ المقهى بالطَّاسةِ النُّحاسية يسقي المُلَّا عبدالمحسن الماء البارد. فردَّ خصيمُ الصاجَّات الطَّاسة بعدما قرأ آية الكرسي منقوشة في باطنها، ففطن إلى أنها طاسة أُم حَدَب كبيرة الصاجَّات. ونهرَ المُلَّا صبي المقهى وطلب الماء في طاسة أخرى. وانبرى بن حامد ينفخ الدُّخان وهو يقول للصَّبي:

«شاي للمُلَّا يا ولد».

ثُمَّ عاود انكفاءه على نارجيلتِه. وعاد الصبيُّ بطاسة ماءٍ أخرى، وشرب المُلَّا عبدالمحسن قليلًا من الماء وغسل وجهه في أكثره، ثُمَّ جفَّف وجهه بطرف غُترتِه قبل أن يقول للرّشيد:

«جاء بك الله يا شيخ في دربي.. أصحيح ما نسمعه عن الإخوان؟».

بادر صبيُّ المقهى يسبق إجابة إمام مسجد السُّوق الكبير:

«يقولون إن الإخوان يريدون العباءة التي في قصر السِّيف».

«ألا تستحي يا صبي وأنت تعيد كلام الصاجَّات وخرابيطهن مثل الحريم؟! هذا حرام يا ولدي.. هذا كفر والعياذ بالله».

لم يرد الصَّبيُّ الذي تشاغل بوضع الطَّاولة الصَّغيرة أمام أبي السّواعد ليمُدَّ ساقيه. فقال المُلَّا عبدالمحسن للرشيد:

«حرنا في ما نسمع.. ناس تقول إن الإخوان ينوون على الشر، وناس تقول سحابة صيف».

رفعَ الرشيد صوته يُجيب خصيم الصاجَّات ويُسمع الجلوس:

«إن شاء الله خير يا مُلَّا».

ثُمَّ أخفتَ صوته ومالَ صوبَ المُلَّا عبدالمحسن:

«وجهُ الشَّيخ سالم يقول إنهم لا ينوون على خير».

أرهفَ بن هولين وأبو السّواعد سمعهما. همسَ المُلَّا:

«يعني -يا شيخ- حرب أخرى قريبة؟».

برطم الفقيه قبل أن يقول:

«ليست قريبة جدًّا ونحن في مُحرَّم.. وربّك حرَّم القتال فيه كما تعلم».

هزَّ بن هولين وأبو السّواعد رأسيهما قانعين بردِّ الرّشيد. ورفضَ المُلَّا عبدالمحسن قول الفقيه الشَّاب الطَّافح بالثِّقة:

«أنا أفهم. وربُّك -يا شيخ- لا يُحرم القتال في الشُّهور الحُرُم، وقال لا تظلموا فيها أنفسكم، وقاتلوا المشركين كافة.. ونحن -يا شيخ- في شرع الإخوان كُفَّار والعياذ بالله.. يعني غدًا يُغير الإخوان علينا بأمر الله وإرادته على ما يقولون».

هزَّ بن هولين وأبو السّواعد رأسيهما قانعين بردِّ المُلّا عبدالمحسن. وجاء صبيُّ المقهى بكأس الشَّاي للمُلَّا، يحملها على صينيةٍ نُحاسيةٍ مُبطَّنةٍ بمنشور تبشيري من منشورات الإرسالية الأمريكية. توقَّف الصَّبيُّ يُنصت إلى الحديث الذي أسكت الرِّجال. واعتدلَ الرشيد في جلستِه وسأل المُلَّا:

«أين قال الله هذا الكلام؟».

«في كتابه، في القرآن يا شيخ».

بن هولين وأبو السّواعد ينظران إلى عبدالعزيز الرشيد يتحرَّيان ردًّا. فردَّ الفقيه:

«في سورة التَّوبة يا مُلَّا، في الآية ست وثلاثين..».

لم يُمهله المُلَّا. قاطعه مُحتدًّا:

«أدري!».

تجاوز الرشيد لهجة المُلَّا وأكمل:

«.. هذه آية مشروطة يا مُلَّا بالآية الخامسة من السُّورة نفسِها: فإذا انسَلَخَ الأشهُر الحُرُم فاقتلوا المشركين.. وانسلاخُ الأشهر يعني انقضاؤها. يعني أن القتال فيها حرام حتى تنقضي.. يا مُلَّا».

هزَّ بن هولين وأبو السّواعد وصبيُّ المقهى رؤوسهم قانعين بردِّ الرّشيد، على حين بدا الِانزعاج على وجه المُلَّا عبدالمحسن وهو يُقارع بالحجَّة:

«أنا أفهم. والرسول عليه الصلاة والسلام -يا ولدي- قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو شهر حرام.. أم أنك تفهم أكثر من النبي».

سارع الرشيد يجيبه:

«أستغفر الله! حصار الرسول لأهل الطائف كان تتمة لقتال بدأته هوازن وأحلافها من ثقيف.. وربك يا مُلَّا يقول في كتابه: الشهر الحرام بالشهر الحرام، والحرمات قصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.. يعني القتال جائز لو كان ردًّا على قتال، لا البدء فيه.. ونحن لم نبدأ في قتال الإخوان كي يردُّوا.. يا مُلَّا».

نهَض النُّوخِذا بن حامد إلى حفرة الجمر يحملُ المِنقاش:

«يعني القتال في الأشهر الحُرم حلال أم حرام؟».

أولاهم الصَّبيُّ ظهره يُباشر رُواد المقهى:

«إن أردته حلالًا فهو حلال، وإن أردته حرامًا فهو حرام!».

أوشك مُلَّا المسجد الكبير أن يرُدَّ على استخفاف الصَّبي لولا دخول مُفرِّق الجماعات ومُفسد الاجتماعات رافعًا صوته:

«السَّلام عليكم.. الله بالخير نُوخِذا بن حامد ما شاء الله الجماعة كلهم هنا في الشاي خانة الله يجعلها لَمَّة خير وبركة قوَّاكم الله قوَّاكم الله يا صبي هات لي طاسة ماء كيف الحال شيخ عبدالعزيز بشِّرنا

عن أحوالك ما شاء الله ما شاء الله العَم سَنَد والحَجِّي أبو السّواعد يا هلا يا هلا ومرحبا الله يحييهم ويبقيهم..».

أكثر الرِّجال رَدُّوا السَّلام وهُم يتناثرون خارجين خلال هذره، تاركين قِطَع الدَّامة الخشبية وأحجار الدُّومِنة والنَّارجيلات وراءهم:

«وعليكم السَّلام.. في أمان الله.. الصَّلاة يا جماعة الصَّلاة».

ورغم أن موعد الصَّلاة ما حانَ بعد، نهَض شيخ البحَّارة سَنَد يُحدِّث نفسه يُسارع بالخروج:

«لا بارك الله فيك. لا في البحر نسلم ولا في البرّ».

رفع الهذَّارُ ساقيه يتربَّع على الدَّكَّة، ولم يبق أمامه إلا الرشيد والمُلَّا عبدالمحسن والنُّوخذا بن حامد والحاج أبو السّواعد بعدما فرَّ مَن فرَّ مِن الرِّجال ينجون بوقتهم. تثاقل صبيٌّ المقهى يُقدِّم طاسة الماء البارد إلى الهذَّار، ثُمَّ انسلَّ هاربًا. وعبَّ الضَّيفُ الثَّقيلُ ماءه حتى بلَّلَ شاربه العريض، ومسح شفتيه بكُمِّه، ثُمَّ صاح بالصَّبي الهارب:

«يا صبيّ، القهوة والشَّاي اليوم على حسابي!».

تبادل الرِّجال النَّظرات قبل أن يسأله بن حامد:

«على حسابك يا أبا غايب؟! خير؟ ورثتَ أم عندك بشارة؟».

استند الهذَّار إلى الجدار نافخًا صدره بثقة أمام النُّوخِذا على غير عادة، مسحَ شاربه بظهرِ سبَّابته وهو يقول:

«البشارة البشارة يا عَمِّي النُّوخِذا إني بعد خمس سِت أو سبع شهور سأرزق بولد إن شاء الله ولد ولد يحملُ اسمي واسم أبي وجدِّي وجدَّ جدِّي..».

خزَّرَ المُلَّا عبدالمحسن عينيه، ينظر إلى الرَّجل الذي لم يرزق بذريةٍ منذ عشرين سنة من زواجه بـ أمينة البيعاريَّة، أشهر عواقر الدِيرة التي أسماها النَّاس أُم غايب:

«وما أدراك أنه ولد؟!».

«أُم حَدَب تقول إن المولود سيكون ذكرًا».

ثُمَّ لاذَ الهذَّارُ بصمتِه كأنه ينتحر أمام خصيم الصاجَّات، نادمًا على فلتة لسانه الفالت. وتململَ الرّشيد في جلستِه فشاغل نفسه يُنقِّل خرز السُّبحة بين أصابعه، ثُمَّ أخرجَ ساعة جيبه يتشاغلُ بها عن لغو حديث الهذَّار. وانبرى المُلَّا عبدالمحسن يُحدِّث الرشيد:

«يا ولدي يا عبدالعزيز، يجب أن تبلغ الشَّيخ سالم ليضع حدًّا للصاجَّات وخرابيطِهن!».

أفلتَ الرّشيد ضحكة من أنفِه وهو يُعيد ضبط ساعته:

«لا أظنك نسيت يا مُلَّا قبل عشر سنوات، حينما نطقَ ياسين الطبطبائي ويوسف بن عيسى والشيخ ناصر بن مبارك بن صُباح بفكرة المدرسة المباركية كُنتم أنتم ضد تأسيسها.. وقلتم في الشاعر صقر بن شبيب ما قلتم فقط لأنه مجَّدَ العِلم في أشعاره».

عقد المُلَّا عبدالمحسن حاجبيه كأنما ينتظر من الرّشيد توضيحًا، فأوضح الرّشيد:

«العِلم يا مُلَّا.. أم كيف ستضع حدًّا للخرافة والخرابيط».

«الدين يا ولدي.. الدين يضع لها حدًّا ويقطع دابرها..».

وما أمهل خصيمُ الصاجَّات الرّشيدَ ليرُد، والتفت سريعًا إلى الهذَّار:

«..وأنت يا أبا غايب! اِستغفر ربّك يا رجل! وهل تُصدِّق كلام الصاجَّة مثل الحريم؟! الله يبارك لك فيما يجيء، إن كان ذكرًا أم أنثى، لكن تصديق راجمات الغيب لا يجوز.. اِسألني لماذا؟».

ولأن كل آفةٍ عليها من الله آفة، فقد اختنق عَزُّوز الهذَّار بكلماته. ولم يُحر جوابًا أمام المُلَّا الذي لن يصمت أبدًا، متكئًا على احترام النَّاس وعدم مقاطعتهم له في أحاديثه الشرعيَّة التي لا يفهم فيها سواه، تلك الأحاديث التي يبالغ المُلَّا باستعراضها أمام الفقيه الشَّاب عبدالعزيز، الفقيه الذي ما انفكَّ يستشهد بأقوال العلماء الذين ثنى رُكبته أمامهم في الأحساء والزُّبير وبغداد ومكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة. وخالسَ الرّشيد نظرةً إلى أبي السّواعد، يكتمُ ضحكة وهو يشير إلى السَّاعة بين يديه. فدسَّ الحاج بن صالح قدميه في نعليه وهو يضحك وينادي الصَّبي لدفع حِسابه الأسبوعي. فاستطردَ المُلَّا يُحدِّث الهذَّار:

«سألتني لماذا.. اِسمع يا ولدي..».

قال ثُمَّ التفتَ إلى من بقي من رجالٍ في المقهى:

«..وليسمع مَن في الشَّاي خانة. إن كلام الصاجَّات غير مقبول.. والحريم ناقصات عقل والله.. يُصدِّقن كل شيء.. رأيتهن مرارًا والله..».

عاود النظر إلى الهذَّار.

«اِسألني ما رأيت؟».

اِحمرَّ وجه الهذَّار وقد تكدَّست الكلمات في حنجرته. وأمسك عن سؤال المُلَّا عبدالمحسن عما رأى، غير أن المُلَّا أجاب مُسترسلًا:

«سألتني ما رأيت.. اِعلَم أني رأيت فيهنَّ من تدفن السِّحر في المقابر بعد العِشاء، ومن تزيل التراب عن حفرة قطٍ أكله الدود، فتُخرج من الحفرة العْزيزو[1] وتدفنه في بيتٍ فيتفرق شمل أهلِه. ورأيت منهنَّ العاقر تخرج إلى السِّيف في منتصف الليل، تعبر فوق البِيص..».

«البِيص؟!».

انتفضَ النُّوخِذا بن حامد منزعجًا لذِكر البِيص. واعتدل الهذَّار في جلستِه نافد الصَّبر مُرتبكًا. فاستلَّ نفسًا طويلًا قبل أن يدفع عن زوجته تُهمة العبور فوق قاعدة السَّفينة:

«شي عجيب غريب والله صَلّ على النّبي يا مُلَّا الله يهديك هذا بدل أن تبارك لي وتفرح بالبشارة بعد كل هذه السنين وأنا أنتظر

(1) **العْزيزو**: آخر عظمة في العمود الفقري، ويبقى العْزيزو لسنوات طويلة بعد تحلل الجسد. (محرر وزارة الإعلام).

ذرية يا عسى أن تكون من الذُّريةِ الصالحة إن شاء الله يجيء المولود ذكرًا يرتادُ مجلسكَ يتعلَّم الدِّين واللغة والحساب ويعمل عند كبار تجار اللؤلؤ ويصير مثل بِن حامد لو يطحن بيزاته بالرَّحى لا تنتهي ويوفقه الله إن شاء الله ولا يدخل ولدي البحر مثل أبيه الذي ضاقت به الحال ودفعته إلى البحر وأهواله يعاني الفقر يذوق المُرَّ وهو يفلق المحَار يبحث عن لؤلؤٍ يصيرُ إلى النّواخذة ومهراجات الهند والتجار مثل حمار البرسيم يحمله ولا يذوقه شي عجيب غريب والله يا مُلا هذا بدل أن تبارك لي و..».

اتسعت عينا النُّوخِذا بن حامد مُستنكرًا جرأة عَزُّوز الهذَّار وشكواه العلنية:

«جازى الله خيرًا تاجرًا يكسوك ويطعمك أنت وأهل بيتك في الشتاء، لقاء وريقة تتعهد بها سداد دينك عملًا في الصَّيف.. صار البحرُ فقرًا ومُرًّا الآن يا عزُّوز؟! ماذا أعطيك أكثر؟!».

انفجرَ بِن حامد يُقارع الهذَّار هذرًا:

«..لك سهمٌ ونصف لقاء حاصل الموسم شأنك شأن الغاصة، ماذا تريد؟ أعطيك السَّنبوك؟! بلى.. خُذ الحامِدي عطية!».

احتدمَ النقاشُ فأمطره الهذَّارُ اعتذاراتٍ واستغفارًا. قال إنه لا يُريد أن يغادر الدِّيرة وفي نفسِ أحدهم عتبٌ عليه، فلوَّحَ النُّوخِذا بقصبة النارجيلة في وجهه:

«تترك الدِّيرة؟! هذا كلام جديد! والدَّين الذي عليك؟».

«بعت البيت».

أجابه الهذَّار قاطعًا أنه جاء يحملُ إليهم بشارة الوليد المقبل، وأنه سوف يغود إلى فَيْلَكا عند عمَّتِه أُم الخير حيث يُريد لابنه أن يولد هُناك، وأنه لن يُغادر الدِّيرة قبل أن يُسدِّد دينه للنُّوخذا بِن حامد و..

جاء الطفل المرسَل عائدًا من المكتبة يُخبر الرّشيد بعدم وصول المجلة، فنهضَ الفقيه ينتعلُ خُفَّيه وهو يُعيد السَّاعة إلى جيب صِداره. وقال يُمازح الهذَّار قاطعًا هذرَهُ رحمةً بمن بقيَ في المقهى:

«أتهرب إلى فيلكا والإخوان حول الدِّيرة؟ عيب عالرجال!».

فأقبلت حَمامات المسجد وحطَّت في المقهى، أبناء الحاج أبي السّواعد الثَّمانية، صفًّا مثل أحجار الدُّومنة، جاؤوا لمرافقة أبيهم إلى الصَّلاة. ونهضَ أبوهم يتكئ على ابنَيه سعد وسعود، وهو يغمزُ إلى الرشيد قبل أن يلتفت إلى الهذَّار يقول:

«إن صار وهاجمونا.. أخرج أنا وأبنائي الثَّمانية مع رجال بِن صُباح. وأنت تريد الهرب من الآن!».

«على هَونِك يا أبا السّواعد على هونك أبناؤك الثَّمانية يفعلونها أما أنت بالكاد تحملك ساقاك!».

تنحنح سعد مكفهر الوجه أمام الهذَّار، وابتسم أبو السّواعد لبِكره وأومأ له أن يُطيل باله. واستغرب النُّوخِذا لوثةً أصابت الهذَّار وجرَّأته على الرِّجال دونما حياء. وبدا الانزعاج على وجوه

السّواعد، غير أن والدهم تلقاها بابتسامةٍ ونظرةٍ واثقةٍ إلى عين الهذَّار:

«تشيلني الخيل وثمانية رجال».

ضحك المُلَّا عبدالمحسن على مُحاولات الرشيد وأبي السّواعد لإلهاء الرَّجل عن الكلام. وعاود النُّوخِذا التَّدخين مُكفهر الوجه، ثُمَّ وقف الهذَّار أمام تحدي أبي السّواعد، وأقسَمَ بشاربه الكثِّ يُشهِد الرِّجال:

«يدي على هذا الشَّارب؛ إن صار ما صار أنا معكم مع رجال بِن صُباح وشاربي هذا شاهد عليّ».

«ليس لديك إلا الكلام، وتذكَّر حديث المقهى هذا إن قامت الحرب، عساها لا تقوم».

قال أبو السّواعد يُبالغ في مناكفتِه، فنهضَ المُلَّا عبدالمحسن يهتزُّ جسده النَّحيل يُداري إغرابه في الضَّحك، فتذرَّع بموعد أذان الظهر. ولحق به الرّشيد إلى مسجد السُّوق، يتبعه عبدالله بن صالح المحاط بأبنائه يُخفي ضحكة شفقةٍ لحال الهذَّار:

«بارك لك الله في ذريتك، ولا أشقاك الله بولدٍ عاق».

انتفضَ الهذَّار مستنكرًا:

«اِقعد يا أبو السّواعد اِقعد أنت وعيالك القهوة على حسابي اليوم الخير كثير الحمد لله بعدما بعنا البيت و..».

تدخَّل النُّوخِذا يرفع صوته وهو يتبعُ الرِّجال إلى المسجد:

«الصَّلاة يا هذّار خيرٌ من قهوتك! جعل الله ولدكَ بحَّارًا حامدًا للنعمة قصيرَ لسان!».

مكثَ الهذَّار لوحده بين دكَّات المقهى يُحدِّث نفسه مُبرطمًا. ثُمَّ صاح بالصَّبي يوصيه بتحضير القهوة للجلوس إلى حين عودته بعد الصَّلاة. فأجابه الصَّبي مُكشِّرًا:

«ادفع من الآن وانصرف ولا تعُد ولا تُرينا رقعة وجهك كي يجيء العباد بعد الصَّلاة».

صمتَ غناء عبدالحي حلمي في غرامافون الدُّكَّان القريب وقتَ صدحت مئذنة مسجد السُّوق الكبير إيذانًا بموعد الصَّلاة. وركضَ الصَّبي إلى المسجد، يتبعه عَزُّوز يلهجُ لسانه بالدُّعاء بصوتٍ مرتفع. وما كاد يقترب من باب المسجد بين الرِّجال المسرعين حتى استوقفته امرأةٌ لاحت أمامه، عباءة سوداء انسلَّت بين بياض دَشاديش السُّوق:

«قوَّة يا بوغايب».

«الله يقوِّيك».

أجابها الهذَّارُ ملهوفًا إلى فتح باب حديث. فقالت المرأة:

«أنا أُم سليمان».

ثُمَّ سارعت تسأله قبل أن يبدأ وصلة التَّرحيب:

«ما مرّ عليكم سليمان؟».

اكتفى الهذَّارُ يهزُّ رأسه نافيًا وهو يدلف إلى المسجد من دون أن ينطق بكلمة.

رفعت شايعة صوتها:

«ولا العم سَنَد؟».

* * *

(18)

نساءٌ في حَوش أُم حَدَب

«نَضرة وهيلة ووردة وبهيجة»

«..وأنتِ تعرفينه يا صاجَّة، وهو مثل خبز يديك، تَخبرينه مذ كان صبيًّا، طيب وحبيب ولا يؤذي أحدًا، ويحب الله كما لم يحبه خلق. كأني والله أشوفه شوف العين، صبيًّا حُلوًا يرتقي درَجَ السطح كل فجر يا أم حَدَب، وأنت تذكرين، يرفع كفيه الصَّغيرتين إلى أذنيه ويؤذن مع مؤذِّني مساجد الدِّيرة. سقى الله ذاك الزمان، ورحم حال ولدي الذي كبُر ودَبَر..».

تتململُ العجوزُ البرصاءُ المتربِّعة على الأرض وتومئ برأسها، وتُنصت إلى ما تُكرِّره أكثر بنات مدينة الطِّين تردُّدًا على بيتها. تزورها الحاجَّة أُمُّ السَّواعد كُلَّ أسبوع منذ دهر. وتُفضي بالشَّكوى نفسها بصوتٍ ما لبِثَ يضعفُ أسبوعًا تلو أسبوع، يُراكم التَّعب فوق التَّعب، ولا يخلو من ذُلِّ الرَّجاء وإضمار العتب:

«..اشتريت له حصيرة صلاة من بيت الله علَّه يذكر الله ويعود إلى عقله. لا فائدة ولا عائدة. هل أذنبتُ يا صاجَّة ويعاقبني الله فيه؟ فعلتُ كل ما أوصيتني، إلا تزويجه مثلما زوَّجتُ إخوته الثَّمانية، وأنتِ

القائلة زوجوه فيعقل. من الذي يقبل تزويج ابنته لولدي والولد على حاله في الحوطة ناقع في الحرام؟ وأبوه كلما رجوته العفو عن ولده صرخ في وجهي، لا أسامح ولا يسامحه الله إلا لو أثمر الصوف. فهل يُثمر الصوف يا صاجَّة؟! أقول له ولدك ويجب أن يعود، فيهدِّدني بالطَّلاق لو أني التقيته، ويحلِف أن يحشَّ رجليه لو وطئ عتبة البيت، ولو علم بزياراتي للكِ يا صاجَّة لحشَّ رِجلَيّ أنا أيضًا».

اعتدلت أُم حَدَب في جلستها، ومالت نحو المرأة المتربِّعة أمامها على الأرض، فخشخشت قلادةُ الأصداف والأظلاف في جيدها فوق درَّاعتها الحمراء:

«اسمعي يا نَصْرة،

كاتب الأسفار يسلِّم عليك ويقول: أعانك الله على ما ابتلاكِ وعَوَّضك عنه بالثَّمانية. لن يثمر زرع سعدون ولدك ولن يُغفر ذنبه؛ إلا بخروج البريغْصي من جسده، وإن ذلك لقريب».

سهمت صاحبةُ الجديلة الطويلة في وجه كبيرة صاجَّات الدِّيرة

في حجرتها شحيحة الضَّوء، هادئةً مائلة الرأس جامدة القسمات. تُحملق إلى ثُؤلول العجوز، وتفكِّر في لا جديد قول كاتب الأسفار عن الزَّاحف الذي سكن جسد ولدها. ***يا ربي لا تعاقبني بولدي.*** فقالت وهي تعبثُ بجديلتها المنسدلةِ على كتفها:

«ومتى يخرج البريعْصي يا أم حَدَب؟ متى؟».

«إذا ما غفر الله ذنبه».

أجابتها الصاجَّةُ ثُمَّ سارعت تختم:

«كاتب الأسفار يقول».

دفعت أُمُّ السّواعد الأرض بكفَّيها تستقوي على النُّهوض. ولامس طرف جديلتها الأرض فاستقامت واقفة تنفضُها. ونظرت إلى الصاجَّةِ بوجهٍ خالٍ من التعبير وهي تُحكم لفَّ المِلْفَع على رأسها. ***يا صاجَّة ما صدقتي. لا صوف يُثمر ولا بريعصي يغادر جسد الولد!*** فرفعت عباءتها عن كتفيها وغطَّت رأسها. ***يا ربي ما لي غيرك وأنت نعم الوكيل.*** فأدارت وجهها عن كبيرة الصاجَّات وهي تنقدها المال، تُجيل نظرها إلى جدران الحُجرةِ الضيِّقة وسقفِها الخشبي، تبحثُ عن شيء غير موجود:

«كاتب الأسفار منذ سنين يقول. منذ أطاح الصَّرعُ بولدي في حوش البيت يُرافس مثل الذَّبيحة وهو يقول. ومنذ كويتِه يا صاجَّة وهو يقول. لا طِبَّ فادَ فيه ولا كَيَّ ولا حِرز. لنا الله يا أم حَدَب.. لنا الله».

«المؤمن مُبتلى.. وأنتِ مؤمنة».

أجابتها الصاجَّة بنبرة مُحايدة، فأسدلت أُمُّ السّواعد البُوشِيَّة على وجهها وخرجت من حُجرة العجوز. ورمت كبيرة الصاجَّات قطعة لُبانٍ في الموقد عند دخول امرأةٍ ما مكثت طويلًا. مدَّت إلى أُم حَدَب صُرَّةً فتحتها العجوز وتحسَّست في الظلمة الأساور والقلائد والخواتم والأقراط. قالت لها المرأة:

«هذا الذهب.. أين الولد؟».

صرَّت أم حَدَب المصوغات الذَّهبية في الخرقة، وقالت للمرأة:

«الولد موجود يا هيلة، بعمر أيام.. لكن أمه فردوس بنت حمدية».

وما فهمت المرأة من هي حمدية لتعرف ابنتها فردوس. استغفرت الصاجَّة قبل أن تقول:

«فردوس واحدة من بنات الرميلة، الله يستر علينا، ابنة حرام.. لكن لا ذنب للولد».

نهضت المرأة وهي تقول:

«يا أُم حَدَب خافي الله، نحن أبناء حلال، وما سألتك إلا عن يتيم أربيه وأنا امرأة كبيرة بلا زوج ولا سند. سألتك يتيمًا أرعاه فيبرني إذا كبرت».

مدَّت يديها إلى عجوز المرقاب:

«خلِّي عندك الولد.. أين الذهب؟».

ولَمَّا استعادت هيلة صُرَّتها استدارت وهي تقول لأُم حَدَب:

«إن لقيتي طفلًا يتيمًا ابن حلال.. اطرقي بابي».

خرجت هيلة فدخلت امرأةٌ أخرى والصاجَّة تزوِّد الجمر باللُّبان. تربَّعت المرأة داكنة البشرة أمام موقد أُم حَدَب. وقالت إنها وردة امرأة مستور المُصَوْقَر ابن صاجَّة المقام. وإن لزوجها سِتَّة أحوالٍ في الدِّيرة يمكث في البيت مثل المخبول. يحفظ كتابين في صندوق وينتظر أحدًا لا يعرفه أحد ليسلِّمه الأمانة، لكن لم يسأله أحد عن الكتابين منذ مجيئه الدِّيرة مُرسلًا من أُمِّه، والرَّجل يفقد عقله من الشَّوق للجزيرة.

«قالت أُمُّه إن صاحب الأمانة سوف يجيء حينما تحط البلابل في الديرة. أي ديرة وأي بلابل يا صاجَّة؟ أرسلني رجلي مستور لأسألك، متى يجيء صاحب الأمانة؟».

قالت امرأة مستور. فأجابتها أُم حَدَب على الفور:

«قومي إلى بيتك يا وردة وقولي لزوجك أن ينتظر».

«ينتظر ماذا؟».

رقَّصت أم حَدَب حاجبيها الأشيبين:

«البلابل».

خرجت امرأة مستور تزُفُّها الزَّرازير من حُجرة أم حَدَب إلى

الحوش. عبرت اللِّيوان فقطعت حَوْش الصاجَّة المثلَّث المليء ببنات الطِّين المتربِّعات على الأرض المتربة. والصاجَّات السَّبع بينهنَّ يُنصتن إلى يسير المطالب، ويُساعدن في حلِّ صغائر الأمور.

برزت من بين نساء الحَوْش المجلَّلات بالعباءات عباءةٌ لمَّاعةٌ التفَّت على ميَّاسةِ قَدٍّ حسناء، ترفع البُوشِيَّة عن وجهٍ قمريٍّ أبيض موشوم الذَّقن. تمضغُ العِلكة البصرية وتغمزُ في خدِّها الأيمن غمَّازة. جاءت تستقرئ الفألَ عند كبيرة صاجَّات الدِّيرة. نهضت وخفَّت إلى

حُجرة الصاجَّة، فأبطأت عند عتبة اللِّيوان تبصقُ العِلكة. وكشفت رأسها وأنزلت العباءة على كتفيها، فانتفشَ شعرها الكستنائي. وأطلَّت برأسها على الحُجرةِ المظلمةِ وألقت السَّلام. فنثرت الحدباءُ اللُّبان والملح أمامها في موقد الحطب، واختفت وراء دُخانه الكثيف لا يتراءى منها إلا حُمرة ثوبها الدَّاكنة:

«حيَّا الله مَن أقبَل..».

فأقبلت المرأةُ وتربَّعت أمام أُم حَدَب ومَوقِدِها. ولمَّا انقضى الدُّخان صوَّبت الصاجَّة عينيها إلى عينيّ المرأة:

«..عاشقة وتريدين حِرزًا وكشفَ فأل».

أومأت صاحبةُ الحاجة برأسها، فسألتها الصاجَّة:

«اسمه واسم أُمِّه؟».

«سعدون ولد نَصْرة».

أجابتها المرأةُ فتمالكت أُم حَدَب دهشتها وأطبقت جفنيها. *كاتب الأسفار يُشاكسني! هل أقضي اليوم كله في قضاء حوائج بنات الطين مع ابن الحَوْطة؟* فتحت عينيها ومالت على ذات الذَّقن الموشوم فتدلَّت قلادتها الغريبة:

«سعدون ولد من؟».

«ولد نَصْرة».

قطَّبت الصاجَّة جبينها وبرطمَت:

«من أهل الديرة؟».

هزَّت المرأةُ رأسها تؤكد، فأطلقت الصاجَّةُ زفرة طويلة:

«ما سمعتُ به من قبل.. لكن دعيني أُنصت إلى ما سوف يقوله كاتب الأسفار. مُدِّي إليَّ سبَّابتك اليُمنى».

مدَّتها المرأة، ومدَّت الصاجَّةُ سبَّابتها حتى تلامس الإصبعان، فسحبت أُم حَدَب يدها سريعًا:

«اِسمك بهيجة».

أومأت إليها المرأةُ توافقها، وما استغربت معرفة الصاجَّة باسمها، إنما استنكرت ادعاء العجوز عدم سماعها بـ سعدون، فمن ذا الذي في الدِّيرة لا يعرف ابن أبي السّواعد المقيم في عشّ الشَّيطان! وسارعت الصاجَّةُ تسأل:

«اِسم أمك؟».

أطرقت بهيجة وشبكت أصابع كفَّيها:

«يسموني بنت حمدية.. لكن أمي؟ لا أدري.. لا أعرفها».

أيُّ ورطةٍ هذه يا كاتب الأسفار! طشَّت أُم حَدَب مزيدًا من الملح على الجمر وأغمضت عينيها تؤرجح رأسها، تتحرَّى من كاتب الأسفار نجدة، فبابُ غيبِ المرءِ يُفتح باسمِه ملحوقًا باسمِ أُمِّه، وأُم حَدَب في لحظتها هذه أمام امتحانٍ ما خبرته من قبل. *اللعنة! كيف يُكشف فألُ اللُّقطاء؟!* نثرت من الملح المزيد، غير أن

كاتب الأسفار تمنَّع وترك عجوزه البرصاء لفطنتها، وأكمل كتابتها مُتفرجًا على حيلتها في مأزقها هذا. *لا تلعب مع أُم حَذَب يا كاتب الأسفار!* فألحقت العجوزُ المِلحَ بكسرةِ لُبانٍ تصاعد منها الدُّخان الأبيض كثيفًا، وما أسعفتها فطنتها لحلِّ المشكل، فمكثت تؤرجح رأسها.

التفتت بهيجة تمسحُ ببصرها الجدران. يُخفي الدُّخان والظلالُ بعض التَّفاصيل ويكشفُ الضَّوءُ المتسلِّل من الباب بعضها الآخر؛ نقوش عيونٍ وطلاسم مكتوبة بالرَّماد، آثار كفوفٍ ملطَّخة بدم الأضحيات، دروع سلاحف بحرية مختلفة الأحجام، وعباءة الصاجَّة وسَعفتها مُعلَّقتان بالجدار إلى جوار عصًا ذهبيَّة مرصَّعة المقبض باللؤلؤ، وقِربة شحم السلاحف مُعلَّقة بمسمار. تبدَّدَ الدُّخان وفتحت الصاجَّة عينيها تُبحلق إلى جمر الموقد توجد لها مخرجًا في صمت كاتب الأسفار:

«لنبدأ بسعدون ولد نَصْرة.. واعلمي يا ابنتي أنه ملعون، هذا ما يقوله كاتب الأسفار ولا دخل لي في قوله. لقد عشقته جِنِّيَّةٌ في صغره، وتمثَّلت له في صورة بريغْصي، وأصابته بالصَّرع فتلبَّسته و..».

ليس لدى الصاجَّة المزيد، فتداركت وشهقت كأنها غصَّت بالكلمة، ثُمَّ صاحت فجأةً تفتعلُ إيحاءً من كاتب الأسفار:

«عفيفة.. اِسم أُمِّك عفيفة».

ضحك كاتب الأسفار في الماوراء. فهجست العجوز. ***قلت لك لا تلعب مع أُم حَدَب***. وتبدَّى طيفُ ابتسامةٍ على وجه بهيجة:

«قولي غير هذا الكلام يا صاجَّة.. أيُّ عفيفة هذه التي ترمي رضيعتها في السِّكَّة؟ حتى بنات اللَّيل يُرخصن لحومهنَّ ولا يُفرِّطن بلحمٍ حملنه في بطونهنَّ تسعة أشهر!».

«عفيفة يعني عفيفة.. كاتب الأسفار يقول!».

«لا بد أنه يسخر!».

«كاتب الأسفار لا يسخر! الزمي حدودك يا امرأة وإلا ابتلاكما أنت وحبيبك بفأل سيء».

أجابتها الصاجَّة صارمةً عابسةَ الوجه ساخطة على الكاتب الصَّامت. وما أطرقت بهيجة ولا هبط بصرها عن عينيِّ أُم حَدَب التي أردفت تجترُّ من الأمس عوضًا عن كشف ما يُخفيه الغد:

«اسمعي ما يقوله كاتب الأسفار؛ يعشقك صاحب البُلبُل وتشتهينه، وتعشقين ابن الحوطة ويشتهيك. ما أنت بائعة نفسك للأول، ولا الثاني يشتريك».

تمهَّلت بهيجة تتحرَّى مزيدًا، لعلَّ لدى العجوز جديد كلامٍ عن الغد، غير أنها ما حكت إلا عن أمسٍ تعرفه ابنة الرّميلة حق المعرفة. أشطن بنات حمدية السِّت، اللقيطة المغرمة بسعدون صبابة، رغم أن يده ما هوَت على خدِّها صفعًا يُرضيها، ولا أهانها بمشيئتها

أو بغيرها قط، فقد أحبَّته من بين كل الرجال الذين أوغلوا في إذلالها تحقيقًا لرغبتها. تُنزل بذاتها شديد العقاب، وتنتشي بإنزال روحها منزلة سُفلى تُلائمها. تُحب الضَّربَ فتكره الضَّارب ولا تمنحه نفسَها بعد الضَّربِ ثانيةً أبدًا. وحده سعدون بذيء اللسان مع الخلق وجدران الحَوْطَةِ لم يشتمها مرَّةً ولا ضربها. حرمها من لذةِ ذِلَّةٍ تشتهيها فمنحها منزلة لم تخبرها قط. يُقرِّبها ويُبعِدها دونما سبب. يُحِبُّها ويمقتها ويشتاقها وينفرُ منها، ويُخفي محبته ولا يُخفي رغبته بعد كأس ثالثة. ما مدَّ عليها يده قط، وهو يدري لو أنه ضربها تنال مُبتغاها فتجتويه. وما أحبَّت المسكينة لحظة قدر ما أحبَّت لحظةَ يُطبق قبضته على كفِّها يقودها إلى مخدعه. أتحبني سعدون؟ لم يُجب سؤالها مرَّة بغير عبارة تكرهها: لا أريد أن أُحِبَّ ولا أن أُحَب.. فغدًا سوف أموت! ***جعل الله يومي قبل يومك***. تقول بهيجة في نفسها إزاء قول خليلها العاقد العزم على الانتحار ولا ينتحر مُذ سمعت به وقبل أن تلتقيه.

ولَّما طال شرود بهيجة بهواجسها مع سعدون، والصاجَّة في دخانها ساكتة وما جاءت بجديد؛ قالت بنت الرّميلة:

«أهذا ما يقوله كاتب الأسفار؟ أم ما نقله إليكِ خَليفُوْهْ البَرَنْشَى؟!».

ما توقَّعت كبيرة الصاجَّات سؤالًا بمثل هذه الجسارة، ***ومن ابنة ليل!*** وسألت نفسها قبل أن تنهض عن الأرض. ***ما أدراها؟! أيكون***

كاتب الأسفار؟! ولا توقَّعت ابنةُ اللَّيل أن تنهض العجوز الحدباء العسراء، فتطبعُ أثرَ أصابعها البرصاء على خدِّها الأيمن. وتلقَّت بهيجة اللَّطمة مثل منالٍ مُحقَّق، فانقلبت جسارتها ذِلَّة، وهجمت على ساق أُم حَدَب وطوَّقتها بذراعيها، وقبَّلت رُكبتها وهي ترجوها المزيد. فارتعبت الصاجَّة واتكأت على الجدار ورفست المرأةَ التي تعانق ساقها:

«وجعة توجع قلبك! ساقي! اتركي ساقي!».

ولم تترك المرأةُ ساق العجوز وتشبَّثت بها مثل غريق. فنفرَ الدَّم إلى وجه أُم حَدَب، فضرب لونُها الأبرص إلى الوردي، وانتصبت شُعيراتها البِيضُ في ثُؤلولها الأسود، فصرخت:

«ما قال لي خَليفُوُهْ إنك مجنونة!».

أمطرت المجنونة رُكبة المرعوبةِ لثمًا وهي تتوسَّل:

«اِضربيني يا أم حَدَب اِضربيني! إن رخيصة مثلي تستأهل الضرب والله، لو كان بي خيرًا منذ مولدي لما رمتني أمي في السِّكَّةِ لترعاني حمدية.. آاااه يا أُمي».

«الله يلعنك ويلعن أمك وأُم حمدية! اتركي ساقي أقول لك!».

ولَمَّا انتشت روح بهيجة بالشتائم ويئست الصاجَّةُ من تحرير ساقها مالت بجذعها جانبًا إلى الجدار، وحملت أكبر دروع السَّلاحف المعلَّقة:

«قطيعة تقطعك!».

ونزلت بدرع السُّلحفاة على رأس بهيجة. فأفلتت المرأةُ ساق العجوز وتمدَّدَت على الأرضِ متشنِّجةً مُنتشيةً مشدودة الأطراف تعقفُ أصابع قدميها وتئن. وتحاملت أُم حَدَب على سنواتها التي أدركت المئة إلا أيامًا، وهرولت متعثِّرة ووقفت بساقيها المرتجفتين على عتبة الحُجرة تصيح على الصاجَّات السَّبع بين نساء الحَوْش:

«يا بنيَّات! أخرجنَ هذه المجنونة من بيتي!».

* * *

(19)

ما سمعتهُ الصَّخرة

«طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ»

الكتاب المقدّس/ إنجيل متى

سهيجة بعدما قمت بتقطيب جرح فى قمة رأسها طوله إنش. لففت الضمادة الطبية حول رأسها وحددت لها موعدا لتطهير مكان الجرح. وعادت مبروكة مع انصراف الجميلة التى لا تنفك تؤذى نفسها غريب الأذى.

رجعت مبروكة إلى العيادة فى آخر وردية المساء، من عند صخرة الساحل السوداء، هادئة شاحبة شاردة الذهن وحزينة. جاءت بثوبها الأصفر رغم تنبيهى لها بالالتزام بزى التمريض داخل العيادة. انتبهت أولا أنها لم تكن تثبت قبعة التمريض على رأسها كما اعتدنا عليها فى كل الأوقات حتى خارج العمل متباهية بانتسابها للإرسالية. ثم انتبهت أنها دخلت من دون العباءة التى ارتدتها عند خروجها بعد انتهاء وردية الصباح، ففهمت أن علاقتها بحبيبها قد انتهت.

أخرجت من جيبها قبعتها البيضاء المنشاة، وثبتتها بالدبابيس أعلى رأسها فوق الضفائر الطليقة. لم تكن طبيعية ولم تنتبه إلى غرابة شكلها بالثوب الأصفر وقبعة التمريض. وتقدمت إلى سطح مكتبى صامتة

تحمل منشفة معقمة لفتها على قائسات الحرارة، واستبدلت الكحول في أواني التعقيم. وعندما استدارت إلى ركن الأدوات الطبية رأيت رملا عالقا في مؤخرة رأسها. مبروكة! ، قلت لها. فنظرت إلى عيني وسألتني بصوت هادئ:

- أنت يا خاتون متزوجة، وأم لثلاث بنات حلوات.. أسألك وأنت تبشرين النساء المسلمات.. أما فكرت من سيتزوجهن بعدما يهتدين ؟

لاحظت أنها لم تعد تعلق قلادة الصليب حول رقبتها، ففهمت أن علاقتها بالإرسالية قد انتهت.

«اخترت الزواج منه إذن ؟ مثل امرأة حرة»، قلت لها لكنها لم تجب. أخبرتها أنها تقلقني بهذا الصمت، وبالرمل الذي يعفر شعرها، وعندما سألتها عن العباءة والقلادة رفعت كم ثوبها كاشفة عن ذراعها اليمنى من دون المحفظة الجلدية التي تحتوي تعويذة العرافة المسنة. سألتها أين ذهبت هذه الأشياء، العباءة وقلادة الصليب وتعويذة العرافة، فأشارت بيدها نحو الساحل:

- اسألي الصخرة.

كنت لأسأل لو كان لصخرة الساحل لسان!

Eleanor J. T. Calverley
Wednesday, September 22, 1920
10:45 PM

لو أن للصَّخرةِ العجوزِ الرَّابضةِ في ساحلِ الوَطْيةِ لسانًا!

«لو»..

يا كلمة تفتح عمل الشَّيطان، كذلك أنتِ مفتاح كاتب الأسفار لمغاليق بابٍ يُفضي إلى قدَرٍ يخطُّه بعدك يا «لو».

وعَودًا على «لو».. لو أن للصَّخرةِ العجوزِ الرَّابضةِ في ساحلِ الوَطْيةِ لسانًا لسارعت إليها طبيبة الإرسالية تسبقُ إياب المدّ. تمضي قُدُمًا من بوابة بيت الزُّجاج إلى السَّاحل المقابل. تجثو إلى جوار الصَّخرةِ هرعة قبل فوات الفَوت حيث لا ينفع الصَّوت. فتسألُ الطبيبةُ عن قول الفتاة التي أقبلت ساهية لاهية عمَّا حولها، تغذُّ السَّير إلى حبيبها بالعباءة فوق النَّفنوف الأصفر، وقبعة التمريض أعلى رأسها تحجبُ أثرَ كَيِّ الصاجَّةِ في مفرق شعرها.

لو أن للصَّخرةِ العجوزِ الرَّابضةِ في ساحلِ الوَطْيةِ لسانًا.. لسألتْ الطَّبيبةُ فتجيبُ الصَّخرةُ السَّوداء العتيقة:

«واِعلمي يا.. من أنتِ؟».

وتُعرِّف طبيبةُ الإرساليةِ بنفسِها، قبل أن تمحو مياهُ المَدِّ ذاكرة الجَزْر، فتنصتُ الطَّبيبةُ إلى لسان الصُّخور، وتُصيخ صُخور البحر إلى قولِ كبيرتها المتثائبة:

«واعلمي يا غريبة، أن غرابة لفَّت تَلاقي الخليلَين ها هُنا حالَ المغيب. وهكذا تتابَع كاتبُ الأسفار يُرقِّن الخطَّ يُسَوِّد الصَّحائف،

صحيفة في إثر صحيفة. ينثني عليها انثناء الشُّيوخ الخالدين على شِباك الأبدية في أسياف مدينة الطِّين. ينسجُ الحروفَ ويُضفِّرها حرفًا بحرف، فيُقطِّبها كلمة بكلمة، ثُمَّ يُطرِّز السَّطر بالسَّطر، ويَقلب الورقة على شقيقتها يُتابع التدوين بلغةٍ تُلفظ ميتة على السِّيف. يكتبُ عن غادةٍ نجلاء وافَت السَّاحل بعباءتها تغذُّ السَّير صبابة. تنشقُّ عباءتها في المشي عن ثوبها الأصفر، وعلى هامَتِها تربَّعت قلنسوةٌ بيضاء. وإذ لاقت خليلها بالقرب مني طوَّقته بذراعيها وهامَسَته. قالت المُسامِحَة فما جئتُ بها يُرضيك، فسكتَ الذي أرضاهُ مجيئها يتوهَّمُ سماع المزيد. ولمَّا عاندها المزيدُ غابت في عناق صاحبها عناق العارف بالفراق الوشيك. وافترشا العباءة وشعَّ تحت القمر الأحدب ثوبها الأصفر. فهَمَّ الخليلُ بخليله، وهُما كذلك حتى انطفأ في السَّماء نجمٌ وبزغ في السَّماء نجم. وذي شواهدهما الدَّافئة قائمة على بارد الرَّمل ها هُنا فالمسيها. وذي عباءةُ ذات العينين الفاتنين مُعفَّرة بالرَّمل تُصادق على ميثاق الشِّقاق فأبصريها. واعلمي يا غريبة ألَّا شاهد غير الرَّمل والعباءة والنَّجم البعيد، إلا أنا صخرة عجوز تتلطَّفُ عليها الذَّاكرة سويعات، ويكرُّ عليها النِّسيانُ موجةً في ظهر موجة. ليس إلا رمل السَّاحل والعباءة وأنا، وسِتَّة شيوخٍ يُغنون منكفئين على شِباكِهم لا يبصرون. ليس إلا نحن عشرة شهودٍ تحت عين النَّجم لا يُسألون شهادةً فينطقون أو يُستنطقون».

نعم، لو أن للصَّخرةِ الرَّابضةِ في ساحلِ الوَطْيةِ لسانًا.. لانحنت

عليها الطبيبةُ ترجوها معرفة قول الفتاة لفتاها. تُسائلها شاخصة العينين صوبَ عُبابٍ يضجُّ في شرق الشَّمال يسبقُ المَدَّ. فتجيب الصَّخرةُ السَّوداء بصوتِها المالح على مهل:

«.. واعلمي يا غريبة أن الفرس السَّوداء الجموح التي عن قولِها تسألين؛ قد أترعت روحَها لواعج الهوى وبالحنين جاءت تُطفئ الحنين. سلَّمَت وما أسلمت لإيمان فارسٍ شغَفَها وَلَهًا ورغبة أُلجِمَت في دواخلها سنين. أفلتت لجامَ مُشتهاها يُقلِّبها بين يديه على عباءتها هاتِهِ فأبصري. وذا حِرْزُ الصاجَّةِ حُلَّت عُقدته، وسقط من عضدها بعد سِتَّة عشر عامًا من وضعه، وما شعرَت المبروكةُ بها فقدت ذاك الحين. مَنحت روحًا ومُنِحَت روحًا. ولمَّا ارتوى الاثنان استقامت جالسة فوق العباءةِ تنظُمُ شَعرها مُترَب الجانبين. قالت أتلومني على بيتِ النَّصارى يأويني وأنت يأويك بيتُ المعتمدِ نصف الليل ونصف النهار. فقال خادمُ بيتِ الغريبِ يُردِّد الأيمان ويغلِّظها، لو أن دار الاعتماد مسَّت من إيمانه شعرةً ما بقيَ في الدَّار. قال أيضيرني دخولُ بيتٍ لا يقوم فيه صليبٌ ولا أيقونةٌ تُزيِّن الجدار، إلا صنم طفلٍ مُجنَّحٍ ينكفئ خاسئًا إذا مررتُ أمامه يستدير. ثُمَّ مَكَثا على حالهما تحت عين النَّجم صامتين».

لو أن للصَّخرةِ الرَّابضةِ في ساحلِ الوَطْيةِ لسانًا.. لبلَّلتها أدمُع الطبيبة قُبيل بلوغ المَدِّ هذا الحدَّ عند منبتَ الصَّخرة، فتقول عجوزُ السِّيف الصَّلدة الجاثمة بين البرِّ والبحر بعدما تتثاءب تاسعة:

«..واعلمي يا غريبة أن بعض الكلام مثل الصَّمتِ لا يقول. وأن بعدَ الصَّمتِ جاءَ الكلامُ مثلَ الصَّمت لم يقُل. وقالت النَّجلاءُ حرَّرَتني النَّصرانيةُ فليُحرِّرك المعتمد. وقال شبيه الخيزرانة ما حاجتي إليه وقد بشَّرني كريمُ العين ووعدني حُرًّا بعد غدْ. قالت ما صدَقَ كريمُ العين بما وعد، نصفُ اليوم في قصر السِّيفِ تخدمُ، ونصفٌ في دار المعتمد. ما لك يا أنتَ وما لقول كريم العين وما أعد. أتشتري خلاصك مثلما اشتراه أخوك، بالله عليك إلى رُشدك عُد. قال لو أن الخلاص يُشترى بغير خيانة بِن صُباح لما قبلتُ بدار المعتمد. وأنا لا أطيق صبرًا على عصيان من يأويني. واعلمي أن خطوة بين الخلاص وبيني، إذا ما صيَّرني الأميرُ فارِسًا مثلَ أخي. ولسوف أرتقي ارتقاء ابن أُمِّي وأطوي السَّماء صقرًا من منزلة عبدْ. لو أن الخلاص يُشترى بغير خيانة بِن صُباح لما مكثتُ في البلد. فأقيمُ لكِ هودجًا على ظهر ناقةٍ وضحاء، وأقتفي أثر حوافر جواد ساطور، سامح الله ساطورًا، وأقطعُ الصَّحراء. وأطيع الله مع إخوة من طاعه. لو أن الخلاص يُشترى بغير خيانة بِن صُباح. فقاطعته النَّجلاءُ ما خُنتَ إلا نفسك تشي بالمعتمد عند الأمير، وعند كريم العين تشي بالاثنين. فبرقت في جيد الفتاة قلادةٌ فسألها القلادةُ من أين. فأعرضت عن ردِّها فشدَّها بزندها، وصارت في يده القِلادة. فرماها بالقرب مني فابحثي عنها هنا. أما الحِرْز الحريز فيأخذه الموجُ إذا ما جاء ليغيب، ولسوف تبحث عنه الفتاةُ فلا تستدل إليه سبيلًا في البعيد أو القريب. قال الفتى أوليس اليوم يوم الاختيار. قالت تريَّث فلستُ أدري ما

أقول. أطرقَت وفكَّرت فقالت بلى. ما جئتك إلا كي أقول. قالت بلى. ما جئتك إلا قالت بلى.. قالت.. بلى..».

لو أن للصَّخرةِ الرَّابضةِ في ساحلِ الوَطْيةِ لسانًا؛ لما أسعفها الجزرُ بذاكرته تحكي كُلَّ ما شهدت. فيغمرُ الماءُ هامة الصَّخرةِ إثرَ موجةٍ فرَّت بعد كرَّة. وتقولُ صخرةُ السَّاحل العجوز وتجويف القدم في رأسها يغمره الماء:

«واعلمي يا غريبة..».

فتكرُّ موجةٌ ثانيةٌ وترتدُّ لمجيء ثالثة:

«واعلمي يا..».

فتكرُّ الموجةُ عقِبَ الموجةِ حتى تُقبل السَّابعة. فتشهقُ صخرةُ الوَطْيَةِ أوَّل أنفاسها الجديدة وتتثاءب للمرَّة العاشرة:

«واعلمي يا.. من أنتِ؟».

وتُعرِّف طبيبةُ الإرساليةِ بنفسِها ثانيةً فتجيبها الصَّخرة وتقول آخر ما تقول:

«أنا ما رأيتُ شيئًا».

وما كان لكاتبِ الأسفار أن يُسلِّم لمغاليق هذا الفصل؛ لو أن لصخرةِ السَّاحل، في رأسه، ذاكرة..

* * *

(20)

بيتُ القْطاوَة

«البيت القديم عند سوق الحريم»

«يااو.. يااو».

لم يُفِق خَليفُوُهْ أبو القْطاوَة من رقاده عند أذان الفجر الأوَّل، ولا الأذان الثاني، فهو بالكاد استطاع النَّوم في آخر ساعات الليل. غير أن مواءً يُشبِه النُّواح ارتفعَ وقت إقامة الصلاة في مساجد الدِّيرة، أيقظه وأفسدَ لذيذ نومِه بمرارة الصَّحو، وهو لا يُريد أن يصحو أبدًا. *النَّومُ خمر المعدمين*. ردَّدَ في سِرِّه قولًا كثيرًا ما يُردِّده صاحب الحَوْطة إذا ما شحَّ الشَّراب. وتقلَّبَ في فراشِه كمن يتقلَّب على جمر، على يمينه وظهره إلى الجدار، أو على ظهره، ولا ينام على يساره حيث الجدار الأيمن بعيد، ولا ينام على بطنه فالسَّقفُ عالٍ. وأصاخ السَّمع يحسبُ أن مصدر المواء كوابيسه التي ما انفكت تكرُّ طوال اللَّيل كابوسًا في إثر كابوس؛ قهقهة تُشبه ثغاء النَّعجة، ومواءٌ حادٌّ وترابٌ يُهال على حُفرةٍ فصمتٌ مُطبق. ولا تلبث الأرضُ في منامِه تنشقُّ تحت كُل خطوةٍ يخطوها فتلفظُ سود القِطَطِ. تركض وراءه من سِكَّةٍ إلى سِكَّةٍ إلى سِكَّةٍ

سَد، ينتظره في آخرها قِطُّه الأسود شاخص العينين يُجيل النَّظر في وجهه.

أبو القْطاوَة مُنذ البارحة لا يريد أن يستيقظ من نومه أبدًا. ورضي بكابوسٍ جاء له بحبيبٍ لا يجيء في ساعة صَحو. فتأفَّفَ معتكر المزاج مخلوع الفؤاد لفراق قِطِّه العَشيرِ في رمل الجزيرة الرَّطب، كارهًا ضعفه وقِلَّة حيلته ليلة دفنِ حبلِ السُّرَّة. لاعنًا نفسه وقتَ أمسكَ عن قول كلمة «لأ» في وجه صاجَّة الجزيرة التي دفنت قِطَّهُ الأثيرَ حيًّا. وراح يُقلِّب مسوِّغات جُبنه في رأسِه؛ لأن أُم حَدَب قالت إن المارد اللَّابد في جسد القِطِّ الأسود لا يموت. لكنه يدري أنه استسلمَ خوفًا وإيمانًا بما قالته كبيرة صاجَّات الدِّيرة أُم حَدَب قبل ثماني سنوات: مَن قال للصاجَّة لأ؛ صار فأرًا تلاحقه القِطط. وما أحبَّت الصاجَّات القِط إلا مدفونًا، تتحرَّاه يتحلَّل في التُّراب، ولا يبقى من عظامه إلا «العْزيزو»، فتفرق فيه بين المرء وزوجه.

***

حدث في سنة غرق جالبُوت النُّوخِذا بن موسى أن أحبَّ خَليفُوُهْ «ليل»، ذاك القِطُّ الأسود اليافع الذي أوجد لحياته سببًا ومعنى بعد موتِ أُمِّه بسبع سنين. ذلك قبل أن يُسكنه داره ويألفه ويُسميه ليلًا. وقبل أن يستقطب تلك الكائنات تؤنسه في وحدته.. قبل أن يملأ فراغات الوحدة بالقِطَط. تُبدِّد بموائها وحشة الصَّمت،

وتُضفي بحركتها حِسًّا يمنح البيت الصَّغير حياة. يعتني بها، يراقبها ويحادثها، يُعلِّمها ويتعلَّمُ منها.

وفي زمن ما قبل القِطَط ذاك؛ كان القِط الأسود يظهر له في كُلِّ مكانٍ مظلم يسير فيه وحيدًا. قِطٌّ يافعٌ فحميُّ السَّواد يتربَّصه ويُبحلق إليه مليًّا؛ عند باب دارِه، وفي ساحة الحَوْطة وراء المقبرة القديمة في حيِّ المرقاب، وفي السِّكَك والأسواق والسَّاحل، في الحَيِّ الشَّرقي والحَيِّ القِبلي. حتى أنه شاهده ذات يومٍ في مَرسى الجزيرة، يُقعي على الصُّخور جامدًا يُبحلق فيه لامع العينين. ولم يتطيَّر الفتى ولم يستعِذ بالله من شرِّ شؤمٍ على دأب أهل الدِّيرة مع سُود القِطَط ذات الأرواح الشَّيطانية السَّبع. بل أحسَّ في نوبة توجُّسِه إحساسًا مُغايرًا لم يألفهُ قَط. ما حظيَ خَليفُوُهْ بمخلوقٍ يُطيل النَّظر إلى وجهه الأملط على ذاك النَّحو، بلا سخريةٍ ولا تطيُّرٍ ولا انقباض ولا استنكارٍ ولا خوفٍ من اجتراح إثم. أحسَّ بنفسِه عارية من عوالقها في عيني ذلك الكائن الأسود. وسأل العجوزَ أُم حَدَب عن أمر القِط الغريب، فخطفت العجوز نظرة إلى العصا الذَّهبية المعلَّقة على جدار حجرتها، وقالت إن القِطَّ لا بدَّ أن يكون طوعَس[1]، مالِك يوم السِّديس، المارد صاحب صولجان المعرفة. وأوصت الصاجَّة صبيِّها إذا ما صادفه ثانية ألا ينظر إلى عينيه، وأن يُسَمّي بالله ويستعيذ من الشَّيطان، ثُمَّ يقول

(1) طوعَس: راجع هامش «كائنات مدينة الطين» الصفحة (417).

له «انصرف» ثلاثًا، وإلا اختاره الماردُ وصيًّا على عرشه إلى حين تحرُّره من جسد القِط.

وعاد خَليفُوُهْ إلى دارِه في إحدى اللَّيالي المُقمرات ركضًا، يهربُ من كلبٍ سائب وافاهُ عند مفرق المقبرة القديمة. في تلك اللَّيلة البعيدة تألَّق بدرُ التَّمام مثل لؤلؤةٍ عظيمةٍ وسط عباءة سوداء. تبدَّت في ضوئه الفضِّي ظلالُ الأشياء جليَّةً ناصعة الوضوح. أقبل خَليفُوُهْ من حَوْطة سعدون وولجَ سِكَّته الضيِّقة المتفرِّعة من سوق الحريم، بعد ناصية بائعة الباقلاء أُم عبدالرَّحيم. وما كاد يقترب من الباب لاهثًا حتى لاحَ له القِطُّ الأسود على عتبة الدَّار، يُقعي بلا حراكٍ ينظرُ إليه بعينين تتَّقِدان في ضياءِ البدر الفضِّي. فانتفض خَليفُوُهْ يكتمُ صرخة:

«يُمَّه! وجعة توجع قلبك!».

بُهِتَ الشَّاب وتعرقلت قدماه الحافيتان في أرضِ السِّكَّةِ المتربة. شُلَّ لِسانه يفتِّشُ في ذاكرته عن تعويذة أُم حَدَب. يتذكَّر كُلَّ كلمةٍ في الجملة لكن مُبعثرة. وأوشك على لفظ التَّعويذة بعدما رتَّب صفَّ الكلمات في رأسِه، غير أنه أمسك عن قولِها ينعمُ بلحظاتٍ قلَّما تجيء؛ يحظى بعينين تبحلقان إلى وجهه الأملس المُحرَّم غير المرئي. يمنحانه صكَّ اعترافٍ فيصيرُ مرئيًّا. ينتشي ويُطيل النَّظر إلى القِطِّ الفاحم مُتَّقِد العينين، ويتعرَّف شعورًا جديدًا بأنه موجود، فيغيبُ في الشُّعور المحبَّب غير المألوف. وتذكَّر الشَّاب حكاية ملك الجان طوعَس الممسوخ في صورة قِطٍّ أسود، فانتفضَ

ولفظَ كلمات الصاجَّة، كل كلمةٍ في موضعها، يُبسمل ويستعيذُ بالله خاتِمًا:

«انصرف.. انصرف.. انصرف».

أشاح طوعَس المحتمل بوجهه بعيدًا عن الوجه النَّاعم الخالي من الشَّعر. وبهتَ خَليفُوُهْ يُكابد خيبته. ومضى القِطُّ الأسود نافخ الصَّدر شامخ الرأس، يمشي على مهلٍ في الظَّلام ويلوِّحُ بذيلِه بغير اكتراث. ومشى خَليفُوُهْ وراءه يصيح:

«اِصبِر!».

تعثَّر الفتى وهو يُسرع الخَطو.

«تعال!».

وراح يركُض وراء القِط الأسود، يُطارد خيال عينيه اللامعتين في كل مكان. وحمَل سِراجه وطاف سِكَك الدِّيرة حافيًا يقتفي أثره؛ عند باب دارِه، في ساحة الحَوْطة، وراء المقبرة القديمة في المرقاب، في السِّكَك والأسواق والسَّاحل، في الحَيِّ الشَّرقي والحَيِّ القِبلي، بل وحتى في مَرسى الجزيرة. ومرَّت أيامٌ وهو يُمشِّط السِّكَك بحثًا عن القِط الأسود الذي حملق إلى وجهه واختفى لمحَ البصر، قبل أن يجيء القِطُّ ثانية بمزاجه متبخترًا مع أُنثاه إلى عتبه داره. أُنثى سوداء مثله لكنها بخلاف قِطَط الدِّيرة كانت بدينة. أقبلا في ليلةٍ مُقمرةٍ بعد شهر من ملاحقة الشَّاب للقِط الأسود، فدخلا الدَّار بذيلين شامخين. أسمى خَليفُوُهْ الذَّكرَ «ليل» لأنه ما رآه إلا ليلًا، وأسمَى

الأُنثى مبروكة عساها تجلب البركة إلى الدَّار، غير أن الأُنثى البدينة المتغطرسة ما فتِئَت تفتعل المشاكل مع زوجها الرَّزين، تتمنَّع وتطبقُ قائمتيها على ذيلها كُلَّما أقبل إليها وَلِهًا.

ولَّمَا صعُبَ على خَليفُوُهْ حالُ ليلٍ الذي صدَّهُ الذَّيل، فتح باب داره ليقيمَ فيها من القِطط ما بلغ عدده ثلاثة وخمسين، أقصى ما تحتمله مساحة الدَّار ذات الحوش الصَّغير. قِططٌ ألِفها الأملطُ وخبُرَ سلوكها حتى صار يُحدِّد جنسها بالنِّظر إلى وجوهها بغير حاجةٍ إلى رفع أذيالها. وميَّزَ من عيون القِطَط طبائعها وما تكتنفه نفوسها، وعرف فيها الوفيَّ والمتزلِّف والحنون والغيور والقنوع والحسود والمتنمِّر والخجول والنَّشيط والكسول والشَّبق والبارد والغضوب والمرِح والوقح والنَّبيل والنَّبيه والأهبل. ولأنه لم يكن يريد لبيته أن يكون سجنًا للقِطَط؛ فقد قام بفتحِ كُوَّةٍ صغيرةٍ أسفل بابه الخشبي المطل على السِّكَّة، وجعلها لعبور حيواناتِه الأثيرة دخولًا وخروجًا ساعات النَّهار. ووضع للفتحة أسفل الباب لوحًا صغيرًا يُغلقها في الليل.

ولما تزايدت القِطط مالَ القِطُّ الأسود إلى الوافدات اليافعات. فتطاولت مبروكة على زوجها كبير قِطَط الدَّار بالصَّفع والعض. وأهدرت هيبته أمام كائنات جنسها التي أقامت في الدَّار حديثًا. ومرَّ حولان وأكثر على هذه الحال وكبير القِطَط يُصفع ويُعض ويُهان بعد كُل لحظة حُبٍّ تجمعه بأنثى عابرة. فتخلَّصَ خَليفُوُهْ من

مبروكة وأهداها إلى طبيبة الإرسالية. غير أن القِطَّ المأفون بحبِّ القِطَّةِ البدينة حنَّ إليها وماءَ اللَّيل يُناديها، وما ظفر بها ثانية إلا بعدما ورد خَليفُوُهْ النبأ من طبيبة الإرسالية الأمريكيَّة؛ بترَ الصِّبيةُ ذيل القِطَّة المتنمِّرة مبروكة! ففكَّر أبو القْطاوة. ***ما عادت لها حيلة تصُدُّ القِطَّ الولهان.***

***

تصاعد المواء ثانية، قُبيل الشُّروق، خارج جزيرة كابوسه وذكرى قِطِّه الأسود الموءود قُدَّامَ ناظريه على سِيف الجزيرة. دعكَ عينيه المتورِّمَتين ببكاء البارحة. تمغَّطَ عاريًا مُتثائبًا في حُجرتِه الصَّغيرة. تتضوَّع فيها رائحة زيت السِّراج المنطفئ. أرهفَ السَّمع يُميل رأسه ويُخزِّر عينيه. ليس مصدرَ المواءِ كابوسه الذي جاء بمشهدِ صاجَّة الجزيرة أُم صَنْقُور، وهي تُقعي بدرَّاعتها الخضراء وتُقهقه بصوتها العجيب وتحثو التُّراب على قِطِّه الأسود. تلفَّتَ حوله يُحصي أصدقاءه الاثنين والخمسين. قِطَطٌ في الفِراش وعلى الأرض، وعلى عتبة باب حُجرتِه المفتوح على ساحةٍ ترابية مُربَّعةٍ صغيرة، يُحيطُها جدارٌ واطئٌ ضمن حدود مسكنِه الطِّيني الصَّغير. قِطٌّ رماديٌّ يتشمَّمُ جسد قِطَّة بُنِّيَة. أُخرى تستلقي على جانبها تُرضع صِغارها السِّتة المغمضين. قِطٌّ يتمغَّط متثائبًا في كسل، قِطٌّ يعبثُ بذيلِه، وآخر يُقرِّب وجهه إلى مؤخرته يحلمُ أن ينبت له ذيلٌ

بديلٌ من الذي بتره صبية الحَي. وأشهب وإلينور يتلاصقان لا يتحرَّكُ فيهما إلا عيونهما السَّاهرة. وانتبه خَليفُوهْ إلى قِطَّةٍ صغيرةٍ فوق صندوقٍ خشبي تعبثُ بمكحلةٍ نحاسيَّةٍ تُحاول فتحها. فقفزَ خَليفُوهْ من فراشه وصادر المكحلة التي ورثها عن أُمِّه، تلك التي جلبت له الأقاويل، لطالما تمنَّى أن يتخلَّص منها لولا أنها من أُمِّه. قلَّبها بين يديه قبل أن يُخفيها في مَخبَى دِشْداشَتِه المعلَّقةِ بمشجبٍ بالجدار وراء الباب.

بدا واضحًا لأبي القْطاوَة أن المواءَ الذي أيقظهُ يجيء من السِّكَّة وراء الجدار، وليس من فناء البيت الدَّاخلي. هو يُميِّز هذا المواء ويعرف أيَّ قطٍّ يموؤه. بل يفهم أنه مُواء عطشٍ وجوعٍ وخوف. نهضَ وهو يلوثُ إزاره النَّيباري حولَ خصرِه، وأسرع الخَطوَ إلى الباب بصدره العاري. يبدو بيته بالغ النظافة لفاقد حاسَّة الشَّم. كان منظر البيت نظيفًا لولا رائحة بولِ القِطَطِ وزفر الأسماكِ وحَسَكها المتناثر في السَّاحة التُّرابية داخل الجدار.

كاد خَليفُوهْ أن يفتح الباب لولا أن خشي ملاقاة المُلَّا كريم العين خارجًا من المسجد، فيكيل عليه الدُّعاء بعظيم العقاب لتخلفه عن الصَّلاة. فأقعى أبو القْطاوَة أمام الباب يُزيح اللوحَ الخشبي عن الكُوَّة المربعة. فتسلَّلت من فورها إلى الدَّاخل قطةٌ بيضاء كسيحة، تجرُّ جسدها تزحفُ إلى فناءِ دارِه. ما كادَ يتعرَّفها من شِدَّة هزالها لولا لون الحِنَّاء في ظهرِها أبهتَهُ ملحُ البحر. حملها بين يديه، وقبَّلَ ما

بين عينيها المتورِّمتين المحاطتين بهالَتين رماديتين خلَّفهما كُحل كبيرة صاجَّات الدِّيرة. ***سامح الله الصاجَّة أُم صَنْقُور دفنت القِطَّ حيًّا، وعفى الله عن الصاجَّة أُم حَدَب عذَّبت القِطَّة تغطيسًا!*** صادرت العجوز الهرِمة الأقراط الرَّخيصة وتركت أُذُنيّ القِطَّة بثلاثةِ ثقوب. وسرَّحتها بعد طقوس القُفَّال. وكانت قوائم القِطَّة هزيلة رِخوة. يعرفُ خَليفُوُهْ أن صِبيَة السَّكَكِ الملاعين أوسَعوها ركلًا وضَربًا بالعِصي والحجارة. ***عيال الكلب***. لا تنقصُ الصِّبية عدوانية تجاه القِطَط، وصاروا أكثر عداءً لها دفاعًا عن المُلَّا إبراهيم الذي لا يسلم من أذاها. حمدَ خَليفُوُهْ الله أنهم لم يصبُّوا عليها الكاز ويُضرموا فيها النَّار على دأبهم في اللَّهو بالكلاب الضَّالة. ***الله يلعن أُمهاتكم يتغوَّطونكم في السِّكك لا رقيب لا حسيب. اِتفُوُهْ!***

ترك قِطَّتهُ على الأرض وهبَّ إليها بآنية أُم حَدَب النُّحاسية مليئة بالماء، وآنية أخرى من الشَّاي، ووضعهما أمامها. راحت بصعوبةٍ تروي ظمأها وتغسلُ ملحَ جوفها بالماء العذب المبارك بآية الكُرسي حتى امتلأت. فغسلَ خَليفُوُهْ عينيها بنقيع الشَّاي ونظَّفهما من الخرَّاج والقذى. وماءت القِطَّةُ البيضاء شاكرة:

«يااااو».

حملها صاحِبُها بين يديه يُعانقها، وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

«أدري.. يااو.. جاء الغاصةُ.. جاو».

قبَّلها ثانية بين عينيها، ثُمَّ راحَ يُحاكي مُواءها:

«ياااو».

أقفل إلى حجرته وارتدى دِشْداشَتَهُ المعلَّقة وراء الباب، وفكَّ إزارهُ عن خصره ولفَّهُ حولَ رأسِه كيفما اتفق، يزمع على الخروج يتبعه أشهَب وإلينور المفجوعان بموت ثالِثهما. وما كاد يخرج صاحب القِطط إلى فناء داره ثانية حتى سبقه طرقٌ على الباب. حسبه جامع الغائط يجيءُ مُسبِّقًا أوانه، غير أن امرأةً ترفلُ في سواد عباءتها لاحت له فور ما فتح بابه. وجدها تحملُ زكيبة من جَزَزِ الصُّوف وهو أمر مألوف، وعلى كتِفِها سجَّادة فارسية مطوية، وهذا ما لم يألفه الشَّاب من المرأة التي ما شغلها ثمانية أبناء واثنا عشر حفيدًا عن ولدها الأصغر.

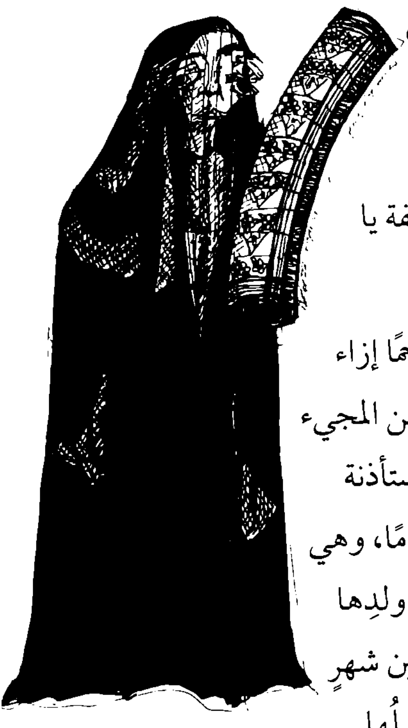

«صبَّحك الله بالخير يا خليفة يا وليدي».

افترَّ ثغرُ خَليفُوُهْ يبتسمُ واجمًا إزاء زيارة العجوز التي ما تخلَّفت عن المجيء كلما استعرَّ بها الشَّوق. تجيء مُستأذنة زوجها لزيارة سوق الحريم إيهامًا، وهي تزور دارَ صاحب القِطَط رفيق ولدِها في موعدٍ سِرِّي اعتاده. تزوره بين شهرٍ وآخر مُحمَّلة بزكيبة الصُّوف تشيلُها

لولدِها الطَّريد، فقد علِمَت أن سعدونًا يعتاش من ثمن بيعه، لكن خَليفُوُهْ استغرب السجَّادة على كتفِها هذه المرَّة. مدَّ يده يتناول الزَّكيبة:

«حيًّا الله خالتي أُم السّواعد».

انفرج ثغرُ المرأة عن ابتسامةٍ مُنطفئة:

«سَلِّم على وليدي يا خليفة. وقُل له، مثل كلِّ مرَّة، إن أُمَّه ولهانة لشوفته، لكن العين بصيرة يا يُمَّه واليد قصيرة.. أبوه لا يرضى».

ارتعشت شفةُ خَليفُوُهْ من دون أن يفوه بكلمة. وسحَّت دمعةٌ على خدِّه جفَّفها بكتفِه. وكان يتوقُ إلى رؤية الوجه المحتجب بالبوشيَّة السَّوداء الشَّفيفة. الوجه الذي حُرم سعدون من رؤيته عقابًا على ما لا يدري. ولا يدري خَليفُوُهْ كيف ولا لماذا قرَّبَ وجهه إلى رأس العجوز مُكوِّرًا شفتيه. أحسَّ شيئًا في داخله يدفعه إلى الفعل. ولم تُمانع المرأةُ أن يطبع الشَّاب قبلة على جبينها المستتر بالبوشِيَّة، ولا يدري خَليفُوُهْ لماذا سمحت له العجوز أن يفعل. ألأنه في منزلة ولدِها، *أم لأنها لا تراني في مصاف الرِّجال؟* قطعت هواجسه لحظةَ مدَّت إليه يديها بالسجَّادة المطوية:

«سجَّادة حرير عجمية، قُل له إنها غالية، لكنه أغلى ولا تغلى عليه. فليبعها لو شحَّت الدُّنيا عوضًا عن بيع رخيص الصُّوف».

أطرقت تُعالج طرفَ مِلفَع رأسها المعقود على ثلاثة قِطَعٍ معدنية. مدَّت إليه كفَّها المصبوغة بالحِنَّاء:

«أعطه هذه الرُّوبيَّات. هذا كُلّ ما ادَّخرته من وراء أبيه.. وقُل له عليك الله لا تشتري بها مزيدًا من الكُتب.. ولا تقرب بها المنكر».

أولته ظهرها مُطأطئة تحدِّث نفسها دونما تحية وداع. اكتفت توصي خَليفُوُهْ يُخبر ولدها وهي تمشي على مهل:

«قُل له أُمّك تقول لك هالله هالله بالصلاة.. ليجمعنا الله في الجنَّة لو عزَّ في الدنيا اللقاء».

مسح خَليفُوُهْ دموعه بظاهر كفِّه، وهو يتذكَّر حديث سعدون سكرانًا عن تلك المرأة المهدومة داخل عباءتها الرَّثة: «ولهان وذابحني الشَّوق لأُمِّي والله يا خليفة». شيئان لا يُقدِم الشَّاب الحَيِّي الكتوم على فعلِهما بغير تأثير الخمرة؛ لا يتخلَّى سعدون عن حيائه ويقرب النِّساء قبل الكأس الثَّالثة، ولا يتحدَّث عن ضعفِه واشتياقِه إلى أُمِّه قبل الكأس الخامسةِ أبدًا. كما لو أنها ميتة، تُبعث في كُلِّ مرةٍ تُترَعُ فيها كأسُ سعدون. يتذكَّر خَليفُوُهْ حديثَ صاحب الحَوْطةِ عن مجيئه إلى الدُّنيا بغير نيَّةِ أبويه: كنت طفلًا يا خَليفُوُهْ وقتَ سمعتُ أُمِّي تجيبُ جارتنا، في ليوان النِّساء، عن كثرة الإنجاب. تسعة أبناءٍ لعائلة ليست ميسورة حال، لماذا يا نَصْرة؟ تجاوزت أُمِّي كُلَّ إخوتي؛ سعد وسعود وسعيد ومساعد ومسعود وأسعد ومِسعِد وسعيدان، واختارت ابنها التَّاسع سعدون لتحمله ذنب مجيئه: «والله ما كان في خاطرنا الإنجاب بعد الثَّامن، غير أن سعدونًا جاء بعد سنواتٍ بالخطأ، من دون نية والله.. زرع الله يرعاه الله». أنا سكران، أدري، غير أني أقول

الحقيقة.. جئت إلى الدنيا خطأً ولم يخبرني غريب، إنما سمعتُ القول على لسان أُمِّي: «سعدون جاء بالخطأ»، وهأنذا أعيش لتصويب خطأٍ لم أرتكبه. وما انفكَّ خَليفُوُهْ كأنما ينفخُ في قِربةٍ مثقوبة، وهو يواسي صاحبه يُبرِّر أن مجيئه إلى الدُّنيا لم يكن خطأً إنما هو قدر، ولا انفكَّ سعدونٌ يُطبق عينيه بشِدَّةٍ في كُلِّ مرَّةٍ يُجيب: «قَدَرٌ يتفنَّنُ في إذلالك». يستغفرُ خَليفُوُهْ، وتتمكَّن الخمرةُ من سعدون فتدفعه إلى البكاء مثل طفل، شوقًا إلى شَذا الحِنَّاء في كفَّي أُمِّه، وريحِ المشموم في جديلتها الطويلة. وينصحُ خَليفُوُهْ إذا ما بالغ في حديثه عن الصاجَّة التي ربَّته، فيقول صاحب الحَوْطة بما يشبه الهذيان: «نصيحة من أخيك الذي خبر الدنيا، لا تتعلَّق بأحدٍ إن استطعت، طِعني، وإن لم تستطع.. مرِّن نفسك على الخسارات قبل أوانها». ولا يفهم أبو القْطاوَةِ شيئًا من هذيان صاحب الحَوْطة، فينسَدِحَ السَّكرانُ في فراشِه ويُسند كفَّه إلى صدره، يُربِّت عليه مثلما كانت تفعل له أُمُّه صغيرًا. ويترنَّم بلسانه الثَّقيل بتهويدة الأمَّهات: نام يا وليدي نام.. نام ولك ربٌّ لا ينام.. نام بحضن موسى وعيسى، والنَّبي عليه السَّلام.

ما أحبَّ أبو القْطاوَة صاحِبًا مثلَ سعدون في ساعات صحوِه، ولا كره صاحبًا مثلَ سعدون في ساعات سُكره. لأنه ما كره شيئًا، بعد كراهيته لكريم العين، إلا كراهيته للأطفال ولذاتِه يوم كان طفلًا.. فقد كره سعدونًا في سُكره إذا ما استحالَ طفلًا قليل الحياء والحيلة، بكَّاءً شكاء، حادّ المزاج طويل اللِّسان. يُنهي ليالي السَّمر في أغلب الأحيان بطرده من الحَوْطة، وخَليفُوُهْ لا يشيلُ الطَّرد في

خاطره أبدًا، لأنه يدري أن صاحب الحَوْطة لا يعني ولا يعي ما يقول إذا ما تأخر الليل وأغمضت النُّجوم.

طردَ خَليفُوُهْ خيالاته في مساءات الحَوْطة. وخرج على مألوف طبعه حافي القدمين، يتقصَّع ماشيًا بين أشهَب وإلينور، قاصدًا سوق السَّمَك ليجمع قوتَ أهلِ بيتِه مِن سَقْطِ السُّوق. وتوقَّف عند آخر السِّكة المؤدية إلى سوق الحريم، عند بائعة الباقِلَّاء المنقوعة واللَّبن الرَّائب في ناصية السِّكَّة. عجوزٌ يغشاها السَّواد تدفنُ ظلَّ عباءتها في ظلِّ جدار، يفوحُ من عباءتها ضوع ماء الورد، ولا يظهر من العباءة إلا طرف درَّاعتها البنفسجيَّة وكفّها البيضاء تُقلِّب الباقِلَّاء في القِدر. تحفَّز أشهب وإلينور يتناظران أمام المرأة، فاندسَّا يختبئان في الدِّشْداشَةِ بين قدمي خَليفُوُهْ:

«صبَّحك الله بالخير صاجَّة أُم عبدالرحيم».

ردَّت صاجَّة سوق الحريم التَّحية، ورحَّبت بلُكنَةٍ فارسية، فناولته آنية الباقِلَّاء المنقوعة، وأكله واقفًا فاحتسى ماء النَّقيع، وألحقه باللَّبن الرَّائب المزبَّد، وجفَّفَ شفتيه بِكُمِّه قبل أن يطرد القِطَّتين من تحت دِشْداشَتِه ويمضي صوبَ سوق السَّمك. رأى بعض المصلِّين يخرجون متأخرين من مسجد سوق الحريم مع طلائع الضِّياء. وتوافدت البائعات مُبكِّرات، يحملنَ الصُّرَر على الرؤوس، ويتلمَّسنَ البركة في البُكور. وحارَ خَليفُوُهْ في أمر أشهب وإلينور كُلَّما لاحَت لهُما عباءة يلوذان بدِشْداشَتِه. هزَّ رأسَه:

«لا بارك الله في أُم صَنْقُور جنَّنت العيال».

حملهما بين يديه، وسارَ يلتفتُ إلى الوراء فجأة بين خطوةٍ وأُخرى. فوضعَ القِطَّتين على الأرض حينما لمحَ بين الرِّجال شيخَ البحَّارةِ سَنَد، يُحدِّث المُلَّا الذي دفعه إلى الالتفات إلى الوراء أبدًا. يُنصت إلى همس أمه داخل رأسِه: كي لا يكسر ظهرك! هزَّ إمام مسجد سوق الحريم رأسه وهو يُمسِّد لحيته الحمراء عاقد الحاجبين مهمومًا. وأحكمَ أبو القْطاوَة إطباق أصابعِه الأربع على إبهامِه. وتقدَّمَ إلى الرَّجلين ينوي سؤال العَم سَنَد عن سليمان، فسبقهُ كريمُ العين مُعتكر الوجه يقول:

«اللهم إني أعوذ بك من سوء المنقلب وكآبة المنظر».

فانتفشَ أشهب وإلينور وارتدَّت آذانهما إلى الوراء، وخَرخَرا وهما يُبحلقان إلى المُلَّا إبراهيم الذي رفعَ حاشية بِشْتِهِ وابتعد خطوةً إلى الوراء، وقال من دون أن ينظر إلى الشَّاب:

«بِشْتي جديد.. اِمسك قِطَطك لا بارك الله فيك ولا في قِطَطك».

حدَّقَ خَليفُوُهْ مليًّا إلى بِشْتِ المُلَّا المُرقَّع غير مكترثٍ لضحكة بن هولين. *آهٍ لو أصيدك في سِكَّةٍ ظلماء يا كريم العين!*

«صبَّحكم الله بالخير.. قوَّة».

وكما لو أن امرأة سافِرة وقفت قُدَّامَ رجالٍ أغراب، أغمضَ المُلَّا إبراهيم عينه اليُمنى زافرًا، ثُمَّ أطرقَ بغير رَدٍّ للتحيَّة. وأشاحَ العَم سَنَد وجهه بعيدًا يردُّ بصوتٍ خفيض:

«الله يقوّيك».

راح المُلَّا يستغفرُ ويحوقل. وحملقَ خَليفُوُهْ إلى وجه إمام المسجد الممتعض يُطيل النظر إلى تجويف عينِه اليسرى. ثُمَّ أشاح ببصره عنه كأنما المُلَّا غير موجود، غير مرئي، والتفت إلى شَيخ البحَّارة:

«بَشِّر يا حَجّي سَنَد، كيف كان سليمان؟ عساه بَيَّض وجهك أمام النُّوخِذا والبحَّارة؟».

تدخَّلَ المُلَّا إبراهيم يصيحُ عليه:

«سَوَّد الله وجهك الأمرد! ولِمَ تسأل عن الفتى؟ ماذا تُريد منه؟ ها؟!».

تسارعت نبضات خَليفُوُهْ. غارَت رقبته بين كتفيه وضاقت حَدَقتاهُ وهو يخزرُ المُلَّا. خرخرت أنفاسه، وشمَّ في ذاكرته سُخام التَّنُّور القديم. وتحسَّس وجهه الذي سوَّده بالغُبار الأسود قبل خمسة عشر حَوْلًا.

«صلّ على النبي يا مُلَّا».

قال العَم سَنَد للمُلَّا إبراهيم يُهدئ غضبته. وبرطمَ المُلَّا متسارع الأنفاس وهو يفتِلُ طرفَ شاربه أمام أملط الوجه. فخزَرَ خَليفُوُهْ المُلَّا بنظرةٍ كارهة:

«حتى إناث القِططِ في داري لها شوارب».

أشاحَ المُلَّا إبراهيم بيده من دون أن ينظرَ إلى خَليفُوُهْ. وثنى

أشهب وإلينور قوائمهما الأمامية، وكشَّرا عن أنيابهما وارتفعَ مُواؤهما حادًّا. فحثَّ كريمُ العين خُطاه يبتعدُ مُسرِعًا، رافعًا حاشية بِشْتِه الرَّمادي، دونما استئذان العَم سَنَد:

«الله فوقك يا مسوَدَّ الوجه يا فرخ إبليس.. الله فوقك».

تبعه خَليفُوُهْ بنظرِه وهو يُحكم لفَّ إزاره حول رأسه:

«معلوم.. الله فوق الجميع.. وفوقك».

نظرَ شيخُ البحَّارة إلى الفتى في حياء:

«بَس يا ولد! تأدَّب مع المُلَّا».

لم يُجِر خَليفُوُهْ جوابًا، وهو يُملِّي النظرَ إلى الشَّيخ الذي أولاهُ ظهره وسارَعَ الخطو نائيًا عن سوق الحريم. ***بودِّي لو أصرُخ ملءَ صوتي أمدُّ سَبَّابتي صوبكَ أمام الخلق، ولكني إن حكيتُ؛ حكيتُ عيبي، وإن شققتُ؛ شققتُ ثوبي! لو أنك تردُّ لي سلامًا لسامحتك، لا سامحك الله، ولكنك تأبى إلا أن تُذكرني بجدارِ مَغسلِ المسجد كُلَّما أشحتَ ببصرك عني تفتُل شاربك المغبر.. حمدًا لله أن البُلبُل لا ينطق!***

تدارك العَم سَنَد مُقاطعًا هواجسَ أبي القْطاوَة وهو ينظرُ إلى أشهَب وإلينور:

«أين قِطكَ الأسود الملعون؟».

أشاحَ خَليفُوُهْ بكفِّه بعيدًا:

«في فيلكا. أين سليمان؟».

«هأنذا أطوفُ مساجد الدِّيرة أسألُ المصلين عنه».

«خير؟».

«سألتني عنه أُمُّه بعد صلاة ظهر أمس في مسجد السوق.. خير إن شاء الله.. كُلُّ الخير ما لم يذهب الفتى إلى حَوْطة ابن السُّوء سعدون».

عقد أبو القْطاوَة حاجبيه وبرطم قبل أن يقول:

«لا أظنه يفعلها يا بن هولين».

«هو أقسَمَ لي ألا يطأ عتبة الحَوْطة، ولكني أخشى أن..».

ترك شيخُ البحَّارة جُملته مفتوحةً، ومضى إلى مسجد السُّوق الكبير يستأنف بحثه، فلَفَّ خَليفُوُهْ حاشية دِشْداشَتِه حولَ خصره وأحكم ربطها قبل أن يُقفل حافيًا إلى بيته عوضًا عن الذَّهاب إلى سوق السَّمك. حمَلَ زكيبة الصُّوف والسجَّادة الفارسية، ويمَّم صدره شطر المرقاب. وسابق أشهب وإلينور إلى المَنْسَى.

* * *

مُلحق ١

مِن كتاب

"كائنات مدينة الطِّين"

الباب الثَّاني: مُلوك الجان: حرف الطَّاء

طوعَس

"مالك يوم السِّديس"

وهو طوعَس بن دْعيدِع بن خاوين بن وارح بن ثِئيام بن بُرقان أبي العجائب[1] بن ملك ملوك الجان وقاضي قضاتهم شمهروش. هو مالِك صولجان المعرفة. وعُرف في غابر الأزمان عن طوعَس أنه جنِّيٌّ مارقٌ يرأس فرقة خبيثة من أشباهه، ترتقي السَّماء مثل لصوص اللَّيل تُصيخ السَّمعَ تسترقُ أخبار الغيب فتطاردها الشُّهُب. وطوعَس يجمعُ الأخبار من مرؤوسيه ويودعها

(1) برقان أبو العجائب خادم فلك عطارد.

في صولجان المعرفة، حتى رُفع أمرُه وأمرُ فِرقته إلى مجلس ملوك الجان السَّبعة. وقد كان في مدينة الطِّين سبعة ملوك ينحدرون من نسل بُرقان أبي العجائب صاحب المقام الخفيِّ في الصَّحراء وراء جبل وارة جنوبي مدينة الطِّين. وكانت سلالته من الملوك السَّبعةِ تُزاول المُلك بالتناوب لكل ملكٍ يومٌ من أيام الأسبوع. فخلصوا في اجتماعهم إلى نفي طوعَس وفرقته إلى جزيرة الماء، شرقيّ مدينة الطِّين، قبل بناء مقام الخضر بزمنٍ طويل، يقيمون فيها منفيين تكفيرًا لذنوبهم مئة عام. ونزل المنفيون بين أطلال المعبد الدلموني وبقايا أعمدة الكنيسة النسطورية. وفي الحَوْل السَّادس في المنفى تزوج طوعَس بجنيَّة وثنيَّة بدينة حسناء تدعى «ناع البغي» تقيم بين حُطام الهيكل الدلموني المقدَّس، طوَت معه أربعة وتسعين حَوْلًا ما بقي من سنين النفي في الجزيرة. أغوته وأقنعته بحقِّه في مُلك يومٍ من أيام الأسبوع أُسوة بأبناء عمومته ملوك الجان السَّبعة من أحفاد الجنِّي بُرقان أبي العجائب. ولمَّا انسلخ القرنُ عاد المنفيون في آخر الشِّتاء إلى مدينة الطين مع الجنية البغي، واستقبلهم الجيل الأول من الصاجَّات اللائي توَّجن الجنيَّ المارق طوعَس مَلِكًا يزاول ملكه في يوم السِّديس الخفي بين أيام الأُثمون، ونُصِّبت ناع ملكة تشاطره المُلك. وتمَّ التتويج في أقصى السَّاحل الشرقي في حفل زار على بركة قاضي قُضاة الجِّن شمهروش، وضمَّ الحفل الصاجَّات وفرقة الجن المارق في غياب

كاتب الأسفار، وحملَ طوعَس صولجان المعرفة الذَّهبي مرصع المقبض باللآلئ الكبيرة. ولما تمَّ ما تمَّ عاد كاتب الأسفار العائش في الغد إلى تحبير صحائفه، وساءه وأغضبه انفراد كبيرة صاجَّات الجيل الأوَّل بالسُّلطة في ساعات غيابه، فمحى ما محى وأعاد الكتابة، ونزع قلادة الأصداف والأظلاف من جيدها وتوَّج صاجَّة بديلة. وفي أقصى السَّاحل الشرقي فصلَ رأسَ كبيرة الصاجَّات المخلوعة عن جسدها بالقلمِ، وألقى بالجسد في الخليج فاستحالَ سمكة عَنْفُوُز. وورات صاجَّات الجيل الأوَّل رأسَ الصاجَّة المارقة في ثرى المكان الذي سقط فيه الرأس مقطوعًا، فصار اسم الموسم الذي قُطع فيه الرأس، منذ ذاك الشِّتاء، موسم «برد العجوز» تذكارًا لزمن أولى كبيرات صاجَّات مدينة الطِّين، وصار اسم موضع دفن رأسها المقطوع «مدفن رأس العجوزة» تذكارًا لمكانها. وينسى أبناء مدينة الطِّين في قابل الأيام حكاية المدفن، ولا يتذكرون من اسمه إلا ما يصير اسمًا شائعًا للمكان: «رأس عجوزة» في أقصى السَّاحل الشَّرقي.

ومسخَ كاتبُ الأسفار طوعَس في صورة قِطٍّ أسود وسلَّم الصاجة البديلة صولجان المعرفة، ومسخَ ناع في صورة وزغة. وأما فرقة الجن المارق فقد مسخها في صورة طيور الغاق السقطري. وكتب على سمكة العَنْفُوُز أن تجول في عُباب الخليج ألفَ عام، تقعُ آخر العُمر في شباك رجلٍ أمرد، يشق بطنها، ويسرق مصرانها،

فيرميها نافقة في الخليج. وكتب على الملك والملكة المخلوعين ألا يلتقيا إلا شِبه لقاءٍ بعد دهور في موضع يُسمَّى المَنسَى، وما علم القِطُّ الأسود والوَزَغة أين هو المَنْسَى، فما حملَ الاسمَ جبلٌ ولا وادٍ ولا أرضٌ براح. فيهيمُ الممسوخ على وجهه دونما خارطة يبحث عن موضع إشارة كاتب الأسفار، ولا يدرك المَنْسَى إلا بإدراك مأوى يجمعُ فيه أشباهه من القِطَط الممسوخة فيرأسها، ويختار من بني الإنس وصيًّا على عرشه قبلما يتحرَّر المارد من جسد القِط الأسود، ويعيد شيئًا من سُلطانه القديم، بعدما عاش ذليلًا في مدينة الطين ألف عام. ويموت في ألفِهِ ميتاتٍ كثيرةٍ بعد كثير حيوات، يُدفن في إحداها حيًّا على ساحل جزيرة منفاه القديم قبل أن يُبعث من جديد. وتزحفُ الوزغة تبحثُ عن المَنْسَى دونما دليلٍ ألفَ عامٍ إلا قليل، ولا تستدلُّ إليه طريقًا إلا بتخفيها في جسدٍ حي يأخذها إلى موضع إشارة كاتب الأسفار. تسكن الجسد الحيَّ ولا تغادره إلا بفنائه.

صادق عبدالرَّزاق بوحدب

كتاب "كائنات مدينة الطِّين"، ص ١١٢

مطبعة مولاف، الكويت

١٩٦١

***

(21)

تَحْصينُ زيجة

«الحلالُ بيِّن والحرامُ بيِّن»

ارتفعت ثلاث طرقات على باب شايعة بعد الشُّروق. ونهضت أُم سليمان في لهفةٍ تستأذن زائراتها الثَّلاث؛ أُم حَدَب وشريفة وأُم غايب. تركتهن في الليوان مع حفيدها مُغطَّى الوجه، وحملت عباءتها تمضي صوبَ الطَّارق المبكِّر، تحسبه الطَّبيبةَ جاءت لتطبيب فضَّة على موعدها. فارتفع صوت رجل من وراء الباب:

«يا أهل البيت.. أنا بِن هولين ومعي المُلَّا عبدالمحسن».

ارتبكت الصاجَّة عند سماعِها اسم خصيمِها، وتشاغلت العاقر تُهدهد سيف ابن سليمان في حِجرها، بوِدِّها لو تسرق نظرة خاطفة إلى وجهه، لكن أُم حَدَب تُمانع. وسارعت شريفة تهفُّ الهواء أمام وجهها بمهفَّة السَّعف. وارتدَت أُم سليمان عباءتها عند الباب على عَجل، وألقَت البوشِيَّة على وجهِها قبل أن تطلَّ بنصفِهِ من وراء الباب. وخالسَت أُم حَدَب ورَفيقتاها السَّمع خَلَلَ رنين أساور شريفة وهي تهفُّ الهواء.

«لَبّيه».

أجابت أُم سليمان الطَّارق بصوتٍ حزين. فلكزت شريفة أُم غايب وهمسَت غامزة:

«حبيب القلب».

فقرصتها أُم حَدَب وأسكتتها. وعند الباب أطرقَ الشَّيخان لا يرفعان بصرًا إلى مُحدِّثتِهما:

«سليمان بخير يا بُنَيَّتي..».

قالَ لها شَيخُ البحَّارة بِن هولين، ثُمَّ أردف:

«.. سوف أُبقيه في بيتي بضعة أيام».

والصاجَّة تُنصِت في الدَّاخل، وتُكذِّب في سِرِّها قولَ العَم سَنَد لـ شايعة، فهي تدري مِن وشايات الطُّيور في خيالها، أو من أخبار خَليفُوُهْ، أن سليمان ليس في بيت شيخ البحَّارة الذي يذوب صبابة بـ شايعة.

غصَّت شايعة على عتبة الباب بعبرتها:

«الله يبشرك بالخير يا عمِّي، المراد أن يكون في مكانٍ معلوم وإن أبطأ في المجيء».

وقعت كلمة «عمي» مثل شكَّة دبُّوس في ضمير بِن هولين، وتنحنحَ إمامُ مسجد السُّوق الكبير وهو يسند كفَّيه إلى عصاه، يتخلَّل أصابعه خَرَزُ مسبحة كهرمانية. فاستدرك العَم سَنَد:

«من أجل سليمان وفضَّة جئتُكِ بالمُلَّا عبدالمحسن».

تشاءمت أُم حَدَب متكوِّرةً على ذاتها. ولفظت اسمَ المُلّا بصوتٍ خفيضٍ في كفِّها المطبقة، ثُمَّ فتحت أصابعها تُلقي بالاسمِ بعيدًا في الهواء.

لم يرفع المُلَّا الوقورُ عينيه عن الأرض غاضَّ البصر. تُنصِت إليه شايعة وتُحدِّق من وراء بوشِيَّتِها إلى وجهه ذي اللحية الطويلة البيضاء:

«والله ما جئتُ يا بُنَيَّتي إلا من أجل تحصين هذه الزيجة وفقَ شرعِ الله..».

تسارعَ رنين أساور شريفة في الليوان. وبحلقت في ظهر شايعة على مبعدة أذرع عند الباب. واكتفت شايعة تهزُّ رأسَها للرَّجلين يحدوها رجاءٌ لسماعِ ما يُطيب خاطرها. غير أن المُلّا آثرَ أن ينصحها في البدء، على دأبه، كما لو أنه يُلقي خُطبةَ الجمعة:

«..ولدكِ، كما تعرفين، ختمَ القرآن وتعلَّمَ القراءة عندي في الكُتَّاب.. وما عرفتُ عنكم إلا أنكم أهل دينٍ وصلاح.. قولي كيف؟».

لم تفهم أُم سليمان إلامَ يرمي المُلَّا عبدالمحسن في حديثِه. أجابته: «كيف؟».

استطرد المُلَّا وبِن هولين إلى جواره يهزُّ رأسه تفاعلًا مع الحديث:

«لأن سليمان خُبز يديَّ هاتين.. ما عرفته إلا شغوفًا بالدِّين وأصول التَّجويد.. قولي لماذا؟».

شايعة تُحاول أن تفهم ولا يسعفها الفهم. تُجيبه سؤالًا وفق ما يُريد:

«لماذا؟».

أكملَ المُلَّا وهو مُطرقٌ يُمسِّد لِحيته الشَّيباء:

«لأن تربيته صالحة، ولأنكم أهل طاعة وعبادة.. قولي ما الواجب؟».

تُجيبه نافِدة الصَّبر:

«ما الواجب؟».

يُجيبها المُلَّا وهو يضرب عصاه بالأرض ثلاثًا:

«الحلالُ بيِّنٌ والحرامُ بيِّن، فلا تسلكي دربَ الصاجَّات فما في دروبهنَّ السَّبخة صلاح..».

أسدَلَت الصاجَّة البوشِيَّة على وجهِها، وصمتت أساور شريفة، وأمالت أُم غايب رأسها تصيخُ السَّمع إلى حديث إمام مسجد السُّوق لصاحِبة الدَّار:

«..اسألي يا بُنَيَّتي من شهِدَ من النِّساء. فإن كان الرِّضاع أقل من خمس رضعات فالنِّكاح صحيح بإذن الله».

تهلَّل وجه الحُبارى، ودعت الله في سِرِّها أن تتذكَّر شريفة عدد

رضعاتٍ يُعيد سليمان إلى حضن فضَّة. ووراء ظهرها، في الليوان، مالت أُم حَدَب على شريفة، تلكزُ خاصرتها وتهمسُ في أُذنها، في حين يؤكِّد المُلَّا عبدالمحسن لِـ شايعة عند عتبة باب الدَّار:

«..أما إن كانت خمس رضعات معلوماتٍ مُشبِعات، أو أكثر، فواجبٌ فسخ نكاحِهما فوراً، والتَّفريق بينهما.. قولي لماذا؟».

تسأله أُم سليمان بوجل: «لماذا؟».

«..لأنه وطء فيه شُبهة جهل الزوجين».

انفرجت شفتا المُلَّا عن ابتسامة وهو يُردِف:

«..إن الدِّينَ يُسْرٌ يا بُنَيَّتي، والشَّكُ لا يُبنى عليه التَّحريم».

استدارَ المُلَّا عبدالمحسن بِبِشْتِهِ البُنِّي، يتكئ على عَصاه، بعدما ألقى السَّلام مودِّعًا. ورفعَ العَم سَنَد رأسه ينظرُ إلى شايعة. رقَّ صوته:

«سوف أرجعه بنفسي.. وشيخ البحَّارة إذا وعد صدق».

وآمنت أم سليمان بما وعد العَم سَنَد. وهي تدري أنه يفعل ذلك من أجلها قبل أن يكون من أجل الولد. واختفى الشَّيخان بين البيوت في السِّكة التُّرابية، مخلفين وراءهما أُم سليمان جاهلة نصفَ الحديث.

أطبقت شايعة الباب بنصف اطمئنان على مبيت ولدِها في بيتٍ آمن. وما كادت تخلع عباءتها وترفعُ بوشِيَّتها عن وجهها، وهي

تُسرِع نحو حُجرة فضَّة تُبشِّرها، حتى صاحت عليها شريفة وهي تبسطُ كفَّها اليُسرى تُباعد بين أصابعها المثقلة بالخواتم:

«أكثر من خمس رضعات معلومات مُشبعات ورب الكعبة».

«صح».

أكَّدَت الصاجَّة. فاستأنفت شريفة تحريك المهفَّة أمام وجهها، وعاودت أساوِرها الرَّنين.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

(22)

حَوْطةُ سعدون

«من ذا يُترجم صوتَ البلابل؟»

محمَّد الفايز/القصائد وبلابل الجرف

بدَّدت الشَّمسُ بعد طلوعِها ظلمة الحَوْطة. وتوارت الكلابُ السائبةُ عن الأنظار خلف أسوار المقبرة القديمة في المرقاب. وأقبل خَليفُوُهْ على المَنْسَى، ملاذ المنبوذين، وهو يلهثُ صُحبة أشهب وإلينور. يحملُ أمانتَي أُم سعدون؛ زكيبة الصُّوف في يده اليُمنى، وذراعه اليُسرى تطوِّق السجَّادة الفارسية المطوية على كتفه.

دفع باب الحَوطة وراء أصغر مقابر الدِّيرة، وفُتِح الباب على حَوشٍ يُحيُطه سورٌ عالٍ من الطِّين اللَّبن. حَوْشٌ ترابي مُربع داخل السُّورِ، أرضٌ بسيطةٌ خِلوٌ إلا من

الحَصى والحشائش العَطشى ونباتات عَرْفَج وأذن الحمار ولحية التيس وساق الجمل جففتها الشَّمس تحت الجدران. وفي ركن الحوش يسار المدخل نخلة مُهملة كانت كثيفة السَّعف ذات يوم، ما انفكَّ خليفُوُهْ يقطع منها سعفة بين حينٍ وحين كُلَّما اهترأت سعفة أُم حَدَب. مالت النَّخلة على تسع فسائل يابسة إلا واحدة ما زالت تحتفظ بلطخةِ خُضرة. وإلى جوار النَّخلة اليابسة مجرفةٌ تستندُ إلى الجدار على الدَّوام. أرضٌ ما انفكَّ سعدونٌ يُرطبها بالماء يومًا بعد يوم كيلا يتطاير غُبارها إلى داخل المجلس على حدِّ زعمه. يُحيل الحَوْش إلى أرضٍ مُقدَّسةٍ لكثرة ما نهى صاحبُ المكان عن البصق أو التبوُّل فيه. ولا يكاد واحد من نُدماء الحَوْطةِ يتسلَّلُ إلى الحَوْش، رافعًا ثوبه، حتى يسمع صرخة سعدون تنبجسُ من الداخل:

«لا تبول في الحوش!».

استغرب رُوَّاد الحَوْطةِ في البدء، فتجلَّى لهم السَّبب حينما برَّرَ سعدون ذاتَ سَكْرة، وهو يشكو براءة أهلِه منه بسبب مجونِه، ويقينه أن أحدًا لن يُصلي عليه أو يمشي في جنازته إذا ما أزِفت ساعته:

«وصيتي إذا ما وفقني الله وأعانني على ذبح نفسي أن تدفنوني هُنا.. إذا كان إكرام الميّت دفنه، فإن إكرامي دفني هُنا في حوش الحَوْطة».

ما انفكَّ بِن شاؤول يوصي سعدونًا بما أوصاه أبوه في صغره، ساعة دخوله البيت حاملًا قفص البُلبُل قبل سنين:

«سعدون! لا تعكِّر صفوَ الحياة بذكر الموت».

غير أن صاحِب الحَوْطة كان مُصرًّا على وصيَّةٍ يُكرِّرها كلَّما سَكِر. يُحلِّفهم دامع العينين بتنفيذها، فأدرك صحبهُ جديَّة أمرِه، وتفهَّموا رغبتَهُ في عدم تدنيس تُربة مدفنِه، وتبارى السُّكارى يُغلِّظون الأيمانَ بربِّ الكعبةِ وبشفاعةِ أبي الفضائل عليّ وبربِّ موسى وبالصَّليب على تنفيذ وصيتِه إذا ما لفظ روحه الملعونة بالانتحار الذي لا يقوى عليه.

في حَوش الحَوْطةِ التُّرابي هذا، لِصقَ جدار السُّور المقابل، أُقيمَ بناءٌ مستطيلٌ فيه حُجرتان طينيَّتان يربطُ بينهما بابٌ خشبيٌّ صغير؛ كُبراهما ذات النَّافذة المطلة على الحَوْش هي مجلس السَّهر والطَّرب. والصُّغرى الخالية من نافذةٍ هي مخدعُ سعدون وخليلاته.

ألفى خَليفُوُهْ بهيجة، عند عتبة المجلس، تنشقُّ عباءتها عن وجهها المستدير ذي الخطِّ الموشومِ أسفل الشِّفَّة. وارتبك أشهب وإلينور عندما لاحت لهما المرأةُ بالعباءة، وسارعا يندسَّان تحت دِشْداشَة صاحِبِهما:

«هُوب هُوب! سعدون ليس في مزاجٍ طيِّب».

قالت الشَّابة وهي تمد ذراعها، فسقطت العباءة على كتفيها كاشفة عن رأسها الملفوف بضِمادة. شهقَ خَليفُوُهْ وضربَ صدره بكفِّه:

«وِي! سلامات!».

أجابته وهي تُعيد تثبيت العباءة على رأسها ثانية:

«الله يسلمك.. الحِمارة أُم حَدَب فلعت رأسي بظهر الحْمِسَة!»[1].

وعلى غير عادته ما غضِبَ خَليفُوُهْ، ولا دفع عن وَليَّةٍ نعمته السُّبَّة. ونترَت بهيجة كتفه بظهر كفِّها تُبعده عن دربها. فسألها إلى أين وأجابت:

«تأخرت على خالة حمدية».

«كيف حال فردوس؟».

سألها خَليفُوُهْ عن أصغر بنات حمدية، القرعاء المعتكفة في عشَّتها منذ شهور. أجابت بهيجة وهي تنصرف:

«ما زالت في النِّفاس مشغولة بطفلها».

«لعن الله الأطفال»، قال خَليفُوُهْ وبرطَم. *ومنجبيهم*.

رنَّت خلاخيلها على وقع خُطاها. وحملقَ الأملط إلى الفتاةِ التي مضت تتغنَّج بمشيتها إلى الباب المفضي إلى السِّكَّةِ متبوعة بعطرها الأخاذ. أطلَّت برأسها من وراء الباب خشية أن تلمحها عيون السَّابلة، فأسدلت بوشِيَّتها على وجهها وانصرفت تقطع السِّكَكَ إلى عُشَّتِها في الرُّمَيلة. فخرجت القِطَّتان من دِشْداشَةِ خَليفُوُهْ تسبقانه إلى المجلس.

---

(1) الحْمِسَة: السُّلحفاة البحرية. (محرر وزارة الإعلام).

نظافة الحُجرة المستطيلة تشي بمرور ليلة الأمس دونما قصفٍ ولا لهوٍ أو سَمَر. يتضوَّع المجلسُ برائحة زيت سراجٍ مُنطفئ يُخالط عطرَ بهيجة الآفل. وفي زاويةٍ لا يُدركها ضياء الشَّمس يتكئ سعدون على تكية السَّدُو المُشبع برائحة التَّبغ. يتكوَّر الشَّاب، في ركنِه الأثير، على حصيرٍ مجدولٍ يغطي أرضَ المجلس بالكامل. وتجويف الجدار وراءه محشوٌّ بالمطبوعات؛ القرآن الكريم وتفسيره لابن كثير، صحيح البُخاري، دزينة من أعداد مجلَّتَيّ «الهلال» و«اللطائف المصوَّرة»، وديوان الرَّافعي في ثلاثة أجزاء، ومجموعة كتبٍ لـ المنفلوطي والكواكبي والمتنبي والحلَّاج وأبي نواس والمعرِّي، ونسخة من الـ «كاماسوترا» بالسَّنسكريتية، وستة مُجلَّدات لسيرة عنترة اشتراها بالقِسط من مكتبة السُّوق، ورزمة أوراقٍ تبشيريَّةٍ من منشورات الإرسالية الأمريكية، وكتيِّب للفقيه عبدالعزيز الرشيد خُط على غلافه: تحذير المسلمين من اتباع غَير سبيل المؤمنين، وكُرَّاس جلديِّ الغلاف بُنِّي كثير الأوراق يملأه سعدون بهواجسه وخيالاته. كُرَّاسٌ ما انفكَّ صاحِب الحَوْطَةِ يمدُّه إلى خليلتِه بعدما يقرأ لها ما تيسَّر من هُمومٍ دوَّنها في ساعاتِ انتشاء، يوصيها أن تحتفظ به تحسُّبًا لساعة موتِه، كما لو أن في الكُرَّاس ما يستحق الحفظ من قصص أو كلمات أو أشعارٍ مكسورة الوزن يحاكي بها شِعرَ الأوَّلين. فتنتفض الأُميَّةُ الفاتنةُ وتُعيد الكُرَّاس إلى تجويف الجدار: عسى يومي قبل يومك.. أنا لا أقرأ، وهذا الكُرَّاس سوف يبقى هُنا لتقرأ لي منه كُلَّما أزورك.

أمام سعدون على الأرضِ موقد حطبٍ لم تمسسه نار، وسَحَّارة زجاجات فارغة. عن يمينه عودٌ مقلوبٌ على أوتارِه، وعن يساره، في الرُّكن الآخر، حصيرة صلاةٍ مطوية لا تفارق مسكنه. سجَّادة من الحصير المجدول جاءت بها أُمُّه من مكَّة حين رافقت أباه في حجَّتِه الثَّانية، حصيرة تذكره بالله راجية من الله أن يهديه.

يبدو سعدون نحيلًا هزيلًا وسعت عليه دِشْداشَتُهُ وتهلهلت ياقتها. حاسرَ الرأسِ، قصير الشَّعرِ غزيره إلا خطًّا بطول إصبع فوق أُذنه اليُسرى، يُظهر جِلدة رأسِه؛ أثر كَيٍّ قديمٍ لا تُخطئه عين. كان مُنكبًّا يتصفَّح المجلَّد السَّابع من سيرة عنترة الذي ابتاعه بالأمس من مكتبة بِن رُوَيِّح. يُمسِّد بسبَّابتِه شاربه الأسود المشذَّب الدَّقيق. ويُمرِّر عينيه الواسعتين على السُّطور. وانتبه إلى أشهب وإلينور على عتبة الباب، فاعتكرَ وجهه وأطلقَ تنهيدةً يُطلقها كلَّما امتعض، لها نغمة عواء:

«أُووهُوووهْ.. ليس هذا وقتك يا خَليفُوُهْ!».

ثُمَّ جاءته صيحة أبو القْطاوَة على طريقة نواطير اللَّيل:

«صاحي؟!».

أطبقَ سعدون المُجلَّد السَّابع مُنتفِضًا:

«أُصصصـــ...!».

أردفَ هامسًا بأبغض كلمةٍ في جعبة مُفرداته:

«صاحي صاحي».

أطلَّ خليفُوُهْ برأسِه من وراء الباب يلهث. وضعَ زكيبة الصُّوف على الأرض في مدخل المجلس، وأسند السجَّادة المطوية إلى الجدار، فجلسَ على العتبة يتنشَّق عطرًا خلَّفته بهيجة يقاوم رائحة زيت السِّراج المنطفئ. هسَّ سعدون بين أسنانِه وهو يُشير ناحية مخدع نومِه:

«بالكادِ نام الولد بعد عذاب ليلتين! قضى الليلَ بطولِه يهذي ويلعن حليبَ أُم سرور».

* * *

ما أغمضت لِـ سليمان عينٌ في مخدع سعدون. وظلَّ يُسائل سقف الحُجرة الضَّيقة مُنذ اِنحاشَ من دارِه عصر أمس الأوَّل، ضِيقًا بحُكم الصاجَّة المشفوع بحُجج الشَّرع، وهربًا من كلام النَّاس أخشى ما يخشاه ولد شايعة. أصابته لوثة حُمَّى طرحته على فراش سعدون، وأمضى الليل يهذي مُتلَف الرُّوح سَهير العين. يرتعدُ جسده من الحُمَّى وينضحُ العَرَق غزيرًا، ويهجس كأنما لعنته حَوْطةُ سعدون بالأسئلة:

«يا الله، ما دخل الحليب بالدَّم؟».

يتقلَّب في مرقدِه مثل سَفُّودٍ على جمر، ويتناوبه البردُ والحرُّ يُهرئان عظامه ويُضعضعان روحه. تُهدهده الأحلام وتنهشه الكوابيس، يتملَّكه الشَّكُّ وما يُشبه اليقين. ويتذكَّر صوتَ ما قيل إنه صوتُ الخبيث وما كان إلا صوت فضَّة يُنادي في خياله: اِلحق عليَّ يا سليمان. وينوحُ سليمان كما ناحَ على حافَّة السَّنبوك قبل أيامٍ أربعة، يتولَّه بزوجته ولهًا عظيمًا ويئن: فضَّة. ولا يقدر على اللحاق بفضَّة. والنَّاس تشحذ ألسِنتها والعيون مصوَّبةٌ إليه تتحرَّى منه فعلًا يُحكى في لَواوين النِّساء ودواوين الرِّجال.

يا رب. فضَّة يا رب. وولدك ولدها وهي لم تكن زوجتك يا ابن سهيل. *ألا سبيل لهروب الواحد من نفسِه؟* ومِن ولدك ومِن أهلك ومن الدِّيرة. *ها؟* ما الذي يُبقيك هُنا؟ *لو كنتُ قادرًا على فراق بحرها.* اِبقَ إلى جوار بحرها وغادرها. *لكن كيف؟!* من يدري! *أريد أن أفهم. أريد أن أفهم عساني إن فهمتُ أُشفى، وعساني إن شفيتُ أنسى.* لن تفهم ولن تشفى، ولن تنسى إلا نفسك وتتذكر ولدك يا لبؤسِكما. *فلماذا جئتُ بك يا ولدي ولن تجمع بين أمك وأبيك دار؟* مسكينٌ يا ابن سهيل ما أردتَ من الدُّنيا إلا نصفَ زينتها. *ولدًا أشيله صغيرًا فيشيلني إذا ما كبرت..* أما المالُ فما أنتَ بوارث. *ولا أريد من كثيره إلا ما أسدِّد به ديني ودين أبي للنُّوخِذا بِن حامد.*

لماذا سلَّمتَ؟ *ولِمَ ضعفتُ؟* أتُناديك فضَّة فلا تُجيب؟ *كُفَّ عن هذا!* وكيف بهذه السرعة قبلت؟ *أنا ما قبلتُ لكن..* الحرام؟ *ما الحرام؟* أم أن كلام الناس أرهبك؟ *خشيتُ أن يُحيل حياتي جحيمًا إن رفضتُ القبول بزعم الحريم وتمسَّكتُ بـ فضَّة.* فتُغرِّد الألسنةُ بسيرتك. *تنبح أو تنهق.* ما لك ولهذه الدِّيرة النَّمامة؟ *لا أدري.* كأنما لم تُخلق ألسنةُ النَّاسِ في هذه المدينة إلا للنَّميمة والخوض في أمور الآخرين. *يكاد ابن آدم فيها أن يُصدِّق ما يُقال عنه.* فتعيش موصومًا بالكفر والعار طوال حياتك. *الحياة؟* الحياة. *ما الحياة؟* ما الذي تريده الآن يا سليمان يا ابن سهيل من الحياة؟ *أنا لا أريد من الحياة إلا أن أعبرها بسلام، بأقل شيءٍ من الآلام.* ماذا بعد؟ *أنا لا أريد شيئًا إلا أن أكون بعيدًا لو أني أقوى على فراق السِّيف..* وماذا بعد؟ *أنا لا أريد رؤية أحد رأيته.* وماذا بعد؟ *لا أريد رؤية أحدٍ رآني.* لا أحد؟ *لا أحد إلا ملاعين الحَوْطة.* وأهلك؟ *ليس لي منهم إلا أُمٌّ وولدٌ وامرأة ليست بزوجة ولا طليقة.* تحرم عليك كالشقيقة. *ساكنة الحشا فضَّة.* والمُراد؟ *حتى أهلي لا أريد رؤيتهم.* لكن الولد؟ كيف تكون حياته؟ ماذا يقول غدًا وماذا يقولون له إذا سأل عن أبيه؟ أبوك جبان.. لم يكن الرجل الكفء!

بكى الذي لم يكن كُفوًا لأب.

***

خَليفُوُهْ ما زال يلتقط أنفاسه جالسًا على عتبة حُجرة الجلوس. التفتَ إلى مخدع سعدون موصد الباب إلى جواره حينما تناهى إليه بكاء سليمان مكتومًا في الدَّاخل. فأخفض صوته يُخبر سعدونًا بأن العَم سَنَد بن هولين يفتِّشُ عن سليمان في المساجد، وأن الشَّمس لن تغيب قبل أن يدهم الحَوْطة كمكان أخير محتمل للجوء سليمان.

عاودَ سعدون فتحَ المجلَّد يتصفَّحه دونما اهتمام:

«شيخكم البدوي المهجَّن هذا لن يجرؤ على الدُّخول، فهو مع الحَوْطة مثل الجّني والعُطبة لا يلتقيان.. ثُمَّ إن سليمان أقسم له ألا يطأ عتبة الحَوْطة أبدا.. اِتركه عنك، لا أظنه يجيء».

تدارك سعدون، والتفتَ بوجهٍ عابس صوب عتبة الباب حيث يجلس خَليفُوُهْ:

«ثُمَّ إننا اتفقنا على تسمية المكان المَنْسَى.. المَنْسَى يا حمار ولا تنسَ!».

كفاني ذِكرُ أهل الدِّيرة للحوطة مقرونةً باسمي، حوطة سعدون.. حوطة ابن أبي السّواعد.. ولد الحاج عبدالله بن صالح. وكفى بن صالح عارًا يُطارده حتى بعد إعلان براءته مني! لعنة الله على الناس يعيبون الحُوَط وجلَّاسها.. فليعيبوا من نكتري منه البناء لو كانوا رجالًا.

أشار سعدون صوبَ زكيبة جَزَزِ الصُّوف عند العتبة والسجَّادة الفارسية المطوية أسفل الجدار. سأل خَليفُوُهْ:

«أُمي؟».

أجابه خَليفُوُهْ بابتسامةٍ وعينين تطفحانِ حُزنًا وهو على عتبة الحُجرة لا يزال:

«زارتني قبل سويعة تسأل عن أحوالك وتُسلِّم عليك.. أعطتني هذا الصُّوف كالعادة بحسب طلبك، وقليل روبيَّات وهذه السجَّادة الفارسية كي تبيعها إذا ما شحَّت دنياك».

قذف إلى سعدون الرُّوبيَّات الثَّلاث واحدة بعد أخرى، وتلقفها سعدون. فاستطردَ أبو القْطاوَة:

«تقول أُمُّك إن بيع الصُّوف لا يفي باحتياجاتك.. بودِّها أن تساعد لو أنها تقدر».

لم يُحر صاحبُ الحَوْطة جوابًا. ونهضَ خَليفُوُهْ من العتبة وتقدَّم للدُّخول، فأوقفه سعدون بإشارةٍ من سبَّابتِه إلى قدَميه الحافيتين المغبرتين.

«قَدَماك الوسختان، يا وسخ!».

برطمَ خَليفُوُهْ وهو يضربُ قدَميه بعتبةِ الباب، انصياعًا لأمر سعدون المبالغ دومًا بنظافته ونظافة المكان من الغبار، كما لو أن ليس تحت الحصير ترابًا. أقبل أبو القْطاوَة نظيف الخُطى بعدما أزالَ غُبار السِّكَك من قدميه. وتربَّع أمام صاحِبِه. وأطلق ضحكة هازئة إزاء مبالغة سعدون بنظافة المكان وهو يتلفَّت يُعاين تفاصيل حُجرة

السَّهر؛ الطَّبل والدُّفوف والمراويس[1]، وسحَّارة مليئة بالزُّجاجات الفارغة، ومنفضة التَّبغ إلى جوار العود المقلوب على أوتارِه مثل دُخسٍ نافقٍ على السِّيف.

قال متهكِّمًا:

«كأني أدخلُ مسجدًا!».

أطبقَ سعدونٌ المجلَّد ثانية وحدجَ خَليفُوُهْ:

«ليس كمِثل أوساخك تجلبُ الصراصير والبريعْصية!».

سقطَ خَليفُوُهْ على قفاه يضحك مثل مجنون. فرماهُ سعدون بملقاط الجمر يُحذره من إزعاج سليمان بضحكه الماسخ. كبحَ أبو القْطاوَة ضحكاته وهو يُشير نحو صاحبيه المتمدِّدَين عند عتبة الباب، يلومُ صاحبَ الحَوْطة:

«لو أنك تُربِّي قِطًّا واحدًا في الحَوْطةِ لما تجرأ بريعْصي على دخولِها أو المرور ببابها!».

تجاوز سعدونٌ تعليق صاحبه، ونقَّلَ بصره بين القِطَّين قبل أن يسأل:

«أين القِطّ الأسود؟».

(1) مَراويس: من أدوات الإيقاع في الفنون التقليدية، والمفرد مُرواس؛ طبلٌ صغير يُمسك بالكفّ الواحدة. (محرر وزارة الإعلام).

حكى خَليفُوُهْ بمرارةٍ ما فعلته صاجَّة الجزيرة بـ ليل، فصفعَ سعدونٌ الهواء أمام وجهه كأنما يطردُ ذُبابة:

«أما تستحي تصدق الصاجّات وتؤمن بكراماتهن؟!..».

دقَّ سبابته برأسه يُردف:

«لو أنك تُشغل دماغك!».

انتفضَ خَليفُوُهْ يدافع:

«ما نفعك عقلٌ تفقده كُلَّما مرَّ من أمامك بريغْصي».

«حمار، لكن كلامك صحيح».

* * *

ما خافَ سعدون في حياته شيئًا مثلَ خوفِه من البريغْصي. ولا يبغضُ الأتربة والأوساخ وكُلَّ ما يلُمُّ الغبارَ إلا لأنها تجذبُ ذاك الزَّاحف الصَّغير، وتُغريه للإقامة في المكان المغبر العابق برائحة التُّراب. تراوحُ كوابيسه بين وجه أبيه صامتًا غاضبًا، وبين الزَّاحِفِ ذي الوجه الأبله الباسمِ والجلد التُّرابي المرقَّط والعينين الدائريتين السَّوداوين بلا جفنين، يلعقهما الوسخ بلسانه الطويل ويُرطبهما في ساعات راحته. ما خاف سعدون وما كره شيئًا في حياته مثل هذا قط.

كان مخمورًا ساعةَ أفصحَ لروَّاد الحَوْطةِ من الرِّجال والنِّساء عن سِرِّه، بعد نوبةٍ تُشبه الصَّرع ألَمَّت به وأطارت السَّكرةَ من رؤوسِهِم.

وراحَ يُبرِّر ذُعره وصُراخه ساعةَ رأى البريعْصي خاطفًا يتسلَّقُ الجدار ذاتَ ليلةِ أُنس. صكَّ فخذيه بشدَّةٍ وأسقط وجهه في حِجر خَليفُوُهْ وأغمض عينيه. فأوقف النُّدماء عزفهم وغناءهم، ينظرون إليه مُرتعبًا مُرتجفًا إزاءَ الضَّيف غير المرغوب فيه يزحفُ صعودًا على الجدار. لم يهدأ سعدون يزعقُ مثل امرأة تضعُ وليدها الأوَّل. ولم يكف الصُّراخ حتى بعدما صوَّبَ عاموس بِن شاؤول نعلَهُ إلى البريعْصي وأرداهُ نافقًا. ظلَّ سعدون يُشير إلى ذيله المقطوع الذي ما زال يتلوَّى مثلَ دودةِ أرضٍ يلسعُها الهواء. فقدَ وقاره وهو الوقور حتى في أشدِّ ساعات سُكره. لم يكفَّ صُراخه إلا بعدما نهضَ الفتى الأسود ساطور العَرد وسحقَ الذَّيل بقدمِه الحافية الكبيرة.

«كنتُ صبيًّا، أهمُّ بزعبِ الماء من البئر في بيتنا ذات عصر..».

بحلقَ سعدون إلى الأرض وهو يُبرِّر ذُعره لروَّاد حَوْطَتِه. يَروي بلسانه وعينيه ويديه، بأسلوبه المحبَّب لسامعي عجائب قصصه:

«..وكان الخبيث لحيًا شحيمًا بحجمِ إبهام رَجل.. يربضُ تحتَ حبلِ الدَّلو المغبرِّ المكوَّم على الأرض. تحرَّك بسرعةٍ خاطفةٍ ودبَّ يصعدُ ساقي. صككتُ عليه فخِذَي وحكرته بينهما تحت الإزار، هُنا بالضَّبط بينهما، انتفض بين فخِذَي ففزعت وطار العقلُ من رأسي. أفلتُّه وتحرَّرتُ من إزاري وصرتُ أقفزُ في حوش البيت عاريًا في نصفي الأسفل، ولكني لم أجد له أثرًا على ساقيَّ ولا جسدي، ولا تحت إزاري بين قَدَمي، وما وجدتُ على الأرض التي دارت تحتي إلا ذيله الوَسِخ يتلوَّى هكذا.. هكذا..».

بسطَ كفَّهُ، وراحَ يُرقِّص إصبعه الوسطى سريعًا على ضحك رُوَّاد المَنْسَى:

«..هكذا، أي والله هكذا..».

ثُمَّ أطرقَ واجمًا للحظات. فاستطرد بعد سكوت الضَّحك:

«..كان أبي وإخوتي الثَّمانية في رحلتهم الأولى إلى الحج، فصاحت أمي بالخادم وأرسلته إلى صاجَّة المرقاب لعنة الله على صاجَّة المرقاب. وأنا ما زلت في حوش البيت أقفز وأُرافس وأصيح. ولما تعبت وما سقطَ البريعْصي عن جسدي طحتُ مغشيًا عليّ».

صمتَ سعدون لامع العينين أحمرهُما يُبحلِق إلى الأرض ولا يُبصرها. يرى في خياله ما يراه في لحظات الصَّرَع. ***لماذا يا وجه***

الغضب لمُ يُثمر زرعي؟ وانبرى رُوَّاد الحَوْطة النَّشاوى يدفعونه لإتمام حديثِه.

«..فتحتُ عينَيَّ قبيل المغرب على وجه الصاجَّة أُم حَدَب، لعنة الله عليها وعلى من والاها..».

التفت يرمقُ خَليفُوُهْ الذي برطمَ وأسبل جفنيه مستاءً. واستطرد سعدون:

«..وضعَت أخت إبليس إناءها النُّحاسي فوق رأسي، وسكبت فيه الماءَ فصبَّت فيه الرَّصاص المذاب بالجمر، ليُفرقع فتطرُدُ فرقعاتُه الجنيةَ التي تلبَّستني.. فرْقعَ الله رأسها عجوز السوء من أين تجيء بهذه الخرابيط؟! ثُمَّ جاءت تحمل سِكّينة بيمينها.. وبسملت قبل أن تكويني هُنا..».

تحسَّس أثر الكَيِّ فوق أُذنه اليُسرى فأردف:

«..سِكِّين حمراء كأنما خرجت فورًا من فُرن الحدَّاد. صرختُ مختنقًا برائحة شَيِّ جلدي ودخان شعري المحروق. كنتُ مُقيَّدًا بحبالٍ ويداي وراء ظهري هكذا. وراحت الحَدباء ترفع دِشْداشَتي كاشفة عن بطني. نفخت في سُرَّتي تُزيل خوفي وما زال خوفي، وأشفقتُ على سُرَّتي وكرهتها لما طالها ما طالها من نثار لُعاب عجوز النار. ودَهنَت جسدي بزيتٍ مباركٍ بآية الكُرسي المنقوشة في الآنية النُّحاسية. آنية أخرى غير آنية الماء والرَّصاص الذي فرقعَ فوق رأسي. وسقتني أُم الثُّؤلول نقيع أعشابٍ له رائحة بعر الغنم

الرَّطِب، إي والله، ثُمَّ أمرتني أن أحكي لها ما جرى، وحكيت لها ما أتذكر. وبعدما سمعت حكايتي مع الخبيث الوسخ، التفتت إلى والدتي المحزونة تُخبرها بأني كنت مصروعًا بسببِ جنيَّةٍ فاجرة تلبَّست بالبريعْصي، ولبدت تحت حبل البئر تنتظر مجيئي لتسكنني. وقالت العجوز لأمي لو أني هرستُ ذيلَ البريعْصي المبتور بقدمي لأبطلتُ لعنته على الفور وتجنَّبتُ العلاجَ بالكَيّ. كنتُ أؤمن بالصاجَّة إيماني بالقرآن المنزَّل قبل أن أسألها حائرًا:

«اِنسي أمرَ الذَّيل الآن يا صاجَّة فقد أكله النَّمل.. أين اختفى البريعْصي بعدما أطبقتُ عليه فخِذَي؟!».

ما نظرت إليَّ وهي تقول:

«دَخَل!».

انفجر رجالُ الحَوْطة ونساؤها بالضَّحك بعد تعاطفهم المؤقت، وانبرى بِن شاؤول يؤكد:

«ومنذ ذاك اليوم وأنت لا تؤمن بالصاجَّات».

أطرَقَ سعدون:

«ولكن البريعْصي ما زال يُخيفني».

* * *

راحَ خَليفُوُهْ يُحدِّث سعدونًا عن فوائد القِطَط للخلاص من البريعْصيَّة وهوام الأرض وفئرانها، على حين أعاد صاحبُ الحَوْطة تقليب صفحات مُجلَّد عنترة السَّابع بين يديه غير مُبالٍ. فأشار خَليفُوه إلى المجلَّد بين يدي سعدون:

«تقرأ كتاب عنتر وتخاف من البريعْصي! والله عيب!».

لم يلتفت إليه سعدون:

«أقرأ شِعره يا حمار!».

اعتدلَ خَليفُوُهْ في جلستِه، يَثني ساقًا تحتَ مؤخرتِه ويضمُّ الأُخرى إلى صدرِه. أسندَ ذقنه إلى ركبته قبلَ أن يقول:

«عنتر هذا يُذكرني بـ ساطور.. كلاهما أحبَّ حُرَّة.. إلا أن عنتر حمى قبيلته، وانتهى ساطور الرديء بخيانة ولي نعمته».

توقف سعدون عن تقليب الصَّفحات بين يديه. أزعجه وصمُ الفداوي بالخيانة. فردَّ بحُرقة:

«ليس ساطور بخوَّان من عاشَ في كنفِه، وما خان الرجل إلا حاله. ولا تقل لي إنه كان فداويًا وليس عبدًا! كلانا يدري أن ساطور من بين كل الفداوية كان مملوكًا».

قطَّبَ خَليفُوُهْ حاجبيه:

«لكنه ما شكي من القصر قط!».

عاود سعدون تقليب صفحات المجلَّد:

«ما اشتكى من القصر أدري.. لكنه اشتكى من نفسٍ لا يملكها..».

نقَّلَ خَليفُوُهُ بصرهُ بين سحَّارة الزُّجاجات الفارغة ووجه سعدون. فأضمر ضحكةً كيلا يستفز صاحب الحَوْطة الذي أردف:

«..حال العبد مرة يا ابن الحلال. أبيض كان أو أسود. خير لي أن يخلقني الله ديكًا أو قِطًّا من قِطَطِك على أن أكون عبدًا يُباع ويُشترى. يا رجل! كان ساطور هُنا قبل حَولٍ وبضعة شهور.. أنت لم تكن معنا ليلتنا تلك. أم أنك كنت؟ كان يتربَّع هُنا، في مكانك عند موقد الحطب هذا.. ذلك الوحشُ العَردُ الأسود الذي يخافه المارَّة قُدَّامَ القصر خرَّ باكيًا بعد الكأس الأولى مثل ثكلى. نسيَ أنه عبد مملوك من نسل أُناس يُباعون ويُشترون منذ جدِّ جدِّ جدِّهم. وحسِبَ أن ترقيته إلى فداوي بسبب شجاعته قد منحته حق طلب مصاهرة ابن الطاروف صاحب مربط الخيل. لكن الرَّجل ردَّه في الحال، لأن ابنته حُرَّة وساطور خادم مملوك.. فراح مثل مخبولٍ يُطارد الحرائر، في السِّكَك والسِّيف والأسواق، يبحث بينهن عن زوجةٍ تقبلُ به وتحرِّره من نفسِه. ولما فشل في الوصول إلى مُراده أقبل على المَنْسَى، كي ينسى، ولولا حكايته مع بهيجة والله ما طردتُه..».

بدا الاهتمام على وجه خَليفُوُهْ الذي اعتدلَ في جلستِه:

«الحيوان! أسقطها في مستشفى العَنكريز أسبوعين».

صعَّر سعدونٌ خدَّه ورمقَ خَليفُوُهْ:

«ما الذي يجعله حيوانًا في نظرك؟ ضربها، طلبته المزيد فكسرَ حنكها.. هي حِمارة.. أتطلب ساطور المزيد وله كفٌّ مثل حافر الثور؟!..».

بسطَ سعدونٌ كفَّه أمام وجهه يُقلِّبها وجهًا على ظهر:

«.. هذه الكفُّ لا تؤذي أحدا».

«خير ما فعلتَ يوم طردته من الحوطة».

«المَنْسَى يا جحش! أدوس رأسك لو قلت حوطة مرَّة ثانية!..».

لاذَ كلاهما بالصَّمت، وسرح سعدونٌ بهواجسه قبل أن يُفضي:

«..طردتُه فتلقَّفه معلمه القديم كريم العين، ووعده بالخلاص والجنة..».

سكتَ سعدونٌ قبل أن يُردف:

«.. وصبَّ المُلَّا في أُذنيه حلو الكلام عن الإخوان وشرعِ الإخوان الذي لا يفرق بين أبيض وأسود.. هكذا وُلِد عديم الحظ في القصر عبدًا، فتميَّز عن باقي العبيد وضمَّه الأميرُ الحاكم إلى الفداوية المقرَّبين المرافقين. وانتهى به الأمر فارسًا حُرًّا عند الإخوان كما يقولون».

جلسَ خَليفُوُهْ على أربع يُمغِّط جسده مثل قِط. ثُمَّ قرَّبَ وجهه إلى صاحب الحَوْطة يتشمَّم أنفاسه، يوجِدُ سببًا لتعكُّر مزاج صاحبه

وشتائمه المجانية. ونتَرَهُ سعدون من كتفه وأشارَ نحو سَحَّارة الزُّجاجات الفارغة:

«كُف عن أذيتي يا بهيمة! انظر إليها فارغة منذ يومين. طرقتُ بيبان بِن شاؤول وبنحاس وحزقيل ومحلب يوم أمس، قالوا لا بيع ولا شراء في عيدهم الكبير. هات لي زجاجة بالله عليك وأعدك أن أُسمعك المزيد من الحكايات.. يقولون إن لـ ساطور أخًا غير شقيق لا يزال يعمل في القصر».

ما أظهر خَليفُوُهْ أيَّ اهتمامٍ وهو الذي يعرفهما، أولاد بخيتة؛ ساطور وعطا الله، وزاملهما في الدَّرس لدى كريم العين، وعانى منهما ما عانى من سخرية قبل سنوات لولا دفاع منصور الغيص عنه:

«أدري.. وهل صارَ فداويًّا مثل ساطور؟».

«عبد مثل ساطور يوم وُلد. والعجيب أنه مثل أخيه يصدق كل ما يقوله كريم العين.. يقول سركيس إن عاملة في بيت الزجاج تعشق أخا ساطور وتلتقيه في السِّر».

فأطرق سعدونٌ يُتابع تصفُّح المجلَّد. وتوقف عند صفحةٍ غابَ في قراءتها. فأطال خَليفُوُهْ النَّظر إلى أَثَرِ الكَيّ في رأس سعدون. لطالما أزعجه لون الجلد الأملس في رأسِ صاحِبِه، مثل بقعةٍ جرباء على ظهر قطٍ هزيل.

«سعدون!».

نبَّهَ صاحِبُ القططِ صاحبَ الحَوْطةِ من شرودِه في كتابه:

«ألا أُخلِّصك من أثرِ الكَيِّ في رأسك؟».

رفعَ سعدون رأسه عن الكتاب ينظرُ إلى صاحِبِه مُخَزِّرًا عينيه:

«ما شكوتُ منه قط».

ثُمَّ أكمل القراءة. ودسَّ خَليفُوُهْ كفَّه في مخبَى دِشْداشَتِه يبحلقُ إلى أَثَر الكَيّ في رأس صاحِبِه الغائب في قراءته. أخرج من مخباهُ المكحلة النحاسيَّة، وحَبا صوبَ سعدون يتسحَّب على أربع. وهجمَ عليه مادًّا كفَّه بالمرود المخضَّب بالكُحل. فألقى سعدونٌ الكتاب من يديه سريعًا، وأطبقَ قبضته على معصمِ صاحِبِه عاليًا يهزُّ ذراعه:

«هل جُننت؟!».

حملقَ سعدون إلى عينيّ خَليفُوُهْ وقد توهَّجتا مثل عينيّ قطٍّ في ليلة مكتملة البدر. يرتفع صدره ويهبط بأنفاسٍ تُشبه الخرخرة وهو يدفن رأسه بين كتفيه. وقرَت نظرة خَليفُوُهْ في نفسِ صاحِبِ المَنْسَى مثل تعويذةٍ حلَّت عقدة خوف. هدأت أنفاسُهما وهُما ينظران كلٌّ إلى عيني الآخر. فأفلتَ سعدون قبضته عن معصم صاحِبِه. طأطأ وأمالَ رأسه يمينًا يُبرز الكَيَّ فوق أُذنه اليُسرى. وراح أبو القْطاوَة يُسوِّد الجلدة الخالية من الشَّعر بالكُحل. يرقعُ على مهل ذاك الفراغ الذي يؤذيه مرآه.

فرغَ خَليفُوُهْ من إخفاء أثر الكَيّ في رأس سعدون المنصاع له

كالمغيَّب. لوَّنه بالكُحل وسرَّته نتيجة فعله. فرمى المكحلة في حِجر سعدون:

«لك».

ضحكَ صاحبُ الحَوْطة وأخفى المكحلة وراء تكية السَّدو التي يستند إليها:

«مشكور».

فصمتَ يُضمر في داخله سؤالًا. ***لماذا تشيلُ معك مكحلة؟*** واجترَّ من ذاكرته أقاويل طالت الشَّاب الأملط ما انفكَّت تصوِّره مُتربِّعًا أمام المرآة ليلًا، يزيِّن وجهه ويلبس مثل الحريم. آثر سعدون الصَّمت على لفظ السُّؤال، فسأل صاحبَ القِطَط عن سِرِّ ابتسامته الواسعة.

«محوتُ كَيَّ الصاجَّة من رأسك».

أجابه خَليفُوُهْ مُنتشيًا باسِمًا زائغ العينين أحمرهما. فردَّ سعدون فورًا:

«ومن يمحوها من قلبي؟».

ابتسمَ خَليفُوُهْ مُشفِقًا لحال صاحبه:

«يمحوها الله إذا ما تُبتَ عن الآثام».

سدَّدَ سعدون بصره إلى عينيّ أبي القْطاوَة:

«أنت أيضًا؟! وعلامَ أُؤثَم وأنا لا أُؤذي أحدا؟!».

«أنت تؤذي نفسك».

ضغطَ سعدونٌ رأسه بسبَّابته:

«كيفي!».

«لكن حرام يا أخي! والله لا يجوز هذا الذي تفعله في نفسك!».

حملقَ إليه سعدون كأنما يُقدِّر ثمن سلعة:

«حرام؟! وكأنك مقطِّعٌ حصيرَ المسجد بسجودك يا مُلا خليفة!».

لم يُحر خَليفُوُهْ جوابًا، فتلفَّتَ سعدون زافرًا ضائقًا بحاله:

«..هذا ليس مكاني».

«أكيد.. لأن سرتك مدفونة هناك.. عند الهنديات والزنجباريات قطيعة تقطعك لا تعرف حياء ولا حراما».

«..بالله عليكم اتركوني في حالي.. حرام حرام حرام.. من رأى سعدونًا يرتكب الحرام؟! ها؟ يا أخي كل الحرام الذي يقولون عنه لا يتجاوز جدران المَنْسَى.. من فيهم رآني ليقول فيَّ ما يقول؟!».

«الله يراك سعدون..».

«عدْل كلامك.. اتركوا أمري لله وأكرموني بسكوتكم، واشغلوا أنفسكم بأنفسكم.. ثم ألم تكن تشرب المنكر معنا هنا!».

«هي مرة واحدة لا أعادها الله!..».

ارتبك خَليفُوُهْ وما ردَّ بمزيد، يتناسى ذكرَ ليلةٍ وحيدةٍ وَسوَس له فيها سعدون، فقارفَ المنكر. ليلة شرب فيها صاحبُ القْطاوَةِ

حليبَ السِّباع على ما يُسمي سعدون العَرَق. وانتشى وخربط بالكلام وشرع بالنَّميمة، وتكلَّم عن فردوس، وعن أخبار فردوس التي تمرَّدت على حمدية القوَّادة، واقتلعت أُذن أحد الداعرين بأسنانها، وقامت بحلق شعرها الأسود الطويل اعتراضًا وضيقًا بالرِّجال المتزاحمين على عُشَّتها. وها هي اليوم قرعاء تضعُ طفلًا مجهول الأب. قال إن حمدية سوف ترميه في السِّكَّة. وراح يشتمُ روَّاد الحَوْطَةِ ويقول إن واحدًا فيهم لا بد أن يكون أباه. كانت ليلة بكى فيها واشتكى، وتهدَّد أحدَ المَلالْوَةِ من دون أن يُسميه، ودعا الله أن يجمعه وإياه في سِكَّةٍ ظلماء. وما فهِمَ روَّاد الحَوْطة من حديثه كلمة إلا: حمدًا لله أن البُلبُل لا ينطق!

طُرِقَ بابُ الحَوْطةِ الخارجي مثل نجدةٍ جنَّبَت أبا القْطاوَة حديثًا يمقته.

«..أيكون بِن هولين؟!».

تساءَلَ خَليفُوُهْ فَزِعًا قبلَ أن يحثَّ خطوَهُ إلى الطَّارق، يُمنِّي النَّفس ألا يكون شيخ البحَّارةِ جاء يبحث عن سليمان بعدما طاف على مساجد الدِّيرة، غير أن صفير بُلبُلٍ تناهى إلى مسمعه فاطمئنَّ قلبه. ولاح لـ خَليفُوُهْ البُلبُل البَصْراوي على سور الحَوْطَةِ أعلى الباب، وابتسم للشَّاهد الأخرس الوحيد، الشَّاهد القديم الذي حطَّ على جدار مغسل المسجد في ظهيرة بعيدة. ***تذكرتك قبل قليل! غرِّد واملأ الدنيا صفيرًا.. حمدًا لله أنك لا تنطق!*** انصرف خَليفُوُهْ

عن البُلبُل وهو يمضي إلى الباب مستغربًا تأخر صاحبه الذي يجيء عادة وقت الشُّروق:

«تأخرت اليوم يا عاموس!».

صاحَ خَليفُوُهْ قبل أن يُدرك باب الحَوْطةِ الخشبي. ففتح البابَ وأبصر صاحب البُلبُل يحملُ سحَّارةً خشبيَّةً تصطفُّ فيها سِتُّ زُجاجاتِ عَرَق ممتلئة. وطئ عتبة الحَوْطة يهمُّ بالدُّخول لولا أوقفه خَليفُوُهْ مادًّا ذراعه يسُدُّ الدَّرب:

«هُوب هُوب! سعدون ليس في مزاجٍ طيِّب».

مدَّ بِن شاؤول يديه بالسَحَّارة إلى خَليفُوُهْ:

«خذ هذه وهات الزجاجات القديمة من الداخل».

تأفَّفَ خَليفُوُهْ وكرَّر:

«قلت لك سعدون ليس في مزاجٍ طيِّب!».

سأله بِن شاؤول:

«ألَن تسهَغُوا الليلة؟..».

هزَّ خَليفُوُهْ رأسه نافيًا، وحطَّ البُلبُل على رأس بِن شاؤول الذي بَرطم:

«..مادامَ الأمغُ هكذا فلا خَمْغَ بالمجَّان!..».

أقفلَ بِن شاؤول حاملًا سحَّارَتهُ الخشبية بما تحمله من زجاجات:

«..سلِّم على سعدون!».

مضى عاموس في السِّكَّةِ يُغنِّي على رأسِه الطَّير، ووقفَ أبو القْطاوَة على عتبة الحَوْطة يستغرب ما يُبصر. *سبحان الله*. وهو يُنعم النَّظر إلى قَفا بن شاؤول الذي حاذى المقبرة القديمة يمضي مبتعدًا، والعصفور على رأسه مُستديرًا ينظرُ إلى الحَوْطة ويُفلتُ تغاريد في الهواء. *لو تسمعون ما تقوله طيور اللَّوهة عن العباءة!* ويُطيل نظرةً إلى أبي القْطاوة على عتبة المَنْسَى. *سوف ترى فعل العباءة.. سوف ترى ما يفعلون*. والأملطُ يُنصت إلى التَّغريد ساهمًا، والبُلبُل يواصل. *لو تدري ماذا أقول!* وترفرفُ روحُ خَليفُوُهْ للتَّغريد وتنتشي. *لو أدري ماذا تقول!* ويُطلق البُلبُل تغريدةً أخرى. *ولو تدري يا خَليفُوُهْ كم تعيش!* ويتساءل خليفُوُهْ كيف يُغرِّد البُلبُل على رأس عاموس وهو يمشي؟ بل كيف لبُلبُلٍ يعيش كُلَّ هذا العمر ولا يشيخ أبدًا؟!

لأنه الشَّاهد الوحيد..

وينعطف بِن شاؤول وراء سور المقبرة والبُلبُل على رأسِه يُفلت آخر تغاريده.

لأنك الشَّاهد الوحيد.

انتهى سِفرُ العباءة

يعقبه سِفرُ التبَّة

مُلحق ٢

حكاية العباءة كما وردت في فصل «أهوال البحر» من كتاب «تاريخ الكويت»:

(أهوال البحر)

يحكي الغواصون أمورا غريبة مهيلة عما يشاهدونه في قاع البحر. فمن كهوف عظيمة إلى أودية غزيرة، ومن غابات مظلمة إلى قيعان موحشة، ومن جبال عالية إلى كثبان مرتفعة، حتى لقد ترسو السفينة فوق رأس جبل بحري وقعر البحر قريب منها، فإذا ما مالت يمنة أو يسرة بعد عنها قاع البحر. وهناك من الأهوال أشياء يتناقلونها هي حديث خرافة، غير أن بعضهم يعتقد حقيقتها، ذلك زعمهم مشاهدة رجال ونساء من الجان بين صخور البحر وكهوفه. وقد روى لنا أحد البحارة المشهود لهم بالصدق حكاية لبثت طي الكتمان زمنا وقعت له بنفسه في ذلك، وهو سند بن هولين الملقب بشيخ البحارة، فقال:

كنت مع أصحابي يوما في مغاص[1] اللؤلؤ بعد فقدان أحد الغاصة[2] الأشداء، فنزل أحدهم من سفينة التاجر بن حامد، وهو عبدالعزيز بن حسن بن عبدالله الهذار الفيلكي إلى البحر ولم تكد تطأ رجله الأرض حتى صعد إلينا مرعوبا وأخبرنا بأنه شاهد امرأة من الجان جالسة وعليها عباءة سوداء وأتى لزيادة التأكيد بشيء من أوصاف العباءة، فرأى أحد إخوانه أن ينزل ليتحقق الخبر، فجرى له مثل ما جرى لصاحبه، ثم نزل الثالث والرابع وهكذا حتى تكامل جميع من كان في السفينة وكلهم اتفقوا على صدق ما قاله الأول، فقال محدثنا سند بن هولين: فلما رأيت الكل أضربوا عن العمل في البحث عن الغيص الفقيد لتلك الحادثة التي أخبرنا بها الهذار؛ رأيت أن أكشف الحقيقة بنفسي، ولكنني عندما نزلت وجدت الأمر كما قالوا، فدهشت وأصابني من الرعب ما كاد يضطرني إلى الخروج، غير أن نفسي أبت علي أن يتحدث الناس عني بأني جبنت وأنا شيخ البحارة ومعلمهم، فصممت على حل المبهم ولو كان فيه القضاء علي، فأقدمت عليها، ولويت بيدي على عنقها

---

(1) مغاص: موضع الغوص على اللؤلؤ حيث يتكاثر المحّار. (محرر وزارة الإعلام).

(2) الغاصَة: من المهن القديمة في مراكب الغوص: غاصَة أو غواويص: غوَّاصون، ومفردها غَيص: غوَّاص. (محرر وزارة الإعلام).

وأنا مغمض العينين، فما شعرت إلا والدم يجري من يدي فعلمت حينئذ أني أصبت صخرة تلبست بعباءة[1].

عبدالعزيز بن أحمد الرشيد
كتاب تاريخ الكويت، ص ٥٨
المطبعة العصرية، بغداد
١٩٢٦

(1) تحريا للأمانة التاريخية وللإشارة إلى أن النص منسوب إلى كتاب «تاريخ الكويت»، للفقيه والأديب والمؤرخ عبدالعزيز الرشيد. وقد تحققنا من طبعته الثانية الصادرة عن منشورات دار مكتبة الحياة في بيروت عام 1959، صفحة 78، وقد وردت حكاية العباءة، لكن لم تُذكر في طبعة مكتبة الحياة الأسماء الواردة في هذه التوطئة المنسوبة للطبعة الأولى، طبعة المكتبة العصرية في بغداد 1926، وهي طبعة مفقودة مضى على صدورها ما يزيد على الستة عقود، ولم يتسن لنا التحقق منها. (محرر وزارة الإعلام).

صادق عبدالرزاق بوحَذَب

روائي كويتي. من إصداراته:

- «ناقشة الحِنَّاء»، مجموعة قصصية 1950 [1].
- «القُفَّال»، رواية 1952.
- «سِفر الخلود»: رموز مدينة الطين، طبعة خاصة ومحدودة 1954.
- «ربَّة الذكرى»، ديوان شعر 1955.
- «النُّوخِذا الأخير»، رواية 1956.
- «المسكوت عنه في الأمثال الشعبية الكويتية»، دراسات 1958.
- «على أطلال السُّور»، مجموعة قصصية 1959.
- «كائنات مدينة الطين»، أساطير شعبية، دراسات 1961.
- «في المباركية كانت لنا أيام 1927-1933»، ذكريات بواكير التعليم 1962.
- «لغة الصُّخور: افتعال البلاغة في الأدب»، دراسات 1964.
- «أهزوجة الشِّراع الحزين»، رواية 1967.
- «الصقر والفهد»، تأملات مع الشاعرين صقر الشبيب وفهد العسكر 1968.
- «بعد جفاف الزَّيت الأسود»، مسرحية 1969.
- «حُرَّاس الغبار: محاربو الخيال»، مقالات 1971.
- «الصامتة»، رواية 1975.
- «في القاهرة كانت لنا أيام 1939-1948»، ذكريات البعثة الجامعية 1976.
- «على أطلال المقام»، مسرحية 1978.
- «شرق، قِبلة، المرقاب»، ثلاثية الديرة 1982.
- «وارث لغة البحر»، ديوان شعر 1983.
- «ناخَ الجمل»، مجموعة قصصية 1983.
- «عناقيد اللؤلؤ»، ديوان شعر 1986.

---

(1) نُشرت القصة منفردة في مجلة بيت طلبة الكويت في القاهرة؛ «البعثة» عام 1946 قبل نشرها في مجموعة قصصية حملت الاسم نفسه في العام 1950.

لو أن غريبًا أطلَّ من سطوح البيوت الطينية بعد شروق شمس اليوم؛ لَخُيِّلَ إليه أن سربًا من غربان الدُّوري قد حَطَّ على رمال السَّاحل الرَّطبة. أعناقٌ مشرئبةٌ نحو الأفق الأزرق، وعيونٌ تتحرَّى مُقبلًا يجيء من بعيد. غير أن الدِّيرة لا تعرفُ من الغِربان إلا فُرادى بغير أسراب، تتسلَّلُ إلى سفن التجارة الراسية في موانئ الهند، وتندسُّ بين زكائب التَّوابل والحبوب والشَّاي، وتسافر مع السُّفُن في أوبتها إلى الدِّيرة، فتُلفي نفسها مُتسلِّلَةً غريبةً في بلادٍ غريبة. وتمكثُ على السَّاحل الشَّرقي شهورًا تتحرَّى إبحارَ السُّفُن الشِّراعية ثانية إلى الهند.

لا غربان في الدِّيرة. لا غربان إلا قليل.

(سِفر العباءة)، هو الجزء الأول من ثلاثية الروائي الكويتي صادق بوحدب (أسفار مدينة الطين)، يتبعه الجزء الثاني (سِفر التبة)، يليهما الجزء الأخير (سِفر العنفوز).

ويسر المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب أن يصدر هذا العمل الروائي في جزأيه الأول والثاني ضمن سلسلة «إبداعات كويتية» شهر أبريل ١٩٩٠، لحين صدور الجزء الثالث واكتمال هذه الذخيرة الإبداعية المستوحاة من الماضي في جزئها الأخير.

مطبعة الحكومة

1990

(ذخيرةُ أيام الخَرَف)..

فصلٌ هاربٌ من مُذكِّرات كاتب الأسفار؛ صادق بوحَدَب

الأربعاء، 30 مايو 1990

مكالمةُ الرَّجُل الغريب

«الرجل الذي يعرفني منذ الستينيات ولا أعرفه»

هاتفني صباح اليوم في المكتب مدير تحرير الجريدة.

كان بالغ التهذيب في مكالمةٍ مبكرة جدًا، استهلت بإبداء سعادة هيئة التحرير بعودتي للنشر في الصحافة بعد قطيعة أربع سنوات. مكالمة مفادها: الرقابة رفضت نشر المقالة.

«السبب؟».

«الرقيب لا يسبب».

نصحني أن أعيد تحرير المقالة لو كنت مصرًا على نشرها، وفي الحقيقة ما كنت مصرا. قال إنه سوف يرسل لي نسخة منها عبر الفاكس بملاحظات هيئة التحرير بعد رفض الرقيب. وأبلغني تحيات السيد رئيس تحرير الجريدة وأنهى المكالمة.

فضضت أربعة مظاريف هي بريد اليوم كله؛ مجلة «عالم المعرفة» العدد 150 وصل مبكرًا قبل بداية الشهر، وثلاث رسائل من قراء يسألون عن كيفية الحصول على الرواية بعد رفعها من رفوف المكتبات. لا مزاج لي أن أرد. فكرت بإعداد قهوة ثانية. لا مزاج لقهوة ثانية. أمسكت بالجريدة أقرأ عمود وفيَّات اليوم، ثم فتحتها من منتصفها كالعادة، فوجدت في الصفحة الثقافية اليمنى مقالة

لرئيسة قسم التاريخ في كلية الآداب، د. نسيمة الهيلاوي، تثني على مقال نشره المؤرخ ناصر بن مِحمَل هاجم فيه الأسبوع الماضي ما جاء في الصفحة (19) من سِفر العباءة، وفوق ثنائها أشادت بقرار سحب الرواية وإتلافها، كيلا يجيء جيل يتصور حياة أجداده على ما صورته الرواية التي تجاهلت رموز التنوير في ذلك العصر، وركزت على جوانب لا وجود لها في ماضي البلاد من جهلٍ وإيمانٍ بالخرافةِ وتهتكٍ أخلاقي وعبودية. وأكدت أن ليس من حق الروائي أن يتخيل أشياء غير حقيقية! وختمت د. نسيمة مقالتها مثل كل مرة بالترحم على زمن أمها وبُوشية أمها الأمية حافظة القرآن.

أصابتني نوبة عطاس لنصف دقيقة، وانصرفت إلى الصفحة اليسار فقرأت خبر إغلاق معرض خاص للفن التشكيلي أقامته الفنانة فياصل المشيعل، تضمن لوحة تكشف عن نهدٍ بين كفَّي رضيع. وقرأت تصريحًا أسفل صورة لـ نجيب محفوظ: لم تعد لدي قدرة صحية على كتابة الرواية. فقلبت الصفحة على إحدى الصَّفحات الدِّينية وقد حشدت كُتَّابها لمطالبات منع الاختلاط في جامعة الكويت، تتفق المقالات على ضرورة تشييد مبانٍ منفصلةٍ لكلا الجنسين. فأطبقت الجريدة.

لا مزاج لي أن أقرأ. لا مزاج لي أن أكتب. بداية غير موفقة لكاتب هرِم مثلي في يوم صيفي طويل. رفعت صوت جهاز الكاسيت، ووقفت أمام النافذة أتأمل زحام حافلات النقل العام الزرقاء،

ومركبات الأُجرة البرتقالية بين السيارات في بداية شارع فهد السالم. الجو مغبر والسماء مكسوة بصفرة قاتمة.

ألقيت نظرة على الأجندة المعلقة على خزانة الكتب في ظهر مكتبي، أقرأ أسفل تاريخ اليوم: تكثر الزوابع الترابية.

رنَّ الهاتف ثانية:

«الأستاذ.. آاا.. كاتب أسفار مدينة الطين؟».

وكما لو أني بلا اسم. أجبته:

«تفضل.. من يتكلم؟».

لم يرد.

«ألو..».

«ألو.. أنا قارئ.. قارئ متابع لك.. لا أريد أن آخذ من وقتك أستاذ. أريد الجزء الثاني من الرواية لأني لم أعثر عليها في المكتبات.. أعني أسفار مدينة الطين.. سِفر التبَّة».

«أهلًا بك وشكرًا لاهتمامك.. يسعدني أن أرسل لك النسخة في البريد.. اسمك وعنوانك من فضلك؟».

«أزورك في المكتب لو سمحت.. أكسب لقاءك ساعة».

ساعة؟! ركلت له موعدًا بعد أسبوع:

«السابعة والنصف صباح الأربعاء.. حياك الله... مع السلامة».

أطبقت سماعة الهاتف فندمت على تعجلي بالرد. تمنيته يعاود الاتصال لأغير الموعد إلى الثامنة والنصف. ساعة واحدة قبل الموعد لا تكفي لشرب القهوة وقراءة الجرائد والبريد. رن الهاتف ثالثة وحسبته المتصل الغريب فسارعت بالرد، لكنه فاكس مدير التحرير أعلن عن وصوله برنين سبق طباعة الورقة. وجدت بعض الخطوط والدوائر تحيط بعض الكلمات المحظورة في مقالتي. بدأ الغبار يتسلل من فتحة مكيف الهواء. شعرت بالحِكَّةِ إياها في عينيّ، وتسلحت ببخاخ الڤنتولين قبل أن يضيق صدري. اعتمرت الغترة ولففتها لثامًا، وحملت مفاتيح سيارتي أعزم على العودة إلى البيت قبل أن يزيد الطقس سوءًا، فرنَّ الهاتف رابعة وإذ بصوت الرجل الذي طلب لقائي:

«ألو.. المعذرة أستاذ.. أردت فقط أن أتأكد أن عنوانك لم يتغير منذ الستينات؟».

استغربت سؤاله، فكررت آخر قوله:

«الستينات؟».

«عمارة ثنيان الغانم، شارع فهد السالم، الدور الثالث.. صح؟».

أوشكت أن أرد عليه بـ غلط. شعرت أني لا أريد لقاء هذا الرجل الذي يعرفني منذ الستينيات ولا أعرفه.

«المعذرة.. من يتكلم؟».

«أنا القارئ الذي..».

انفلتُّ أقاطعه:

«أنت القارئ الذي هاتفني قبل قليل يسأل عن الجزء الثاني من الرواية.. أهلًا.. لكن من أنت؟ ما اسمك؟!».

لم يرد.

«ألو..».

«نعم أستاذ.. نلتقي يوم الأربعاء.. في أمان الله».

لم أستمهله ولا أدري لماذا حيَّيته مودعًا وأطبقت السماعة. شعرت فجأة أني أريد مقابلة الرجل الذي يعرفني منذ الستينيات ولا أعرفه. لكني نسيت أن أطلب منه المجيء في الثامنة والنصف بدل السابعة والنصف.

كان هذا كل شيء في هذا اليوم الذي تنفست فيه من القنتولين ما يفوق الأكسجين!

مكتبة
t.me/soramnqraa

انتهى الجزء الأول

إصدارات سعود السنعوسي

1. **«سجين المرايا»**، رواية، 2010.
2. **«ساق البامبو»**، رواية، 2012.
3. **«فئران أمي حصة»**، رواية، 2015.
4. **«حمام الدار: أحجية بن أزرق»**، رواية، 2017.
5. **«ناقةُ صالحة»**، رواية قصيرة، 2019.
6. **«أسفار مدينة الطين»**، ثلاثية روائية:
   - **«سِفرُ العباءة»** I، 2023.
   - **«سِفرُ التبَّة»** II، 2023.
   - **«سِفرُ العَنْفُوُز»** III، قيد الطباعة.

أسفار مدينة الطِّين

ممهورة بكائنات مشاعل الفيصل

لو أن غريبًا أطلَّ من سطوح البيوت الطينية بعد شروق شمس اليوم؛ لخُيِّلَ إليه أن سربًا من غربان الدُّوري قد حَطَّ على رمال السَّاحل الرَّطبة. أعناقٌ مشرئبةٌ نحو الأفق الأزرق، وعيونٌ تتحرَّى مُقبلًا يجيء من بعيد. غير أن الدِّيرة لا تعرفُ من الغِربان إلا فُرادى بغير أسراب، تتسلَّلُ إلى سفن التِّجارة الرَّاسيةِ في موانئ الهند، وتندسُّ بين زكائب التَّوابل والحبوب والشَّاي، وتسافر مع السُّفُن في أوبتها إلى الدِّيرة، فتُلفي نفسها مُتسلِّلَةً غريبةً في بلادٍ غريبة. وتمكثُ على السَّاحل الشَّرقي شهورًا تتحرَّى إبحارَ السُّفُن الشِّراعية ثانية إلى الهند.

لا غِربان في الدِّيرة. لا غِربان إلا قليل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

طباق للنشر والتوزيع
TIBAQ PUBLISHING

دار طِباق للنشر والتوزيع
رام الله - فلسطين
تلفاكس ٩٧٠٢٢٤١٤٨٠٨+
www.tibaq.ps
Tibaq publishing house
Info@tibaq.ps

نصنع كتاباً يُشرِقُ من بين دفتيه مستقبلٌ واعد.

9 789922 867502

مولاف
MOULAPH

moulaph · www.moulaph.com · MoulaphKw